الدكتور محمد فؤاد حجازى

الأسرة والتصنيع

مكتبة وهبة
١٤ - شارع الجمهورية بعابدين
ت ٩٣٧٤٧٠

الدكتور محمد فؤاد حجازي

الأسرة والتصنيع

الناشر
مكتبة وهبة
شارع الجمهورية بعابدين ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية

ذو القعدة ١٣٩٥ هـ
نوفمبر ١٩٧٥ م

مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموازدى بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٨٤١٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــــداء

الى من باذن من الله اعانتنى على بلوغ اهـداف

إلى زوجتى

مقدمة الطبعة الثانية

إن المجتمع فى جمهورية مصر العربية سريع التغير جداً نظراً للثورة السياسية والاجتماعية التى تعمل على إعادة بناء المجتمع المصرى على أساس من الحرية والعزة والكرامة ، وعلى أساس مسئوليتها تجاه العالم العربى خاصة ، وأفريقيا عامة .

ولما كان الإنتاج الزراعى لا يمكن أن يفى بحاجات الشعب المتطلع إلى السؤدد والعزة وإلى القيام بمسئولياته تجاه نفسه وتجاه الأمة العربية ، إذ أن الأرض الزراعية محدودة الرقعة، وتزيد بنسبة ضئيلة إذا قيست بنسبة زيادة السكان، كما أن قدرة الأرض الإنتاجية لها حد أقصى ، وتتناقص بعده قيمة إنتاجها إذا زاد عليها الصرف عن هذا الحد .

لذلك لم يجد المجتمع وسيلة إلا الاتجاه نحو التصنيع ، ولهذا اتجهت مصر بكل إمكانياتها إلى تحقيق هذا الهدف ووضعت كل إمكانيات الدولة فى سبيل القيام بحركة تصنيع على أوسع مدى حتى يمكن القول ، أن مصر الآن تعيش ثورة صناعية كتلك التى عاشتها أوربا فى القرن التاسع عشر ، بل وبسرعة أكبر .

والسرعة التى يتغير بها مجتمعنا ذات ديناميكية عالية ، والتغير فى المجتمعات يرجع إلى عدة عوامل ، والعامل الهام فى جمهورية مصر العربية هو قيام الثورة السياسية والاجتماعية ، فهناك أفكار جديدة تتكون ، وعادات جديدة تنشأ ، وجماعات اجتماعية جديدة تولد ، وتموت تلك الجماعات التى تشكلت وتجمعت تحت راية الاستعمار الخارجى أو الداخلى، وتجلب اختراعات كثيرة وتحدث تغيرات تكنولوجية ضخمة ، وتطورات عظيمة فى أسلوب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وخاصة بعد ٦ أكتوبر ١٩٧٣ والانفتاح الاقتصادى والفكرى .

ولكن التغيرات فى المجتمع لا تحدث بنسب متساوية فى جميع أجزائه، وليست جميع

أجزائه تتأثر بالنسب متعادلة من التغير ، (فى كل مجتمع يبدو أنه توجد مناطق يتركز فيها النشاط وأفكار الناس وهذه المناطق تنمو بصفة مستمرة تنطلق منها قوى تعمل على تغير بقية أجزاء المجتمع)[١]. أى أنه توجد عناصر نشطة وعناصر سلبية فى المجتمع، فالعناصر النشطة تبدأ بهذه التغيرات التى تتلقاها العناصر السلبية ، وليس معنى هذا أن السلبيين ليس لهم تأثير على النشطين ، ولكنه تأثير متبادل تفاعلى .

وتلك العناصر النشطة تختلف من مجتمع لمجتمع . فى بعض المجتمعات يتركز نشاط الناس وتفكيرهم حول الدين كما كان الحال فى أوربا فى العصر المسيحى حيث كانت الكنيسة تسيطر على مجتمعاتها ، وفى مثل هذه المجتمعات الأفكار الدينية والطقوس قد نمت نمواً عظيما ، ومن الدين نبعت كل القوى التى طبعت المجتمع بطابعها ، فى تلك المجتمعات ، كان الطفل يذهب إلى المدارس الدينية ويصبح بذلك تحت سيطرة رجال الدين فى كل حركاته وسكناته فهو لا يبرحها ، ففيها يتعلم وفيها يأكل وينام ويتعبد . فهو يقضى كل حياته فى الجو الدينى الذى امتد أثره حتى إلى حياة الإنسان المهنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وفى مجتمعات أخرى أخذت الحياة الاجتماعية شكلها من نشاط طبقة اجتماعية معينة مثل طبقة الحزب الشيوعى فى روسيا أو الرأسماليين فى أمريكا .

ومن أهم عناصر النشاط ، بل هو أهمها جميعاً الآن فى مصر هو حركة التصنيع، فجميع القوى البشرية الآن وعلى رأسها الدولة تركز كل اهتمامها وجهدها فى النظام الإنتاجى لمضاعفة الدخل القومى لرفع مستوى المعيشة .

وهكذا أصبح التصنيع كأداة لرفع مستوى المعيشة شيئاً مرغوباً فيه وهذه الحقيقة تعتبر أهم الحقائق فى مجتمعنا المعاصر ، وفى مقال لوليام جود W. good عن الأسرة

---

(١) **Schneider, Eugene V. : «Industrial Sociology» Mc Graw-Hill Book Company. New York 1975 P. 485.**

كعنصر فى الثورة العالمية التى يعنى بها حركة التصنيع يقول : (نحن الآن فى وسط ثورة عالمية فكل مجتمع يتحول ويتبدل بعمق . تلك حادثة فريدة ، لأنه لأول مرة فى التاريخ توجد مجموعة شائعة من القوى تغير أساسياً نوعية الحياة بين الثلاث بلايين من البشر الذين يعيشون على الكرة الأرضية ، ولسوف تستمر هذه التحولات العميقة خلال كل عصرنا ... القوى الموجهة للتحولات الرئيسية ، هى أنه لأول مرة أصبحت شعوب العالم مهمومة وفى كرب بسبب تلك الرغبة المقلقة فى تغيير وتحسين مراكزهم الاقتصادية ، وهذه الرغبة تتركز وتدور حول أن يصبحوا مصنعين)(١) .

وفى سبيل هذه الرغبة يتغير المجتمع تغيراً أساسياً . وتكون الجماعات أكثر معرفة بالهوة بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون فى أحوال حياتهم ، وهذا الوعى الذى صنعه الإنفتاح الفكرى والاقتصادى عن المستوى الفردى لحياتهم قد امتد إلى المقارنة بالمستويات العالمية المتقدمة . فشعب مصر العربية يمر بفترة تزايد الإحساس فيها بعدم الرضى عن مستوى معيشتهم وفى نفس الوقت تتزايد الآمال العريضة فيما يمكن أن يصنعه التصنيع من رفع لمستوى المعيشة .

ونتيجة لهذا فالنظام الصناعى قد تغير بسرعة فائقة بالنسبة للمناطق الأخرى من المجتمع ، وفى عملية التغير هذه ، فإن التصنيع فى نفس الوقت قد غير كل الأجزاء الأخرى من المجتمع ، ذلك أن النظم الاجتماعية متشابكة يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به ، فمثلا النمـــو الدائم الحضرى ، معظم تغيراته الاجتماعية هو جزء من عملية التصنيع. والتوسع فى التصنيع يتطلب زيادة ونمواً فى القوة العاملة والوسائل التكنولوجية والمواصلات السهلة ، وكل هذا لا يمكن توفره إلا فى بيئة حضرية ، وبالتالى فإن البيئة الحضرية الصناعية دائمـة العمل فى تغيير طبيعة النظام الأسرى والنظم العقائدية والنظام التربوى .

(١) Goode, William J. : "The family as an element in the World Revolution." In Rose, Peter (edt) : "The Study of Society" Rondom House Inc. New York 1967. P. 532.

ذلك أنه إذا اتجه المجتمع نحو التصنيع فإن معظم أعضاء الأسر يتحولون للعمل فى الصناعة ويكسبون عيشهم منها ، وتعتمد ملايين أخرى من أفراد عائلاتهم على الصناعة ، وكذلك يوجد جزء كبير آخر يعتمد على الصناعة عن طريق غـير مباشر وهم التجار والبائعون وناقلوا السلع والفلاحون الذين يقـدمون المواد الخام ، كل هؤلاء يشتركون فى الاعتماد على الصنـاعة كمورد رزق لهم . ذلك بالإضافة إلى أن المصنوعات نفسها تقوم بعمليات تغيير اجتماعية بعيدة المدى ، فهى تغير من طبيعة البيئة الاجتماعية ، بل وقد تغير من أساليب الحياة ، وتؤثر حتى على الأخلاق وطرق الزواج وطرق الترفيه .

كما تعمل حركة التصنيع على خلق طبقة جديدة هى طبقة العمال التى تؤثر فى كثير من النظم الاجتماعية ، مثل النظام السياسى الذى يتأثر بالتجمعات العمالية والنقابات . كما تؤثر حركة التصنيع فى الحراك الاجتماعى وفى عمليات الهجرة . وكذلك فى التركيز السكانى فى المدن وتغير كثيراً من المناطق الريفية إلى مناطق حضرية ، وهذه بدورها تؤثر فيما يحيط بها من ريف .

إذ أنه (إذا حلت الصناعة فى منطقة لا صناعية فإنها تحدث تغيرات اجتماعية كبيرة جداً ، فالمدن تشيد ويتحضر السكان الريفيون ، والأسر والعادات والتقاليد تنخلع من طابعها المعتاد)[(١)].

والتوسع فى التصنيع يدفع بالصناعة دائماً إلى ميادين جديدة للإنتاج ، وبدخـول الصناعة هذه الميادين فإنها تحدث تغيرات اجتماعية كثيرة ، فعمال يخرجون وعمال جدد يدخلون ، ونظم الحياة العادية وعاداتها تتغير ، فمثـلا دخول النظام الصناعى الميدان الزراعى ، يعنى تحطيم طريقة الحياة الريفية القديمة ، بل قد يؤدى إلى تغير النمط الريفى إلى نمط مدينة صناعية صغيرة مع التغيرات الاجتماعية المناسبة فى المناطق الأخرى من الحياة .

(١) Schneider : Indastrial Sociology P. 487.

كما أنه من أهم مميزات النظام الصناعي هو الاختراع المتواصل للآلات الجديدة ؛ هذا النمو المستمر يجعل الصناعة كنظام للإنتاج يتميز عن النظم الإنتاجية الأخرى . وبدون شك أن من أهم العوامل التي تدفع بهذا النمو قدماً هو ما ينبع من رغبة الدولة في التقدم والتوسع الصناعي ، ولكن أيضاً تنمو التكنولوجيا عن طريق عملية داخلية ؛ ذلك أن الاختراع الجديد يؤدي إلى اختراع آخر . إذ تميل الاختراعات المفيدة إلى التجمع ، وميل الاختراعات إلى التجمع يؤدي إلى زيادة في عناصر الثقافة الموجودة التي ربما تؤدي إلى اختراعات جديدة . والتجمع للاختراعات لا يعني فقط مقداراً أكبر من التغير الاجتماعي ، بل أيضاً تغيراً اجتماعياً أكثر سرعة[1] . فقد يؤدي اختراع ما إلى تحطيم الأسس الاقتصادية لمدينة ، فيزيح آلافاً من العمال ، وربما يؤدي نفس الاختراع إلى خلق مدينة أخرى في مكان ما ، ويخلق أيضاً عدداً من الوظائف أضعاف ما أزالها . مثل هذه التغيرات التكنولوجية تؤدي إلى اضطراب في المجتمع عن طريق الخلع الاجتماعي ؛ والتحرك السكاني للنازحين بحثاً عن العمل في مناطق أخرى ؛ وفي بعض الأحيان يؤدي هذا الفيضان من السكان إلى تغيرات وتوزيع جغرافي جديد .

والتغير الاجتماعي لا يؤدي فقط إلى إزاحة السكان ، ولكنه يؤدي إلى تغير مباشر في أنماط حياتهم الاجتماعية ؛ فمثلا الأسرة التي تعتبر سجلا حساساً للتغيرات الاجتماعية بشتى أنواعها تتغير بالنمو التكنولوجي . فقد يؤدي اختراع جديد أو صناعة جديدة إلى فتح ميادين جديدة للمرأة للعمل ، أو يؤدي إلى إنقاص في ساعات العمل ، وبالتالي زيادة الساعات التي يمضيها الأب أو الزوج في الأسرة ، ويؤدي إلى زيادة أوقات الفراغ ؛ ويتيح فرصاً جديدة للعمل للشباب . وقد يؤدي التغير التكنولوجي إلى تغيير أساسي في نظام الترتيب الطبقي الاجتماعي في المجتمع ؛ فالوظائف ذات المستوى الماهر التي تمثل ا

(١) Ogburn, W. : "Chane-Social" Encyclopedia of the Social Scinoes P 331.

مكانة عظيمة ربما تنتهى . ومن ناحية أخرى قد تنتج فرص العمل أمام جماعات الطبقات المنخفضة ، والتغير التكنولوجى من ناحية أخرى قد يؤدى إلى زيادة الإنسجام أو التنافر فى الطبقة العاملة وذلك يتوقف على ما يؤدى إليه التغير التكنولوجى من توحيد أو تمايز .

وفى مثل هذا المجتمع السريع التغير من الضرورى أن تكون هناك عمليتى إعادة تكييف وتوفيق . فالحياة فى مثل هذا المجتمع السريع التغير تتطلب خطة مرنة لمقابلة المواقف الجديدة التى تنبع من دوام عمليات التأثير المتبادل بين التصنيع والنظم الاجتماعية الأخرى . وفى الحقيقة فالحياة الاجتماعية تعتمد تماماً على عملية التوافق والتكيف ، فهى عملية لا بد منها لاستمرار الحياة ، ولهذا يقال لتعيش يجب أن تتكيف To live is to adjust (فى علم الاجتماع وفى علم النفس الحديث نحن نتكلم عن التكيف الإنسانى Human Adjustement كموقف ميدانى Field Situation ، هذا المفهوم يسترعى الإنتباه ، ويوجه النظر إلى وظيفة الأفراد فى بيئتهم)(١) . كما أن هذا المفهوم يشرح بوضوح موقف قلق — من التوازن وعدم التوازن — بين الفرد وبيئته المتغيرة .

وهناك عاملان لهما علاقة هامة بأثر حركة التصنيع فى الحياة الأسرية ، أحدهما يشمل معدل أو سرعة التغير الصناعى وشدة الحاجة إليه . والثانى يشمل التمييز بين الأمد الطويل مقارناً مع الأمد القصير أو الحالى لتأثير التصنيع فى الأسرة كما حدث فى المجتمعات الغربية . هذان العاملان كانا عادة مهملين فى العلاج التاريخى للتغير الصناعى . ولكن هذين العاملين لهما علاقة كبيرة بعجلة الحياة الأسرية ، وخاصة فى مثل مجتمعنا ، فقد نجد أنفسنا محافظين بمشاكل تختلف كثيراً فى المعدل والشدة عن التجارب التى عانتها

---

(١) Herbert, A. Block : «Disorganization, Personal, & Social» Alfred, A. Knapf. New York 1957 P. 81.

المجتمعات الغربية ، وخاصة أن الاتصالات الجمعية الحديثة تنوعت ، وكذلك للاختلاف الشديد فى القيم والمعايير بين مجتمعنا والمجتمعات الغربية . وأيضاً شدة الحاجة إلى التغير هى أكثر بكثير جداً عما كانت عليه فى المجتمعات الغربية . وأن مجتمعنا سوف يتحرك بسرعة كبيرة ومذهلة من الفلاح والاقتصاد العائلى إلى عالم ميكانيكى العمليات .

فإذا انتشرت الرغبة فى التغير وأصبحت ملحة ، وإذا كانت هناك إمكانيات النمو الصناعى السريع ، فإن المشكلات الأسرية الناتجة من التغير ستكون محجوبة بالآمال فى مستوى معيشة أعلى . وهكذا تصبح قوة الرغبة الجمية فى تحسين الأحوال المادية للمعيشة تحجب عن النظر الثمن الذى يمكن أن يدفعه المجتمع فى سبيل هذا التقدم الاقتصادى .

فإذا تكون وعى عام ورغبة شديدة فى التقدم الاقتصادى ، وأمل وثاب فى نتائج هذا التغيير ، فلا يجوز أن يفوتنا حقيقة هامة ألا وهى أن التغير الحادث متعدد الجوانب . ومن ثم يصبح الطلب الحالى للتقدم الصناعى بقدر ما هو هام ، هو خطير فى الوقت نفسه ، إذ لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار التجارب المريرة التى مر بها الغرب فى خطواته الأولى نحو التصنيع ، مع ملاحظة أن الكثير يتوقف على سرعة التغير ، وهى فى مجتمعنا تفوق بمرات عديدة سرعة التغير فى المجتمعات الغربية فى اتجاهها الأول نحو التصنيع .

ولقد تعلمنا أن هناك حدوداً ، وخاصة فى العلاقة بين تربية الطفل وتكييف الأسرة مع السرعة الحادث بها التغير الاجتماعى . وأهم نقطة فى صحة المجتمعات هى الطرق التى تنشأ بها الأجيال من الأطفال تنشئة اجتماعية مع أسرهم . فالذين يتعرضون الآن للتغيرات الصناعية الأولى قد أمضوا طفولتهم مستقرين ومتفهمين للنظم والقواعد الاجتماعية ، فذلك قد يمنحهم القدرة على التحمل والصمود لضغط التغيير ، ولكن أبناءهم وأحفادهم

هم الذين يخشى عليهم من التأثيرات الاجتماعية لعملية تصنيع المجتمع ، إذ سيكونون قد ربوا فى ثقافة غير مستقرة ، وكذلك حياة أسرية يكتنفها صراع القيم .

وهكذا على مر الأيام تنتج الأسر تأثيرات اجتماعية قاسية نتيجة للتصنيع ، فما زال ماثلا فى الأذهان ما حدث فى الدول الأوربية ذات التاريخ الطويل فى التصنيع ، إذ مازالت هذه المجتمعات تقاسى من المشاكل الاجتماعية نتيجة للخطوات الأولى فى النمو الاقتصادى ، وذلك واضح فى الهبوط المستمر لظروف الحياة الأسرية . وبعد مدة كبيرة أمكن معرفة ودراسة التأثيرات التى حدثت للأسرة التى عاصرت الثورة الصناعية الأولى فى أوربا . وكثيرون كتبوا عن إنهيار العلاقات الأسرية والروابط العائلية التى كانت فى المجتمعات المحلية ، وعن عدم التكامل الاجتماعى للأفراد نتيجة لنمو المدن الصناعية والحركات الصناعية والهجرة من الأرض ، وانحلال العادات والمهن القديمة .

كما يلاحظ أن هناك اختلافات كثيرة وخطيرة فى القواعد السلوكية للعمال فى المصنع ولنفس العمال خارج المصنع فى علاقاتهم الأسرية كأب وزوج وكعضو فى المجتمع . وما أريد أن أوضحه هو طبيعة الصراع الحادث بين القواعد والعادات التى تجرى داخل المصنع وتلك القواعد والسلوك المطلوبة من العمال فى المجتمع العام كزوج وأب : فهو فى المصنع لا يفكر ولا يبدع ولا يختار ولا يقدر ، بينما مطلوب منه فى المجتمع أن يفكر ويلاحظ ويتحكم فى أبوته حتى يمكن أن يلاحظ سلوك أبنائه ويوجههم إلى مستقبل أحسن وأن يعطى زوجته قدراً أكبر من الحنان والتسامح . كيف يقاوم العامل هذه التأثيرات التى للصناعة الحديثـــة ، وهذا الصراع الواضح بين القيم والسلوك فى داخل المصنع وخارجه ؟

وما دام التكنيك الصناعى الحديث يؤدى إلى عدم الثقة بالنفس وإلى خفض الشخصية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ما يؤدى إليه التصنيع من تغيرات جذرية

فى البيئة الاجتماعية ، فإن المشكلة بهذا الشكل تصبح مشكلة الأسرة والمجتمع . فإذا كانت هذه التأثيرات ستظل لا يمكن ضبطها وإذا كان العلاج والتعويض لن يوجدا ، فمعنى هذا أن الحياة الأسرية للعمال ستتأثر وستتغير بطرق ملتوية .

ومن ذلك يتضح أن الأسرة المصرية اليوم هى فى أشد الحاجة إلى حل مشكلاتها الناشئة عن التصنيع من أي يوم مضى ، وأن يوضع لها من الحماية ما يتفق وواقع حياتنا الآن . وأنه علينا أن نفكر فى كيفية العمل على توفير الاستقرار والتطور الطبيعي للأسرة حتى لا تقاسي ما قاسته الأسرة فى البلاد الغربية التى مرت بفترات من التصدع والانحلال إبان نهضتها الصناعية مما زالت تقاسي منه حتى أيامنا هذه .

أليست الأسرة أول وأعمق حقائق الإنسان وأول أرضية اجتماعية طبيعية للإنسان ، إنها نظام يتعلق مباشرة بذاته ودينه وجنسه وعقيدته وثقافته ، حتى اتجاهاته السياسية . فإذا كان على عاتق المجتمع أن يرعى الأسرة ويحميها من وطأة التصنيع فإنه يجب أولا أن يكون لدينا فكرة ودراسة عن هذه الأضرار ونوعها التى يمكن أن تصيب الأسرة وعن الأسرة ذاتها : أساسها ووظيفتها الأساسية فى المجتمع حتى يمكن أن نعلم ما إذا كان التصنيع قد أثر على بنائها ووظيفتها ، وما هى الطرق التى يؤثر بها ، وما إذا كان أقواها أو أضعفها . (لا بد أن نبتدئ بفحص دقيق للأسرة ، وهى نظام اجتماعى جرت العادة على حذفه من التحليل المعاصر للتغيرات الاجتماعية ، لا بد أن نفهم الأسرة إذا أردنا أن نفهم التحولات العظيمة الثائرة التى يعيشها العالم الآن ، لأن الأسرة نفسها فى حالة تغير جارف فى كل مكان)[1] .

إن المكتبة العربية فقيرة فى هذا الموضوع وحتى الدراسات الغربية فى علم الاجتماع الصناعي ، كانت نادراً ما تراعى آمال العمال ونشاطهم خارج المصنع ، أو تأخذ بعين

---

(١) Goode : op. cit. P. 534

الاعتبار أو تدرس علاقات العامل الأسرية أو مكانهم فى المجتمع أو أثر التغيرات الاجتماعية الناجمة عن التصنيع فى الأسرة ، سواء من الناحية المرفولوجية أو الناحية الفزيولوجية . بل كان أثر التصنيع فى الأسرة يأتى عرضاً فى أثناء الدراسات التى تحدثت عن التغير التكنولوجى وأثره فى المجتمع . ويبدو أن هذا راجع إلى أن هذه الدراسات الغربية كانت تتم فى مجتمعات رأسمالية أعطت ظهرها للدين «أى للتراحم» فكانت أيديولوجية هذه المجتمعات تجعل مفكريهم يهتمون بحقائق الحياة فى المصنع ويتجاهلون الحقائق الخارجية . فالمصنع عندهم أصبح شيئاً تاماً مغلقاً آلى النظام ، يتبع أهدافه الخاصة وينمى قيمه الخاصة وقواعده السلوكية الخاصة وكلها تنبع من المفهوم الرأسمالى الذى غايته الربح بغض النظر عن الحياة الخارجية ، وخطورة هذه القيم والمفاهيم الرأسمالية التى تنمو داخل المصنع ويتشتت أثرها على الحياة الخارجية ، فكان من الطبيعى أن يتناقض هذا مع أى اهتمام يوجه إلى الحياة الأسرية .

أما فى مجتمعنا ذا أيديولوجية الأيمان والعلم والعقائد الإسلامية والدينية ، إذا نظرنا إلى التصنيع على أنه منقذ من الانحطاط الاقتصادى وقلة الدخل وانخفاض مستوى المعيشة فقط يصبح الأمر جد خطير ، إذ ليس التصنيع إلا وسيلة ، وليس غاية فى ذاته ، ذلك لأن التصنيع ما هو إلا نظام اقتصادى وأنه لا يؤدى إلى إصلاح الحياة الاجتماعية وحده ، ولكن المهم هو السياسة الاجتماعية والاقتصادية التى تتبعها الدولة وأعضاء المجتمع سواء فى رأس المال أو العمال ، وفى العمل على توزيع متعادل للأرباح ينم على الأخوة والمحبة والتخطيط من نقل المجتمع من لا صناعى إلى مجتمع صناعى ، فمثلا القوانين الاشتراكية التى أخذ بها مجتمعنا فى يوليو سنة ١٩٦١ هل هى ضرورة اجتماعية حتمتها ظروف المجتمع العربى فى مصر الآخذ بالتصنيع ومدى تلاءمه مع التخطيط الاجتماعى لحماية الأسرة ، كيف تتأثر النظم الاجتماعية بالتصنيع وكيف تؤثر هذه النظم فى الأسرة وما هو التأثير المتبادل بينهم جميعاً فى ظل النظام الرأسمالى أو فى ظل الأيديولوجية الاشتراكية ، أو فى ظل أيديولوجية الإيمان والعلم ؟ .

يجب أن نعرف هذه الأشياء جميعاً التى لا بد من معرفتها لحماية الأسرة من آثار التغير الصناعى ، وما هى الأهداف والغايات التى يجب الوصول إليها ، كل ذلك يتطلب أن نعرف ما هى هذه الأشياء المطلوب عملها وما هى الوسائل التى توصل إلى تلك الأهداف المطلوبة . إذ ليس المطلوب هو الاحتفاظ بالتماسك الأسرى الذى يهتز بشدة تحت وطأة التصنيع ، ولكن من الضرورى أيضاً الكشف عن الظروف والأساليب والعوامل القادرة على التأثير على هذا التماسك الأسرى . وكذلك التوقعات الخاصة بالعوامل التى سوف تكتنف الأسرة والوسائل المناسبة لضبط هذه العوامل . وذلك للوصول إلى التقدم الحقيقى المفروض أن تقدمه الثورة الصناعية ، ألا وهو تقوية الأسرة برفع مستوى معيشتها وبالتالى بجعلها مخلصة لهذا التغير الاجتماعى أمينة على استمرار نموه وتطوره .

والله ولى التوفيق ؟

دكتور محمد فؤاد حجازى

الباب الأول

المفاهيم

- النظم الاجتماعية
- التصنيع
- الأسرة

الفصل الأول

النظم الاجتماعية

Social Institutions

يعتبر مفهوم النظام الاجتماعى من أهم المفاهيم فى الدراسات والبحوث الاجتماعية ، حتى أن دوركيم Durkheim اعتبر (علم الاجتماع هو علم الوقائع الاجتماعية والنظم الاجتماعية)(١) . وأيضاً جنزبرج Ginsberg (علم الاجتماع بمعناه الواسع هو دراسة التفاعل والعلاقات المتبادلة بين البشر وظروفهم ونتائجها . وعملياً أصبح واضحاً أنه إذا حاول علم الاجتماع التعامل مع كل النسيج للعلاقات البشرية فى تعقدها اللانهائى سوف لا يصنع إلا تقدما ضئيلا . وطبقاً لذلك قصر علم الاجتماع نفسه على دراسة العلاقات الاجتماعية كما هى متجسدة أو محددة فى أشكال معروفة أى نظم اجتماعية . ومن ثم كان تعريف آخر لعلم الاجتماع أنه علم النظم الاجتماعية)(٢) .

وبالرغم من هذه الأهمية الكبيرة لمفهوم النظام الاجتماعى ، (فللأسف فإن استعماله وتعريفه بعيد جداً عن الإطراد ، وفى ذلك يقول هوبهوس Hobhouse فى الحقيقة مصطلح النظام الاجتماعى يستعمل بدرجات كبيرة من الاختلاف إلى درجة من المشكوك فيه أن له معنى واحداً عاماً بالنسبة لكل استعمالاته)(٣) . بل إن (بعض علماء الاجتماع اعتبر النظام الاجتماعى مجموعة من الناس فى تفاعل منظم ، وبهذا التعريف فأى أسرة أو ناد أو مصلحة أو سجن أو حكومة هى نظام . ونحن نفضل أن يعنى مصطلح النظام مجموعة

---

(١) Timasheff, N. S. : "Social Theory, its natare and growth." Random House. N. york, 1955. P. 111

(٢) Ginsberg, Morris : "Studies In Sociology", Methaen & Co. LTD. London, 1632. P. 23

(٣) Nadel, &. F. : "The Foundation of Social Anthropology". Cohe & West LTD. London, 1953. P. 108

من المعايير تتكامل حول وظيفة اجتماعية كبرى)[١] .

على أى حال سنحاول أن نعرف كيف نشأت النظم الاجتماعية ، وأعتقد أن مثل هذه المحاولة قد تقودنا إلى معرفة منظمة وأفضل لمفهوم النظام الاجتماعى . (فإذا وضعنا كل ما تعلمناه من الأنثروبولوجيا والانثوجرافيا عن الناس البدائيين والمجتمع البدائى ، ندرك أن أول عمل للحياة هو أن نعيش ، فيبتدىء الناس بالأفعال وليس بالأفكار ، وكل لحظة تجلب ضرورات يجب إشباعها فى الحال . فكانت الحاجة أول خبرة ثم تبعها فى التو مجهود كثير الخطأ لإشباعها . . . إنه من أول النقط الهامة أن يلاحظ أن الأفعال الأولى التى بها حاول الإنسان إشباع حاجاته ، كان كل فعل يقف بنفسه ، ولا يرمى إلى أبعد من الإشباع المباشر . من الحاجات المتكررة نشأت العادات للأفراد والعادات الاجتماعية للجماعة ، ولكن هذه النتائج لم تكن أبدا مشعوراً بها أى عن وعى ، ولم تكن مرئيه أو متعمدة)[٢] .

فالنظم الاجتماعية نشأت فى البداية دون وعى ، أى دون جهد متعمد من الانسان ، إذ كان الإنسان فى هذه الفترة المبكرة من حياته يعبر تلقائياً عن دوافعه فى الحياة ، فالإنسان لديه حاجات أساسية مثل الأمن والمأكل والملبس والمأوى ، وهو يسعى لإشباع هذه الحاجات . وربما تكون الحاجات رغبات داخلية ، ولكن إشباعها هو أمر خارجى ، فالإنسان الجائع يرغب فى الأكل ولإشباع هذه الحاجة عليه أن يبحث فى الخارج على مادة من بين المواد التى تتيحها له البيئة لإشباع هذه الحاجة ، أى لابد أن يأتى فعلا ، مثل هذه الأفعال تتكرر طالما أن الحاجة تتكرر . ليس هذا فقط ، بل الأفعال التى نجحت فى إشباع الحاجة تتكرر بنفس الأسلوب ، أى أن هذه

---

(١) Young, K. & Mack, R. : "Systematic Sociology". Affiliated East-West Press. LTD. 1972. P. 323

(٢) Sumner, W. G. : "Folkways" Ginnand Com. Boston. U.S.A. P. 2—4

الأفعال تؤكد نفسها . وأكثر من ذلك تصبح هذه الأفعال عامة عند الأفراد فى بيئة معينة ، إذ أنهم يقابلون نفس العوامل البيئية أثناء البحث عن إشباع حاجاتهم ، وإشباع الحاجات بأسلوب واحد معروف يجعلها سهلة . ومن ثم يجد الإنسان أن هذه الأفعال قد يسرت له الحياة وعاونته على التكيف سواء مع البيئة الطبيعية أو مع أخيه الإنسان ، ومن ثم يحتفظ بها فى ذاكرته كأدوات ميسرة للحياة ، ومن ثم تصبح هذه الأفعال أنماطاً سلوكية إجتماعية لإشباع الحاجات ، وهى اجتماعية لأنها أصبحت عامة عند أعضاء المجتمع .

(فمناشط جمع الغذاء وصنع الأدوات والنوم والمأوى لم تفعل مرة واحدة ، ولكنها تكررت ، واختيرت الأساليب التى اعتبرت أحسن ، وأصبح الأفراد المشتركون منظمون خلال التكرار للفعل الجمعى ، ومن ثم يمكن القول أن الرغبات العامة للجنس البشرى سببت مناشط متتابعة اتخذت لنفسها أنماطاً اجتماعية[١] .

وعند هذه النقطة أحب أن أوضح أن أنماط السلوك الاجتماعية أو العادات الاجتماعية أو الأفعال الاجتماعية المنبعثة من الإشباع المعتاد للحاجات ليست بالضرورة تمت عن وعى ، وبالرغم من ذلك فهى إجتماعية ، إذ يعتبر فبر Weber الفعل إجتماعياً عندما يوجه إلى سلوك الآخرين[٢] . وفى الحقيقة إن أفعال أعضاء الجماعة تؤثر عادة فى المحيطين بهم أو المحتكين معهم فى أى نوع من الاحتكاكات ، سواء كان يقصد الإنسان مثل هذا التأثير أم لا يقصده . ولهذا فلا يوجد فعل غير اجتماعى أو سلوك غير اجتماعى طالما هو صادر عن فرد يعيش فى جماعة اجتماعية أوله احتكاك أياً كان مع رفقائه ، فما يفعله إنسان يعيش فى جماعة لابد أن يكون له انعكاس إجتماعى سواء يعلمه هو أولا يعلمه .

---

(١) Ogbn, W. & Nimhoff: "A. Hand Book of Sociology" Routledge & Kegan Poul LTD London 1953. P. 365

(٢) Weber, Max: "The Theohr of Soeial and Economic Organizaticn" Oxford, New York, 1947. P. 112.

فسلوك أى فرد فى جماعة بالضرورة فعل اجتماعى ، ولكن ليس بالضرورة عن وعى فليس كل التنظيم الاجتماعى هى نتاج المجهود الواعى . فقد يوجد كثير من التنظيمات دون أن تكون قد خططت بوعى لأى هدف . فيمكن أن تنمو درجة عالية من التنظيم بلا وعى ، وأصدق مثل على ذلك قواعد اللغة، فكثير من الشعوب لا تعرف حتى أن للغتهم قواعد . وأيضاً بالمثل نظام الأسرة نمى بدون أى تخطيط واع) (١)

ولقد كان يوما مشهوداً عندما إكتشف الإنسان أن الأهداف التى أنجزتها أفعاله تمت بشكل أحسن عندما امتزجت مجهوداته مع مجهودات الآخرين من أعضاء المجتمع ، أى أن تعاونهم أدى إلى قدرة أكبر على إشباع حاجاتهم بل وأسرع وأسهل . فهناك منجزات كثيرة لا يستطيع الإنسان إتمامها بمجهوداته الفردية ، فهو لا يستطيع أن يقوم وحده بصيد حيوان مفترس كبير ولكنه يمكنه أخذ نصيب أكبر من هذه الأشياء مما يستطيع الحصول عليه بجهده الفردى . ولكن بتعاونه مع الآخرين حصل على نصيب أكبر وبجهد أقل على شريطة أن يسمح لهم بأخذ نصيبهم مثله .

كما أن الحاجات الفردية تتصارع فى نفس الوقت ، فمثلا قد يطلب رجلان نفس الفريسة أو نفس المرأة أو نفس المأوى ، مثل هذا الصراع يهدد إشباع الحاجات الأساسية بل وجود المجتمع ذاته ، ومن هنا نشأت الحاجة إلى أفعال تنظم المنافسة فى داخل هذا النسق الكبير من التعاون ، هذه الأفعال تتخذ الصفة الاجتماعية عندما تصبح مشبعة لحاجة الأمن عند أعضاء المجتمع ، هذا الإشباع يعطيها تصديقا من أعضاء المجتمع ، ومن ثم تتكرر وتتأسس لمنع اندلاع العنف وتصبح انماطا للسلوك الاجتماعى .

وهكذا عمليتى التعاون والصراع أدت إلى نشأة أنماط من السلوك الاجتماعى التى تأسست تدريجيا وتجريبياً كأساليب ناجحة لإشباع الحاجات ثم تجسدت فى أفعال إجتماعية.

---

(١) Ogburn & Nimboff : op. cit. P. 365.

ثم فى وقت ما حتى يضمن الإنسان استمرار هذه الأفعال ويمنع الخروج عليها ألصق الرجل البدائى بها أصلا إلاهيا ، فأصبحت ذات جزاءات مقدسة . وهكذا أصبحت النظم الإجتماعية كما يقول إلوود Ellwood (النظم الاجتماعية هى ببساطة العادات الإجتماعية التى نسقتها ونظمتها وأسستها الجماعات ومازال ملتصقا بها تحريمات قوية . . . ومن ثم يمكن تعريف النظم الإجتماعية كأساليب إعتيادية للحياة قوتها بالجزاءات ونسقتها وأقامتها سلطة المجتمعات)[١] .

وليس كل المناشط الإنسانية المرتبة تسمى نظما إجتماعية ، فكثير منها صنعت على أنها فقط عادات جمعية group Hobits مثل أساليب التحية أو الأكل ، فهى ببساطة طرائق شعبية Folkways . من تلك الكمية الكبيرة للسلوك الاجتماعى ، فقط العادات الجمعية الأكثر أهمية ، والتى توجد بصفة عامة فى عدد كبير من الثقافات ، والتى وجدت خلال فترات طويلة من الزمن يشار إليها كنظم إجتماعيه ، ومن أمثلتها الكنيسة والأسرة والدولة . فهذه النظم تهتم بأشباع الحاجات الأساسية للجماعة مثل الأمن والغذاء والمأوى والتعبير الجنسى وتدريب الصغار)[٢]

ويمكننا الآن أن نتحدث بتفصيل أكثر كيف نشأت النظم الاجتماعية من الأفعال الاجتماعية . لقد رأينا كيف أن دوافع الإنسان الأساسية وحاجاته أجبرته على أن يفعل ويعبر : أولا كان يفعل بطريقة تلقائية أو ما يمكن أن نسميه المحاولة والخطأ ، فإذا كان هذا الأسلوب كافيا لحفظ وديمومة الحياة ، فالجماعة تقبله وينتقل من جيل إلى جيل ، ومن ثم يصبح عادة إجتماعية ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع أن يسميه طرائق شعبية Folkways . وعندما تثبت الطرائق الشعبية ، فهى تنمو راسخة متماسكة وتصبح

---

(١) C.A. Ellwood: "The Psycology of Human Socciaaty" Applton— Centry. P. 90—91.

(٢) Ogburn & Nimkoff : op. cit. P. 365.

ذات هيبة وقوة . وعندما تصبح الطرائق الشعبية قهرية آمرة ، والتحول عنها يعزل الفرد عن الجماعة ، وفى نفس الوقت يناله عقوبات شديدة ، عند ذلك تكون قد تمت فى شكل عادة اجتماعية Custom . وبالرغم من أن العادات الاجتماعية هى ضبط قوى على سلوك الإنسان ، فعادة لا يشعر بها الإنسان أثناء عملها ، إذ أنها تؤخذ على أنها مضمونة الصواب . فى نفس الوقت بعض العادات الاجتماعية تصبح موضوعا للتفكير العقلى إذ تقرر أحسن أشكال السلوك المعروفة فى مواجهة حاجة معينة . مثل هذه العادات الاجتماعية تعرف بما يسمى معايير mores . وعندما تنشأ قواعد محددة وتنظيمات وقوانين وبناء اجتماعى لتقوى وتدعم المعايير ، تصبح نظما اجتماعية ، كما قال هرتزلر Hertezler (عندما الاهتمامات والأفكار والمشاعر والمعتقدات تصبح فى شكل طرائق شعبية وعادات اجتماعية وتقاليد وحقوق ومعايير ، وتظهر فى أشكال أكثر ترابطا وعقليا كأنماط لترتيب وتقعيد التفاعل بين أعضاء الجماعة الاجتماعية عند ذلك تصبح نظما إجتماعية)(١) .

ومعنى ذلك أنه لا الطرائق الشعبية ولا العادات الاجتماعية ولا المعايير يمكن أن نسميها نظما اجتماعية ، بل هى بالأحرى ظواهر اجتماعية ، والشئ الذى يجعل من هذه الظواهر الاجتماعية نظما إجتماعية هو ترابطها وتشابكها بعضها مع بعض لتؤلف نسقا واحداً متكاملا ذا درجة عالية نسبيا من الإطراد والرسمية والعمومية(ويكفى أن نكرر أننا نعنى بالنظام نمطا من سلوك جماعة بشرية ونحن نقتصر ونحدد هذا الاصطلاح على بعض الانماط ، أعنى ، المستقر والرسمى والعمومى نسبيا ، فى مقابل اللامستقر واللارسمى التى سبق أن ميزناها كطرائق شعبية أو عادات أوموضات)(٢) من ذلك يتضح

---

(١) T.O. Hertzler : "Social Instiutions" Mc Graw—Hill, 1929, P. 108=Sumner : "Folkways" P. 97—98, 173 - 174.

(٢) Landberg : "Foundations of Sociology". The Macmillan Comp., 1956.P· 376.

أن الخط الفاصل بين النظم الإجتماعية وسائر أنماط السلوك الاجتماعى هو بالدرجة الأولى درجه عالية من الاستقرار والدوام والاطراد والرسمية والعمومية . فكل مجتمع ينظم السلوك النظامى بأسلوب رسمى أكثر من أنماط السلوك الأقل أهمية وإن كان مسموحا بها.

ذلك يعنى أن أعضاء المجتمع أثناء مباشرتهم لحياتهم اليومية ينشأ بينهم أنماط من السلوك ، وذلك هو ماتراه ونلاحظه فى المجتمع ، وكلما كان نمط السلوك هاما بالنسبة لأوجه الحياة فى المجتمع ، إزداد السلوك تنميطا وتقنينا (رسميا) ، ويزداد أيضاً غرسه فى كل أو معظم أعضاء المجتمع (عمومية) ، وتتناقله خلال التراث الاجتماعى (استمرار) ، وهنا يمكن تسمية هذا النمط من السلوك بالظاهرة الاجتماعية فإذا تجمعت مجموعة من هذه الظواهر الاجتماعية حول موضوع معين واكتسب درجة عالية من الخصوصية والتماسك الداخلى ، إنه عادة يعتبر علماء الاجتماع هذا التجمع نظاما اجتماعيا . وذلك يقودنا إلى ملاحظة هامة ، وهى أن عملية الإنتظام nstitulization هى مسألة درجة ، بمعنى أن هناك نظماً أخرى تقل كثيراً أو قليلا فى عموميتها أو رسميتها أو اطرادها ، فمثلا هناك فرق كبير بين نظام الأسرة الذى يتمتع بنسبة عالية من العمومية والرسمية والاطراد ، وبين نظام الثأر الذى تتضائل عموميته فيقتصر على جزء صغير من المجتمع ويستهجنه معظم أعضاء المجتمع العام ، وإن كان يطلق على كل من الأسرة والثأر نظام اجتماعى .

(فالنظم الاجتماعية شيدت عن طـــريق تجميع أنماط الأفعال المقننة على أساس أهدافها . وأكثر تحديدا على أساس بعض العلاقات العملية أو المنطقية بين محتوى الأهداف . ويمكننا القول فورا أنها وحدات وظيفية بمعنى أنها صنعت من أنماط الأفعال التى تعمل فى ترابط ، والتى تتطلب أهدافها أحدها الآخر . وهكذا نجمع معا سلسلة من أنماط الفعل على أساس العلاقات العملية بينها ، وأيضاً نلخص هذه بإعطائها إسما ، وهو ذلك الاسم الذى لدينا عن أى نظام اجتماعى . وهكذا يبدو النظام الاجتماعى وكأنه نمط

من الأفعال ، ولكن كبير ، وأكثر تجديداً من أى نمط فعل أولى elementary) action Pattern فجوهر طبيعة النظام الاجتماعى أنه مركب من المفاهيم والاتجاهات بخصوص التنظيم لفئة معينة من العلاقات البشرية التى لا يمكن تجنبها أو اللازمة جداً، والمتضمنة فى إشباع بعض الحاجات الفردية وبعض الحاجات الإجتماعية الضرورية أو حاجات اجتماعية مرغوب فيها . فالمفاهيم والاتجاهات تتركز فى معايير وعادات وتقاليد وقوانين. فمن ناحية الفرد يأخذ النظام شكل العادات المستحسنة التى ركبتها الجماعة فى الفرد ، ومن الناحية الإجتماعية يصبح النظام بناء من علاقات اجتماعية مقننه ومنظمة ومترابطة أى بينها علاقات عملية .

فالنظم الإجتماعية هى أنماط من السلوك تتجمع حول الحاجات الرئيسية للكائنات البشرية ، وفى تحليلنا للتفاعل الإجتماعى اعتبرنا الطرائق الشعبية والسنن والقوانين والتوقعات المعيارية التى تنشأ من حياة الجماعة تأخذ درجات مختلفة من الأهميه ، وأنها تتكرر ويورثها أعضاء المجتمع للاجيال التالية أى تنقل فى التراث الإجتماعى، فمعظم هذه الأشكال من السلوك المقننة التى تتجمع حول حاجات بشرية معينة توجد فى كل المجتمعات تقريباً ، وهى ضرورية لتنظيم الحياة الإجتماعية ، وهذه الضرورة تجعلها تتمتع بالإستمرار والاستقرار، وتعمل هذه الأشكال من السلوك كرشد للسلوك الإنسانى . ولهذا فالنظم الإجتماعية هى أنماط إجتماعية تقود السلوك المنظم للكائنات البشرية لإنجاز أهدافهم ومناشطهم اليومية .

فحين يتكلم علماء الاجتماع والانثروبولوجيا عن النظام الاجتماعى فإنهم يقصدون على العموم أنماط العمل أو الفعل الاجتماعى التى تحدث بطريقة منظمة ورتيبة والتى ترمى إلى تحقيق هدف محدد بالذات ، على أساس أن كل نمط من أنماط السلوك له نوع محدد من الأهداف ، وكل هذا يتبلور فى النهاية فى وجود درجة من الاطراد والتقنين فى السلوك

الاجتماعى تجعله يتوائم ويتفق مع المعيار الذى يوجه الناس فى حياتهم وفى أعمالهم) .[١]
ولذلك يعتبر روز Rose أن (النظم الاجتماعية هى الأنساق المعيارية التى تنظم السلوك وتحدد العلاقات الاجتماعية فى مختلف وجوه الحياة)[٢] وفى كلمات هملتون Homilton (النظام الاجتماعى هو رمز لفظى ، وللحصول على وصف أحسن وأوضح هو تجمع لعديد من العادات الاجتماعية وهو يتضمن أسلوبا للتفكير أو العمل ذو تأثير قوى ودائم)[٣].

فالنظم تتكون من العادات والاتجاهات الدائمة نسبيا التى نظمت فى مركبات مقننة ومتشابكة ، فهى كما يقول لندبرج Lundburg (النظم هى الميكانزمات العظمى التى نميت لتنقل وتنفذ وتديم تقاليد ومعايير المجتمع . فهى أنماط السلوك الرسمى والعام والمطرد نسبياً التى تثبت فى الجماعة من جيل إلى جيل)[٤] . (فما سمى بالنظم هى فى صميمها وأعماقها لست ببساطة أقساما من المجتمع ، ولكن شبكة من الأفكار تتعلق بوجود معينة من الحياة الاجتماعية قادت كثيراً من علماء الاجتماع المحدثين إلى تعريف النظم كأنساق معيارية Normative systems تجمع من الطرائق الشعبية والمعايير والقوانين ، أو أساليب للفعل تنظم السلوك وتعمل على تنظيم وتحديد العلاقات الاجتماعية فى مختلف المجالات)[٥] .

فالنظم تقدم أساليباً مقننة لإشباع الحاجات المتكررة مثل التناسل والغذاء والمأوى

---

(١) د. أحمد أبو زيد : « البناء الاجتماعى » الجـزء الأول — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٢٦ .

(٢) Rose, Peter J. : "The Study of Society" Rondom House Jnc. N. Y. 1967. P. 523.

(٣) Walton H. Hamilton : "Eucyclopaedia of the Social Scienses" Vol 8.,The Mocmillon Company N. Y. 1954. P. 84.

(٤) Lundbrg —Schrage — London "Sociology" Harper Brothers, Publishers. N. Y. 1948. P. 524—425

(٥) Rose : op. cit., P. 524.

والحماية المتبادلة . ومن ثم يصبح دور النظام هو إشباع هذه الحاجات المتكررة ، وهذا الدور هو ما يطلق عليه علماء الاجتماع وظيفة Functior النظام (أننى أعنى بوظيفة النظام الجزء الذى يؤديه فى النسق الكلى للتكامل الاجتماعى الذى يعتبر النظام جزءاً منه وباستخدامى لعبارة التكامل الاجتماعى ، فإننى أقول إن الوظيفة للثقافة ككل هى أن توحد أفراد الكائنات البشرية فى بناء اجتماعى مستقر قليلا أو كثيراً ، أعنى إنساق مستقرة تعرف وتنظم علاقات هؤلاء الأفراد كلا مع الآخر وتقدم ملاءمه مع البيئة الطبيعية ، وموائمه داخلية بين الأفراد أو الجماعات المكونة للمجتمع لتوفير حياة اجتماعية منظمة)[١] .

وإن كانت الحاجات الإنسانية الأساسية هى بواعث النظم الاجتماعية وتقبع ورائها ، فليس معنى ذلك أن كل حاجة اجتماعية يقابلها نظام اجتماعى أى أنه لا يمكن ولم يوجد ذلك المجتمع الذى فيه حاجاته الأساسية تتطابق مع نظمه الاجتماعية . ذلك يرجع إلى أن الحاجة الاجتماعية الواحدة يمكن أن يشبعها أكثر من نظام ، فمثلا حاجة التربية ليس للنظام التعلمى عليها سيادة ، فهو لا يقوم بإشباعها وحده ، ولكن أيضاً النظام الأسرى يشبع هذه الحاجة ، وكذلك النظام الدينى بل وأيضاً النظام الترفيهى .

وبالمثل النظام الاجتماعى وإن كانت أنشأته حاجة اجتماعية ، فإنه بعد إنشائه يخرج من سيطرة هذه الحاجة ، ويصبح له ذاته المستقلة ومن ثم يتجه لوظائفه فى المجتمع دون ما قيد عليه من الحاجة الاجتماعية التى تطلبت إنشائه أو حتى من الناس الذين يمارسونه ، ومن ثم (لا يمكن الادعاء بأن نظاما اجتماعياً ينجز وظيفة واحدة . واضح أن الوظيفة

Radcff, A. B : "The Present Position of Am thropological (١) Sludies" Bnitieh Associalion For the Advoncement of Science, Centanary Meating, London 1931. Section H. P. 13.

الرئيسية والخاصة للأسرة هى حفظ علاقات عاطفية خاصة بين الناس الأقارب طبقاً لعادات اجتماعية معينة، ولكن الأسرة بدرجات وأساليب مختلفة تعتبر نظاماً اقتصاديا. وفى بعض المجتمعات تجهز الأسرة البناء المقبول للرعاية الدينية، وهى أيضاً نظام تربوى حتى أن المربين المهنيين عادة يرجعون فشل التربية الرسميه إلى قصور الآباء)(١)

وغنى عن البيان أن المناشط الإنسانية كثيرة وعظيمة التنوع، والرغبات الإنسانية غير محدودة ومتجددة، فإذا أنجز كل نظام إجتماعى وظيفة واحدة فقط، فمعنى ذلك أنه يستلزم عدداً كبيراً جداً من النظم لإشباع الحاجات الإنسانية، بينما الملاحظ فى الواقع الاجتماعى أن نظاماً اجتماعيا واحدا ينظم أصلا لإنجاز وظيفة ما، ولكنه بعد ذلك يتجه إلى إنجاز وظائف متعددة ومتنوعة سواء عن قصد أو غير قصد، وهذه الحقيقة تتميز بها النظم الاجتماعية الكبيرة، فالنظام الدينى هو أصلا نظام للعبادة، ولكنه أيضاً ينظم الأخلاق وينظم كثيرا من الأمور الصحية، وتباشر بعض مؤسساته التدريس، وحتى قد يشارك فى السياسة.

ذلك يرجع إلى أن (النسبة الكبيرة من النظم الاجتماعية ذات طبيعة مركبة. وتعبر عن أهداف متعددة وسلسلة كبيرة من النظم الاجتماعية التفصيلية. هذه النظم ذات الطبيعة المركبة يمكن تحليلها إلى عناصرها الجزئية التى تعبر كل منها عن أحد أهداف النظام. ومن ثم يمكن تحليل نظام الزواج فى مجتمع معين من المجتمعات البدائية إلى هذه العناصر: الصداقة، والمهر، والاحتفالات، والعلاقات الجنسية، والمحرمات، وتقسيم الملكية، والترمل وأخيراً الطلاق ...... العناصر فى أى نظام اجتماعى تتماسك معا بطريقتين، أن كل منها تحتاج الآخر عمليا Pragmatically وذلك لتحقيق أهدافها المتعددة، ولهذا فإنها تقع فى وحدة وظيفية. وأنها أيضاً كجزء من الأفعال تلائم وتعين اتجاها قصديا شاملا يبدوا ملتصقا بالنظام)(٢).

(١) Hughes, E. Ch.: "Institutions". In Alfered Lee, "Prencipal of Sociology, P. 230.

(٢) Nodel: op. cit. P. 124—125.

وهذا يوضح فكرة التداخل فيما بين النظم الإجتماعية ، أى أن النظم متشابكة إلى حد يتعذر معه على الدارس أن يقرر لأول وهلة وبصفة قاطعة ، ما إذا كان هذا النمط أو ذاك من السلوك هو خاص بنظام معين ، وليس له علاقة أو أثر من نظام آخر ، مما يؤكد أنه لا يمكن دراسة نظام ما بعيداً عن سائر النظم ، ومن ناحية أخرى يؤكد أن المجتمع ماهو إلا بناء اجتماعى وحداته النظم الشديدة التداخل والتشابك . وهـــذا ما دعى هيوز Hughes إلى القول (بأن لا نظام ، مهما صنف يمكن فهمه فى عزلة ، فالكنيسة ، نحن نقول ، هى نظام دينى ، ولكن يعتمد وجوده على نظم أخرى ، وعلى أجزاء غير رسمية من ثقافتنا ، فالإتجاهات الدينية التى تتبناها الكنيسة ليست لاهوتا فقط . ولكن أيضاً كمواضيع لها ملامح من النظام الاقتصادى والنسق السياسى والأسرة[(١)]) .

ولا يعنى ذلك أن كل نظام ليس له وظيفة رئيسية ينجزها ويكون مسئولا عنها فى المجتمع بالدرجة الأولى . وهذه الوظيفة هى التى تعطى النظام اسمه فى المجتمع . وعادة يسمى علماء الاجتماع هذه الوظائف الرئيسية للنظم بالوظائف الظاهرة للنظم فالنظام الدينى وظيفته الرئيسية هى العبادة، والنظام التربوى هى تربية أعضاء المجتمع والنظام الأسرى هى تقديم الأعضاء الجدد للمجتمع (الإنسال) ، والنظام الاقتصاد إنتاج وتوزيع واستهلاك السلع ، والنظام القانونى هو توفير الأمن لأعضاء المجتمع ، ورغم ذلك ، فكل من هـــذه النظم تشبع حاجات متعددة ، كما أن كل حاجة اجتماعية كالعبادة ، أو التربية أو الأمن يشبعها أكثر من نظام . وهذا ما جعل مالينوفسكى Malinowski يقول: (إن الوحدات الحقيقية لعناصر الثقافة التى لها درجة عالية من الدوام والكلية والاستقلال، هى الأنساق المنظمة للمناشط الإنسانية وتسمى نظما . وكل نظام يدور حول حاجة أساسية ، وباستمرار توجد جماعة من الناس فى عمل تعاونى ، ولهم مجموعة خاصة من المعتقدات والأساليب الفنية ، وليست النظم مرتبطة ببساطة ومباشرة بوظائفها ، فقد لاتنال إحدى الحاجات إشباعا

---

(١) Hughes : op. cit. P. 231 232

واحداً من نظام واحد . ولـكن النظم تظهر اندماجا واضحا للوظائف[1]) .

مثل هذه الاعتبارات قادت علماء الاجتماع أمثال دوركيم وشابين Chopin وميرتون Merton إلى التمييز بين الوظائف الكامنة Latoet والوظائف الظاهرة manifest. فتشير الوظائف الظاهرة للنظم إلى النتائج المقصودة والمعروفة للنمط السلوكى ، وتشير الوظائف الكامنة إلى النتائج غير المقصودة وغير المعروفة . وإذا أردنا التدقيق فى التمييز بين الوظائف الظاهرة والكامنة ، فإن ذلك يتضح إذا استخدمنا المثل الذى ضربه Merton ليوضح لنا ما يعنيه بالوظيفة الظاهرة وتلك الكامنة، فيقول (إذا أراد باحث أن يدرس الوظائف الظاهرة ، فلابد عندما ينظم تجربة من أجل غرض خاص أن يحدد: هل أنجزت التجربة فى الحقيقة هذا الغرض . مثلا سوف يبحث ، هل أنجز نظام جديد من دفع الأجر أغراضه المقررة من تقليل لإنقلابات العمال أو زيادة الإنتاج. سوف يسأل هل نجحت حملة دعاية حقيقية فى تحقيق موضوع زيادة الرغبة فى الحرب أو الرغبة فى شراء سندات الحرب[2]) . مع التسليم بمفهوم الوظائف الكامنة يتابع ميرتون حديثه أن الباحث لايختبر فقط الخبرات الاجتماعية المعتادة، ولـكن يقول ميرتون (إن نتائج بر :" حملة الدعاية ليس تضخيم الغرض المقرر، وهو إثارة الحماس الوطنى ، ولـكن أيضاً جعل عدد كبير من الناس يأبون مناقشة عقولهم عندما تختلف آراؤهم عن السياسة الرسمية[2]) وميرتون يقصدهنا أن الوظيفة الظاهرة لحملة الدعاية هى إثارة الحماس الوطنى لزيادة الرغبة فى الحرب أو شراء سندات الحرب، ولـكن الوظيفة الكامنة هى منع عقول الناس من مناقشة شرعية الحرب التى قررتها الهيئات الرسمية .

ويذهب ميرتون Merton إلى أن التمييز بين الوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة يؤدى إلى تحقيق أهداف هامة فى البحث الاجتماعى . إذ أنه يساعد على تحليل الأنماط

---

(١) Mocinowski, B : "Culture" Encyclopaedia of the Social Sciences, 1931. P. 626.

(٢،٣) Merton, R. K. "Social Theory and Social Structure Thefrce Press, 1957. P. 65—66.

الاجتماعيه التي تبدو للباحث أنها خرافية وغير منطقية ، كما يساعد على تفسير كثير من العادات والتصرفات الاجتماعية التي تصدر عن الناس دون هدف واضح لها . و يظهر هذا واضحاً فى المجالات التى يحاول فيها بعض الباحثين الوصول إلى تفسير منطقى مقبول لبعض العادات غير المألوفه لهم فيصفونها بأنها أمور خرافية أو أنها مجرد بقايا ومخلفات من الماضى البعيد . فمثلا تمارس قبائل اللوبى بعض المراسم والطقوس لإستنزال المطر ، ولقد يكتفى بعض البحاث الغرباء عن المجتمع بأنها مجرد مسائل خرافية ، دون محاولة البحث عن تفسير مقنع لها ، بينما بأستخدام فكرة الوظيفة الكامنة فى تفسير هذا النوع من السلوك يعاون فى البحث عن الوظيفة التى تؤديها هذه الشعائر للمجتمع ، إذ يرى ميرتون أن مثل هـذه الطقوس والشعائر تعمل على زيادة قوة شخصية الجماعة فهى تعمل على تجمع أعضاء المجتمع المبعثرين بقصد أداء هذه الشعائر ، ذلك يعنى أن فكرة الوظيفة الكامنة قد أعطت لنا شرحا للسلوك الذى كان يبدو غير معقول لأول وهلة .

كما يذهب ميرتون إلى أن البحث عن الوظيفة الكامنة يقتضى من الباحث التعرف على ما إذا كان النظام أو النشاط الاجتماعى الذى يمارسه أفراد المجتمع للوصول إلى غرض معين قد حقق هذا الغرض .

ويذهب ميرتون إلى القول بأنه فى اللحظه التى ينقل فيها الباحث الاجتماعى اهتمامه وتفكيره من مستوى الوظيفة الظاهرة إلى مستوى الوظيفة الكامنة يكون قد حقق أهم جانب فى رسالة العلم . إذ يؤدى البحث عن الوظائف الكامنة إلى زيادة ملموسة فى معلوماتنا الاجتماعية ، فكثيراً ما يؤدى البحث عن الوظائف الكامنة عن وجود وظائف للسلوك الاجتماعى تتناقص تماماً مع الآراء الشائعة والمعروفة بين الناس ، مما يعنى أن الوظائف الكامنة قد تناقض الوظائف الظاهرة [1]

---

(١) د . أحمد أبو زيد : المراجع السابق ذكره ص ١١٣ — ١١٧

Merton : op. cit , P. 65—71.

وقدم أرنولد روز Rose شرحا للوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة . فالوظيفة الظاهرة هى التى تظهر وكأنها وظيفة النظام المقصودة عمداً . ويعتبر أن الوظائف الكامنة هى نتائج مطردة لمناشط النظام ولكن غير مشعور بها ، إذ عادة لا يشعر الممارسون للنظام بهذه الوظائف ، ولكن يدركها فقط الملاحظون من خارج النظام والذين يشاهدون الآثار المتكررة لنشاط الجماعة ، وإن كانت ليست واضحة فى المناشط المقصودة للجماعة أو المعلن عنها .

ويضرب أرنولد لذلك مثلا بالمدرسة كنظام اجتماعى ، فيعتبر أن المعانى المتضمنة فى المدرسة هى تعريف بالكتب ومسبورة وامتحان للإنتقال من سنة دراسية إلى أخرى ، فبينما القيم المفروض أن يعرفها الطالب لينتقل من سنة إلى أخرى ، هى الاحترام الواضح للمدرسين والمشاركة فى مناشط دراسية إضافية . والنظام ككل هو أداة لإنجاز بعض القيم العالية والمنتشرة والتى وظائفها واضحة .

فالوظيفة الظاهرة للمدرسة هى تقديم مهارات أساسية معينة لكل الأشخاص وتمد الأطفال بالمعلومات التى ستجعل منهم مواطنين أذكياء عندما يصبحون بالغين ، وتعاون فى التدريب المهنى ، واستمالة بعض الصغار للشغف بالعلم الذى سيجعل منهم فى المستقبل علماء .

وبينما الوظائف الكامنة للمدرسة من الصعب مشاهدتها أو إثباتها أو الحديث عنها ، طالما أنها بطبيعتها الذاتية خفية بعض الشىء . ولقد تكون إحدى الوظائف الكامنة للمدرسة هى تنمية أنواع من الولاء عند التلميذ لاتجاه أو فكرة معينة . ووظيفة كامنة أخرى على مستوى الجامعة هى تقديم تعويض نقدى للعلماء الذين قلما يكافئهم المجتمع مباشرة نظير جهودهم العظيمة . ولقد يقال إن المدارس العامة لها وظيفة كامنة وهى وضع الأطفال من مختلف الجماعات الجنسية والمستويات الاجتماعية الاقتصادية فى احتكاك

كل مع الآخر[١] .

أما لنديورج Lundburg فهو يقدم تفسيراً للوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة مضيفاً فكرة جديدة وهى العلاقة بين الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة وأثر كل منهما فى الأخرى .(فيعتبر أن الأنماط النظامية الظاهرة هى الواضحة والمشاهدة بانتظام فى المعايير والقوانين والحفلات العامة والمنشآت التى تعمل كمجال ومستودعات لتسجيلات هذا السلوك . والأنماط الكامنة هى تلك المضمرة أو غير حاضرة رسميا فى الأفعال الإنسانية والمشاعر والطرائق الشعبية . فنى الحقل السياسى عادة يطلق على الأنماط الكامنة مصطلحات تحط من قدرها ، مثل الحكومة الخفية أو القوة الخفية وراء العرش (مثل ما عرف فى مصر بمراكز القوى وراء الحاكم) . وبالطبع الأنماط الكامنة شائعة أيضاً فى المجالات الأخرى . خذ مثلا المعتقدات الشعبية حول الاعتقاد الدينى فى حفلات الكنيسة (ظاهر) ، والمعتقدات الحقيقية (أنماط كامنة) للممارسين لهذه الحفلات (رجال الكنيسة) .

وقد يتوافق هذان النمطان إلى درجة كبيرة ، فإذا كان كذلك ، يحتمل أن يكون هناك درجة غالية من التكيف تظهر إلى الوجود فى الأمور التى تحكمها هذه الأنماط ، ومن ناحية أخرى قد يكون النمطان عملياً متبادلا المنع ، أى يمنع كل منهما الآخر عن أداء وظيفته ، إذا حدث هذا ، قد تكون النتيجة صراعاً واضحاً عندما يشرع كل من النمطين فى أداء وظيفته ، أو ركود أحد الأنماط لحساب الآخر .

مثل هذا الجمود إذا حدث للنمط الكامن قد يصل به إلى حد الطمس المؤقت أو الدائم . أما الجمود إذا حدث للنمط الظاهر يعنى أن هناك بناء مستمراً فى الوجود

---

(١) Arnold Rose : "The Study of Huaman Reletions". 3 ed Ed., Alfred A. Knopf, N. Y. 1969. P. 155—156.

ولكنه توقف جوهريا عن أداء وظيفته ، ولكن مستمر مظهريا فى المناشط الرسمية والحفلات ، هذه الأنماط النائمة أو التى لا تؤدى وظائفها تمثل قنوات النشاط السابقة التى تكون ساكنة نسبيا أو تفككت ، فهى مثل القنوات التى لم يعد النهر يجرى فيها ، أو يجرى فيها قليلا جداً ، أو بصفة غير دائمة ومنقطعة ، وغالبا هى نظم قائمة ، ولكن لا تؤدى وظائف[1] .

وأحب أن أزيد الوظيفة الكامنة تفسيراً وإيضاحا إلى جانب التفسيرات التى سبق أن عرضتها . وانطلاقا من مفهوم النظام الاجتماعي وما اتفق عليه علماء الاجتماع من أنه مجموعة من الأنمـــاط السلوكية التى أشبعت حاجة اجتماعية فإكتسبت التصديق والقبول من أعضا المجتمع فتكررت ومنت ووضعت لها القواعدوالجزاءات وأصبحت ضرورية للحياة الاجتماعية . ولهذا فكل الوظائف التى يؤديها النظام هى إشباع لحاجات إنسانية أساسية اجتماعية ، ومن ثم فهى وظائف ظاهرة عند مؤسسى النظام ، ولكن بمرور الزمن وتوارث الأجيال للنظام ، تختفى تدريجياً الفكرة الأساسية التى أنشىء من أجلها النظام باختفاء مؤسسيه والجيل التالى الذى عاشرهم ، وتصبح الأجيال التالية تمارس النظام دون أن تدرك السبب الحقيقى لذلك التظام ، فمثلا فى النظام الطوطمى الذى يدعو إلى الزواج من الخارج ، والوظيفة الكامنه لنظام الزواج من الخارج كما يقول ميرتون Merton هى إنشاء علاقات اجتماعية واقتصادية بين الجماعات الإجتماعية . وأصبح يمارسونه اعتقاداً منهم أنه إذا تم الزواج من الداخل فيه إغضاب للطوطم وتحل بهم نقمته، أى ألصق الرجل البدائى بنمط السلوك تحريما دينيا ليضمن مؤسس النظام عدم خروج الأجيال المتعاقبة عليه ، وأصبحت

---

(١) Lundberg : "Foundatin of Sociology". P. 379—380

الوظيفة الظاهرة وهى العمل على إنشاء علاقات اقتصادية واجتماعية مع الجماعات المجاورة هى الوظيفة الكامنة، وأصبح إرضاء الطوطم هو الوظيفة الظاهرة، ذلك لأن هذه الاجيال لم تر الصراعات بين الجماعات التى أوحت لأجدادهم الأوائل بانشاء هذا النظام .

وكذلك نظام الثأر المعروف حاليا فى القرى النائية فى مصر وفى كثير من المجتمعات النامية والمتخلفة . فالمعروف أن فكر لا تقتل مقولة إنسانية أى مقبولة لدى جميع المجتمعات الإنسانية، فلا يعقل أن يؤمس مجتمع ما نظاما للقتل والانتقام. وهذا يتنافى مع معنى النظام الاجتماعى المتفق عليه عند علماء الاجتماع، بل بالأحرى أن نظام الثأر قد أنشأته الجماعات الاجتماعية لمقاومة جريمة القتل ، حيث لم يكن هناك قضاء ومحاكم وشرطة ، فشعر المجتمع بحاجته إلى نظام يكون التوقع فيه لدى أعضاء المجتمعات أن من يرتكب جريمة القتل جزاؤه القتل . فكانت الوظيفة الظاهرة للنظام عند إنشائه هى منع جريمة القتل . ولكن بتعاقب الأجيال وتوارثها للنظام وأصبحت تمارسه دون إدراكها لمعناه، وتحولت الوظيفة الظاهرة إلى وظيفة كامنة أو نشأت وظيفة ظاهرة جديدة ،وهى الانتقام وإظهار قوة الجماعة فى المجتمع المحلى . وإزداد تطور المجتمعات ونشأت الحكومات المستقرة وتبع ذلك نشأة نظام المحاكم ، وأصبحت وظيفتها هى معاقبة المجرمين ومكافحة جريمة القتل ، أى أخذت الوظيفة الكامنه لنظام الثأر كوظيفة ظاهرة لها كما أن الوظيفة الظاهرة وهى إظهار القوة فى المجتمع المحلى أخذها النظام التعليمى حيث تتنافس الأسر في تعليم أبنائها الذين تدفع بهم إلى المراكز الاجتماعية العليا فكان على نظام الثأر أن يتوقف إذ لم تعد له وظيفة ضرورية للحياة الاجتماعية ، وهذا سر استهجان المجتمع العام لهذا النظام الذى ما زالت بعض الجماعات تمارسه ، ويرجع

ذلك إلى أن بناء النظام مازال موجودا بجملهوظيفة هى الانتقام وإظهار القوة فى المجتمعات المحلية التى لم ينتشر فيها التعليم .

وتقودنا هذه النقطة إلى فكرة تغير وظائف النظام . فوظائف النظام ليست جامدة طالما أن النظام جزء من المجتمع الدائم التغير فهى أيضاً يجرى عليها ما يجرى على الكل من تغير . فقد تنقص وظائف النظام أو تزيد ، أو تأخذ شكلا جديداً تماماً ، أى يمارس النظام نشاطا يختلف تماما عما كان يمارسه من قبل .

فمثلا من ناحية تناقص وظائف النظام ، فالأسرة فى المجتمعات القديمة والمجتمعات البدائية حيث لم يكن هناك فى المجتمع إلا النظام الأسرى والنظام الدينى ، ومن ثم كان على النظام الأسرى أن يشبع كافة حاجات أعضاء المجتمع . ولهذا كان النظام الأسرى يقوم بكل الوظائف – من تربوية واقتصادية وسياسية وحتى حربية – وبتطور المجتمعات وكبرها وزيادة التخصص ، لم يعد النظام الأسرى فى قدرته إشباع حاجات هذه المجتمعات الكبيرة ، فمن ثم نشأت نظم أخرى لتقوم بالوظائف التى عجزت الأسرة عن أدائها مثل الوظيفة الاقتصادية (المصانع) الوظيفة التربوية (المدارس) الوظيفة السياسية (الحكومة) الوظيفة الحربية (الجيوش) ، وأصبحت وظيفتها الرئيسية فى المجتمعات الحضرية هى التنشئة الاجتماعية .

أما من ناحية تزايد وظائف النظام ، فالنظام الصناعى عند نشأته فى القرن الثامن والتاسع عشر كانت وظيفته هى إنتاج السلع ، ولكن بسرعة التغير

التكنولوجى والمنافسة بين الصناعات فى القرن العشرين جعلت كثيراً من المصانع الكبرى تتولى وظيفة البحث العلمى ، فأنشأت مراكز للبحث العلمى تتبعها ، وأيضا كثير من المصانع تقوم الآن بالوظيفة التربوية أيضاً ، فأنشأت فصولا لمحو الأمية ومراكز للتدريب المهنى .

أما من ناحية تحول النظام تحولا كلياً من وظيفته التى أنشأ من أجلها إلى وظيفة أخرى مختلفة تماماً . فنظام الطوائف المهنية الذى نشأ فى روما القديمة أنشأه الإمبراطور ليقضى على التناحر بين القبائل التى كانت تتكون منهم ، بمعنى أن يتجمع الحدادون مثلا من جميع القبائل فى طائفة الحدادين حتى يتناسوا التقسيم الجغرافى الاقليمى والنعرة الإقليمية وبذلك تتوحد روما ، وبعد أن تم توحيد روما واتسعت الدولة الرومانية أصبحت روما مجتمعا واحد ، ومعنى ذلك أن وظيفة النظام توقفت ، وكان على النظام أن يزول بزوال وظيفته لأن الحاجة التى كان يشبعها زالت فلم يعد المجتمع فى حاجة إليه(١) . ولكن بناء النظام ما زال موجوداً فبحث لنفسه عن وظيفة أخرى ، وهى رعاية مصالح أبناء الطائفة الواحدة ، بمعنى أن طائفة الحدادين ترعى مصالح الحدادين وهكذا .

ذلك ما جعل أوجبرن Qgburn يعتبر أن أحد المظاهر الهامة للتطور الثقافى هو التعديل لوظيفة نظام بينما بناؤه يقاوم . فعادة البناء لا يتغير مثلما تتغير الوظيفة . وربما يوضح هذا صعوبة عمل أو اختراع بناء اجتماعى جديد . وتسمى هذه الظاهرة فى بعض الأحيان القصور الذاتى الثقافى، أو قوة الاستمرار الثقافية Culturalinertia . وإن كان هناك قوة إستمرار أيضاً فيما يختص بتغير الوظيفة ، إلا أنه غالبا يتغير البناء إلى أقل بسبب أن هناك حاجة أقل إلى تغييره

---

(١) د . حسن سعفان : «أسس علم الاجتماع » . دار النهضة العربية القاهرة ٧١ — ١٠٧٢ ص ٧٨ — ٨٠

لأن نفس البناء يمكن عادة أ يخدم أغراضاً كثيرة[١] .

مثل هذه الاعتبارات قادت عالم الاجتماع لندبرج Lundberg إلى اعتبار (أن كلمة البناء Strcture تستعمل لوصف الوجه المستقر والثابت نسبياً للنظام والوجه الديناميكى يسمى الوظيفة ، فى كلمات أخرى البناء هو وظيفة ثابتة ، والوظيفة هى سلسلة من بناءات سريعة التغير)[٢] .

وفى الحقيقة إنه عندما ندرس النظم، نحن ندرس (ا) أنماط سلوك إجتماعى، فبينما من أجل الأغراض التحليلية ربما ندرس (ب) البناء والوظيفة منفصلين ، فالكلمتان تشيران فقط إلى مظهرين لنفس الظاهرة ، فكل من البناء والوظيفة هما الحالة التى يكونان عليها فى أى موقف معين بسبب ظروف الحياة (طبيعية أو اجتماعية) التى من أجلها وبسببها يحيي النظام . وربما ظهور اصطلاح (بناء — وظيفة) فى علم الاجتماع صمم ليؤكد هذه الحقيقة وهى أنهما وجهان لشيء واحد تطلبته الحياة . إن كان كذلك فهذا يؤكد ويوضح أن أى دراسة علمية فى علم الاجتماع هى بالضرورة بنائية وظيفية Structural-fanctional[١]

وبناء النظام الاجتماعى له أهمية قصوى فهو الذى ينفذ الوظائف النظامية . ولقد اختلف علماء الاجتماع حول ماهية بناء النظام ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته عناصر النظام أى العناصر التى يتكون منها بناء النظام ، إلا أن معظم علماء الاجتماع اتجهوا إلى الأخذ بوجهة نظر عالم الاجتماع سمنر Sumner الذى يرى أن بناء النظام يتكون من هيئة Personnel ومعدات أو أدوات

---

(١) Ogburht Nimkoff : ‘ Hand Book of Sociology” P 493.

(٢) Lundberg : “Sociology” P. 523.

Equipment وتنظيم Organaization وشعائر Ritual [1] ويعرض عالم الاجتماع أوجبرن وجهة نظر سمنر فى الكلمات الآتية (يعنى بالهيئة الأعضاء الأكفاء للجماعة ، بمعنى أولئك الذين تعرفهم الجماعة على أنهم المنتمين للنظام وكمعارضين للخارجين . فكرة الشرعية بينما تستعمل بصفة عامة فيما يتعلق بالأسرة إلا أنه واقعيا يستمسك بها من أجل النظم الأخرى أيضاً ، لأن كل النظم تميز بين الأعضاء الشرعيين وأولئك الذين هم غير شرعيين ، وقصد سمنر بالمعدات ، الأجهزة والآلات Opparatus التى يستخدمها الأعضاء فى أداء وظائفهم ، فهى كل ممتلكات الجماعة كل من المادى واللامادى. فمثلا فى حالة الأسرة المعدات المادية قد تتضمن الأرض والمنزل ، والأدوات المنزلية ، وتختلف الممتلكات المادية باختلاف الثقافات . قد تشتمل الممتلكات اللا مادية للأسرة على اسم الأسرة وسمعتها ومكانتها . وتنظيم نظام ما، هو الحالة التى رتبت فيها هيئته ومعداته، مثل الأسرة البطرياركية يسود فيها الأب والأسرة الأمومية تسود فيها الأم . وأخيراً الشعائر لنظام اجتماعى تتكون من عاداته والقواعد والحفلات التى تنظم السلوك النظامى للأفراد ، فمثلا هناك شعائر محدده لتشكيل أسرة مثل حفلة الزواج ، كما أن هناك طقس خاص لفك الزواج وهو الطلاق)[2]

دعنا الآن نتكلم بالتفصيل عن كل عنصر من عناصر النظام :

هيئة النظام Personnel

نعنى بهيئة النظام أولئك الأفراد الذين يمارسون عمليات النظام وينتسبون إليه فالمدرس مثلا ينتسب إلى النظام التربوى ، ولذا يحمل إسم دور رئيسى

---

(١) Sumner : Folkways P. 53.

(٢) Ogburn : op. cit., P. 265—266.

فى النظام وهو المدرس . فالناشط الأكثر تخصصا فى نظام ما يقوم بها الممارسون Fanctionaries الذين يشغلون المناصب offices فى النظام ، والمنصب النظامى يتكون من مجموعة محددة من الحقوق والواجبات فهو مركز عمل يضع على عاتق شاغله واجبات معينة وفى نفس الوقت يعطيه الحق فى مباشرة بعض الوظائف ، وهى ثابتة لشخص شاغل المنصب ، ولكن لها قابلية التنقل لشخص آخر ببعض الأساليب المقبولة اجتماعيا . هذا لا يعنى أن أباً مثلا فى النظام الأسرى يمكن أن يحل محله أب آخر فى الأسرة بسهولة أو تماماً لأن الاتصال الشخصى والعلاقات العاطفية تصبح عظيمة فى مثل هذا النظام . ولكن فى نظم أخرى يمكن أن يتغير الممارسون بسهولة أكثر ، مثل المدرس فى النظام التربوى ممكن أن يحل مكانه مدرس أخر ، وهذا يحدث فى معظم النظم الأخرى.

ولهذا ينظر إلى المناصب فى النظم على أنها لا شخصية من ناحيتين: الأولى أن المنصب أقدم من الفرد الملقى على عاتقه القيام به كما أنه متوقع أن يعيش المنصب بعد الشخص . ثانياً ، كل من ألقى على عاتقه الدور يتوقع منه أن يسلك داخل حدود معينة كما كان يفعل سابقوه . ويلاحظ أن المناصب الشعائريه Rituat offices هى لا شخصية أكثر ، إذ يتكلم الملقى على عاتقه مثل هذا الدور بعبارات موضوعة ليس حراً فى تغييرها ، مثل رجل الدين . ويحكم على الشخص شاغل المناصب بتوقعات المنصب ، فطالما هو متطابق معها فهو بعيد عن النقد الشخصى .

ولا يعنى ذلك أن تلك الأدوار أو المناصب ليس لها الوجه الشخصى على الإطلاق ، ولكن فى الحقيقة هناك ناحية شخصية تظهر فى هذه المناصب ، إذ أن ملء المناصب يتطلب إثبات الذات الواعية للدور ، فالمنصب هو جزء من

خبرات الشخص، كما أنه قد تتحد مع الدور عواطف عميقة . كما أن الشخص قد يغير صفات المنصب بأسلوبه فى أدائه لدوره (فليس كل شخص ممارس فى بناء إجتماعى لنظام ما له نفس السلوك مثل كل شخص آخر يؤدى نفس الدور، فمعظم حياته الاجتماعية تقع خارج السلطه المباشرة لنظام اجتماعى واحد . . . وهكذا كل منا يحضر شخصيته فى أى جماعة يشارك فيها . فكلنا قد نتطابق مع سنن النظام الرئيسية ، ولكن سلوكنا قد يختلف فى كثير من طرائقه الصغرى . فمن الواضح أن امرأتين كوالدتين قد يسلكان سلوكا مختلفاً تماماً خلال هذا الدور) (١)

كما أن هذه الأدوار (المناصب Offices) تختلف من ناحية الفرصة التى تتيحها للممارسين من ناحية المبادأة الشخصية ، وأيضاً فى كمية المسئولية الملقاة على عاتق الممارس لتحقيق النتائج . فمثلا يتمتع ملك إنجلترا بمقام كبير ، ولكنه لا يقوم أو يضع السياسات للدولة، بينما رئيس الوزراء له مقام أقل ولكن يتوقع النظام السياسى منه أن يحقق نتائج هامة للنظام . وإن كان كل من الملك ورئيس الوزراء يعتبران من هيئة النظام السياسى .

وعند هذه النقطه أحب أن أقدم تميزا هاماً آخر ، فهناك نموذجان من الأفراد يعملون فى النظم ويتأثرون بها ، هؤلاء هم المنتجون والمديرون . حيث يعمل المنتجون عمل النظام ، بينما يدير المديرون النظام متضمنا المنتجين . ويلاحظ أن هناك طبقات فرعية كثيرة تحت كل من هاتين الطبقتين ، والمنتجون هم العلماء المتخصصون، أما المديرون فهم المراقبون أو رؤساء العمل . أما الطبقات الفرعية تحت المديرين فهم من السكرتيرين إلى السعاة ، وهذا ما يسميه ڤبر Weber

(١) Young & Mack : op. cit. P. 339.

الرئيس وموظفوه الإداريون . هذه الطبقات هي نتيجة احتياجات العمل ، ومن ثم فهي اقتصادية ، إذ أن بعض المهارات نادرة عن الأخرى ، ولهذا فلابد أن تكون مكافآتها أحسن .

المنتجون هم الرجال المهنيون، منهم الفنانون والعلماء والأطباء والمهندسون، أولئك الذين بتدريب مهني ينجزون بعض الأعمال التخصصية المطلوبة ، وفي معظم الحالات لهم خبرات فنية عالية . بينما يشكل المديرون تلك الطبقة التي أصبحت ذات ميزة كبيرة حديثا فقط . فهم الرجال النظاميون تماما . فهم يديرون النظام أكثر من إنجاز وظائفه ، فمثلا مدير المستشفى لا يعمل على علاج المرضى ، ورئيس الجامعة لا يدرس ، وعضو مجلس الإدارة في شركة لصناعة السيارات لا يصنع السيارات . ولكن أصحاب هذه المناصب offices بدونهم لا يمكن أن توجد العلاقات المتداخلة المحكمة الدقة في النظم الكبيرة للثقافة الحديثة المعقدة .

مما يساعد على فهم النموذجين من رجال النظام أن تقابلهم ببعض . المنتجون أو المهنيون مرتبطون بأعمالهم . فهم لا يمكن استبدالهم بغيرهم ، كما أنهم لا يستطيعون عمل شيء آخر ، ولكنهم بالطبع لا يقدرون بثمن (فهم يستمدون مستقبلهم وحياتهم من النظام ، ويفسرون معنى حياتهم في مفاهيم من قيمة النظام للمجتمع ، ويحملون الجسم الرئيسي من التقاليد والأساليب الفنية)[1] فالجوهر الضروري لجامعة كبيرة هو المنتجون الأذكياء أي المعلمون، وقلب المستشفى هو الطبيب الماهر .

ولكن لنتأمل ، في مقابل هؤلاء الرجال وأدوارهم : المديرون الذين

---

(١) Hughes : op. cit., P. 262.

هم الرجال النظاميون فهم إلى حد كبير قابلين للإستبدال . فرئيس نظام ما يمكن أن يدير نموذج نظام آخر من النظم . فمثلا رئيس جامعة لن يجد صعوبة كبيرة أو وقتاً طويلا لإدارة مستشفى ، لأن المشاكل سوف تتشابه إلى حد كبير وبعيد. فهيئة الإدارة تراقب الميزانيـــة ، وتقود عملية المحافظة على المبانى والاضاءة بكفائة . هذه الوظائف لا تتغير كثيراً من نظام إلى نظام . ولـكن ليست الحالة كذلك بالنسبة للمنتجين والمهنيين ، فعمليات الإنتاج تختلف من نظام إلى نظام ، أى أن المنتجين محددين بالنظام بينما المديرون يمـكنهم التنقل بين النظم ، ولا يعنى ذلك أن دور المديرين ليس ملتصقا بالنظام ، بل على العـكس فدور المدير هو أكثر التصاقاً بالنظام ، بل لو أمعنا الفـكر أكثر لتبين لنا أن دور المدير هو من صنع النظام . فعندما كانت الثقافات غير معقدة ولم تـكن تقدمت إلى هذه النقطة التى نمت عندها النظم نموا عظيما لم ـكن هناك حاجة إلى دور المدير ، فلم يكن هناك ما يسمى رجل نظام . هذا الدور وهذه الطبقة نشأت كنتاج لتعقد وتضخم النظم ولم تـكن موجودة قبل ذلك .

وعلى هذا الأساس فإنى أعتبر أن هيئة النظام هى فقط أولئك الأفراد الذين يكسبون حياتهم منه والذين يعطونه أكبر جزء من وقت عملهم ، والذين ينتسبون إلى النظام اجتماعياً . (وأى تغير أساسى فى أى فئة من هذه الفئات من الأشخاص سوف تؤدى إلى تغير فى النظام)(١) .

وعند هـــذه النقطة يلزم التمييز بين رجل النظام الضرورى أى الممارس Functionary ورجل النظام الطارىء أى المشارك Participant . ولقد عرّفنا الممارسين فى الفقرة السابقة ، أما رجل النظام الطارىء أو المشارك ، وهـــو

---

(١) Hughes : op. cit , P. 262.

الذى حدث وإن كان النظام ـ لسبب أو لآخر ـ ميدانا لاهتمامهم . إذ كثيراً ما (تشارك فئات عديدة من الأشخاص فى نظام أو على الأقل لهم علاقات أحياناً مع النظام)[١] فمثلا المدرس هو ممارس فى النظام التربوى ولكن مشارك فى النظام السياسى عندما يدلى بصوته فى الانتخابات أو عندما يتابع عمل الحكومة عن طريق وسائل الإعلام ، وبالمثل المهندس ممارس فى النظام الصناعى ومشارك فى النظام القضائى عندما يكون له قضية مطروحة فى المحاكم ، وأيضاً يكون مشارك فى النظام التربوى عندما يكون له أبناء فى المدارس ، ومشارك أيضاً فى النظام السياسى . وهذه النقطة توضح أيضاً مدى التشابك بين النظم ، إذ أن عضو المجتمع ولو أنه ممارس فى نظام من النظم إلا أنه مشارك فى معظم النظم الأخرى ، أى أن عضو المجتمع قد يؤدى أكثر من دور فى أكثر من نظام .

وهذه النقطة توضح لنا الطبيعة التجريدية لفكرة هيئة النظام فعندما نتحدث عن هيئة النظام بالطبع يكون فى عقولنا الأفراد البشريين ولكن ليس كل الفرد البشرى وإنما فقط قدرة معينة فيه ، أى وظيفة معينة فيه والتى قد تطلب أولا تنمية . فهيئة النظام هى اصطلاح تجريدى تماما مثل اصطلاح النظام نفسه . وما يؤيد هذه النظرة هو عدد النظم التى يعد فيها نفس الكائن البشرى من بين الهيئة العاملة ، فمثلا يمكن أن يكون رجلا معيناً مهندسا فهو ممارس فى النظام الصناعى ، ودافع ضريبة ، وعضو فى مجلس إدارة جمعية خيرية وأب ، فهو مشارك فى هذه النظم جميعاً .

وهكذا عمل الإنسان كجزء من هيئة نظام معين ، هو وجه واحد فقط لمناشطه المختلفة . ذلك يعنى أن هناك نظاماً ينتمى إلية الإنسان أولياً ويصبح

---

(١) Jbid., P. 261.

هذا النظام نظامه وينتمى إليه اجتماعياً ويشعر بعضويته فيه عن أى نظام آخر ، ويعمل له أكثر من أى نظام، ويكون ولاؤه لهذا النظام وله معه علاقات عاطفية . أما عضويته فى النظم الأخرى فهى مشاركة عرضية occasional participation وهناك نوع آخر من المشاركة تعرض حالة أقوى لمعنى التجريد وهى المشاركة الغائبة . قد يكون رجل مديراً لعدد من المؤسسات، ولو أنه لا يكون حاضراً فى أى منها . أو قد يكون مالك أساسى لمؤسسة ولكن لا يعمل فيها ، فى كل من الحالتين ينجز هذا الإنسان وظائف فى النظام .

وهكذا نحن نعنى بهيئة النظام أولئك الأفراد البشريون الممارسون لعملياته ، والذين يؤثر فيهم النظام وينتسبون إليه اجتماعياً وبينهم علاقات عاطفية وروابط من الولاء للنظام ولقادة النظام، لم تكن موجودة بينهم لولا أنهم أعضاء فى النظام . كما أنهم يشعرون أنهم أجزاء من بناء هذا النظام ، وتتأثر به إتجاهاتهم وسلوكهم .

المعدات Equipment

كل نظام على حدة له نوع خاص من المعدات والأدوات التى يستخدمها فى أدائه وظائفه : والمعدات فئة كبيرة تتضمن كل شىء صنعه أو يستعمله الإنسان . فكل الثقافات يمكن النظر إليها كتجمعات من قطع من المعدات النظامية Instiutional Eguipments ، ولهذا علينا أن نضم سطح الأرض بل وأيضاً مسافة أعلى ومسافة تحتها ، إذ يجلب البترول من أميال تحت سطح الأرض ، وكذلك الهواء على مسافة أميال فوق الأرض . ذلك أن الاستخدام الاجتماعى لأى قطعة من المواد يحيلها إلى معدات للنظام . يندفع البترول إلى سطح الأرض فى بعض المناطق تلقائياً ، ولكنه يصبح معدات لنظام

عندما يستخدمه الإنسان . وكذلك الجو يصبح قطعة من معدات النظام عندما يستعمل لطيران طيارة ليخدم أغراض النقل .

المعـــدات هى مادة النظام وممتلكاته ، وهى دائماً بناءات مادية Matirial Structure وذلك لا ينطبق فقط على الحالات الواضحة مثل البنايات والأدوات ولـكن أيضاً للأمثلة المادية الأقل وضوحاً مثل اللغة ، مادة اللغة هى المعانى التى تحملها رموزها ، ولـكن هـذه الرموز لابد أن تـكتب أو تنطق حتى تصبح معدات للنظام . ولهذا نشأ إستخدام الورقة والقلم أو المواد الـكتابية الأخرى ، أو حتى الموجات الصوتية . ومن ثم فهناك دائماً عنصر مادى حتى فى المعدات النظامية الأسرع زوالا .

المصنوعات البشرية المعتبرة معدات للنظم لها علاقات عديدة . فرغم أنها معدات لنظام معين إلا أنه فى نفس الوقت لها علاقات خاصة بها مع النظم الأخرى وسوف أستخدم من أجل الشرح مثلين ، سوف أختار نظريات علم الجمال والنظام التشريعى .

المعدات لها ناحية جمالية ، وهذه الناحية ، بل إن بعض المعدات تـكون مصممة لهذا الغرض الخاص أى تتضمن أشياء فى داخل نظام الفن ، فمثلا أثاث الأسرة هو أصلا معدات النظام الأسرى ، ولـكن تصميمه يتضمن أشياء كثيرة من نظام الفن ، ويوضع تحت النقد الجمالى ، وقد يوافق عليه الجماليون أو لا يوافقون ، فـكل ثقافة لها مستويات ذوق خاص بها ، وأيضا الشكل الخاص لمعداتها .

والمعدات من ناحية أخرى لها ناحية تشريعية ، أى لها علاقة بالنظام التشريعى ، فأثاث الأسرة ، عنـــدما نتحدث عنه على أنه ملك للأسرة

فنحن نتكلم عن علاقة قانونية ، ويلاحظ أن معظم المصنوعات الإنسانية مملوكة فمن ثم لها علاقة بالنظام القانونى . كما أن بيعها أو استبدالها وحمايتها من المعتدين كل هذه علاقات قانونية . فالمعدات مثل أعضاء هيئة النظام من ناحية أنها خاصة بنظام ما ولكن لها علاقات بالنظم الأخرى .

ويلاحظ أنه كلما زاد الضبط على البيئة المباشرة كلما زادت المعدات وكلما زادت المعدات، كلما زادت نظم المجتمع زادت قوته وحجمه ، فالتنظيمات الاجتماعية الأكبر جعلها ممكنة زيادة كمية وتعقد المعدات المادية . فالدول الكبرى والمتقدمة ما جعلها كذلك إلا زيادة معداتها وكان لا يمكن أن تصل إلى هذا المستوى من التقدم بدون المعدات الحالية مثل الذرة والالكترونيات ومختلف أنواع الطيران .

الاجراءات Procedures

المقصود بالإجراءات «فعل مطابق لنمط» ، أو طريقة معينة للسلوك الإنسانى وتعتبر العادات الاجتماعية والسمات والسنن والشعائر والحفلات والتقاليد من هذا النوع من الفعل طبقاً لنمط ، أى من الإجراءات النظامية .

وسوف نستخدم هذا العنوان الشامل (الإجراءات) لكل الأساليب النظامية للسلوك Institulional ways of behavior ، لتميز بينها وبين الطرائق الشعبية Folkways التى تعتبر اساليب ثقافية للسلوك . ولقد كان إصطلاح السنن Mores هو الإصطلاح الاجتماعى الأقدم الذى وضعه سمنر لهذا النمط من الأفعال ، أما الطرائق الشعبية فهى تعتبر إصطلاحا انثربولوجيا . أما الإجراءات

التى لمختلف النظم فهى خاصة بهذه النظم، ويمكن اختبارها بحقيقة بسيطة وهى أنها غير قابلة للتبادل فيما بينها. فما يحدث فى الأعمال التجارية يتأسس كخبرة مقبولة فى التجارة، ولكن لا يمكن استخدامها مطلقاً فى ممارسة الطب مثلا، لأن القوانين الأخلاقية فى المهنتين مختلفة تماما. وكذلك ما يمكن أن يكون حسناً فى الطب قد يكون سيئا فى التجارة.

إجراءات النظام هى الأساليب التى بها ينفذ النظام العمليات التى تتطلبها وظائفه الضرورية. فالإجراءات القانونية موضوعة لإنجاز القانون، وتعلم المدارس الطبية ما هو متوقع منه فى المستشفى وهكذا، أعنى بالإجراءات الأساليب المعتادة لعمل النظام. وسنجد أن هذه الاجراءات لها على الأقل ثلاث تأثيرات متمايزة على أعضاء النظام.

أولا، تقوى الإجراءات النظامية الإعتقاد، إذ تجعل فى الحركات الفيزقية (الجسمية) نتائج تنبع منطقياً من القبول لقضية معينة، فالسجود أو الركوع فى الصلاة هو تذكرة جسمية للاعتقاد فى الله. فإنجاز هذه الأفعال بالاضافه إلى الافصاح عن حقيقة أن هذه القضية مقبولة، فهى فى نفس الوقت تعمل على تقوية الاعتقاد فى القضية.

ثانياً: اتباع إجراءات مؤسسة تدمج وتستغرق الفرد فى الاطار الاجتماعى، فالاجراءات النظامية هى بالطبع اجتماعية، إذ أنه قد اتبعها الآخرون، فعندما يأخذ فرد بالحركات الموصوفة فهو ينضم للتأييد الجمعى، إذ يحصل بمثل هذا الفعل على التماسك أو الخضوع أو الموافقة عما يفعله الآخرون، وهم بدورهم يؤيدونه. وهكذا باتباع إجراءات النظام يصبح الفرد عضواً فى جماعة ويدمج نفسه أكثر فى مجتمعه. يبدو أن السنن تقول افعل كما نفعل وبهذا تصبح واحداً

متنا وفى بعض النظم مثل الديانات المؤسسة تعتبر الشعائر علامة مميزة للعضوية ، فالعادة الاجتماعية أو الشعائر هى إعلان واضح من فرد عن عضويته فى جماعة .

ثالثاً : يعطى اتباع الإجراءات شكلا للفعل ، إذ تكون هذه الإجراءات دائماً عقلية ، بمعنى أنها أتبعت لأسباب ، وحتى عندما تكون قد نسيت الأسباب يظل شكل الفعل كما هو فغالباً ما تكون القصة الكامنة وراء الأسباب غير حاضرة فى الذهن . وهكذا تمكن الإجراءات النظامية أولئك الذين يتبعونها من مباشرة حياة منظمة ، حتى ولو كان منطق مثل هذه الاجراءات غير مفهوم كله . فكم من أولئك الذين يتبعون إرشاداتنا القانونية يعرفون أى شىء عن «لماذا يتوقع الناس منهم أن يفعلوا بأسلوب معين» . وإذا نظرنا إلى المسألة من ناحية أخرى ، نرى أن العادة الاجتماعية ليست قانوناً مسنا . فالتحية العسكرية والسلام اليدوى الاجتماعى ، وخبرات لاحصر لها لا يمكن تفسيرها بالدقة على الاطلاق ، حتى لو سألنا الملايين الذين يأتونها يومياً ، ولكنهم يستعيرون النمط للحياة الاجتماعية كما هو وكما رأو أسلافهم يأتونه .

إعطاء الشكل للفعل بواسطة الاجراءات النظامية تحول المجرد والمبهم إلى متماسك وملموس . هذه النقطة وإن كانت غير مختلفة كثيراً عن السابق ذكره ، إلا أنها تستحق شيئاً من التفصيل .

فعلاقة النظرية بالتجريب واضحة جداً فى الإجراءات النظامية . ما نحن متعودونه يفيدنا ، كما أنه منغرس جداً فى طبيعة الأشياء ، ولهذا أعضاء ثقافة معينة يعتبرون خبراتهم الثقافية معايير وكل ما عداها مبتذل أو حتى إنحرافات لا أخلاقية . ولهذا عندما يصبح نظام معين قديما فهو يباشر ثقلا معينا من التأثير على الأفراد الذين يقعون فى دائرته ، ذلك بفضل حقيقة أن نفس الأفعال

قد أوتيت لمدة طويلة بنفس الطريقة . عندما نستخدم إصطلاح (قدستها التقاليد) ما نعنيه هو أن الفعل بهذا الشكل صالح لأنه قبل لمدة طويلة وهو صادق لإعتقاد أجيال كثيرة فيه . فمثلا فى إنجلترا اشتق القانون من التقاليد الاجتماعية . وهكذا تكون النظم قوية جداً عندما تصبح قديمة جداً .

وعندما تكون المهارة أو الشكل متضمنا فى الفعل الاجتماعى ، فإن ذلك يعنى تحول التقاليد إلى الوسائل الفنية . هناك مفهوم يعتبر أن كل التقاليد ما هى إلا صياغات ، بمعنى أن كل الآراء يمكن أن تصبح أفعالا ، ولهذا تتضمن التقاليد أصلا وأساسا تلك الآراء التى كانت أكثر نجاحا فى العمل والتى استخدمت فى العمل بنجاح أطول مدة واحتفظت بها معظم الأجيال .

التنظيم : Organization

التنظيم لنظام هو الأسلوب الذى يضعه معاً جماعة من الأشخاص مع أدواتهم وقواعدهم للسلوك ليتمكنوا من العمل نحو هدف رئيسى . فمثلا إذا اعتبرنا النظام هو النظام السياسى مثلا، فهو بناء من الرجال والإجراءات والمواد ويقصد إنتاجا معينا وهو : رخاء المجتمع ، وبالمثل إذا اعتبرنا النظام مصنعاً فهو بناء من الرجال والمواد والإجراءات بقصد إنتاج سلعة معينة . فليس المهم ما إذا كان الإنتاج شيئاً مادياً أو معنوياً (لا مادى) . كنا نتكلم عن المعدات ، والآن يمكن أن نعنى بها الآلات والخامات المادية فى المصنع ، وكنا نتكلم عن الإجراءات والآن يمكن أن نعنى بها لوائح المصنع وعملياته . وكنا نتكلم عن الهيئة والآن يمكن أن نعنى بها العاملون . ويمكننا أن نضيف كلمة وصفية لمصير الإنتاج النهائى وهو التوزيع . الشىء المراد التأكيد عليه هو أن التنظيم لنظام ما لا يمكن أن يوجد حيث لا سبب هناك يدفع عناصره للعمل معاً ، والسبب

دائماً هو هدف النظام ، وهذا الهدف يقع دائماً وراء النظام نفسه ، لأن النظام بأسلوب ما يخدم المجتمع الذى هو جزء منه .

وأحد المهام الرئيسية لتنظيم النظام مثلا ، هو العدد الأنسب من عناصر النظام ، وإن كان نظريا يقال إن هذا العدد يقرره دور ووظيفة النظام ، ولكن النظم الحديثة معقده إلى حد أن هذه المسألة أصبحت الشغل الشاغل للمنظمين والدراسين ، فكل نظام لابد أن يكون له حجم طبيعى ، عدد أمثل من الهيئة وأيضاً من المعدات والاجراءات التى تشكل النظام . وتنظيمه ، ولكن أى تنظيم ، فمثلا فى مصنع هل الأنسب جعل عملية صيانة المعدات فى مكان واحد أو توزيعها على عنابر الانتاج أى يكون لكل عنبر ورشة صيانه خاصة به . هل الأنسب جعل الإدارة التجارية والإدارة المالية معاً أم كل على حدة ؟ مثل هذه المشاكل هى وظيفة التنظيم للنظام بهدف الوصول إلى التنظيم الأنسب لتسهيل العملية الإنتاجية أى تحقيق وظيفة النظام ككل .

ومن ناحية أخرى كيف تسلك العناصر معا عندما يكون كل منهم يؤدى وظيفته ؟ يتوقف التنظيم فى داخل نظام على أنساق مجسمة من الأفكار ، ولكن أنساق الأفكار لا تخرج تماما كما يتوقع المخططون ولهذا يغيرون بعض الشئ فى الشكل عند تطبيق الأفكار ، ولكن لماذا ؟ ذلك يرجع إلى أجزاء ومكونات البيئة الداخلية للنظام وتأثيراتها ، تأثيرات من العسير عزلها أساساً بسبب أنها ببساطة لا توجد فى انعزال فهى قيم استدعتها إلى الوجود وظيفة العناصر . ومن ثم فهناك فى النظام صفات البيئة الداخلية ، ويمكننا أن نذكر بعضا منها ، الأمن والولاء والتسهيل للعملية ، فمن الضرورى أن يكون الميكانزم لترتيب هذه المتغيرات مبنيا بحزم ودقة فى التنظيم للنظام .

كما أن النظام يتكون من أجزاء ، وعمل التنظيم هو إحداث هذا التوافق، وكلما حسن التوافق بين أجزاء النظام كلما اتصفت العناصر بالتنظيم ككل ووصل النظام إلى حالة من الاستقرار والثبات ، فكل من الثبات والاستقرار يعتمد على حسن تنظيم وظائف الأجزاء فى الكل .فالأستقرار هو صفةالانساق ككل وليس صفة لأى جزء منها ، فقد يتضمن الثبات لبعض العناصر تغيراً للآخرين . فالنظام نسق من المتغيرات يعتمد استقراره على حفظ مثل هذه المتغيرات فى داخل حدود ممكنه وتلك وظيفة التنظيم . وهكذا يكون النظام متوائما بمعنى محاولة البحث عن تلك الحدود فى داخل البيئة ، وهذا معنى التوافق بين عناصر النظام ، فمن ثم لابد لعناصر النظام أن تكون ذات مرونة كافية لتؤمن الحفظ للمتغيرات الضرورية اللازمة فى داخل حدودها الممكنة .

وقبل أن أختم حديثى عن النظم الاجتماعية أحب أن أعرض إحدى المسائل التى مازالت تعتبر من أهم مشاكل علم الاجتماع والانتروبولوجيا وهى مسألة تصنيف النظم الاجتماعية . ورغم أهمية التصنيف للدراسات العلمية إذ أنها إحدى العمليات التى تدفع بالعلم قدما ، إلا أن علماء الاجتماع والانتروبولوجيا حتى الآن لم يتفقوا بعد على تصنيف للنظم الاجتماعية . ومن ثم فمازالت هذه المسألة إحدى المشاكل التى يواجهها علم الاجتماع والانتروبولوجيا ، والتى لم يتعرض لها إلا القليل ممن حاولوا وضع تصنيف للنظم ، وماعرضوه لم يصادف قبولا عاما عند دارسى الاجتماع والانتروبولوجيا ، إذ وجهت إلى هذه الدراسات كثير من سهام النقد .

وفى الحقيقة إن مشكلة التصنيف فى كل علم من المشاكل التى تحتاج إلى جهد فائق وعمل متصل فى دراسات جادة متعمقة حتى يمكن للباحث الوصول إلى تصنيف قد يصادف قبولا . ولسوف أعرض بشىء من التفصيل لإحدى

الدراسات الجادة المتعمقة وهى دراسة العلامة نادل Nadel ، ليتبين للقارىء الجهد المبذول فى هذه الدراسة والصعوبات التى يواجهها الباحث عند محاولته تصنيف النظم، ومن ناحية أخرى عرض لإحدى طرق التصنيف ، ورغم الجهد الذى بذله نادل Nadel فأيضاً دراسته لم تسلم من النقد . وهذا مادعى كثيراً من علماء الاجتماع إلى الميل نحو إما ترك هذه المشكلة كلية ، أو اللجوء إلى الأسلوب السهل فى التصنيف ، وهو الثنائية ، أى تقسم النظم إلى قسمين ، وهو الأسلوب الذى اتبعه سمنر Sumner رائد هـذا الاتجاه ، مع اختلاف وجهات النظر حول الأسس التى قامت عليها تلك الثنائية .

فقد أقام سمنر Sumner ثنائيته على أساس أن النظم الاجتماعية (إما أن تنموا أى تتزايد Crescive أو تسن أى تشرع Enacte تـكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير، وتنمو عن طريق المجهودات الفطرية التى ولدت ونتجت بها المعايير، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة . الملكية والزواج والدين أهم التظم الأولية ، لقد بدأوا فى الطرائد الشعبيه . ثم أصبحت عادات اجتماعية ، ثم نمت إلى معايير عن طريق إضافة شىء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة . ثم إزدادت تحديدا وتخصصاً للقواعد والأفعال المقررة واستعملت المعدات فأنتج ذلك بناءا وا كتمل النظام . أما النظم المسنة فهى نتاج الاختراعات العقلية والانتباه وهى تنتمى إلى الحضارات الراقية)(١)

ويلاحظ أن سمنر فى خلال حديثه عن النظم النامية أى غير المقصودة أطلق عليها اصطلاح آخر إذ سماها بالنظم الأولية، ولقد استخدم هذا الإصطلاح كثير من علماء الاجتماع فى التصنيف على ماسنرى ، وأيضاً فى ثنايا حديث سمنر عند التفرقة بين النظم والمعايير استخدم اصطلاحا أخر اتخذه بعض علماء الاجتماع

---

(١) Sumner : FolKways. P. 45.

أيضاً أساساً للتصنيف الثنائى ، وهى فكره الاختيارية والجبرية فهو يقول (الفرق الكبير هو أن النظم الاجتماعية والقوانين لها صفة إيجابية بينما المعايير غير محددة . هناك فلسفة متضمنة فى الطرائق الشعبية وعندما تصبح جلية واضحة تصبح فلسفة عملية ... الأفعال فى ظل القانون والنظم الاجتماعية مشعوراً بها وبوعى واختيارية ، وفى ظل الطرائق الشعبية هى دائماً بلا وعى وغير إختيارية ولهذا فهى صفه الضرورة)[١]

ولقد استخدم هيوز Hughes فكره الاختيارى والاجبارى فى تصنيفه للنظم (فالنظم الاختيارية هى تلك النظم التى يكون الشخص فيها حراً فى المشاركة أو لا كما يختار . النظم الأخرى الإختيارية يتوقع من الشخص المشاركة فيها أو يجبر على ذلك . يكون الطفل بالضرورة جزءا من الأسرة ، ولقد يتبرأ منها فيما بعد أو يهجرها وإن كان بثمن عاطفى باهظ . المدرسة نظام إجبارى عند فترة معينة . يدين كل الأشخاص بالولاء وبعض الواجبات للدولة . وبعض النظم تكون اختيارية بأسلوب معين . فقد لا يشارك فيها الإنسان ، ولكن ممارسته لهذه الحرية قد تكون باهظة التكاليف اجتماعيا . ليس على الناس أن يعملوا فى المصانع ولكن قد لا يكون هناك أسلوب آخر للحصول على الغذاء ، ورجل أعمال حر فى أن يتجاهل الواجبات الأخوية والنوادى والكنائس ، ولكن فى فعله ذلك قد يعرض موقفه للخطر . وهكذا ممارسة الحرية بالنسبة للنظم تخضع لكثير من الجزاءات)[٢]

ولقد إستخدم ميرل Merrill أيضاً فكرة الاختيارية فى تصنيفه للنظم ولكنه هنا أقامها على مبدأ حقوق النظم على الأفراد وهو يعنى به مدى ولاء

(١) Ibid., p. 56.

(٢) Hughes : op. cit., 257.

الأفراد للنظم ، (فالنظم الاجتماعية تختلف فى حقوقها على الأفراد بعض النظم إجبارية ، بمعنى أن الشخص ليس له خيار فى عضويته فيها . والأسرة الأبوية أصدق مثل على النظام الاجبارى ، لأن الطفل ليس له خيار فى مشاركته . ومن ناحية أخرى النظام الإقتصادى له صفة اختيارية ، فالفرد حر فى اختيار مهنة ما أو عمل ما أو صناعة ما ، داخل حدود ، فليس له قوة الابتعاد عن الأنماط الاقتصادية الواسعة فى مجتمعه ، مثلاً ، لا يستطيع الفرد استعمال الشيوعية فى مجتمع رأسمالى . المشاركة فى الحكومة أيضاً هى إجبارية ، والشخص له حقوق معينة وعليه واجبات نحو الدولة التى ولد تحت علمها . المشاركة فى النظم الأساسية إجبارية أكثر منها اختيارية . . . وحقوق النظم على أعضائها تعرف أيضاً باسم الولاء وللأفراد اتجاهات مختلفة نحو مختلف النظم فى بيئتهم الاجتماعية ، فعادة الولاء للأسرة قوى)[1]

أما بارنز Barns فقد أخذ عن سمنر Sumner فكرة النظم الأولية Primary والنظم الثانوية Socondary فهو يعتبر (النظم الاجتماعية الأساسية أو الأولية هى بدائية وتلقائية فى أصولها ونموها متبعة العملية التى وصفها سمنر . هذه النظم هى مثل الأسرة والملكية والحرف الأساسية والحكومه . وبنمو الحضارة نمت النظم الثانوية بصفة متعمدة . وهذه عادة نظم فرعية فى داخل الحقل الكبير للنظم الاجتماعية الأولية . فمثلا الحكومة نظام اجتماعى أولى نشأ تلقائيا ، ولكن الجمهورية هى شكل عمدى من الحكومة ونظام اجتماعى ثانوى . والملكية نظام اجتماعى أولى له تراث تطورى طويل بينما طريقة التركات نظام ثانوى .)[2]

---

(١) Merrill : op· cit., p. 336--337.

٢) Barns : op. cit., p. 23

ولقد إستخدم شابين Chapin أيضا فكرة الثنائية فى التصنيف ولقد أقامها على أساس مبدأ آخر وهو مدى انتشار النظام ، أو بمعنى آخر على أساس فكرة المنطقة لاجتماعية Sociological Zone ... نظم نووية Nucleatd Instit التى لها موضع محدد ومخصصة فى منطقه . مثل حكومة محلية، و تنظيم سياسى محلى، وأى أسرة تعيش معا وأى مدرسة معينة ،وأى هيئة رفاهية محلية ، ـ ٢ ـ نظم رمزية منتشرة Diffused-symbolic Inst. التى تناقض المحليـــة السابق ذكرها. وتشير إلى رموز لها تنظيم عالى من التجريد، وتميز بمثل هذه الـكلمات الفن والعلم والقانون)[١] .

كما أن هناك دراسات فى التصنيف ابتعدت عن فـكرة الثنائية، ومن أشهر هذه الدراسات الجادة هى دراسة مالينوفسكى Malin wski ودراسة نادل Nadel .

أقام مالينوفسكى Malinowski تصنيفه للنظم الاجتماعية على أساس — مبدأ التـكامل— ، إذ يعتبر أن هناك سبعة مبادىء أساسية للتـكامل الاجتماعى وهى: (١) مبدأ التناسل ويعنى به روابط الدم المبتدئة بالزواج والمنتهية بنظام العشائر ويتضمن النظم الآتية : نظام المغازلة ونظام الزواج ونظام الأسرة ونظام الجماعة العائلية الممتدة ونظام جماعة القرابة فى خط واحد ثم نظام العشيرة ونظام العشائر . (٢) المبدأ الاقليمى ويتضمن أيضاً نظام الجماعات المحلية ونظام الحى والمقاطعة والقبيلة . (٣) المبدأ الفسيولوجى ويتضمن نظام الجماعات البدائية التوتمية والجماعات الجنسية وجماعات السن وطبقات العمر (٤) مبدأ التجمعات

---

(١) Chapin F. S. : Contemporary American Institions, Harper, 1935 p. 16.

الإختيارية ويتضمن الجمعيات السرية والنوادى والتجمعات الترويحية والجماعات الفنية فى الشعوب البدائية ، ويقابلها فى المجتمعات المتقدمة النوادى وجمعيات المعونة والتجمعات الاختيارية للترويح (٥) مبدأ العمل والمهنة ويتضمن مكانة السحرة والمشعوذين ورجال الدين وأصحاب الحرف فى المجتمعات البدائية ويقابلها فى المجتمعات المتقدمة النقابات المهنية والتنظيمات الخاصة بمناشط المجتمع المتخصصة مثل المدارس والكليات والمعاهد وأكاديميات البحث العلمى ، والهيئات المشرفة على العدالة من محاكم وهيئات تشريعية والهيئات المشرفة على الدفاع مثل الجيش والبحريه ثم الطوائف الدينية (٦) الرتبة والمكانة وتتضمن ألقاب التشريف والمكانات الاجتماعية لمختلف الطبقات ونظام الطوائف والانقسامات الطبيعية التى ترجع إلى الاختلافات العنصرية مثل اللون أو السلالة (٧) المبدأ التكاملى الشامل نظرا لوحدة الثقافة أو السلطة السياسية ويتضمن القبيلة كوحدة ثقافية فى المجتمعات البدائية فى مقابل الإنتماء إلى جنسية معينة والأقسام الثقافية بالمعنى الأقليمى كالأقليات الأجنبية والوحدة السياسية التى قد تتضمن قبيلة أو جزءاً منها وأخيراً القبائل التى تكون أمـــة والقبائل التى تؤلف دولة(١) .

ورغم الجهد الذى بذله مالينوفسكى فى هذه المحاولة فلم يسلم أيضاً من النقد، (فعلى الرغم من أن مالينوفسكى كان يشير أحياناً فى تصنيفه إلى النظم الاجتماعية السائدة فى المستويات الأكثر رقياً أو فى المجتمعات الأكثر تقدما ، فالواقع أن ذلك التصنيف يصدق بشكل خاص على المجتمعات البدائية . وليس من شك فى أن مالينوفسكى كان متأثراً فى ذلك بتجربته بين سكان جز التروبرياند وأنه إستمد من ذلك المجتمع معظم العناصر التى أقام عليها تمييزاته بين مختلف

---

(١) أبو زيد : البناء الاجتماعى (الجزء الأول) ص ١٦٣ — ١٦٦

النظم ، وكذلك بين مبادئ التكامل ذاتها)[1] . وهذا ماجعل ذلك التصنيف لا يصلح للتعميم على المجتمعات الحديثة التى تختلف نظمها اختلافا بينا عن النظم البدائية .

كما أن العلامة نادل Nadel قام بمحاولة جادة لتصنيف النظم الاجتماعية وبذل جهداً كبيراً فى أن يجعلها صالحة للتعميم. هذا الهدف جعله يلجأ إلى عملية التجريد لكى يرتفع بدراسته إلى مرتبة التعميم ، رغم أنه نفسه يقرر أن تصنيفه الذى يقدمه لا يمكن أن يكون التصنيف الوحيد ذلك لأن أى تصنيفه يتضمن بعض العلاقات المعينة التى قدمها المصنف . فى تجميع عدد من المواضيع أو المفاهيم أو أشكال السلوك حسب إنتمائها إلى نفس الفئة فإننا لا نذكر التشابه أو تقارن فقط بل أيضاً نحكم على أى أنواع من التشابه منحصر وأى أنواع من الاختلافات منحصر ، فأى تقسيم أساسى يتضمن مثل هذا الحكم ، وهذا يحتمل اختلاف الرأى . فمثلا قد نصنف المغازلة كعنصر من عناصر الزواج ، وقد يقول البعض بأن اختلاف هذا العنصر والعناصر الأخرى أكثر من وحدتها ، حتى أنه يمكن اعتبار المغازلة نظاماً اجتماعياً فى ذاته .

ثم يعرض نادل أسلوبه التجريدى فى التصنيف ، فيذهب إلى تنظيم النظم الاجتماعية فى فئات طبقاً للتشابه أو الاختلاف فى أهدافها . وبحكم العادة نحن نستخرج مثل هذا التنظيم عندما نقول إن هذه النظم سياسية أو اقتصادية أو دينية إلى آخره . وطالما أن معظم النظم تحتوى على أهداف كثيرة مما يجعل الاختلافات ممكنة ولكن عادة يصبح عدم الاتفاق قليلا طالما أن لدينا قاعدة مألوفة عن علاقات الاجزاء بالهدف فى أى نظام اجتماعى . ولهذا لن نجمع الزواج

---

(١) أبو زيد : البناء الاجتماعى — المدخل ص ١٦٨

مع الدعارة بالرغم من أنهما يتضمنان علاقات جنسية، ولا مع الأسواق أو التجارة بالرغم من أن عنصر المهر يتضمن أهدافاً اقتصادية . وأيضا لن نجمع بين الزواج وبين النظم التى تشابهه فى أنها تتضمن الأنسال والوالدية مثل الوراثة والتبنى والأسرة . إن عناصر أى نظام اجتماعى تظل جزء غرضى ، وبالرغم من هذا تنتمى إلى فئات مختلفة من النظم الاجتماعية . ونحن عادة نشير إلى هذه الحقيقة بقولنا مثلا إن الزواج أيضاً له ناحية قانونية واقتصادية ، وأن رئاسة القبيلة لها ناحية دينية وأن الحفلة الدينية لها ناحية قرابة وهكذا . ويمكننا أن نقول أيضاً إن حفلة دينية تتضمن خطوات تحقيقها أساليب من العمل تعتبر كأنها نهايات فى ذاتها ، وأنها تنتمى إلى فئة مختلفة من النظم الاجتماعية .

ولكن مرة ثانية يرى مالينوفسكى أن نظام الكولا يمكن تصنيفه إما كلية مع الاقتصادى أو كلية مع النظام الدينى ، أو النشاط الاحتفالى ، ولكنه يتطلب نوعا من التصنيف المختلط مثل (شبه إقتصادى — شبه نشاط احتفالى) . وبالمثل نظام البوتلاش يبدو أنه نظام إقتصادى بنفس القوة التى يبدو بها أنه نظام سياسى . مثل هذه الأنواع تتطلب عمل أشياء كثيرة ، وبشكل بسيط هل نربط الفئات المجتمعة ؟ أو نعود مرة ثانية إلى القول بمختلف الوجوه للنظام الاجتماعى الواحد ؟ على أن نأخذ النظم هنا على أنها متساوية فى الوزن والعلاقة .

كل هذه الأسئلة تتضمن بالذات معنى إلى أى مدى نذهب عندما نستخرج أو نجرد من الظاهرة المدروسة وبأى ميزة أو صفة نرغب فى وصفها مثل هذه الاتجاهات تشكل قاعدة لتصنيف النظم . وأكثر من ذلك هذه الأسئلة تتضمن وجهتى النظر الأولى فى التجريد ومن ناحية أخرى درجة أو نوع التجريد المطلوب للفئات المألوفة التى صنفت فيها الظاهرة . والآن هذه الفئات المألوفة

قد احتواها (عادة عشوائيا) تاريخ فكرنا ولقد ورثناها كما هى ، حيث كانت قد حددت بطريقة جامدة ، وتمت التعريفات من خبراتنا المتجمعة فى مجتمعنا ، كما أنه ليس هناك تعريف واحد مقبول لدينا جميعا لكل فئة من النظم الاجتماعية ، بل هى بالأحرى مجلدات كتبت عن طبيعة الإنسان الإقتصادية والسياسية والقانونية وهكذا .

ومن الطبيعى أن يجد الأنثروبولوجيون أن الظاهرة التى يدرسونها تنتمى إلى عديد من النظم الاجتماعية المعروفة أو لأحدها . أو بتعبير آخر سيجد أن درجة التجريد التى تتطلبها هذه الفئات تذهب بعيداً أو قريباً عما أعد نفسه للذهاب إليه . فمثلا النظريات الاقتصادية الحديثة ، تُعرِّف أى تغير فى الملكية بأنه أمر اقتصادى ، وبالمثل أى خدمات يؤديها الفرد تحت إمرة فرد آخر من أجل ربح أو أى ممتلكات . فإذا قبلنا هذه القاعدة للحكم فإن نظام الكولا أوالبتلاتس يقعان بلا شك تحت النظام الاقتصادى ، ولسوف ينطبق ذلك على كل نشاط بشرى عملى . ومن ناحية أخرى فقد عرف القانون على أساس الجبرية لمعايير السلوك عن طريق مراكز رسمية والتطبيق المنظم للقوة السياسية فى المجتمع ، ولكن فى المجتمعات البدائية كل النظم الاجتماعية تعتمد على جبرية السنن الاجتماعية ، فهل كلها تنتمى إذن إلى النظام القانونى ؟

من الواضح أننا يجب أن نصف ، ومن الواضح أكثر أنه ليس هناك شىء غير مهم ، سواء اعتبرنا أسلوبا ما للسلوك اقتصادياً أو شبه اقتصادى أو أى شىء آخر . وفى قولنا عن أى أسلوب للسلوك أى شىء ، فنحن لسنا أحراراً أن نغض النظر أو أن نترك الفئات المألوفة وما تشير إليه من مصطلحات ،ويمكننا إلى حد ما معاملتهم بتحديد أو بتوسع لمعانيهم أو أن ندور حولهم باللغة اللاتينية أو اليونانية . كما أنه لا يمكننا التحرك بعيداً عن المعروف من المفاهيم المعتادة ، بالرغم من أنها قد تحمل أخطاءاً بالنسبة لغرض التصنيف ..

فإذا توقفنا عن الكلام عن القانون أو الاقتصاد أو الدين لأنه لا يوجد شيء مشابه لهم — حسب المفهوم المعتاد لتلك الكلمات — فى المجتمعات البدائية التى ندرسها ، فإننا أيضاً يجب أن نتوقف عن الكلام عن الظواهر المتشابهه حيثما يوجد مجتمع .

وأيضاً نحن لا نضيف أشكالا عضوية أو صخوراً أو آلات أو أى سلسلة أخرى من المصطلحات التى اكتشفت بنجاح وأصبحت منتهيه ، فنحن نصف أغراض العلاقات الاجتماعية المختلفة الأهداف فى العالم البشرى . ولا يمكننا أن نحدد عددها نهائيا . ولكن مهما كانت الحالة فهى فى تاريخ فكرنا منذ إكتشافها وخططت ورسمت . وتعطينا الفئات المعروفة للأساليب النظامية مثل هذه الخريطة عن العلاقات التى قبلناها على أنها صادقة . وبتعبير آخر تعطينا هذه الفئات أقساماً لذلك الكل الذى نسميه الثقافة البشرية . . . وهى فى مجموعها تتضمن كل أنواع العمل الاجتماعى المحتمل . وعندما أقول عملا ـ حتى بمعناه الحرفى سواء اقتصادى أو قانونى ـ فإننى فى الوقت نفسه أحدد مكانه على خريطة العلاقات . ولهذا فنحن نفهم أن هذا العمل له جزء معروف يؤديه ، ولا تؤدية الأنواع الأخرى من الأعمال .

وبالنسبة لدارسى المجتمعات البدائية منعيد رسم هذه الخريطة ، ولكننا سنظل نتكلم عن الأفعال (الشبه اقتصادية) أو ربما عن القوانين الأساسية ، فإذا توقفنا عن الكلام عن القانون أو الاقتصاد فإننا بذلك نصف الأشياء ونحن معلقين فى فراغ . فى الحقيقة هناك وهم خفى بوجود مثل هذه الخريطة والتى عليها لابد وأن نجد كل أشكال الأفعال الاجتماعية ، وهذا يثير عديداً من المناقشات حول الفئات التقليدية للفعل . عندما يرفض كثير من الانثربولوجيين التحديد الضيق للقانون عند راكليف براون ، ذلك بسبب أنهم

يشعرون أن الشيء الذى اعتدنا تسميته القانون لا يمكن أن يكون غائبا فى شكل من الوجود الاجتماعى .

قائمة النظم التى أقترحها تعطى تمثيلا لمثل هذه الخريطة المطابقة لأجزاء الثقافة ولا شيء أكثر ، أو ليكون معناها واضحاً تماماً سأضع مصطلحاتها فى هذا الشكل - نظم إجتماعية تختص بأهداف إقتصادية ، وسياسية ، وطبيعة قانونية وهكذا . هذه الفئات الواسعة تسمح للتقسيمات الأكثر دقة والأكثر إحكاما والتى ترجع إلى الوسائل الخاصة المستعملة فى إنجاز الأهداف . وهكذا سوف يتضمن النظام القانونى القانون الدستورى بمعناه عند راوكليف براون ، تماماً مثل النظم الاجتماعية ، التى ولو أنها مازالت تهدف إلى تقوية سنين السلوك (التى اعتبرتها أهداف قانونية) ، وهى تفعل ذلك بوسائل مختلفة . ولسوف تعمل الأهداف الاقتصادية خلال السعر والربح ، وميكانزم السوق ، تماماً كما تعمل من خلال التصرفات الشخصية .

سوف لا أحاول تحديد مختلف الفقرات فى قائمتى . لا يستطيع أى فرد أن يقول بأمانة أنه لا يعرف ما هو إقتصادى ، وسياسى ، أو الوسائل القانونية . لأن هذه المفاهيم الموروثه ذات معنى واسع ومتقلب .

كيف نصف النظم الاجتماعية الخاصة بالمواطنين المريبين ، وكيف نرسم لكل قسم التقسيم الفرعى من أجل مختلف التصرفات ، هذه أسئلة أرى أن تترك للبحوث فى هذه المرحلة .

وللحديث بدقه عن التصنيفات ، ليس هناك صواب أو خطأ ، ولكن فقط أقل أو أكثر ملائمة . هذا يعنى (أولا) عمليا ، التصنيف سوف يعنى أن هناك ما هو أكثر أو أقل اقتصادياً . فإذا كانت فئاتى واسعة جداً ،

سأقدم تقسيمات فرعية ، والتى لهذه الأسباب سأشرحها بعناية ، وإذا كانت فئاتى ضيقة جداً سأعمل حساب العلاقات الرابطة للظاهرة التى فصلتها . (ثانياً) يمكن أن تستفيد التصنيفات من السمات التى تؤكد أنها أكثر أو أقل أهمية أو خطورة بمعنى أنها يمكن أن تنظم مادة الموضوع فى نسق على أساس السمات . فى كلمات أخرى الحكم على المطابقة أو السداد المتصف به أى شكل من التصنيفات يبرهن على ثرائه أكثر أو أقل عند العمل به لكشف أو لشرح العلاقات المتداخلة بين الظاهرة . ولهذا كل التصنيفات متعمدة وتعسفية وتجريبية وتلمسية . هنا أنا لا أشير إلى اكتشاف حقائق جديدة قد تجبرنا على تنقيح فئاتنا ، ولكن بالأحرى أشير إلى الأساليب الجديدة للنظر إلى الأشياء . . .

كل التصنيفات بهذا المعنى تكون عملت بحق الشفعة — أى أن إقترابها أو تضمنها لجزء من الظاهرة يعطيها حق ضمها لفئتها — بذلك نكون اكتشفنا نظرة جديدة إلى الأشياء ، وهذه كما قلت قد تكون هامة فى تنظيم وفهم مسائل موضوع التصنيف . ولكننا لا نكشف طبيعتها الحقيقية (لأنه ليس هناك شئ كهذا) .

هذه هى قائمتى للنظم الإجتماعية . ولقد قلت ما فيه الكفاية عن طبيعة التصنيف ، ولا أرمى إلى مقارنة قائمتى مع الأساليب المختلفة فى تصنيف النظم التى اقترحها غيرى من الدراسين . ولهذا يلزم إضافة ملاحظة وهى أن معظم الاصطلاحات هى شروح ذاتية .

النظم العملية Operative

النظم التنظيمية Regulative

جسدى Somatic

إقتصادى Economic

ترفيهى — جمالى Recreational-aesthetic

علمى Scientific

دينى Religious (incl. magical)

تربوى Educatical

سياسى political

قانونى Légal

قرابى Kinship

إصطلاح جسدى Somatic قصد به توضيح كل نماذج العمل المقننة التى تحمل أهدافها خاصة على نواحى وحقائق الوجود الفيزيقى (الجسمى) مثل الجنس Sex والعمر ومعالجة الأمراض والختان وما شابه ذلك. كل من الاصطلاحين العملى Operative والتنظيمى Regulrtive لا يمثلان تقسيما حادا بين فئتان من النظم الإجتماعية، ولكن إنتقالا تدريجيا من واحد إلى الآخر. أى فئة Class من النظم الإجتماعية هو فقط أكثر أو أقل عملياً أو تنظيما[1].

وهناك بعض المصطلحات تسمى بها النظم الإجتماعية، وقد يتبادر إلى الذهن أنها نوع من التصنيفات، ولكنها فى الحقيقة مصطلحات تتعلق بأنواع

(١) Nadel : op.. ctt., P. 129—136.

المجتمع كالنظام الإقتصادى والنظام السياسى ، فبينما هناك نظم إجتماعية تسود النظم أو بصفة من صفاتها ، فمثلا هناك نظم عامة فى المجتمع يمارسها كل أعضاء فى مناطق محدده من المجتمع ولذلك تسمى نظم محلية كنظام الثأر فى بعض القرى النائية ويلاحظ أن هذه التفرقة تقوم على أساس مدى عمومية النظام ، وهناك نظم تقوم التفرقة بينها على أساس ممارستها إما بصفة دائمة أو بصفة مؤقتة فمثلا النظام الاقتصادى يمارس بصفة دائمة على مدار السنة ، بينما هناك نظم لا تمارس إلا فى أوقات محددة من كل عام ، فإذا حل هذا الموعد ظهر النظام ومارسته هيئته مثل الموالد والمواسم الدينية،ولذلك تسمى نظم دورية أو تكرارية لأنها تتكرر فى نفس الموعد من كل عام . وهناك نظم تظهر على فترات غير منتظمة ولا محددة ، بل تظهر إذا ما اكتملت عناصر النظام ، مثل نظام الزواج ، فبمجرد التقاء الشريكين والإتفاق على الخطبة يبدأ نظام الزواج فى الظهور ويمارس حتى تتم بقية العناصر وهى المهر والخطبة والحفلة ، فيكون النظام قد أدى وظيفته ، ويعود مرة ثانية إلى الكمون ، بمعنى أنه لا يزول من المجتمع ولكنه موجود ومعترف به من المجتمع ، ولكنه يكمن فى انتظار الظروف والملابسات التى تتيح ممارسته مرة ثانية وهكذا .

ويلاحظ أن هذا التقسيم ليس جامداً . (فالفرق بين النظام العارض والنظام الدائم مثلا يعتمد على وجهة النظر . فمثلا المحكمة فى المجتمع الحديث يمكن أن يقال إنها تمارس بصفة دائمة بالنسبة لكل المجتمع ، وذلك باستمرار قيامها بالعدالة ، ولكنها بالنسبة لأولئك الذين يدخلون المحكمة فى حوادث قانونية يكون النظام عارضاً بالنسبة لهم .ونظام مثل نظام الكنيسة ربما يعرض كل هذه الأنواع . فالكنيسة تعتبر منظمة تشرف على الأخلاق والمسائل الروحية وهى بهذا تعتبر نظام دائم ، وبعض عملائها يعتبرون عارضين فى حالات الصلاة أو الاعتراف ، بينما الآخرون يعتبرون تكراريون مثل صلوات الأحد والأعياد.

ويمكن أن يعتبر النظام عارض بمعنى آخر ، ذلك عندما يكون الأفراد أحرار فى استعمال النظام أو عدم استعماله حسب رغبتهم ، ومجتمعنا مملوء بكثير من هذه النظم . ويمكننا أن نطلق عليها النظم البديلة أو النظم الحرة ، فى مقابل النظم الأخرى التى يطلق عليها نظم إجبارية)[1] .

بل إن النظام الواحد قد يعرض كل هذه الأنواع أيضاً عن طريق عناصره فالمعروف أن نظام الزواج مثلا يتكون من عناصر ، (بعضها عارض ولهذا يظهر عدم انتظام فى الحدوث مثل العناية بالنسل أو الطلاق، وبعضها تكرارى مثل الزيارات الدورية للأقارب المطلوبة من الزوجين فى مناسبات معينة كالأعياد وكذلك بعضها دائم مثل العلاقات الجنسية وتقسيم العمل)[2] .

(١) Nadel ; op. cit.. P. 129.

(٢) Ibid. P. 125.

الفصل الثانى

التصنيع

١ — النظرة الاجتماعية للصناعه

كان الإنسان ، دائماً « صانعاً » بطرق مختلفة ، فقد استخدم الأدوات دائماً للحصول على الغـذاء وإشباع حاجاته . وتتضمن الصناعة المتقدمة ، فى نهايتها ، على استخدام الأدوات والآلات المعقدة بدلا من عصا الحفر والمحراث والقوس والسهم التى استخدمها الرجل البدائى للحصول على غذائه اليومى . وكما وضح الأنثروبولوجيون وبين التاريخ ، كان الإنسان دائماً لا يستخدم فقط الأدوات ، ولـكنه أيضاً يصنعها . ذلك أنه كان ذكياً ويستطيع تكييف الوسائل للأهداف لإنجاز أعماله (١) .

ففى المجتمعات المتأخرة صنع الانسان الآلات التى تعينه على إشباع حاجاته الأساسية سواء عاش على الصيد فصنع القوس والسهم والنبال والشباك ، أو كان فى مجتمع رعى عرف صناعات الصوف والألبان ، أو عاش على الزراعة فصنع الفأس والمحراث . وفى المجتمعات التاريخية قامت الصناعات الحرفية ، وفى المجتمعات الراقية قامت الصناعات الآلية .

ويمـكن تعريف الصناعة بأنها التطبيق لأساليب معقدة لانتاج سلع اقتصادية وخدمات . تتضمن هذه الأساليب المعقدة استخدام الآلات من أجل تحسين كمية ونوع الإنتاج .

---

(١) Pascual Gisbert ; "Fundamentals of Industiial Sociology" Tata Mc Graw-Hill Pudlishing Co. LTD Bombay-New Delhi, 1972. P. 3.

وإذا نظرنا للصناعة كشيء ميكانيكي فهي تمت إلى العلوم الطبيعية ، أي أنها تتعلق بصناعة الأشياء الطبيعية فهي تقع في منطقة العلوم الهندسية . ولكن إذا نظرنا إلى أن هذه الصناعة تعيش في مجتمع وأن إنتاجها هو لهذا المجتمع وأن وجودها يتوقف على الحاجات الاجتماعية . من ذلك يتضح أن هناك علاقة وثيقة بين الصناعة والعلوم الاجتماعية (١) .

ومن الواضح أن العمل الصناعي لا يعمل في فراغ ، بل إنه يكون عادة استجابة لحاجة اجتماعية ، ولهذا فالعمل الصناعي أصله اجتماعي ، ولكن أولئك الذين يتعلمون الصناعة لا يعنون بأصلها الاجتماعي ولكن كل عنايتهم موجهة للحصول على المادة وتجميعها التي يؤدي إلى إقامة الصناعة ، دون الاحساس بالحاجة الاجتماعية التي أدت إلى إنشاء هذه الصناعة أو ذلك المصنع . وذلك الذي يفكر في اختراع محرك صغير أو أكثر قوة أو أقل تكاليف لا يفكر في السبب الذي دفعه إلى التفكير في هذا الاختراع ، فهناك إذن حاجات اجتماعية تدعوا إلى التفكير في الاختراع ، وهناك آثار اجتماعية لاستعمال هذا الاختراع (٢) . ومن ذلك يتضح أن هناك علاقة وثيقة بين الصناعة والعلوم الاجتماعية ، وهذه العلاقة من نوعين : الأول الموقف الاجتماعي الذي يؤدي إلى الحاجة إلى الصناعة والثاني تأثير هذه الصناعة على المجتمع .

وغني عن البيان أن أي حقيقة ، وخاصة حقيقة معقدة مركبة مثل الصناعة، يمكن دراستها من وجهات نظر مختلفة، تكنولوجية وفيزيقية وسيكولوجية .

(١) Ogburn, W. : «The meaning of Technology» Essay in «Technology & Changing Society» Edit by Ogburn and Others- Houbhton Mifftin Company 1953 P. 9.

(٢) Ibid, : P. 10

ولكن كاجتماعيين علينا أن نركز على المظاهر الاجتماعية أو العناصر الاجتماعية، التي تفصح عن نفسها فى الصناعة .

ويعتبر المصنع نظام اجتماعى إذ هو نمط مركب من العلاقات الاجتماعية المتبادلة التى يمكن اعتبارها كلا . وذلك لأن كل جزء فيه يحمل علاقة متساندة ومتبادلة لكل جزء آخر ، إذ أن أجزاء المصنع تعمل فى علاقات متبادلة ومتساندة لحفظ التوازن ، ذلك أن حالة التوازن لها صلة باستمرار حياة المصنع ، وتفكك التوازن يشابه الموت . وحالة التوازن تقوم على أساس القدرة التكاملية لجميع الأجزاء . فوظائف كل من هذه الأجزاء تعمل على حفظ واستمرار وجود الكل .

ومفهوم المصنع كنظام اجتماعى ظهر ببطء من دراسات عديدة مثل دراسات
W. E. Warner and J. Low : «The social System of tge modern Factory» Yale Universty Press 1647. Wilbert. E. Moor : «Industrial Relations & the Social order» The Macmilin company (١)
هذه الدراسات استخدمت الطريقة التى يتبعها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون فى ملاحظة المجتمعات ، فطريقتهم هى ملاحظة السلوك اليومى للناس فى علاقاتهم مع بعض إلى أن يتحدد نمط التأثير المتبادل بينهم . وهذا يمكن عمله فى المصنع ، تماماً كما يمكن عمله فى المجتمع . وهكذا ينظر إلى المصنع كمجتمع فيه يشغل العمال مراكز اجتماعية مختلفة ويؤدون الأدوار المحددة. بعض هذه المواقف الاجتماعية محددة بوضوح على خريطة تنظيم العمل فى المصنع ، فالرئيس والملاحظ ورئيس العمال والعمال العاديون لهم واجبات محددة بوضوح وعلاقات محددة أيضاً مع زملائهم العمال . كل هذه المراكز الاجتماعية والعلاقات السابق وصفها بالإضافة

---

(١) Miller, Delbert C. & Form, W. H. : «Industriol Sociology» Harper & Brothers New York 1951 P. 23

إلى تلك التى توجد فى الاتحادات العمالية تـكون التنظيم الرسمى للمصنع . وفى الحقيقة اتضح أن خريطة العمل تتـكون من أجزاء صغيرة هى جماعات وجهاً لوجه فى علاقات وثيقة . وهـكذا فالمصنع فى حقيقته هو مجتمع من الجماعات الأولية ذات العلاقات وليس عدداً من الأفراد المنفصلين .

وعلم الاجتماع هو العلم الذى يدرس المجتمع ، ويتضمن المجتمع نفسه على نسيج العلاقات الاجتماعية ، مع التوليفات والمركبات المنبعثة منهـا ، كالجماعات والاتحادات والنظم فمن ثم فأصل المجتمع هو العلاقات الاجتماعية ، التى تتـكون أساسياً من الوعى المتبادل mutual awarnes ، الذى عادة يتبعه علاقات متبادلة وتفاعلات متشابكة . الوعى المتبادل هو الذى يميز الحقيقة الاجتماعية ويمايزها عن غيرها من حقائق العلوم الأخرى .

فعلم النفس يشبه إلى حد كبير علم الاجتماع . ولـكن يلاحـظ أنه عندما يحصل فرد على طاقة من آلة ما ، فهو يتعامل معها ، وحتى عندما يخربها ،فنحن نواجه ظاهرة سيكولوجية لاتتضمن إلا فرداً واحداً . ولـكن عندما يأتى مشرف ذلك العامل ويعنفه على تخريبه الآلة، تنبعث حقيقة اجتماعية . ومن ثم ، يتعامل علم النفس الصناعى مع الأفراد والسلوك الشخصى والمشاكل كمواضيع عن الشخصية وعواملها فى إشباع الشغل ودوافع العمل الداخلية . وبالعـكس يهتم علم الاجتماع بالعوامل الاجتماعية أو عوامل التفاعل المتبادل ، كالعلاقات الصناعية والإنسانية، والتنظيمات الرسمية وغير الرسمية . وبعض هذه المشاكل يشترك فيها كل من العلمين ، ولـكن وجهة النظر أو أسلوب الدراسة لهـذه الظواهر يتمايزان . ذلك حتى فى العلوم المشتركة مثل علم النفس الاجتماعى الذى يدرس الجماعات ، ولـكن من وجهة النظر إلى أعضائها الفرديين . بينما دراسة الجماعات والأفراد

الذين يكونونها من ناحية التفاعل المتبادل الاجتماعي وبناء الجماعة ، هي دراسة سسيولوجية .

ومن ناحية أخرى، الطبيعة الخاصة للاقتصاد ، فيما يقابل طبيعة علم الاجتماع، واضحة . إذ يعنى علم الاقتصاد بمناشط الإنتاج التقليديه والتوزيع والاستهلاك، كما يعنى بالمشاكل المالية والتبادل . ومن ثم عند تطبيقه في الصناعة ، يتعامل بصفة خاصة مع مسائل مثل الربح والميزانية والضرائب والاحتكار . واعتاد رجال الاقتصاد الأوائل التعامل مع هذه المسائل تجريديا ، ونادراً ما يمسون مظاهرها الإنسانية أو الاجتماعية أو السيكولوجية . ولكن تغيرت الأفكار إلى حد كبير فيما يختص بهذه المسائل ، وأصبحت اليوم هذه العلوم أكثر تخصصاً وموضوعياً . ولكن مبادينها المشتركة وتبادل المعلومات أيضاً زادت بين هذه العلوم جميعاً . والفرع الأخير لعلم الاجتماع الذى ينمو بسرعة الآن، هو علم التنظيم الاجتماعي الذى يقدم مساهمات عظيمة للصناعة[1] .

من المناقشة السابقة يتضح أن علم الاجتماع الصناعي هو دراسة لاتهتم فقط بالمفاهيم الاجتماعية العامة ، ولكن بتلك المتعلقة بالصناعة خاصة . ومن ثم فعمل علم الاجتماع الصناعي هو دراسة العناصر الاجتماعية للصناعة سواء أكانت مؤتلفة أو متفاعلة مع حقائق أخرى[2] .

ولقد كان يظن أن الصناعة منظمة اقتصادية فقط ، ولكن من أهم اكتشافات العصر الحديث هو التحقق من أن الصناعة نفسها نظام اجتماعي

---

(١) لمزيد من القراءة فى هذا الفرع يرجع إلى د. محمد على محمد : « علم الاجتماع والتنظيم ». دار الكتب الجامعية . الاسكندرية ١٩٧٢ — ويعتبر أول كتاب باللغة العربية فى هذا الموضوع

(٢) لمزيد من القراءة فى هذا الفرع يرجع إلى د . عبد الباسط حسن « علم الاجتماع الصناعى » و د . محمد أبو على « الصناعة والمجتمع » دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

مكرس للإنتاج وتسويق البضائع . ولهذا فالعلوم الإنسانية هامـة للصناعة بصفة عامة ، وعلم الاجتماع بصفة خاصة . ومن ثم فعلم الاجتماع يهتم بصفة خاصة بالعلاقات الاجتماعية فى الصناعة وتأثيراتها على ظاهرة الصناعة .

تلك العلاقات قد تكون داخلية أو خارجية . العلاقات الداخلية هى تلك الموجودة فى داخل الصناعة نفسها سواء كانت تخص الإدارة أو العمليات أو كليهما . أما العلاقات الخارجية فهى التى توجد بين الصناعة،والأجسام الخارجية الأخرى مثل الأسرة والحكومة والنظم التربوية والمجتمع المحلى .

وتنقسم العلاقات الداخلية إلى رسمية وغير رسمية ومختلطة :

العلاقات الرسمية ، هى تلك المنبعثة مباشرة من إنجاز الإنسان لوجباته ، وربما تكون إدارية أو عملية . ونوع آخر من العلاقات الرسمية تسمى قانونية أو فرضتها العادات والأعراف أو الاتفاقيات المتضمنة فى المساومات الجمعية أو الاجراءات الحكومية أو المؤتمرات الصناعية . . الخ . وتلك عادة يطلق عليها العلاقات الصناعية .

العلاقات غير الرسمية : هى التى تنبعث تلقائياً فى كل مكان فى الصناعة . ولو أنه من الصعب تنظيمها رسمياً ، هى عادة تعضدها القواعد العـامة للأخلاق والعادات وقد توجد بين الأفراد أو الجماعات ، مثل جماعات اتحاد العمال ، أو اتحادات العمال فى المجتمع المحلى ، أو العمال الذين يتحدون معاً ليسمع صوتهم فى شكواهم ، أو للتأثير فى عمليات الانتخابات سواء المنظمات النقابية أو السياسية . والجماعات الصغيرة التلقائية التى يطلق عليها العمال اسم (الشلة) أو نتيجة التجاور فى السكن أو الموطن الأصلى، هى مثل لذلك النوع من العلاقات غير الرسمية .وبرغم أن هذه الجماعات غير رسمية ، فهى مستقرة ومحددة ، وتنشأ عند كل مستويات

الصناعة ، المديرون ورؤساء العمال والعمال ، وتشتمل على ما يسمى المنظمات غير الرسمية للصناعة .

العلاقات المختلطة ، هى تلك التى وصفها بعض الكتاب بأنها علاقات اجتماعية فنية . ونحن نفضل تسميتها وظيفية اجتماعية ، طالما أنها تحدث أثناء إنجاز الفرد لواجباته التى قد تكون من طبيعة فنية أو إدارية ، ولكنها دائماً تختص جزئياً بإنجاز الفرد لوظائفه .

العلاقات الخارجية هى التى توجد بين الشركة والأشخاص الخارجين ، والنظم والمجتمعات والجماعات ، مثل الجمهور والمستهلكين والحكومة والأسرة والمجتمع المحلى الذى تعمل فيه الشركة والمدارس والمنظمات الأخرى . هذه العلاقات عديدة ومختلفة وفى بعض الأحيان من الصعب تحديدها ، ولكن لا يمكن أن توجد صناعة ناجحة بدون أن تأخذ فى اعتبارها تلك العلاقات الخارجية ، وهى تزداد بسرعة وتزداد أهميتها . وهذا هو السبب الذى جعل الصناعة أكثر انتباهاً لهذه العلاقات، فهى إما أنها تكون عاملا ميسراً للصناعة أو تكون عاملا معوقا لها .

٢ — النظرة الاجتماعية للتصنيع

يعتبر علماء الاجتماع التصنيع من أضخم العمليات الاجتماعية ذات الأثر البالغ على المجتمع ونظمه الاجتماعية . فهو يعتبر من أهم عوامل التغير . وقد يؤدى هذا التغير إلى الفناء أو يؤدى إلى التقدم للبعض وقد يكون هادماً للآخرين ، وبقدر مدى انتشار التصنيع يكون مقدار التغير وأثره على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية .[١] وقد تنجح هذه التغيرات أو لا تنجح ، ولكن الأوضاع الجديدة على أى حال تضاف إلى القديمة .

---

(١) Ogburn, W. "The meaninh of Techmology" P. 6

وعلى هذا فإن التصنيع عند كثير من علماء الاجتماع يعتبر مغيراً للمواقف الاجتماعية ومحطا للاستقرار، وذلك لما يحدثه من تغير. والإنسان عليه أن يتكيف مع البيئة التى يعيش فيها أو لا يحيا ، وأن البيئة الإنسانية ليست مجرد الأرض والمناخ ، تلك الأشياء التى تعتبر بيئة طبيعية ولكن البيئة الإنسانية تضيف إلى ماسبق السكن والأدوات المنزلية والملابس والسيارات والمدارس والمساجد . كل هذه الأشياء التى نسميها مواد الثقافة هى نتيجة الصناعة .

والبيئة الطبيعية ثابتة تقريباً إلا فيما يتعلق بالتغيرات فى فصول السنة ، ولكن البيئة الصناعية وخاصة فى هذه الفترة تعانى تغيرا سريعاً جداً . وهذا التغير فى مواد الثقافة يرجع جزء كبير منه إلى زيادة التصنيع وانتشاره ؛ وعلى هذا يعتبر التصنيع كبيئة متغيرة مغيراً للنوع الإنسانى . البيئة الطبيعية تتغير من الشتاء إلى الصيف ، وبتكيف الإنسان تبعاً لهذا التغير كتكيفه عندما يذهب من القطب إلى المناطق الاستوائية . وكذلك فإن الإنسان يعمل على التكيف طبقاً للتغيرات الحادثة فى البيئة الصناعية ، فحياة المزارع تختلف عن حياة الصياد، وأسلوب الحياة فى المدينة يختلف عن أسلوبها فى الريف .

ولقد أدى التصنيع إلى التغير من الصناعة اليدوية إلى الآلية ، تلك الظاهرة التى اختصرت واختزلت بصورة مدهشة الانتقال من القرى إلى الحياة الحضرية . وعندما كان كل شىء يصنع باليد ، كان النظام الاقتصادى يقوم على أساس من العلاقات الشخصية الوثيقة . وتبعاً لذلك كان الأجير صديقاً لمؤجره، وكان التعاون يسود العمل والمشاركات الوجدانية والتعاطف تدخل فى علاقاتهم المتبادلة . وكانت أيضاً الحياة الاجتماعية فى المجتمع القروى أخوية وشخصية . وكان كل فرد يعرف كل شىء عن كل فرد آخر . ورغم التغيرات التى

أحداثها السينما والراديو والسيارة ، فإن القرية ظلت عالم اجتماعى مازال يسوده العلاقات الشخصية [1] .

وبعد أن أخذت الأسرة شكلها الأصيل والجوهرى فى ظل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للبيئه القروية ، انتقلت من القروية إلى عالم جديد من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التى صنعها التصنيع والتى تتميز بسرعة التغير. وعملية التكيف فى بيئة سريعة التغير صعب جداً لعدة أسباب ، أولها أن تغيرات البيئة الصناعية من الصعب التنبؤ بها عادة ، بل ومن النادر أن يكون عمل لها أى استعداد . هنالك إذن تخلف فى التكيف للتغيرات الجديدة التى أحدثها التصنيع . وفى هذه الفترات من التخلف يكون التكيف أسوأ من قبل حدوث التغيير .

فمثلا مراكز التصنيع تجذب الأسر من المناطق الريفية طمعاً فى أجر أعلاه ويتركون فى أحياء مزدحمة قد غابت منها العلاقات الأخوية والودية والوثيقة التى تتميز بها القرية . وتترك الأم أسرتها للعمل بعيداً عن المنزل ، وبذلك تترك أبناءها الصغار دون أن يرعاهم الجيران كما فى القرية ، فينضمون إلى العصابات ويرتكبون جرائم الأحداث ، وهذا تكيف أسوأ للأطفال مما هو عليه فى الريف .

وعلى أى حال فإن عملية التكيف عملية أصعب من إقامة المصانع ، ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار التصنيع عامل إنتاج للمشاكل الاجتماعية بسبب التخلف فى التكيف للتغيرات التى يحدثها .

---

(١) Burgess. Ernest W. & Lock, Harvey J. : «The Family» American Book Gmpany New York 1953. P. 99.

٣ — الآثار المتبادلة بين الصناعة والمجتمع

إذا وجد التصنيع فى مجتمع ، فهما فى حالة تأثير متبادل مستمر ، ومن السهل رؤية ذلك التأثير المتبادل بين المجتمع والتصنيع ، فالصناعة يدخلها أناس لهم شخصياتهم واتجاهاتهم فيؤثرون فى حركة التصنيع ، وكذلك الصناعة تزود المجتمع برجال ونساء قد تأثروا بالعمل فيها ، ومن خلال تأثرهم هذا تؤثر الصناعة فى النظم الاجتماعية المختلفة .

والصناعة والمجتمع يؤثر كل منهما فى الآخر عن طريق مباشر ، فالصناعة تعكس صفات ومميزات المجتمع التى توجد فيه سواء من الناحية المرفولوجية من حيث المواصلات ومن حيث موقعها على نهر أو على خطوط سكك حديدية ، أو من الناحية الفزيولوجية أى من حيث اتجاه المجتمع نحو العمل والإدارة والعمال[١] فكل مجتمع يكتسب صفاته من طبيعة عملة وعماله ، وكذلك الجنس والعمر والتعليم ، والأفكار التى يتكون منها المجتمع ، كل ذلك يؤثر على حيويته وعلى أخلاقة . ويؤثر استقرار نظام العمل على نجاح النظم الأخرى مثل المدرسة والحكومة . وقادة العمال والأعمال يمكنهم أن يضعوا جذور أسس لحياة اجتماعية نامية ومزدهرة. أو أن يكونوا عوامل فقد وإحباط لمنابع القوى فى المجتمع[٢] .

وأيضاً كثير من النظم تشعر بتأثير الصناعة عن طريق مباشر . فقيام دورات عمل مسائية تجعل الزوج والأب يبيت خارج المنزل مما يشكل أثراً خاصاً على النظام الأسرى من حيث العلاقات بين الزوج وزوجته وبين الأب وأبنائه[٣] . ومن ناحيه أخرى فالأنماط الأسرية والحياة الاجتماعية تهيء الاتجاهات والمشاعر

---

(١) Schneider : Industrial Sociology. P. 353

(٢) Miller & Form : Industrial Sociology. P. 32

(٣) Schneider : op. cit., P. 353

التى يجلبها العمال إلى مكان العمل وبالعكس مكان العمل يؤثر بعمق فى الحياة الاجتماعية[1]. فالتغير فى نوع من العمليات التكنولوجية الذى يتطلب زيادة فى استخدام المرأة فى الصناعة يؤدى إلى تغيرات جوهرية فى العلاقات الأسرية بين الآباء والأبناء وبين الأزواج والزوجات. وكذلك أى تغير تكنولوجى أو تغيرات تنظيمية ربما تغير وتعيد ترتيب نظام الطبقات الاجتماعية وربما يتغير أيضاً النظام الأساسى لطبيعة التركيب السكانى.

وهناك تأثيرات للصناعة عن إدراك ووعى مثل الصراع والنزاع الذى يحدث بين الإدارة والعمال وبين العمال والإدارة والمجتمع، وقد ترى الصناعة نفسها أمام مشكلة فى المجتمع عليها أن تقرر رأيها فيها، وذلك مثل الذى يحدث فى هذه الأيام من الحركات التى تتخذها الدولة للتأثير على الصناعة وتوجيهها فى سبيل مصلحة المجتمع ومحاولة تحديد الأسعار للمنتجات الصناعية.

وفى الحقيقة فإن المجتمع والصناعة يجب أن يكونا فى حالة تكامل، وإذا غابت هذه الحالة فإن الصراع ينشأ بين المجتمع والصناعة كل يريد الحصول على مكاسب له، مثل ما حدث فى سوريا من محاولة الصناعة (الشركة الخماسية) السيطرة والاستغلال واستعانتها بالاستعمار وأذنابه والرجعيين والانفصاليين فى تحقيق مكاسب ومميزات على حساب المجتمع السورى، إبان عهد الانفصال عن الوحدة الأولى.

ومن ناحية أخرى فإن تأثيرات التصنيع على المجتمعات تختلف باختلاف نوع الصناعة من جهة ومن جهة أخرى باختلاف توزيع الصناعة.

أما من حيث نوع الصناعة، فمثلا الصناعات الموسمية تؤثر فى العمال من

---

(١) Miller & Form op. ict., P. 32

حيث أنهم سيتعطلون فترة من الزمن ، وكذلك الصناعات ذات الدورات الإنتاجية أيضاً . وفى بعض المجتمعات توجد أنواع من الصناعات تستمر فى العمل لفترة كبيرة ثم تتوقف فجأة لتعدل من أذواقها أو من طرق الصناعة مع الأنماط الحديثة ، وهذا بلا شك يؤثر فى النظام الاقتصادى للمجتمع ، ففترات الرواج وفترات الأزمات تعكس الأحوال التى يمر بها التصنيع فى المجتمع .

أما من ناحية التوزيع لأنواع الصناعة . فإن كان هناك كثير من المجتمعات بها أنواع مختلفة من الصناعات ، مثل القاهرة والاسكندرية ، إلا أن بعض المجتمعات لم تستطع أن تتجنب وجود تخصص صناعى فيها مثل المحلة ، وتخصصها فى النسيج .

وهذا التغير فى نوع الصناعة ربما يكون نتيجة لوجود الصناعة بجوار منبع من الخامات أو الأيدى العاملة المناسبة ، أو وجود الجو المناخى المناسب للعملية كالنسيج فى المحلة ، أو وجود وسائل نقل سهلة ومتناسبة مع نوع الخامة التى يستعملها المصنع . كصناعة الحديد والصلب فى حلوان ، وعلاقة ذلك بالنقل النهرى .

وتنوع الصناعة وعدمه له أثر هام على المجتمع ، فالمجتمع ذو الصناعة الواحدة يتبع نظامه الاقتصادى الحالة الاقتصادية لتلك الصناعة ، فتوقفها يؤدى إلى تعطل العمال وانهيار المجتمع كما حدث فى دمياط عندما نقل منها مصنع الحرير قبل الثورة ، فقد تعطل عماله جميعاً وهاجر معظمهم من المنطقة ، مما أدى إلى حدوث كارثة اجتماعية فى هذا المجتمع ، فبينما تضاعف حجم المجتمعات الحضرية ونمت نمواً عظيما فى الفترة من ٤٧ — ٦٠ تناقص المجتمع الدمياطى إلى الربع فى نفس الفترة ، كما يبين الجدول الآتى :

تطور نمو أهم المدن فى الجمهورية[1]

المدينة	سنة ١٩٦٠ بالألف	سنة ١٩٤٧ بالألف	نسبة الزيادة المئوية
القاهرة	٣٣٤٩	٢٠٩١	٦٠٪
الاسكندرية	١٥١٦	٩١٩	٦٤٪
بور سعيد	٢٤٥	١٧٨	٣٩٪
الاسماعيلية	٢٨٤	٦٨	٣١٧٪
السويس	٢٠٤	١٠٧	٩٠ر٦٪
مديرية دمياط	١٢	٥٤	— ١٢٪
مديرية دمنهور	١٢٧	٨٤	٣٣ر٨٪
سكان الجمهورية	٢٥٩٥٧	١٩٠٢٢	٣٦٪

(١) الاحصاء السنوى الجيب ٦٢ مصلحة الاحصاء والتعداد القاهرة ٦٣ جدول رقم ٣ تعداد سكان المحافظات وعواصمها .

بينما المجتمات ذات الصناعات المتعدد تكون مؤمنة ضد التقلبات الاقتصادية للمركز الاقتصادى للصناعات المختلفة ، كما أنها تكون أقدر على تحمل فترات الأزمات[1] . وأيضاً المجتمع ذا الصناعة الوحيدة قد يقع تحت سيطرة فرد واحد أو عائلة واحدة . بينما فى المجتمعات ذات الصناعات المتعدد تتعدد منابع السيطرة والقوة ، كما أن الطبقة العاملة فى هذه المجتمعات تكون أكثر اختلافاً اجتماعياً من تلك التى توجد فى مجتمع ذو صناعة واحدة .

وكذلك من المعروف أن الإدارة الصناعية فى المجتمعات التى أخذت بالتصنيع تمثل الإدارة قوة فى بناء المجتمع وتركيبه ويختلف مقدار هذه القوة سواء من ناحية الكم أو النوع باختلاف الأنماط الصناعية . فمثلا فى المجتمع الصناعى فى مدينة الشركة ، تملك إدارة الشركة الأرض التى يقوم عليها المجتمع ، وتملك المساكن التى يستأجرها العمال ، وتملك المحلات التجارية وتملك المدارس ، ولهذا تصبح قوة الإدارة فى هذه المدينة بالغة الكبر . فى مثل هذه المدن يكون العامل غير حر فى تعامله ، ويعتمد اقتصادياً كلية على الشركة ، فهو مجبر على التعامل مع محلات الشركة وبأى سعر تشاء أى أنه مديون دائماً للشركة تلك الديون التى تستقطع من أجره . ولهذا السبب فإن الحياة الاجتماعية فى مثل هذه المجتمعات تكون محدودة ومتسمة بقوة وحيدة مسيطرة على البناء الاجتماعى ، ولا توجد حركات عمالية أو اتحادات تعارض وتقلل من سلطة الشركة . وذلك مثل ما كان حادثاً قبل الثورة فى شركة شل التى كانت تسيطر على مجتمعات منابع البترول ، وكذلك شركة المحلة الكبرى ومدينتها العمالية ومجتمعات الصيد على سواحل البحر الأحمر .

(١) Schneider : Op. cit. p. 359

٤ — التلازم بين التصنيع والتحضر

Urbanization is the indispenseble partner of industrializaition, the measure of its growth, the mirror of ist complexities, the interprete of its valuse, and the matrix of its expansion.

التحضر هو الشريك الضروري والذي لا بد منه للتصنيع وهو مقياس نموه ومرآة تعقداته والمفسر لقيمه ومكان توسعه وتضخمه(١).

وكذلك يقول جست Gist.

Hence the North-east become increasingly industrialzed and urbanized, industrialism begat urbanism, and urbanism begat industrialism.

منذ أن اتجه الشمال الشرقي إلى الازياد تصنيعاً وتحضراً. فإن التصنيعية ولدت الحضرية، والحضرية ولدت التصنيعية(٢).

ومن ذلك تتضح العلاقة الوثيقة بين التصنيع والتحضر. ذلك أنه طالما كانت الصناعة في مرتبة الصناعة اليدوية لم يكن هناك سبب لتركز السكان للأغراض الصناعية فقط. ولقد كانت مميزات التركز السكاني في ذلك الوقت في غير صالح السكان، لأن المواصلات لم تكن سهلة، وكذلك عملية تموين العمال بالمأكولات، وحتى عندما كانت المصادر تدار بقوة الدفع المائي لم يكن التحديد الجغرافي يسمح بتوسع الصناعة.

ولقد قسم فيبر Weber التطور الصناعي إلى أربعة مراحل، أولا النظام العائلي، والثاني نظام الصناعة اليدوية أو الطوائف الحرفية: والثالث نظام

---

(١) Paul Meadows : «The industrial way of life» Technology Review 1946 Now York.

(٢) Gist and Halbert : «Urdan Society» Thomas J. Crowell Company. New York 1956.

الاستخدام، ورابعاً نظام الصناعة المركزة . وبينما المرتبتان الأولى والثانية يلغشيان على تركز سكانى محدود فى المدن ، إلا أنه فقط فى النوع الرابع الكتل العظيمة من الناس تكتلت فى المراكز الصناعية[1] .

وفى الواقع أن من أهم آثار التصنيع إعادة بنـــاء المجتمعات أو التنمية السريعة لها وعمليات التغير السريعة التى تحدث لهذه المجتمعات . والحقيقة أن الصناعه منذ نشأتها ما زالت تستقر بجوار المدن ، أو بجوار مراكز المواصلات ، أو بجوار مناطق الخامات . وفى معظم الحالات التى نشأت بجوار المدن ، فهناك تلازم بين التصنيع والحضرية ، وذلك لعدة أسباب :

أولا : حاجة الصناعة إلى الأيدى العاملة . فالنظام الصناعى يتطلب عمالا يمكن استدعاؤهم للعمل بعد فترة من الراحة ، ولهذا كان على الصناعة أن تضع نفسها بجانب مجتمع موجود فعلا يمكنه أن يمدها بالعمال، أو أن توجد هى هذه المجتمعات ، وأن تعمل على إنشاء مساكن بجوار العمل . وإن كانت المواصلات قد أتاحت أن تكون المساكن على بعد كيلومترات من الصناعة ، كما هو الحال فى حلوان وشبرا الخيمة .

ثانياً : والسبب الثانى عند بعض الصناعات هو : أن تكون قريبة من المجتمع ، حيث يصب فيها إنتاجها الصناعى ، وبذلك توفر قيمة المواصلات من التكاليف .

ثالثاً : التصنيع يحتاج إلى مجتمع كنبع للخدمات التى تحتاجها الصناعة ، فعادة المجتمع الموجود فعلا يكون به مواصلات سريعة ، بل وقد يكون مركز

---

(١) Idid : P.

مواصلات يسهل على الصناعة عملية نقل الخامات إليها، وعملية نقل المنتجات إلى المستهلكين ، كما هو الحال فى القاهرة والإسكندرية ، وكذلك عادة يكون المجتمع الموجود لديه القدرة على معاونة الصناعة ميكانيكياً كمدها بقطع الغيار أو بالصناع المهرة ، وكذلك وجود الصناعة بجوار مجتمع يجعلها تتمتع بميزات الحياة الحضرية: من، معاونة المطافىء وحماية رجال البوليس وكذلك المستشفيات والعمال وتعليمهم فى مناطق التدريب المهنى ، وكذلك يقدم المجتمع الحضرى لوناً من الحياة والترفيه لجميع الطبقات الصناعية ، ويمد الصناعة بكل أنواع القوى العاملة فى جميع المستويات(١) .

وفى الواقع بنمو التصنيع وسرعته فى جمهورية مصر العربية ، ابتدأ نظام المهن الطائفية فى الزوال ، وكانت هذه العملية تدريجياً فى بعض المناطق وفجأة فى البعض الآخر . وفى بداية تصنيع منطقة مّا ، فإن المجتمع المحلى يظل محتفظاً بسماته القديمة ، وذلك يرجع إلى قلة التصنيع من جهة ، ومن جهة أخرى لوجود نظام شائع وعام للقيم يرتكز على الدين ، ويشارك فيه جميع أعضاء المجتمع كما أن هناك سلماً للمراكز الاجتماعية معترفاً به وإحساساً عميقاً بالفرق بين العامل والموظف ، ولكن بنمو التصنيع وزيادة كميته بدأت هذه المجتمعات فى تكتيل وتركيز مظاهر المجتمع الحضرى ، وستظل هذه المجتمعات تتعدل إلى التحضر بزيادة التصنيع مثل ما حدث فى المجتمع المحلى بشبرا الخيمة . وتلك المجتمعات الحضرية الموجودة يرجع معظمها إلى النمو السريع للتصنيع .

ما هى إذن تلك العوامل التى تعمل على الإطاحة بالمجتمع التقليدى، وتعمل على خلق ذلك النوع المعين من المجتمعات الحضرية .

---

(١) Schneider : op. cit. P. 355.

الأول والأهم هو : طبيعة القوة العاملة التى يتطلبها التصنيع . فإن نظام الإنتاج الصناعى لا يمكن أن ينمو بدون قوة عاملة متحركة ، أى أن تكون قوة عاملة غير مرتبطة بمكان أو شخص ، ويجب أن تكون القوة العاملة متصفة بالحركة لعدة أسباب . إذ أن الصناعة يجب أن تكون مستعدة للانتقال إلى أى مكان للاستفادة من منابع جديدة أو مصادر لقوى جديدة أو أسواق جديدة . وأكثر من هذا فالتصنيع يتطلب قوة عاملة لا يكون لها أى مصدر أو أى روابط أو أى حقوق غير تلك التى يمنحها المصنع والعقد . وعلى هذا فالمجتمع المحلى الشديد التماسك يناقض الظروف التى يتطلبها التصنيع، إذ أن مثل هذا المجتمع يوفر فرصاً اقتصادية بديلة، ويتدخل عن طريق روابطه الاجتماعية الصلبة فى عملية انتقال العمال .

ويبدو بوضوح أن وجود التصنيع على الأقل فى فترة النمو السريع بعيد الاحتمال مع وجود مجتمع بمعناه التقليدى(١) .

فالمجتمع التقليدى لا يناسب ولا يتوافق مع معنى دافع الربح، إذ أن النمو السريع للصناعة ــ حتى الصناعة المستقرة ــ هدفه الأصلى: هو الوصول إلى أقصى قدر من الربح . وهذه ليست دوافع هذا الفرد أو ذاك ، ولكنها هى الوظيفة الضرورية إذا أريد للصناعة أن تنجح دون الاعتماد على إعانة . وهذه الوظيفة الضرورية هى قائمة حتى فى المجتمع الاشتراكى، إذ أنه لو لم تحقق الصناعة أرباحا فمن أين ستأتى قوة الدولة إذا كانت صناعتها دائماً فى حاجة إلى إعانة ، فتحقيق الربح هو: وظيفة ضرورية للصناعة فى أى نوع من المجتمعات، لأنها الوظيفة التى تحقق لها الاستمرار والبقاء . فإذا كان يراد النجاح لهدف الربح لا بد من أن

---

(١) Schueider: op. cit. P. 364.

يغير بل وينبذ كثيراً من الروابط الهامة فى المجتمع المحلى . فالعلاقات التى بين العامل والإدارة هى علاقة لا شخصية ومؤقتة وزائلة وهى فى أصلها عديمة الرأفة بالرغبات الشخصية . فلا عجب إذا أدى التصنيع إلى زوال المجتمع التقليدى .

والعامل الثانى فى التصنيع الذى يؤدى إلى تفكك المجتمع التقليدى وزواله: هو،أن التصنيع يؤدى إلى تفاوت عظيم فى توزيع الثروة وفى تأمين الحياة وفى مستوى الحياة وأساليبها وطريقتها ، فمن أبرز صفاته أنه يعيد ترتيب نظام الطبقات فى المجتمع . فأصحاب الصناعة ومديرو الصناعة والعمال المهرة والعمال غير المهرة والكتبة والحرفيون لكل فئة أهداف خاصة وثقافة منفصلة ومستويات من المعيشة مختلفة وآمال منفصلة إن لم تكن متعارضة .

وحقيقة إنه كانت هناك فروق اقتصادية واسعة فى مجتمعات العصور الوسطى ، ولكن هذه الفروق كانت مؤيدة بتقاليد طويلة ثابتة ، ولكن التصنيع لا يمكن أن يتضمن مثل هذه التقاليد بل التصنيع عدو لنمو هذه التقاليد والنتيجة هى ليست فقط عدم مساواة فى المواقف الاجتماعية والمراكز الاقتصادية بل إحساس مفهوم بعدم المساواة مصاحباً بإحساس بعدم العدالة وبالظلم . هذا المركب ، عدم المساواة والظلم هو الذى يعمل على هدم وحدة وتماسك المجتمع الصناعى (١) .

وعامل ثالث للتصنيع يعمل على تحطيم المجتمع التقليدى ، فعند نشأة الصناعة فإنها تستخدم الأيدى العاملة الموجودة فى المجتمع . ولكن عمليات النمو السريع للتصنيع تعمل على جلب عمال من القرى المحيطة ، وهذا يعنى أن رجالا ونساءاً من مختلف الثقافات الفرعية يتجمعون ويختلطون . وتجاور وتقارب هذه

(١) Schneider : op. cit. P. 366.

الثقافات المختلفة يعمل بسرعة على تحطيم وحدة وتضامن المجتمع القديم ، وربما توجد فروق فى القيم والعادات والتقاليد . فبالنسبة للوافدين من القرى فإن التأثر بالحياة الحضرية لا يبلغ مداه إلا بعد المرور على مراحل متعددة والدخول فى علاقات مختلفة مع سكان المدينة وأجهزتها المختلفة . ويمكن القول بأن الجيل الذى يهاجر إلى المدينة بنفسه قد يظل محتفظاً بالرواسب الريفية إلى حدما، وتقل هذه الرواسب فى الاجيال الأخرى[1] .

حان الوقت لاختبار السؤال ، هل الاختلافات بين المجتمعات الريفية والحضرية فى البلاد النامية تزداد أو تتناقص ؟ يذهب البعض إلى أن تلك المجتمعات تتحول نحو التباعد ثقافياً واجتماعياً . ففى الحقيقة كثير من المدن فى المجتمعات الآخذة فى التحول إلى التصنيع تجرى تحولات ملحوظة ، ليس فقط فى الحجم ، ولكن فى تنظيماتها الاجتماعية أيضاً ، فأنساق التدرج والأسرة والاقتصاد والسياسة التقليدية تنهار ، وتنبعث أشكال جديدة تتوائم مع حركة التصنيع . ومع ذلك هذه التغيرات لا تعنى بالضرورة أن الاختلافات بين الريف والحضر هى أكبر عما كانت من قبل بالأحرى ، تفترض الشواهد أن القوى المتناقضة ما زالت تتفاعل ، ومن ثم لم تنتظم بعد الأنماط الجديدة .

فعند تقييم التعارض بين الريف والحضر لابد أن يضع الإنسان نصب عينيه رواسب الماضى اللاصناعى (فى المجتمعات مثل الهند كثيراً من المدن الكبيرة، وخاصة وأن ضواحيها تتضمن عدداً كبيراً من المزارعين)[2] . هذا يؤدى

---

(١) الدكتور عاطف غيث : « مقدمة فى علم الاجتماع » — دار المعارف — الاسكندرية سنة ١٩٦٣ ص ٢١١ .

(٢) Daivs,K : « The Population of India & Pakistan» Prenceton, Univer. Press, 1955. P. 138.

إلى تداخل معين فى البناء المهنى للمدينة والقرية . فالأقسام الحضرية والريفية تنسدمج وتتداخل ، لأن سكانهم ذوى المكانة المنخفضة يتشاركون فيما أطلق عليه لويس Lewis مصطلح ثقافة الفقر The Cultnre of poverty [(١)] . ويعمل المركز الاقتصادى — غير المرغوب للطبقات المنخفضة سواء الريفية أو الحضرية — على منعهم من تعضيد أنماط كل من الصفوة التقليدية أو الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الصناعية الحضرية المنبعثة حديثاً . ويصنع الفقر ضغوطاً قوية على بناء الأسرة كما كان يفعل الفقر قبل التصنيع . وبالرغم من أن التصنيع يعمل على تحسين المركز الاقتصادى للشريحة المنخفضة تدريجياً ، إلا أنه يظل كثير من الأشخاص واقعاً تحت وطأة ثقافة الفقر الواسعة الانتشار فى الدول النامية .

على أى حال تعمل قوى مختلفة على تغيير طبيعة مميزات الريف والحضر نتيجة عمليات التصنيع . فكما أن المدن تتمدد فى الحجم وفى المكان ، فبعض القرى فى الضواحى تمتص فى المركب الحضرى مثل ما حدث فى مصر فى مناطق حلوان وشبرا الخيمة .

وبتقدم التصنيع ، يتزايد التساند بين المدينة والقرية ، وليست المدينة تعتمد على الإنتاج الزراعى للقرى المجاورة فقط ، ولكنها تبتدىء فى إرسال سلع مثل الآلات الزراعية إلى القرى ، وبإنجذاب المجتمعات الريفية فى هذا النظام الاقتصادى الجديد ، تتداخل فى التحضر الصناعى وتحدث تغيرات بطيئة فى الريف .

---

(١) Iewis, O. : «The children of Sanchy» Random House. Inc. New York 1961. PXXIV-XXVII.

٥ ـ التصنيع يصنع أسلوبا جديدا للحياة

فالمجتمع الحضرى الذى أخذ بسيامة التصنيع له تركيب خاص ، ووظائف خاصة، ويعمل بطرق خاصة، ولـكن هذا البناء والوظائف الخاصة ليس من السهل ملاحظتها (فمن هذا يتبين أن دراسة الحياة الحضرية إنمـا تعتمد فى المحل الأول على المقارنة بحياة أخرى وبطريقة أخرى فى الحياة ، هى الحياة الريفية)[1] . فإذا قارناه بمجتمع ريفى فإن المجتمع الحضرى الصناعى يتميز باختلافات كبيرة، فبينما يـكون تركيب المجتمع الريفى بسيطاً ، فإن المجتمعات الحضرية المصنعة تـكون مركبا من مختلف الجماعات والطبقات والجنسيات والسلالات والأديان والأقسام والضواحى، والـكل مزدحم بجوار البعض ، وبينما المجتمع الريفى يتميز بأدوار قليلة محددة تماماً ، نجد أن المجتمع الحضرى الآخذ بأسباب التصنيع يتميز بتعدد الأدوار واختلافها وتباينها .

وبما أن الوظائف والعمليات مقسمة بين الفاعلين فى المجتمع الحضرى المصنع على أوسع حالات تقسيم العمل . فمن ثم يصبح الفاعلون لديهم فرص أكثر للاختيار ، وبالمثل خاضعون للصراعات المنبعثة من متطلبات الأنساق والمعايير المتناقضة ، وكلما اشتد الاختلاف تشتد وطأة المناشط على الفاعل . أما المجتمعات الريفية فهى تميل إلى أن تـكون صغيرة ولديها نسبياً قليل من الأنساق الفرعية . وعادة النسق الرئيسى هو الأسرة . وعلى العـكس ، المجتمع الحضرى المصنع يكون لديه عدد لا نهائى من الفاعلين ، وعدد لا نهائى من الأنساق الفرعية ومـكانات الأدوار .

وهناك اختلاف خطير وهام بين نمطى المجتمعين ، وهو أن الأدوار

---

(١) الدكتور عاطف غيث : المرجع السابق ص ٢١٣ .

فى المجتمع الحضرى المصنع منفصلة تماماً كل عن الأخرى فلا يحتك الرجال بعضهم ببعض إلا عندما يؤدون أدوارهم . أما العلاقات الاجتماعية فهى شديدة السطحية ، ولا تتضمن الشخصية الداخلية كما هو فى المجتمع الريفى ، فالصلات الاجتماعية فى المجتمع الحضرى المصنع تقوم على أساس المناسبات أكثر منها على أساس المراتب . فالمعاملات بين الناس ذات أغراض وأهداف أنانية بحتة ، وكثيراً ما تتضمن هذه المعاملة الاستغلال وجر المغانم . كما أن الحكم على الآخرين وتقديرهم لا يقوم على أساس شخصياتهم ، ولكن على مدى قدرتهم على أداء أدوارهم ، فليس المهم : ما هو الإنسان وشخصيته ؟ ولكن المهم : ماذا يعمل ؟ ومقدار إجادته لما يعمل .

من الواضح أن المجتمع الريفى يحافظ على قيمه وتقاليده ، ويقاوم بقدر الإمكان كل تغير فيها(١) . بينما الحياة الحضرية اليوم ليس لديها إلا قليل من القيم والمعايير المشتركة . فما هو عام ربما يكون سطحياً تماماً مثل الذوق والموضة والهوايات . وفى الحقيقة فإن التسامح فى التجديد أمر ضرورى إذا أريد لهذا الخليط من الجماعات ذات الثقافات المختلفة أن يعيشوا معاً . وطالما أن الحياة الاجتماعية فى هذه المجتمعات المصنعة لا يمكن قيامها على أساس القيم المشتركة كما فى المجتمع الريفى ، كان لابد من وجود مصادر أخرى للضبط الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى غير الجماعات الأولية والجيران فى المجتمع الريفى . فمصدر الضبط فى الحياة الحضرية هو : رجل البوليس والقانون والمحكمة ، وليس العادات والعرف والتقاليد والمعايير التى تسود وتحكم المجتمع الريفى . فالناس لا يصنعون القوانين الاجتماعية ، لأنهم يعتقدون فقط فى القانون(٢) .

---

(١) الدكتور عاطف : المرجع السابق ص ٢٣

(٢) Schneider : op. cit. P. 367.

ولأن الأدوار فى المجتمع الحديث مقسمة ، ولا يوجد نظام عام للقيم ، فإن وحدة المجتمع وتماسكه تصبح ضعيفة . وهذا النقص فى الوحدة فى المجتمع الحضرى المصنع تضاد تلك التى توجد فى المجتمع الريفى . وكذلك يضعف الولاء والإحساس بالمسئولية فى هذه المجتمعات الحضرية المصنعة ، فقد يشعر الفرد بالولاء لأسرته أو لاتحاده العمالى أو لجماعته الأهلية ، ولكنه من النادر أن يمتد أفقه الفكرى إلى ما وراء هذه الجماعات الملتصقة به ، فالمدينة واسعة جداً ومركبة ومعقدة جداً ، وليس لها دلالة مادية ، والفرد يعرف القليل جداً منها . فكبر حجم المدينة يجعل من الصعب على الفرد أن يرى ويعرف الناس الذين يريدهم لقيادة الحياة السياسية الاجتماعية(١) .

فالنقص فى الشعور بالوحدة ، والنقص بالشعور الاجتماعى يجد له تعبيراً فى الشكل الطبيعى للمدينة الحديثة . فعادة تكون المدينة الصناعية مساحة واسعة من المبانى تتشعب خارجياً من مراكز البيع خلال المناطق المختلفة وخلال الضواحى المترامية حتى تتحدد بالمناطق الريفية المجاورة ، وخلال هذا المركب يمكن أن يوجد أعظم أنواع التناقض .

فالآثار الاجتماعية لتدفق الصناعات على مجتمع ما ، هى من أكبر العوامل لحدوث هذا التناقض ، فإلى هذه المجتمعات يتدفق القرويون من شتى أنحاء الريف بثقافات مختلفة ومفاهيم مختلفة ، وفى معظم الأحيان لا يكون هناك تخطيط موضوع لاستقبال هؤلاء المهاجرين ، ومن هنا نجد المساكن تنشأ بسرعة وبدون نظام ، وتنشأ أحياء من الصفيح أو الأكواخ . وكذلك تكون الخدمات الموجودة فى المجتمع لا تستوعب هذه الأعداد الضخمة مثل المدارس والمستشفيات

---

(١) Miller & Form : «Industrial Sociology» P. 850.

والمواصلات وهنا لا يكون أمام المجتمع إلا السرعة فى الإنشاء، وعادة تكون هذه السرعة متصفة بالإحساس بأن كل هذه الأشياء مؤقتة،ولذلك ترى الأحياء تتزاحم بعضها فوق بعض وتنتشر المصانع بين المناطق السكنية ، وقد تشغل الورش أحسن المناطق الصالحة للسكن ، وتكتظ الشوارع بالسيارات، علاوة على الترولى باس والأمنيبوس ، وكذلك يُرى التفكك فى نظام وشكل المبانى الذى يعكس التفكك فى الهندسة والمهندسين، فأنماط فن العمارة مختلفة.وهذا هو وجه المجتمع الحضرى الذى داهمه التصنيع السريع ، عابس متجهم، ومتناقض مختلف غير منتظم . ويبدو واضحاً من كل ذلك أن المجتمعات الحضرية المصنعة ليست مجتمعات بالمعنى المعروف تقليدياً أو تكنيكياً . فالمجتمع الحضرى ينقصه نظام عام للقيم، فهذا المجتمع ينقصه روح المعرفة بين الفرد ورفيقه ، وبين الفرد والمجتمع أى ينقص الوحدة والتماسك .

فالمجتمعات الحضرية الصناعية إلى حد ما هى كما قال دور كيم هى حالة من اللامعرفة ، ذلك أنها تتكون من أفراد منعزلين أو جماعات منعزلة[1] .

٦ — التعاون والعزل

وفى الحقيقة: إن التصنيع قد أطلق العنان لقوتين متضادتين، فهناك التعاون والعزل، وهذا التناقض قد قوى وأضعف البناء الاجتماعى فى آن واحد.ويمكننا أن نلاحظ أن المجتمع هو عملية غير متوقفة من التنظيم والتفكك . فالتنظيم الاقتصادى للتصنيع يحتاج إلى درجة عالية من النشاط التعاونى ، والحاجة إلى النشاط التعاونى تصبح واضحة جداً إذا قورن المجتمع الصناعى بمجتمع قروى . ففى المجتمع القروى عادة معظم الناس يعملون فى إنتاج نفس الشىء والخامات

---

(١) Schneider : op. cit. P. 368.

الاقتصادية لمثل هذا المجتمع عادة يتكون من وحدات تعمل نفس العمل ، وأكثر من هذا ، فإن الاتصال والاحتكاك فى العمل طفيف جداً ، فالفرد الفلاح يحرث ويبذر ويجنى محصوله بدون أى معونة خارجية أى أنه يقوم بكل عمليات الإنتاج ، وبالعكس كل منتج فى المجتمع الصناعى يعمل فى إنتاج مختلف ، ولكنه لا يعمله بمفرده وإنما باتصال واتحاد وتعاون وثيق مع آخرين . فلإنتاج السيارة مثلا يتعاون منتجو الصلب والزجاج والقماش حتى يمكنهم التأكد من أن الجزء الصحيح من السلعة قد تم إنتاجه .

ولقد رأينا كيف أن المدينة بسكانها العديدين هى إنتاج التصنيع ،وتحول الحياة الاجتماعية للمجتمع إلى الأنماط الحضرية قد أحدث تفتتاً ، وسادت اللاشخصية فى العلاقات ، وهذا التفتت عزل الفرد ، بينما فى نفس الوقت قد وضع الفرد فى تيار عنيف متحرك من الاتصالات الإنسانية .والحراك والانتقال لساكنى الحضر يميلان إلى أن يفرقا روابط المجتمع المحلى ، وخاصة إذا كانت الأسرة قد عاشت فى مجتمع محلى مدة كافية لإنشاء علاقات .

والنظام الطبقى فى المجتمعات الصناعية يبنى حوائط من المراكز الاجتماعية التى تجعل الدخول فيها لبعض الأشخاص مستحيلا . وفى مثل هذا المجتمع يتحقق الفرد من أنه لا شئ ولا وزن له إلا إذا انتظم فى جماعة . فإذا انتظم فى جماعة فقد يجد أن غاية الجماعة تشوه وتنحرف بأغراض الفرد وأخلاقه . هذا التناقض أى التعاون والعزل كلاهما حقيقى وليس بعيداً عن الآخر(١) .

هناك ميل عام عند علماء الاجتماع نحو وصف شخصية الرجل فى مثل هذه

---

(١) Miller & Form :op. cit. P. 850—851.

المجتمعات بالمصطلحات الآتية (القلق ، عدم الاطمئنان ، اليأس) فكل الملاحظين يؤيدون وجود ضغوط عظيمة وتوترات عسيرة تضيق على الفرد فى المجتمعات الحضرية . وهناك أدلة كثيرة من مختلف الأنواع تشير إلى أن المجتمعات الحضرية المصنعة هى عامل من عوامل إنتاج المشاكل الاجتماعية والاضطراب الاجتماعى والانهيار(١) .

وقد اعتاد علماء الاجتماع وصف المدينة بأنها تتميز بأسلوب الحياة الحضرية وقد وصفها «ويرث» فى مقاله الحضرية كأسلوب للحياة بانخفاض وتداعى معدلات الإنسال . تفترض الحضرية أن المدينة لا تتلاءم مع النمط التقليدى للحياة الأسرية ، وهذا يتضمن تربية الأطفال والمحافظة على المنزل كمركز لأنواع النشاط الهام والحيوى . وانتقال النشاط الصناعى والتربوى والترويحى إلى مؤسسات متخصصة خارج المنزل قد جرد المنزل وحرمه من أهم صفاته الوظيفية التاريخية . ففى المدن معظم الأمهات يعملن خارج المنزل ، والزوج يميل إلى التأخر ، وتضخم عدد الأفراد المنفردين والمنعزلين ، وأصبحت الأسرة أصغر حجماً ، بل وأصبح عادياً أن تكون بدون أطفال أكثر منها فى القرية ، والأسرة كوحدة للحياة الاجتماعية قد تحررت من جماعة الأقارب الكبيرة التى تميز الحياة القروية ، وأصبح أفرادها يهتمون بمسائلهم الخاصة سواء فى أعمالهم أو تعليمهم أو دياناتهم أو ترويحهم أو حياتهم السياسية(٢) .

أدى ما سبق ذكره إلى عدم الاستقرار الأسرى ، لأنه فى منطقة — حيث يتناقص الضبط الاجتماعى إلى نهايته الصغرى ويزداد التعبير الفردى إلى نهايته العظمى — تتأثر فيها الحياة الأسرية بعمق .

---

(١) Schneider : op. cit. P. 368.

(٢) Bergess : «The Familly» P. 100.

كما نرى فى هذه المناطق الحضرية المصنعة معدلات الجريمة مرتفعة فى شتى أنحاء العالم، وبنوع خاص فى أحياء خاصه . جرائم الاعتداء على النفس وعصابات البلطجية وانحراف الأحداث هى ظواهر شائعة فى الحضر، فإذا درست أى جريمة من هذه الجرائم ستجد معدلاتها فى المدينة أعلى منها فى القرية(١) .

٧ ـ ضرورة الحياة الحضريه لنجاح التصنيع

فهل معنى هذا أن الحياة الحضرية لابد وأن تكون بالضرورة سيئة، ذلك أن المدينة ذاتها شاذة ومنحرفة عن مستويات المثل للحياة الاجتماعية ؟ إننا نعلم أن الإنسان فى قدرته أن يؤسس ويقيم حياة اجتماعية ناجحة تحت أكثر أنواع الظروف اختلافاً ، ولذلك فإنه من الممكن على الأقل أن توفر المجتمعات الحضرية المصنعة إشباعاً لسكان المدن : وأكثر من هذا فإن كثيراً من مظاهر الحياة الحضرية التى تتميز بشدة الإزعاج ربما يكون لها وظيفة ضرورية لوجود ونمو عمليات التصنيع .

وأنه يمكن أن نفترض أنه طالما أن الصناعة ترتكز على تقسيم العمل الذى يفرق بين الناس على أساس التكنولوجيا والقوة والملكية ، فالتصنيع لا ينجح إلا فى مجتمع الأدوار فيه سطحية، والعلاقات الاجتماعية غير شخصية . فيمكن أن يقال إن اليأس والقلق وعدم الأمان التى تحدث عنها علماء الاجتماع ربما تؤدى دوراً هاماً فى دفع الناس وخلق دوافع عندهم للقيام بالأعمال التى يتطلبها التصنيع ، فإذا أرجعنا المصطلحات التى أسلفنا ذكرها سابقاً يمكننا أن نرى ذلك بوضوح أكثر إذا أبدلنا كلمة الاهتمام بالمستقبل بكلمة القلق وكلمة لا يشبع الطموح بكلمة اليأس وغياب البلادة بدلا من الاطمئنان .

---

(١) Schueider op. cit. P. 367.

فهناك ثلاثة عوامل تضغط على الناس وتخلق عندهم الدوافع للقيام بأهم الأدوار وأصعبها فى المجتمع الحضرى المصنع[١] .

وإذا كانت الحياة الاجتماعية الحضرية تصلح لقيام الصناعة، أو هى نتيجة للنظام الصناعى، فهى على الأقل تهدر الحاجات الأساسية للطبيعة البشرية . وبهذا المفهوم فإن المجتمعات الحضرية المصنعة تعتبر شاذة، فإنه مما لا شك فيه أن الأحياء المتخلفة تهدر الحاجات الأساسية للبشرية، ومهما أنكرنا أن هذه المسألة ترجع إلى الحياة الحضرية المصنعة ككل، إلا أنها توضح أهم ناحية من طبيعة هذا النوع من المجتمعات . وبالرغم من ارتفاع معدلات أنواع الجرائم والأمراض إلا أن أهل الحضر يتكيفون مع أسلوب الحياة الحضرية، إذ أن هناك أنواعاً من الإشباع قد وفرتها الحياة الحضرية المصنّعة لسكانها . فأنواع الجاذبية للحياة الحضرية كثيرة، فهناك مراكز التسلية والمميزات الثقافية والخدمات الصحية والتربوية، كل هذا يعوض الفوائد التى خسرناها بفقد المجتمعات التقليدية . وفى الحقيقة إن كثيراً من سكان الريف يرون فى هذه المغريات وفى أنواع أخرى من الجاذبية عملية إغراء مستمرة على ترك الريف إلى الحضر المصنع .

وليس هناك ما يدعو إلى الفرض بأن الإنسان غير قادر على أن يكون اجتماعياً فى طلبه هذه التجارب الاجتماعية التى تقدمها الحياة الحضرية، كما أنه ليس هناك أى داع للشك فى أن الإنسان يمكنه أن يضع نظاماً للقيم يمكنه من الحياة فى الحضر . وعلى العموم هذا هو ما يحدث بالفعل فى المدينة، فإن معظم سكانها أصبحوا حضريين فى عاداتهم وقيمهم واتجاهاتهم، وأنهم لا يحتملون

---

(٢) Ibid., P. 369.

الحياة فى غير المدينة ، ويعتبر كارثة بالنسبة لهم إذا انتقلوا من الحياة الحضرية إلى بيئة أخرى .

وبالطبع يمكن القول بأن الحقيقة باقية وهى أن كثيراً من حالات الاضطراب الاجتماعى والفردى توجد فى المدينة ، ولكن هذه الحالات فى الواقع يمكن أن تكون السمات الخارجية والظاهرية ، ليس لشذوذ الحياة الحضرية ، ولكنها تعكس سمة هامة ، وهى أن معظم الأفراد لم يتكاملوا ويتكيفوا بعد مع الحياة الحضرية وثقافتها ، فتيار هجرة الريفيين ما زال مستمراً ويلقى فى المدينة بطوفان من أناس نشأوا فى مجتمعات تقليدية . وهؤلاء الناس لا يستطيعون أن يكيفوا أنفسهم مع الحياة الحضرية إلا فى أبسط وأضحل مستوى .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن الحياة الحضرية المصنعة تصبح سريعة التغير وذات ديناميكية عالية مما يجعل بعض الأفراد لا يستطيعون متابعة سرعة هذا التغير ، فينفصلوا عن الحياة الاجتماعية وتضطرب شخصياتهم .

فاذا بلغ التصنيع مداه واستقرت الحياة الصناعية فإنه يمكن القول بأن المجتمع الحضرى فى هذه الحالة سيوفر نوعاً من الاستقرار الذى كانت توفره المجتمعات التقليدية . وتبدوا هذه البواكير فى محاولة الدولة إزالة الأحياء القذرة المتخلفة ، والاهتمام ببناء المساكن الشعبية وتوفير الخدمات للشعب وتأميم بعض الصناعات وإعادة توزيع الثروة ، كل هذه المظاهر ستؤدى إلى خلق نظام عام للقيم فى المجتمع الحضري .

ومن هذا يتبين بوضوح أهمية إحياء القيم الدينية ونشرها على أوسع نطاق

لمعالجة الأمراض الإجتماعية الناجمة عن عملية التصنيع ، فالقرآن يقول : « إنما المؤمنون إخوة » والإخاء بين أفراد المجتمع يوجب التكافل بينهم لافى الطعام وحاجات الجسم فقط ، ولكن فى كل حاجيات الحياة ، فهو التكافل الإجتماعى بأوسع معانيه ، ويقول صلى الله عليه وسلم « أحبّ للناس ما تحب لنفسك » ويقول أيضاً « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » : وأيضاً « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » ويقول جل شأنه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

الفصل الثالث

الأسرة

١ – الأسرة جماعة أولية

تعتبر الأسرة أكثر النظم الاجتماعية دواما وانتشاراً وعمومية : فليس هناك مجتمع إنسانى – عبر ما نعرف من أعماق التاريخ حتى اليوم – لم يوجد فيه نظام الأسرة . فكل المجتمعات – صغيرها وكبيرها البدائى منها والمتحضر – قد عمل على تنظيم عملية الإنسال وإعداد أعضاء المجتمع الجدد ، وذلك عن طريق نظام الأسرة . فهى أكثر النظم الاجتماعية انتشاراً .

والأسرة هى الخلية الأولى لسائر الهيئات الأخرى فى المجتمع ، فهى أساس الحياة الاجتماعية. فمثلا فى المجتمعات المتأخرة البسيطة التكوين ، كالعشائر والشعائر والقبائل ، وكذلك فى بعض الجماعات التاريخية كالمدن ، وخاصة المدن اليونانية القديمة كأثينا وإسبرطة ، كانت هذه المدن تتكون من مجموعة من الأسر يعيش بعضها مع بعض ، ويشرف عليها كلها كوحدة مجلس من رؤساء الأسر . وفى المجتمعات الحديثة الكبيرة المتحضرة لايزال هذا صحيحا، وخاصة فى الريف ،حتى أنه يمكن القول دون خطئ يذكر أن نعرف المجتمع بوجه عام بأنه مجموعة من الأسر .

فمنذ مطلع التاريخ كانت الأسرة هى الشكل الأساس للتأثيرات الاجتماعية المتبادلة ، ونتيجة هذه التأثيرات يتم تكوين هذا الإنسان الناضج بكل اتجاهات ومعتقدات وقيم مجتمعه، إذ يوجد الفرد فى الأسرة أولا ، ولها أكبر تأثير على نمو شخصيته وصفاته الاجتماعية . فهى البيئة الأولى التى تعمل على

تشكيل حياة الإنسان بطابعها الخاص، وهى الوسط الذى تنبعث فيه مقدرة الفرد على النضال فى الحياة، وهى المحيط الذى يصبغ بلونه حياة الإنسان العقلية والاجتماعية والأخلاقية والجمالية. ففى كل المجتمعات يحتك الفرد منذ نشأته بهذه الجماعة، وهى تباشر أقوى قوة مؤثره فيه، وفيها يتعلم مشاركة الآخرين، هذا الإحساس الجميل فى علاقة مباشرة وجهاً لوجه وودية للغاية، أى بإختصار مع جماعة أولية. وبهذا المعنى تصبح هذه الجماعة الأولية عالمية وجزءاً من التراث الاجتماعى لكل إنسان، ولا يمكن لأى فرد أن يتجنب الوجود فى هذا النمط الفطرى.

وغنى عن البيان أن طبيعة الحياة الإنسانية تتميز بفتره طويلة من الطفولة يعتمد فيها الطفل فى السنوات الأولى من عمره، بل ولمدة أطول، أى إلى مرحلة النضج الاقتصادى التى يمكنه فيها الاعتماد على نفسه، يعتمد الإنسان هذه الفترة الطويلة على أسرته، فى علاقة مباشرة وقوية مع قليل من الأشخاص يوفرون له أسباب الحياة من طعام وشراب ودواء وملبس، وأهم من ذلك كله اطمئنان ودفء عاطفى، وبدون هذه الحاجات الأساسية لا يمكن للطفل الاستمرار فى الحياة.

فالأسرة بلا أدنى شك هى أهم الجماعات التى تمنحها التجارب الإنسانية، فنحن نرتبط بالجماعات الأخرى فترة طويلة أو قصيرة من الزمن من أجل إشباع هذه الحاجة أو تلك، ولكن الأسرة دائما معنا، بل فى الحقيقة نحن معها دائما. فالإنسان منذ خروجه من الأسرة أى من بيئته الداخلة إلى المجتمع العام أى إلى البيئة الخارجية يشترك فى جماعات أولية وثانوية لإشباع أغراض رياضية أو ترفيهية، وعندما يصل إلى مرحلة دراسية أعلى، فإنه يغير هذه الجماعة بجماعة أخرى، وهكذا حتى يتخرج من الجامعة إلى الحياة العملية فينضم لجماعة

أخرى، وقد ينتقل إلى عمل آخر ، فينضم لجماعة أخرى وينسى الجماعة السابقة، أو قد يحتفظ بعضو منها أو عضوين ، وهكذا تقع أى جماعة أولية من هذه الجماعات تحت وطأة تغير الظروف والمواقف الاجتماعية . إنما جماعة الأسرة فهى الدائمة التى لا ينفك الفرد من عضويتها ، مهما كانت الظروف والمواقف الإجتماعية ، فهى الجماعة الأولية التى تصاحب الإنسان من المهد إلى اللحد .

وهناك ميزة كبرى فى العلاقات فى الأسرة لا تتميز بها أى جماعة أولية أخرى . فالأسرة حتى لو توزع أفرادها فى أماكن متفرقة ، إلا أنهم يستمرون فى علاقات الجماعة الأولية عن طريق الخطابات وعن طريق الإتصالات التليفونية وغير ذلك من وسائل الإتصال ، (فليست طبيعة الجماعة الأولية تكمن فى أجزائها، ولكن فى تنظيمها ، فهى لا تعتمد على التقارب المكانى، ولكن تعتمد على العلاقات الوظيفية المتبادلة ، فالجماعة الأولية لا توجد بدون ذكريات ولا يمكن أن تستمر بدون هدف) .[١]

وهكذا، فالجماعة الأولية تكتسب أهميتها من العلاقات المتبادلة بين أفرادها. فالنقطة الهامة هى العلاقات الاجتماعية المتبادلة، وليس عدد الأفراد الذين يكونون الجماعة الأولية ، والعلاقات المتبادلة هى أن يأخذ كل فرد فى سلوكه بعين الاعتبار وجود أفراد آخرين . ففى الجماعة الأولية يعتبر كل من الآخر كفرد فى جماعة متحدة النوع ، وليس كوحدة غير متقابلة فى حشد . وكل عضو منهم فى ذاته، وأن أى فرد فيها لا يمكن استبداله بآخر بدون هدم للعلاقات ، فكل زوج وطفل هو وحده ، ويؤدى كل دوره فى العلاقات المتبادلة فى الجماعة .

---

(١) Ogburn, William F. & Nimkoff, M.F. : «Technology and the changing Family» Boston : Houghton MifflinCompany 1955, P. 71.

ومن المعروف أن العلاقات الاجتماعية المتبادلة تعتمد على الاتصالات، وكذلك إلى حد كبير تعتمد صفة ومميزات الجماعة على طبيعة الاتصالات بين أعضائها، فالزوج والزوجة يتصلان بطرق كثيرة ، ويشغل كل فرد فى الجماعة مركزاً خاصا فى شبكة الإتصالات للجماعة الأولية.

ويقسم علماء الإجتماع هذه الجماعة الأوليه إلى نوعين من الأسر ، الأولى هى الأسرة الموجهة Family of orientation والثانيـــه هى الأسرة المنجبة Family of Procreation.

فكل منا ينتمى — أو كان ينتمى — إلى أسرة موجهة ، ويوما معظمنا سوف ينتمى إلى أسرة منجبة . وهذا يؤدى بنا إلى نمطين من الجماعات ، فالأسرة الموجهة تعتبر بالنسبة للفرد جماعة إجبارية ، فنحن نصبح أحد أعضائها دون ممارسة أى اختيار .

وبالعكس الأسرة المنجبة هى جماعة اختيارية «علاقة اجتماعية» نحن أحرار فى الدخول فيها ، ولكنها من ناحية أخرى علاقة لسنا أحراراً فى هجرها . ونتيجة لذلك فمكانتنا كعضو فى أسرة موجهة يعزى إلى الأسرة ، أما مكانتنا فى الأسرة المنجبة فأمر نحدثه نحن . وفى المجتمعات التى تنظم فيها عملية الزواج عن طريق الأسرة ، أى منذ وقت مبكر قد يرجع إلى طفولة العروسين ، تصبح الأسرة المنجبة فى هذه المجتمعات جماعة غير اختيارية .

وظائف الأسرة :

يرجع وجود الأسره كنظام اجتماعى إلى عدة وظائف تنجزها لكل من المجتمع والفرد . وليس هناك قائمة متفق عليها لهذه الوظائف عند علماء الاجتماع، وفى الحقيقة من الصعب تحديد هذه الوظائف بدقة . وسبب ذلك أنها من ناحية

كلها متساندة، ومن ثم فتقسيمها فى فئات قد يؤدى إلى تفتيت الموقف الواقعى ، ومن ناحية أخرى: إن كلا من هذه الوظائف يعتمد على الآخر .

(كما أنه لا يوجد هناك ارتباط ضرورى بينهم ، وأن كلهم فى حالة الضرورة يمكن إنجازهم بواسطة نظم اجتماعية أخرى) [١] .

وفى الحقيقة يتم إنجاز بعض هذه الوظائف فى ارتباط واتصال بالنظم الأخرى . ومن ناحية أخرى إذا أخذنا كل وظائف الأسرة ككل ، لا يمكن لأى نظام اجتماعى إنجازها بدقة وإجادة ، كما أنه ما من نظام اجتماعي غير الأسرة يمكنه إشباع حاجات المجتمع التى يشبعها نظام الأسرة بكفاءة . ولهذا السبب نالت الأسرة عالميتها عبر التاريخ وأهميتها الكبرى للمجتمع والفرد .

وأول هذه الوظائف هو: الإنسال ، وهو ما يمكن أن نسميه الإبقاء على النوع الإنسانى ، فحياة أى مجتمع تتطلب استمرار إمداده بالأعضاء الجدد . وليس هناك سبب منطقى لترك هذه العملية لضغط الحاجة البيولوجية ، كما هى موجودة عند الحيوانات الدنيا ، لأن عملية الإنتاج العشوائية تؤدى إلى الفوضى والاضراب . ومن أجل النظام إن لم يكن لسبب آخر قد نظمت عمليت الإنسال عن طريق نظام الأسرة ، حيث اكتسبت اطرادا واستقراراً كأمر ترغب فية جميع المجتمعات ، فالأبوة اللاشرعية أمر تهاجمه جميع المجتمعات حتى أكثر المجتمعات بدائية .

فالأسرة هي التى تقدم الشرعية لعملية الإنسال ، وهى موجودة حتى فى المجتمعات التى فيها حرية ممارسة الجنس . ولما كانت الأسرة هى النظام المنظم

(١) Davis, Kingsly : «Human Society» The Macmillan Comp. New York, 1949. P 395.

لعملية الإنسال ومن ناحية أخرى تقدم نظاما واستقراراً لأهم المناشط الإجتماعية، لذلك حرصت كل المجتمعات على إحاطة هذه الوظيفة بمعايير قوية وأيدتها بجزاءات شديدة .

الوظيفة الثانيـــة : أن الزواج والأسرة يعتـــبران ميكانزمات mechanisms الضبط الإجتماعى للإشباع الجنسى بالنسبة للمجتمع ،وبالنسبة للفرد يعتبران النهج السليم لهذه العملية . ورغم أن هذه المسألة تعتبر من الأمور البيولوجية إلا أنه قد وضح أن إشباعها أحاطته جزاءات وضبط اجتماعى ، وهكذا نرى اتحاداً شديداً بين حقيقة بيولوجية وتنظيم اجتماعى ، مما يكشف عن أن أكثر الوظائف الجسمية لا تجد لها تعبيراً على المستوى الإنسانى إلا فى مصطلحات من الثقافة والمعايير الثقافية وتقدم شرحا وتفسيراً فريداً وجوهريا فى كيف تساهم المعايير فى بناء المجتمع واستقرار العلاقات الإجتماعية والاطراد لحياة الأفراد .

ولهذا، فالأسرة هى التى تعطى الحياة وفرصة البقاء للأطفال،إذ تواجه الأجنة الناجمة عن اللاشرعية الجنسية (الفناء بعملية الإجهاض)، والأطفال الذين يولدون من الإتحادات والإتصالات اللاشرعية ، يصبحون ضحايا فكرة اللقطاء حتى فى أكثر المجتمعات مدنية وحرية فى الاختلاط . وباختصار: إنها الأسرة التى ندين لها بحياتنا ، فالأسرة الموجهه تشبع مجموعة من الحاجات للأفراد ، حتى ولو عن غير قصد .

الوظيفة الثالثة أيضا تخدم المجتمع والفرد ويمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى المحافظة maintenance . فالأسرة تحفظ الطفل للمجتمع الذى ولد فيه . والمحافظة يمكن أن تنظم بطـــرق مختلفـة . فيمـكن المحافظة على الطفل بواسطة

الحكومة أو المستشفيات أو دور الحضانة أو المصحات، ولكن من المشكوك فيه أن أياً من هذه البدائل يمكن أن يقوم بهذه الوظيفة على الوجه الأكمل مثل ماتؤديها الأسرة . ذلك بالرغم من أنه يمكن القول أن الحكومة فى كثير من الحالات لديها قدرة أكبر من الأسرة على تقديم الحاجات المادية للأطفال ، ولكن الأسرة تضم استجابات شخصية عاطفية مع رعاية اجتماعية ، هذه التوليفة لا يمكن لأى نظام إشباعها بنجاح .

ويلاحظ أن الطفل البشرى فى حاجة إلى فترة طويلة من الاعتماد على الكبار ، ففى معظم أنواع الحيوانات تنفصل الصغار بمجرد بلوغها النضج الجنسى ، وبالعكس فى النوع الإنسانى سن الحلم وسن الرشد مفهومان مختلفان ، والأخير يتلو الأول بعدد من السنين . فإذا اعتبرنا أن الثانية عشر هى سن الحلم ، والواحد والعشرين هى سن الرشد أى السن الذى يسمح فيه المجتمع للفرد بممارسته واجبات الكبار ، يتبين أن المرحلة الأولى التى ينفصل عندها الحيوان ، تأتى بعدها مرحلة الإنفصال عند الإنسان بما يعادل مدة الأولى .

والعملية الثانية وهى: سن الرشد ، هى التى تزيد من أهمية الأسرة كنظام اجتماعى ، فمن الولادة حتى الرشد ، يتطلب الفرد حفظا فيزيقياوعوناً إقتصادياً، وظيفة لا يستطيع أى نظام اجتماعى آخر القيام بها بكفاءة . وكلما ازداد المجتمع تعقداً ، إزدادت فترة الاعتماد طولا .

ومن ناحية الفرد نفس الشىء ، فالطفل يتطلب رعاية حتى يعيش . فالطفل الصغير فى حاجة إلى حماية حتى فى المجتمعات البدائية ، هو فى حاجة إلى حمايته من الحيوانات المتوحشة والنباتات السامة ، وفى المجتمعات المتحضرة فى حاجة إلى حماية من الأدوات المنزلية والمواصلات . ويحتاج الشباب إلى رعاية أكثر

وليس أقل كما قد يتبادر إلى الذهن ، فهو فى حاجة إلى عون اقتصادى من أجل المنافسة مع أقرانه فى حياته الطويلة حتى يصل إلى اكتساب مهنة .

الوظيفة الرابعة ، هى : قيام الأسرة بوظيفة نقل التراث الإجتماعى ، فهى أداة نقل ثقافة المجتمع إلى الصغار . وقد ينظر إلى الثقافة على أنها معلومات موجودة فى الكتب، ونحن نعلمها للصغار عن قصد ووعى ، وبهذا المعنى يصبح النظام التربوى هو المسئول عن نقل الثقافة خلال أجهزته ومدارسه ، إلا أنه من الواضح أنه فى السنوات الأولى للصغار، الأسرة هى الهيئة الوحيدة المسئولة عن عملية نقل الثقافة، وأولها لغة مجتمعهم ، وهكذا تصبح الأسرة غارقة فى هذا النشاط . ولهذا فالأسرة ليست فقط ضامنة لاستمرار النوع الإنسانى ، ولكن أيضا لاستمرار ثقافة المجتمع التى هى جزء منه .

وتعتبر الأسرة أهم عامل فى نقل التراث الإجتماعى وخاصة القيم الاجتماعية والأيديولوجية ، وفوق كل هذا معايير المجتمع ، وفى الحقيقة تعتبر الأسرة المصدر الأول لكل أفكارنا الأخلاقية . فالأسرة ممثلة فى الآباء بالدرجة الأولى هى التى تعلمنا ما هو الصواب والخطأ، وما هو الحسن والسىء؟. ماذا نحب وماذا نكره ؟ وما علينا أن نتعلمه وما يجب أن نتجاهله ، وقائمة طويلة من الاتجاهات والميول والأفكار ، وباختصار ما هو المقبول اجتماعيا وما هو غير المقبول اجتماعيا .

وتظل هذه القائمة الطويلة من المعايير تباشر تأثيرها حتى بعد أن نترك الأسرة الموجهة، ونصبح فى السن التى لدينا عندها قدرة إصدار القرارات ، إذ أننا لا نستطيع التخلص بسهولة من ثقافتنا التى تشربناها أثناء طفولتنا .

ويلاحظ أن ما نتشرب به من ثقافة ليست هى ثقافة المجتمع الكبير، أى الثقافة

العامة ، ولكنها الثقافة الفرعية ، بل ثقافة أسرة معينة ، هي الأسرة الموجهة فكل أسرة مثل كل جماعة أخرى، لها ثقافتها الفرعية وأسلوبها الخاص في العمل والتفكير، طبقا لموقفها الاجتماعي والاقتصادي .

وإذا كانت الأسرة تخدم المجتمع كأداة لنقل الثقافة، فإنها تخدم الفرد أيضا كأداة للتنشئة الاجتماعية . إذ تعد الأسرة أطفالها للمشاركة في المجتمع ، فهي تمهد الطفل لتقبل السلطة في المجتمع، وتمهده في الوقت نفسه لحب المجتمع والتعاون مع أعضائه ، وذلك بمزيج عجيب من الحب والسلطة ، لا يمكن أن يوجد إلا في الأسرة ، فالآباء يمثلون تركيبة عجيبة من السلطة والحب، فيتدرب الطفل من خلال حبه لوالديه على الطاعة وتقبل السلطة واحترام القانون ، وأيضاً تمهدهم الأسرة لتعلم المساواة بين أعضاء المجتمع عن طريق تعودهم المساواة بين أخواتهم في الأسرة . (" فتجهز الأسرة كلا من نوعيْ العلاقات الاجتماعية السلطة authoritarian — مثل ما بين الآباء والأبناء — والمساواة equaliprian — كما بين الأبنـــاء — التي تحدث من خلالهما عملية التنشئة الاجتماعية socialization . وفي هذا تختلف الأسرة عن جماعة اللعب أو الشلل، التي عادة تتميز بالمساواة فقط . ويعتبر النمطان — السلطة والمساواة — من أهم عناصر عملية التنشئة الاجتماعية ، وفي الحقيقة تقدم الأسرة كلا منهما في دائرة مبسطة وسهلة تسمح للأسرة بموقف خاص وهام في إنجاز هذه الوظيفة)(١) .

٢ — أنماط الأسرة

إن الاختلافات بين أشكال الأسرة ، سواء في المجتمعات التاريخية أو المجتمعات المعاصرة، يعتبر ظاهرة ثقافية تستحق الدراسة .

---

(١) Davis, op. cit., P. 406

ويلاحظ أن علماء الاجتماع ينظرون إلى الأسرة على أنها نظام اجتماعى مرتبط كل الارتباط بما فى كل مجتمع من عادات وعرف وتقاليد، وهى تخضع للقوانين القائمة فيه وتتأثر بالحالة الاقتصادية السائدة فيه ، وبالتيارات الفكرية المستقرة فى أرجاء المجتمع. ذلك يرجع إلى طبيعة النظم الاجتماعية ، إذ أنها توجد فى المجتمع فى حالة من التشابك والتداخل الشديد . ولذلك يرى كثير من علماء الاجتماع أن الأسرة كنظام اجتماعى لا يقوم بالضرورة على صلة الدم أو الرحم . وإنما يقوم على أسس يرتضيها الأنا الاجتماعى المعبر عن سنن الجماعات ومعاييرها وتقاليدها . ومن ثم اختلفت أنماط الأسرة وأشكالها من مجتمع لمجتمع، طبقا للتباين بين المجتمعات البشرية من حيث معاييرها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية .

وعلى أى حال فكلمة Mate هى الكلمة اللاتينية لكلمة الأم Mother وكلمة Pater هى الكلمة اللاتينية لكلمة الأب father وتقدم هاتين الكلمتين مقدمة لأسماء عدد من أنماط الأسرة وأشكالها . فمثلا بعض المجتمعات أمومية Matrilocal فى عادات وسنن تكوين الأسرة ، ومجتمعات أخرى أبوية Patrilocal . فى الأمومية الزوجان الصغيران يقطنان منزل (قبيلة ، قرية) آباء العروس ، وفى النمط الأبوى يقطن الزوجان فى منزل آباء العريس . ويعتبر مجتمعنا من النمط الأبوى ، بمعنى أنه يعطى الزوج وليس الزوجه حق اختيار مكان السكن بعد الزواج . فإذا رفضت الزوجة مرافقته إلى السكن الجديد ، تصبح هى المسئولة عن الهجر وليس هو .

وبالمثل فى ثقافة مجتمع النمط الأمى يتبع تسلسل النسب الخط الانثوى، وثقافة النمط الأبوى يتبع خط الذكر . كما أنه ليس من الشائع أن يتبع خط النسب كل من الاتجاهين . وفى هذا الصدد يقول لورانس روز L.Ross (تأخذ الأسرة

أشكالا عديده فى مختلف المجتمعات ، ولو أنها دائمـا تتركز حول عـلاقات التزاوج (رجل وامرأة) والعلاقات الأبوية . ويمكن أن تؤكد على خط الإنسال الأبوى أو الأمى أو كل منهما)[١] . ويمكن أن أضيف أن هناك نمطا آخر من الأسر لا هو بالأبوى أو الأمى ، ولـكن يقوم على أساس دينى ، أى أن الرابطة بين الأباء والأمهات والأبناء ينظمها ، ليس صلة الرحم أو الدم ، ولـكن النظام الدينى فى المجتمع ، وهذا النمط يسمى بالنمط التوتمى .

وهناك مصطلحات تنتمى إلى السلطة والسيادة ، ولها أهمية وعلاقة بموضوع دراستنا . تعنى كلمة ماترياركى Natriarchy حكومة الأم أو الأمهات ، كما تعنى كلمة باترياركى Patriarchy حكومة الأب أو الآباء . وفى بعض الأحيان يستخدم مصطلح حكم الأم Matriachy للدلالة على أنه ليس هناك حكومة نساء ، ولـكن فقط يعنى أن هناك مجتمع أمى ، أى أن الخط الأنثوى يظهر فى الانسال والتوريث ، وأن الأم (أو أخوها) يمارس سلطة السيادة . .

١ — النمط التوتمى Totemic Patten

تتـكون لأسرة فى هذا النمط من كل أفراد العشيرة أو البطن كما عند الشعوب التى تعرف بالبدائية أى المجتمعات البدائية Primitive Societies كالهنود الحمر فى شمال أمريكا ، وعند زنوج شمال أستراليا ، وهم يمثلون أبسط أنواع الجماعات الإنسانية فى عصرنا ، ذلك بحـكم انعزالهم منذ القدم عن التيارات الحضارية وتعتقد هذه الجماعات أن صلة القرابة بينهم جميعا متحدة الدرجة ، فهم يعتقدون أن كلهم تربطهم رابطة واحدة لا غيرها من روابط القرابة وهى رابطة الأخوية ،

---

(١) Ross. H. Laurence (edt) «Pespectives on the Social Order» Mcgraw-Hill Book Com. Inc New York, 1963. P. 290.

ذلك بحكم انتمائهم إلى توتم Totem واحد** . ومن ثم فلقب جميع أفراد القبيلة رجالا ونساء ، وكباراً وصغار هو التوتم ، فهو لقبهم أجمعين ، فالكل أقرباء بدرجة واحدة فى العشيره ، فلا تعرف هذه العشائر كلمة عم أو خال أو ماشابه ذلك من علاقات القرابة ، فدرجة القرابة واحدة وإن اختلفت صلة بعضهم ببعض من حيث القرابة الدموية ، فلم تكن درجة القرابة التى تربط الولد بأبوية تزيد شيئاً عن درجة القرابة التى تربطه بأى فرد آخر من أفراد عشيرته ، بل لقد كان يعتبر أجنبيا عن أحد أبويه أو عن كليهما إذا قضت النظم الاجتماعية المتبعه بإنتمائه إلى توتم آخر .

ففى بعض المجتمعات التوتمية ترتب السنن الاجتماعية عملية الانتماء أى القرابه إلى مكان التوتم . فلكل أتباع توتم معين لهم نطاق من الأرض يعيشون فيه ويتصورون أن قدرته السحرية تنتشر فى هذا النطاق وأنها تحل فيمن يعيشون فيها أو يحل فيها من الناس . ولهذا عندما تشعر المرأة بتحرك الجنين لأول مرة عليها أن تعلن هذا الأمر لمن حولها ، ويصبح الطفل تابعاً لتوتم هذا المكان ، لأنهم يعتقدون أن روح التوتم دخلت جسم المرأه وأعطتها الطفل ، وأن روح التوتم لاتجد صعوبة فى دخول الجسم المرأة من أى مكان ، وعندما يولد الطفل يلقب باسم توتم هذا المكان ، وقد يكون توتم عشيرة الأب أو توتم عشيره الأم أو توتم عشيرة أخرى عندما تكون الجماعة فى سفر مثلا .

** التوتم Totem عبارة عن حيوانا أو نبات أو مظهر من مظاهر الطبيعة كجبل أو بركان ، وفى الغالب يكون التوتم حيوان ، وانتماء الجماعة الى توتم لا يكون الى فرع معين منها ، وإنما ينتمون الى النوع أى الى فصيلة الدب وليس دبا بعينه ، وهم يعتقدون أن التوتم نعبودهم ولهذا يقدسونه كإله وكرمز لوحدتهم .

وهكذا يتضح أن القرابة فى هذه الأسرة ليست قرابة دموية ، ولكنها قرابة دينية ، أى لا ترتكز على أساس دموى ، وإنما على أساس اجتماعى .

٢ — النمط الأمى Matriarchal Pattern

فى هذا الشكل من أنماط الأسرة تكون الأم هى محور القرابة ومن ثم يتبع خط الانسال الأم ، فينتسب الأولاد إليها ويحملون اسمها ، وعادة يكون الأولاد غرباء بالنسبة لأسرة الأب وفروعها ، ولا تربطهم بها أى صلة قرابة ، بحيث لو اضطرتهم الظروف الاجتماعية إلى عداوتهم لا يشعرون بأى شىء من الغضاضة ، فمثلا إذا قامت حرب بين أسرة الأم وأسرة الأب ، ففى النمط الأمى يحارب الأولاد أسرة الآباء ، لأن السنن الاجتماعية تأمر بذلك . وهذا ما نجده عند أقوام الدويرى Diuery والايروكوا Iroquoit فى شمال أمريكا وتفسر مدرسة دوركيم هذه القرابة بأنه فى هذا النمط ترتكز حياة الجماعات على الصيد والقنص ، وهذه المهمة يقوم بها الرجال ، ولهذا معظم أوقاتهم يمضونها بعيداً عن الأسرة ، ويأمون إليها بعض الوقت لتقديم نتائج الصيد والاتصال الجنسى ، ثم يخرجون للصيد وقد لا يعودون لموتهم تحت أنياب حيوان مفترس.

وفى بعض المجتمعات ذات النمط الأمى (هناك تفرقة حادة بين الأب البيولوجى Biological Father وبين الأب الاجتماعى Social Father ، لأن فى مثل هذه المجتمعات مسئولية الأب الأولى هى أبناء أخته ، وبالمثل تقع مسئولية أبنائه على أخ الزوج وبالإضافة إلى ذلك الرابطة بين الزوجة وأخيها أقوى من الرابطة بين الزوجة وزوجها . ففى الأساطير اليونانية ضحت أنتيجونيا Antihgone بنفسها من أجل أخيها وليس من أجل زوجها، ويتميز هذا النظام بأن الانفصال (الطلاق) فيه لا يؤثر فى تربية الأطفال والعناية بهم ، إذ أنهم مسئولية الخال

وأسرته الدموية بالدرجة الأولى ، وليس الأب البيولوجى ، إذ يصبح الخال هو الأب الاجتماعى[1] .

٣ — النمط الأبوى Patriarchal Pattern

فى هذا النمط ينتمى الأولاد إلى أبيهم دون أمهم ، بحيث أن أفراد أسرة الأم يصبحون غرباء بالنسبة لهم .

وإن كان هذا النمط يوجد عند بعض المجتمعات التوتمية ، أى ينتمى الأولاد إلى توتم الأب ، ولا صلة لهم بتوتم الأم ، إلا أن هذا النمط أصبح اصطلاحا على نمط الأسرة الأبوية الكبيرة التى ظهرت عند اليونان والرومان ، والأسرة الأبوية الصغيرة عند الأسرة الجرمانية القديمة ، وفى مطلع العصر الحديث عند بعض الجماعات الصقلبية .

والأسرة الأبوية الكبيرة وتمثلها الأسرة اليونانية والرومانية قديماً ، وهى أسرة كثيرة العدد يتجمع أعضاؤها فى مكان واحد تحت رئاسة رجل واحد هو عميدهم Patriarch يحكم هذه الأسرة من خلال حقوق الأبوة Paternal Right ، فهو رئيسهم ويحترمونه إلى حد القداسة التى يعطونها لأجدادهم السابقين الذين يكرمونهم ويخلدونهم ويذكرون مآثرهم وشجاعتهم ، مما يذكى مشاعرهم المشتركة ، فيقوى الروابط بينهم ، ولهذا : الوحدة فى مثل هذا النمط ترتكز على تقديس الآباء والأجداد .

ورب الأسرة له مطلق الحرية على أفرادها ، فله عليهم حق الحياة والموت ،

---

(1) Bierstedt, Robert: «The Social Order» Socend Edition. McGraw-Hill Boow Comp., Inc. New York, 1963. P. 387—388

وحق البيع والشراء ، وحق الطرد من الأسرة ، وحق الدخول فيها (التبنى) وحق الزواج وعدمه ، ويلاحظ أن هذه السلطة المطلقة لا ترتكز على أساس دينى ، وإنما زمنية تعزى إلى أن رب الأسرة يمثل الأجداد والآباء ، وهو رمز الأسرة ووحدتها والحارث لتراثها . ولهذا يتكون أعضاء الأسرة من الأقارب عن طريق الأب، بحيث يصبح الأطفال غرباء عن أسرة الأم وأبناء الأخت ، فالقرابة فى هذه الأسرة من ناحية واحدة، هى: الذكور ، فعلى رأسها رب الأسرة وأبناؤه وأبناء أبنائه مهما نزلوا ، بمعنى أنهم يمكنهم أن يكونوا من عدة أجيال . ذلك إذا اعترف رب الأسرة ببنوتهم، لأنه إذا لم يقر ذلك رئيس الأسرة يعتبر الطفل غريباً حتى ولو كان ابنه هو . وتضم الأسرة أيضاً زوجاته وزوجات أبنائه إذا اعترف بهن أيضاً .

أما فيما يختص بالبنات — أى بناته وبنات أبنائه — فيعتبرن عنصراً مؤقتاً على شرط اعترافه بهن ، ويعيش فى كنف الأسرة حتى يتزوجن فينتقلن إلى أسر أزواجهن وينتسبن إليها ، وتنقطع صلتهن بأسرهن الأصلية .

ومن هنا يتبين أن صلة القرابة فى هذه الأسرة لاتقوم على صلة الدم فهى ليست من خط الأسرة المسمى بالأسرة الدموية ConSanguine Family وإنما تقوم على أساس التبنى ، إذ أن الأساس فى عضوية الأسرة هو اعتراف رب الأسرة ببنوة الطفل وكان لعملية الاعتراف ببنوة الطفل — أى التبنى — شعائر وطقوس خاصة ، ومن هذه الطقوس أن المولود كان يوضع على مدخل باب رب الأسرة فإن أخذه بيده وضمه لصدره اعتبر عضواً فى الأسرة وإذا تركه يعتبر غريبا مهما كانت صلته الدموية بأفرادها .

أما الأسرة الأبوية الصغيرة ، فهى أسرة أبوية كالسابقة لها رئيسها ، إلا أن عددها أصغر لأن أعضائها لهم حق ترك الأسرة للعمل بعيداً عنها ، وبهذا

كان بعض أعضائها يهجرونها للعمل فى المدن ، ذلك يدلل على أن أعضاء هذه الأسرة لهم حرية أكثر من أعضاء الأسرة السابقة ، ويقابل ذلك أيضاً ضعف فى سلطة رئيس الأسرة فلم يكن له نفس الحقوق التى لرب الأسرة فى نمط الأسرة الكبيرة ، فلم يكن له مثلا حق الموت أو حق الطرد أو حق البيع على أفرادها ، أى أصبح من حق الابناء البقاء فى محيط الاسرة ، وعلى رئيسها رعايتهم حتى يبلغوا سن النضج الاقتصادى فلهم حق ترك الاسرة ، وذلك يدلل على أن الوحدة بينهم كانت تقوم على سلطة العادات والتقاليد أكثر من سلطة الأب ، فالقرابة أبوية ، إنما تميزت هذه الاسرة أيضاً باحترام القرابة الامومية ، ولم تعد الملكية أو المسئولية جمعية كما فى الشكل السابق . ولكن ظهرت فى هذا النمط الملكية الفردية والمسئولية الفردية .

وهذه الأنماط الثلاثة السابق ذكرها رأينا أن الاسرة فيها تتضمن عدداً كبيراً من الأفراد والاجيال ويطلق علماء الاجتماع على مثل هذه الاسرة الواسعة اصطلاح الاسرة الممتده أو الواسعه Extended Family أو الاسرة المركبه Compound Family ، كما سماها ميردوك Murdock . فى مقابل الاسرة الزواجية Conjugal Family وهى الاسرة التى تتكون من زوج وزوجة وأبنائهما ، وتسمى أيضاً بالاسرة النووية Nuclear Family بوصفها الوحدة الاساسية التى تكونت منها كل المركبات الاسرية الاخرى ويعتبر الاسرة الزواجية أسرة مستقلة Independent F. إذا كان رأس الاسرة لا يعتبر تحت لواء سلطة أى من أقاربه أو يعتمد على أحد منهم اقتصاديا .

وفى محاولة لدراسة العلاقة بين نمط الأسرة ونمط الاقتصاد السائد فى المجتمع

صنف ميردوك Murdock (١) المجتمعات حسب الأنماط الرئيسية للحصول على الطعام (الزراعة — تربية الحيوان — صيد السمك — صيد الأصداف السمكية — صيد البحار والصيد والجمع).

وقد اختيار ميردوك فى دراسته تلك ٥٦٥ نوعاً من الثقافة، قال إنها تمثل كافة درجات الاختلافات الثقافية.

ولقد صنف كل نمط اقتصادى حسب، إما سيادته، أو سيادته مع نمط آخر أو أهميته: أو عدم أهميته. ولقد وزعت ٥٤٩ مجتمعا طبقا لهذه الأنماط الموجودة حسب الجدول الآتى:

النمط الموجود	عدد المجتمعات	النسبة المئوية
الزراعة سائدة	٣٤١	٦٢٫١٪
تربية الحيوان سائدة	٤٢	٧٫٦٪
صيد الأسماك والأصداف والبحار سائد	٤٠	٧٫٣٪
الصيد والجمع سائد	٧٢	١٣٫١٪
الزراعة وتربية الحيوان سائدين	١٨	٣٫٣٪
الزراعة وصيد الأسماك	١٨	٣٫٣٪
الزراعة والصيد والجمع سائدة	٣	٠٫٥٪
تربية الحيوان وصيد السمك	١	٠٫٢٪
صيد السمك والصيد والجمع سائدة	١٤	٢٫٦٪
الجملة	٥٤٩	١٠٠٫٠٪

(١) Murdok, G. Peter : « World Ethnographic Samp » American Anthropologist ; No, 4 August 1951.

والمعلومات التى تتحدث عن أنماط الأسرة فى علاقتها مع الأنماط الموجودة تتضح من الجدول الآتى :

رقم	النمط الموجود	النمط الأسرى: المستقل – عدد	المستقل – نسب مئوية	الواسع – عدد	الواسع – نسب مئوية
١	زراعة وتربية حيوان سائدين معاً	٢	١١ر١	١٦	٨٨ر٩
٢	زراعة وصيد سمك سائدين معاً	٤	١٢ر٢	١٤	٧٧ر٨
٣	زراعة وصيد سائدين معاً	١	٣٣ر٣	٢	٦٦ر٧
٤	صيد سمك سائد	١٥	٣٧ر٥	٢٥	٦٢ر٥
٥	زراعة سائدة تربية حيوان هام	٧٢	٣٩ر٨	١٠٩	٦٠ر٢
٦	زراعة سائدة تربية حيوان غائب	٧٣	٤٥ر٦	٨٧	٥٤ر٤
٧	تربية حيوان سائدة أو مع صيد سمك	٢١	٤٨ر٨	٢٢	٥١ر٢
٨	صيد سمك وصيد معاً	٧	٥٠ر٠	٧	٥٠ر٠
٩	صيد وجمع سائدين معاً مع زراعة أو تربية حيوان هام	١٠	٥٥ر٦	٨	٤٤ر٤
١٠	صيد وجمع سائدين وصيد سمك هام . زراعة وتربية حيوان غير هام أو غائب	٢٢	٧٣ر٣	٨	٢٦ر٧
١١	صيد وجمع سائدين ، وصيد سمك وزراعة وتربية حيوان غائبة	٢٠	٨٣ر٣	٤	١٦ر٧

ويوضح الجدول السابق الآتى :

١ — أن نظام الأسرة المستقلة فى بيئة ثقافة الصيد والجمع ، وهذا يعنى أنه يسود حيث يكون الصيد والجمع سائدين والأنماط الأخرى غير مهمة أو غائبة.

٢ — أن نظام الأسرة المستقلة يكون أكثر شيوعاً من النمط الممتد فى المجتمعات المختلط فيها نظام الصيد والجمع سائدين ، ولكن مع وجود أنماط أخرى لها أهمية .

٣ — الأسرة الممتدة (الواسعة) موجودة بشكل مساو للأسرة المستقلة، أو بشكل يقرب من المساواة فى المجتمعات حيث نظام صيد الأسماك والصيد سائدين معاً أو حيث نظام تربية الحيوان سائد أو سائد مع صيد السمك .

٤ — نظام الأسرة الممتدة (الواسعة) يسود حيث نظام صيد السمك يسود.

٥ — نظام الاسرة الممتدة (الواسعة) يسود فى كل طبقات المجتمع حيث يسود نظام الزراعة .

٦ — نظام الاسرة الممتدة يكون أكثر شيوعاً حيث يسود نظام الزراعة مع أحد من النظم الاخرى ، أى أقل سيادة منه فى المجتمع الذى يسود فيه نظام الزراعة وحده .

٧ — وتكون سيادة الأسرة الممتدة أكبر ما تكون حيث يسود نظاما الزراعة وتربية الحيوان معاً .

هذه المعلومات توضح أن أنماط الأسرة تختلف باختلاف الأنماط الإقتصادية، فعلينا أن ننظر إلى الموقف الإقتصادى كدليل على تفضيل نمط على آخر .

هناك ثلاث عوامل اقتصادية يبدو أنها أساسية فى اختلاف الانماط وهى :

١ — حجم الغذاء المتوفر .

٢ — درجة الحراك المكانى المتضمن فى النشاط الإقتصادى السائد .

٣ — نوع وكمية ملكية الأسرة .

يبدو أن حجم الأسرة وظيفة لوفرة الغذاء ، فطالما أن الأكل غير مستقر ، أى غير مضمون إستمراه فى الصيد على عكس الحال فى الزراعة . فمن ثم لاتشجع مجتمعات الصيد على وجود الأسرة الممتدة ، كما يشجع المجتمع الزراعى على وجودها . فلا يستطيع الصيادون إطعام العائلة الممتدة جيداً . كما أنه غير مستطاع استخدام أعضاء الأسرة الممتدة بأقصى قدرة إنتاجية كما يحدث فى الزراعة .

وهذا يتفق مع ماذهب إليه إستيوارد Steward [1] من أن حجم وتركيب الأسرة عوامل متكيفة لعمل البيئة ، إذ وجد بين قبائل شوشون الغربية Western Shoshone وهم عبارة عن جماع خضراوات برية وأنواع ن الحيوانات المنخفضة ، أن الأسرة الصغيرة جداً هى السائدة وهى نتيجة ضمنية للحياة الاقتصادية الموجودة . إذ طالما أن الصيد أو النباتات البرية قليلة ومبعثرة ، فإن أعضاء مجتمع الجمع عادة ينتشرون للكشف عن الغذاء ، وطبيعة الارتحال والتنقل لثقافة الصيد والجمع لا تسمح بقيام الأسرة الممتدة .

أما من ناحية الملكية . فإن الحقوق الفردية فى الملكية عادة لا تظهر إلا فى حالة الملكية القابلة للإنتقال . وفى مجتمع الصيد فإن الملكية القابلة للانتقال ليست كبيرة أو ذات بال ، والملكية الخاصة معروفة بين الصيادين فى بعض المميزات الخاصة ، مثل الأسماء أو الأغانى أو الرقصات أو عضوية الجمعيات

---

(١) Steward : Theory of Culture Ghang

الأخوية . والملكية من هذا النوع تنتقل خلال الخط الأسرى، ولكن لا يبدو لها أى تأثير على نمط الأسرة .

ومما يقوى فكرة الملكية الفردية : حق ملكية مدخرات الحياة ؛ ويساعد ذلك على تدعيم الاسرة الممتدة ، ولذلك نراها أكثر عند الرعاة (تربية الحيوان) عنها بين الصيادين .

ويبدو أن مفهوم ملكية الأرض له أثر هام على نمط الأسرة . ونادراً ما يكون لدى الصيادين فكرة عن ملكية الارض ، رغم أن حق إستخدام منطقة للصيد شيء معروف لديهم . ولكن هذه الحقوق عادة حقوق قبلية أو شيوعية فى فكرتها ، ونادراً ما تكون شخصية أو أسرية .

ويجعل التنقل الملكية الفردية أو الاسرية صعبة . فبالنسبة للرعاة ، الارض فى الاصل عبارة عن مرعى . وطالما المراعى متوفرة فلا تظهر نزعات الملكية ، ولكن إذا كانت المراعى نادرة ، فإن هذا يدفع إلى ظهور فكرة الملكية الفردية أو الاسرية وينميها .

ولكن الارض تتطلب أن تظل الجماعة ملتصقة بها مدة طويلة كما فى المجتمع الزراعى المستقر ، وبالعكس فى الزراعة المتنقلة فإنه من الصعب نمو فكرة الملكية المستقرة .

وتعتبر ملكية الارض بين الزراع المستقرين مصدر هام للفخر والقوة والمكانة وتصبح الاسرة ملتصقة بالارض ويعملون فيها، وفى كثير من المجتمعات يرفضون تقسيمها . فإذا حدث التقسيم ، وقطعت الأرض إلى قطع صغيرة ، أصبح كل عضو فى الأسرة يمتلك قطعة ويعمل فيها، يصبح النظام أقل إنتاجا نسبياً . فالنزعة إلى التمسك بأرض الاسرة بل والعمل على زيادتها ، أمر سائد فى معظم المجتمعات

الزراعية . بل فى اليابان القديمة أدت هذه النزعة إلى فكرة أن الاجيال القادمة هم حراس ، ورأس الأسرة هو الوصى على الارض . كذلك نزعة المحافظة على أرض الاسرة كانت سائدة فى الصين قبل الشيوعية ، ولهذا كان يظهر هناك نمط الاسرة الأبوية ، وقد كانت المسوح الاجتماعية فى بعض الاقاليم الصينية تفصح عن علاقة بين حجم الارض وحجم الاسرة . وأوضحت أيضاً تلك المسوح ، أن الاسرة ، كانت تعمل على تقوية نفسها وإتساعها بإضافة أعضاء جدد حتى يمكن زراعة أرض أكثر ، وكانت الاسرة يمكنها زيادة حجمها بانسال أو التبنى أو بإضافة بعض الاقارب .

وتقدم الهند دليلا يدعم العلاقة بين كمية الأملاك والنمط الأسرى ، فمركز الأسرة الكبيرة مرتبط بشدة مع مركز الطبقة الدينية ، فالطبقة العالية التى تملك معظم الثروة ـ وخاصة الأرض ـ لديها أسر ممتدة أكثر من الطبقة المنخفضة بينما تحتوى طبقة المنبوزين على الجزء الأكبر من الأسرة المستقلة .

وإذا كان هناك علاقة وثيقة بين نمط الاقتصاد السائد ونمط الأسرة ، فهناك أيضاً علاقة وثيقة بين نمط الاقتصا ـ ووظيفة الأسرة الاقتصادية ، ويلاحظ أن هناك تناسب طردى بين درجة اتساع الوظيفة الاقتصادية للأسرة ودرجة أهميتها كنظام اجتماعى فى المجتمع . وذلك يرجع إلى أن العامل الاقتصادى هو منبع هام للقوة الاجتماعية والسياسية ، فهو المحدد لمستوى معيشة الأسرة سواء كانت ثرية أو فقيرة . وهو عامل هام فى تربية الأطفال ، ويوفر لهم الحماية للحياة ضد مفاجآتها وتوفر لهم الرفاهية ويؤثر فى مكانتها فى المجتمع ، والأسرة لها وظيفة اقتصادية فى كل المجتمعات ، صغر المجتمع أو أكبر . وفى هذا المجال يعمل أعضاء الأسرة ويقدمون ما تستهلكه الأسرة . وبعض الأسر أحسن استعداداً من الأخرى .

ولكن الاختلاف المهم هو فى الاتساع النسبي للمنظمات الأخرى «غير الأسرة» التى تباشر وظيفة إنتاج السلع والخدمات .

ففى المجتمعات التى تصطاد وتجمع الغذاء بدون استنبات الزرع واستئناس الحيوان ، يكون المجتمع صغيراً فى بعض الأحيان، يتكون من عدد قليل من الأسر . بين مثل هؤلاء الصيادين البدائيين هناك دائماً منظمتان اجتماعيتان ، الأسرة والمجتمع المحلى . والوظائف عندهم تتوزع بين هاتين المنظمتين. هذه الوظائف مثل الأكل والعمل والإنسال والحرب واللعب والتعليم والحراسة والعبادة . نظرياً يمكن للأسرة أن يكون لها فقط إحدى تلك الوظائف ، وهى الانسال ، وللمجتمع الباقى ، ولكن واقعياً الأسرة فى مثل تلك المجتمعات المحلية الصغيرة هى منظمة للإنسال والتعليم وإعداد الغذاء والأكل معاً. وهكذا يكون لها وظائف متعددة ، وأهم هذه الوظائف هى الوظيفة الاقتصادية التى توفر الحياة للأسرة ، والتى ليس هناك ما يقابلها فى المجتمع ، أى أن مثل هذه المجتمعات لا يقوم فيها أى نوع من أنواع المنظمات الاقتصادية ، ومن ثم تصبح هى الوظيفة الرئيسية للأسرة . وبالتالى تصبح الأسرة كنظام اجتماعى من أهم النظم فى مثل هذه المجتمعات ، ولا تتعدى وظيفة المجتمع المحلى فى معظم هذه المجتمعات عن وظيفتى العبادة والترويح .

والأسرة فى البلاد التى يسود فيها نظام الزراعة واستئناس الحيوان ،حيث تملك الأسرة المحراث، ولها حيوانات مستأنسة مع بعض المعارف عن الاخصاب، هى المنظمة الاقتصادية البارزة . أى يمكن القول أنه فى الاقتصاد المنزلى يوجد قليل من النظم الاقتصادية فى مقابل الأسرة كمنظمة إنتاجية .

وفى المزارع المكتفية ذاتيا ، كانت الأسرة هى المراكز الاقتصادية

الرئيسية ، وقبل النمو الزائد للتجارة ، ولم تـكن التـكنولوجيا بمعناها الحديث عرفت بعد ، كانت بعض الأسر تأخذ على عاتقها كل الوظائف: اقتصادية وسياسية ودينية، وحتى الوظيفة الحربية، ولها أسلحتها الخاصة ، وكان لها القدرة على استغلال الأسر الأخرى فى الإنتاج والعمل ، وهذه الأسرة هى التى كانت تعرف بالأسرة الأبوية الـكبيرة السابق الحديث عنها . من تلك الأسر نمت القرابة ، التى نمطت فيما بعد نمط الرأس المتسلط للأسرة ، ومن ثم كانت الأسرة فى أوج مجدها .

وفى العصور الوسطى كانت توجد بعض الأسر بدون مزارع ، ولـكن تعمل بالتجارة ، أو الإنتاج الحرفى أو بنقل البضائع ، وخاصة بالمراكب ، وفى مجتمعات أخرى بالقوافل . وكان هناك فى تلك الأزمنة مدن عرضية على مجرى مائى ، ونمت تلك الأسر مناشط اقتصادية خاصة مثل الإرشاد . وكان يستخدم التجار أماكن السوق، ويحمل الباعة الجائلون السلع من مكان إلى مكان ولـكن الصناعة كانت فى الاكواخ . ومن ثم اتجهت الأسر إلى الاحتفاظ بالصناعة حتى فى المجتمعات المحلية الحضرية . وطالما يعمل الرجال الحرفيون فى منازلهم ظلت الوظيفة الإقتصادية للأسرة ذات أهمية بمقارنتها بالوظيفة الإقتصادية للنظم الاخرى، مثل النظام الدينى، «أعنى الأديرة» الذى كان يـكاد يـكون النظام الوحيد فى المجتمع إلى جانب النظام الأسرى .

ليست هناك معلومات كثيرة حول حياة الأسرة فى المدن فى عصر الاقتصاد المنزلى ، ولـكن إذا كان سكان المدن قد أتوا من القرى والمناطق الريفية ، وإذا كانت معظم الصناعات اليدوية ما زالت وظيفة الأسرة ، فمن ثم محتمل جداً أن الأسرة فى المدن لم تـكن مختلفة كثيراً عن تلك التى فى البيئة العامة للمنطقة حيث كانت الريفية سائدة . وظلت ظروف المهنة السائدة تضع اتجاه النمط الأسرى وكانت المهنة السائدة هى الزراعة واستئناس الحيوان بالإضافة إلى

صناعة بعض المعدات والأدوات .

نحن نعتبر أن النمو العالى للوظيفة الإقتصادية للأسرة عند السكان الزراعيين وأيضاً فى المدن كان لها تأثيرها على أنواع النشاط الاخرى مثل الحماية والترويح وخلق المكانات والتربية والدين . ومن المحتمل جداً أن الوظائف الاقتصادية فى زمن الاقتصاد المنزلى القائم على استخدام المحراث والحيوانات المستأنسة جعلت الاسرة أعظم نظام اجتماعى فى القوة والتأثير عن أى وقت كانت ، أعظم منها فى مجتمعات الصيد أو القوس المبكرة ، وأعظم منها مؤخراً فى مدن القوة الميكانيكية (١) .

٣ ـ الاسرة والتغير الاجتماعى

الاسرة ليست أداة صمت لتبدأ التغير ، وهناك بعض النظم التى تتضمن وتكون من وظائفها خلق طرائق جديدة وأساليب جديدة فى التفكير والعمل. فالنظام التربوى يعمل دائماً على خلق أنواع جديدة من التعليم مع العمل المتواصل على تحسين عملية التعليم . والصناعة أيضاً تتضمن العناصر الفعالة لعملية التجديد وتمارس الخبرات التى هدفها الكشف عن الجديد فى الإنتاج والتوزيع ، ومعظم النظم التى تقوم على أساس البحوث العلمية تعيش على التغير ، وهو السبب والهدف من وجودها .

ولكن الاسرة تختلف تماماً عن كل هذه النظم ،(فهدفها الأول هو حفظ الحاجات القديمة للطبيعة البشرية وللنوع الإنسانى من الحنان والإنسال ورعاية الأطفال ، فالأسرة أولا وقبل كل شىء نظام حافظ)(١) .

---

(١) Ogdurn, W.F. : « Why the family is changing » « In Ross (ed) » « Prespectives on the social Order » op cit. pp. 299—300.

(١) Nimkoff, M.F. : «The Family» Houghton Mifflin com. Boston, 1934, P. 234.

ليس معنى هذا أن الأسرة عنصر سلبي تمر خلالها التقاليد الاجتماعية من جيل إلى جيل، كما أنها ليست مجرد مستودع للفضائل والأخلاق التقليدية القديمة، ولكن بالأحرى، لها دور نشط فى البناء الاجتماعى. بل أصبح لهذه الحقيقة قوة خاصة اليوم. ذلك لأنه مع ما يحدث حولنا من التحول فى عديد من الأمم، نحن فى حاجة إلى فهم أكبر عن ذى قبل لنرشد أو تقاوم أو نسهل القوى الضخمة للتغير الاجتماعى.

وغنى عن البيان أن الاسرة تؤدى دوراً هاماً فى التغير الاجتماعى، ولقد قدم وليم جود W.Goode دراسة تحليلية عما يمكن أن تؤديه الاسرة من دور فى عمليات التغير الاجتماعى، وخاصة فى التطور الصناعى، وذلك عن طريق عمل مقارنة بين نسقين اجتماعيين فى المرحلة المبكرة للتحول الاجتماعى الضخم فى اليابان، والذى تحاوله كثير من المجتمعات الآن. وبين جود Goode فى هذه الدراسة أثر نظام الاسرة فى كل من المجتمعين «اليابانى والصينى» فى عملية التحول إلى مجتمع صناعى حديث. (فاليابان فى سنة ١٨٦٨ قامت بنهضة كبيرة لمواجهة تهديد الغرب الصناعى. ومن ثم أعادت تشكيل نظمها الاجتماعية، وفشل الصينيون للتحول إلى الامام فى نفس الفترة. ابتدأ اليابانيون وهم على شفى الإفلاس، ولم يستخدموا أى رأس مال أجنبي فأسسوا صناعة ثقيلة غير اقتصادية، ونظموا وجهزوا جيشاً وبحرية حديثة، وغيروا نسق حكومتهم تغييراً أساسياً، وحولوا نسق إنتاجهم واستهلاكهم للبضائع والخدمات إلى نسق آخر كانت فيه للصناعة الحديثة استراتيجية، وصنعوا مشاريع حديثة ذات أرباح كبيرة، وجعلوا معرفة القراءة والكتابة حقيقة للجميع، وعلموا الشعب نمطاً جديداً من العلاقات الاجتماعية. هذا العمل، ربما اليابان المثل الوحيد الحقيقى لأمة غير نامية ترفع نفسها كلية بالاعتماد على ذاتها.

ومن ناحية أخرى ، واجهت الصين موقفاً مماثلا ، ولم تجد حلا مثل ذلك لمشاكلها ، لأن قوادها عزموا على حبس وتحديد انتشار الحرية الشخصية ، وخاصة فى الأمور الأسرية . فبدلا من استخدام جماعة الأسرة كعنصر إيجابى فى عملية التصنيع التى تساهم فيها الأسرة من خلال انطباعاتها الجديدة عن الحرية ، عمل القواد الصينيون على تقييد هذه الحرية .

ويمكننا أن نرى أن الاختلافات فى أنساق الأسرة اليابانية والصينية كان لها أثر بارز على النجاح النسبي للاقتصاد فى كل من البلدين . بالرغم من موقفهما المتشابه فى ذلك الوقت .

ويرجع ذلك إلى : أولا ـ فى ظل نسق الأسرة الصينية ـ يرث كل الابناء بالتساوى ، ويعنى ذلك أن رأس المال لا يظل متماسكا . وعلى العكس فى اليابان ، يرث ابن واحد ـ وعادة هو الأكبر ـ كل رأس المال ، ويعنى ذلك أن الثروة يمكن أن تتجمع فى خط أسرى واحد ، وكذلك يصبح صنع قرار الاستثمار سهلا .

ثانياً وربما الأهم : تقرر الأسرة الصينية أن ولاء الرجل هو لشيوخ أسرته ، بمعنى أن واجبه نحو والده إذا تعارض مع واجبه نحو الإمبراطور ، فإن واجبه نحو أبائه يحتل المكانه الأولى . الخطيئة الكبرى عند الصينيين ألا يكون ولائه للأسرة . وعلى العكس ، مع أن اليابانى له ولاء لأبيه ، فهناك حدود تفصل بين الأمور الأسرية واللا أسرية ، بين الأب والإمبراطور . وتمتد سلسلة غير منفصلة من الولاء ، من كل فرد خلال أبيه أو أجداده أو قواده ، ثم المستويات العليا المتعاقبة فى نسق النظام الإقطاعى إلى الأمراء العظام والإمبراطور ، وطالما كان كل عضو فى الأسرة متصلا إلى هذا الحد ، كانت الأوامر والرغبات من أعلى أكثر احتمالا أن تطاع ، بل تتضمن تلك المتعلقة بالفداء ، أو الإقلاع عن أمر ما .

ورغم أن التغير الرئيسى اللازم للتصنيع تضمن وضع المحاربين فى العمل أو استخدامهم كرجال شرطة ، وأخذ الأراضى من الأمراء العظام لاستخدامها كرأس مال للمشاريع الجديدة ، وحتى أولئك الذين كان عملهم إلى حد كبير رمزياً طلب منهم أن يذهبوا للعمل ، ومع ذلك فإن روابط الاسرة مع الدولة ظلت قوية .

ثالثاً : يعتبر نظام الاسرة الصينية التحيز لها واجباً وليس جريمة ، ومن ثم فيتوقع من أى رجل ارتفع بمجهوده وعمله أن يعمل على رفع أكبر عدد من أفراد أسرته لمجرد أنهم من أفراد أسرته . مثل ذلك العبء على الصناعة لم يكن موجوداً فى اليابان ، حيث الموانع والحواجز الطبيعية صعب عبورها ، ولكن كان عندهم التبنى طريقاً عظيماً للصعود الاجتماعى . فقد كان اليابانى لا يورث ابناً غير ذكى ، ويفضل عليه ابناً متبنياً ذكياً ، وهذا أمر لا يمكن التفكير فيه فى الصين . والابن المتبنى ليس مرغماً على أن يرفع معه أسرته السابقة . وذلك يعنى أن الكفاية الإنتاجية الصينية كانت قاصرة أمام التحيز الاسرى ، وتبعاً لذلك أصبح اليابانيون لديهم القدرة للإرتفاع إلى المنجزات الجديدة التى يتطلبها التصنيع .

رابعاً : كان للتاجر الصينى مرتبة اجتماعية منخفضة ، حتى ولو حصل على بعض القوة بسبب ما يملكه من نقود ، ومن ثم كان هدف التاجر الصينى الأول من الحصول على الثروة ، هو الحصول على قدر كاف منها ليتوقف عن أن يكون تاجراً ، وليعلم أبنائه ليصبحوا طلاباً ، أو على الأقل أن يعيشوا كوجهاء وأسياد . وكان التعليم والتلمذة أساساً موجهاً للخدمة المدنية ، وليس له علاقة بالاحتياجات للنسق الاقتصادى الجديد ، وعلى هذا فنمط التأكيد على الحراك الأسرى إلى أعلى من خلال تراكم التعليم ، منع تراكم المهارات والمعارف الاقتصادية للتجار . وباختصار : الصينى الناجح هو الرجل الذى بذكائه وجهده يتحرك إلى أعلى تحركا

بعيداً عن المعارف اللازمة لتسهيل عملية التصنيع . وعلى العكس كان التاجر الياباني: لديه فرصة قليلة أو لا فرصة لتحريك أسرته إلى أعلى ، وأسباب ضئيلة لدفع أبنائه ليصبحوا أسياداً . ومن ثم خطوط أسر التجار اليابانيين كانت مستعدة لتقديم مهارات مالية وإقتصادية مناسبة ؛ عندما فتحت أبواب المشاريع الاقتصادية الجديدة .

وهكذا لدينا مثلا ، عندما ابتدأ التأثير الغربي يتخلل مجتمعين لهما موقفين متشابهين ، ولكن لكل منهما بناء أسرى مختلف ، هذه الاختلافات ساعدت على تشكيل ذلك الاختلاف الواسع فى تاريخ النجاح أو الفشل كمجتمع صناعي حديث .

ونحن لا نريد أن نقرر أن الأسرة هى المحرك الوحيد ، إذ عندما يكون كل شئ يتغير ، يصبح من الصعب القول بأن عنصراً معيناً هو المسئول أساسياً ، ولكن بالفعل النسق الأسرى يؤدى دوراً هاماً . فهى لها قوتها الذاتية لتشكل أو تقاوم أو تسهل الإتجاهات والتيارات الرئيسية الهامة للتغير[1] .

وأيضاً تعانى الأسرة من التغير ، فهى تتغير بصفة مستمرة ودون توقف ، ذلك أنها نظام شديد الحساسية ، سريع التأثر بالتغير الاجتماعى . والتغير أمر طبيعى وليس فى ذاته شيئاً يبعث على الخوف وإن كان هناك بعض المفكرين يخشون من أى تغير يصيب الأسرة ، فالتغير لديهم ينتج دائماً الأمراض . فهم ينظرون إلى التناقص الكبير فى وظائف الأسرة وأخذها منها بعدم الارتياح ، فإن الأسرة القديمة اعتبرت عندهم من نوع مثالى فى القيم والمعايير . وأى تغير فيها يبعد الأسرة عن وظائفها ينظر إليه على أنه اعتداء على القيم المقدسة[2] .

---

(١) Goode, W. : op. cit. P. P. 539—532.

(٢) Merril : «Sociaty & Cultur» P. 368.

فالأسرة فى الأيام السابقة بإطارها الدينى السابق وأطفالها العديدين ووظائفها الأخلاقية المتعددة . ونظامها البترياركى أصبحت النمط المثالى الذى يجب أن تكون عليه الأسرة . أما الأسرة المعاصرة الحضرية فهى تبعد بوضوح عن هذا النمط المثالى ، ولهذا فهى تدعو إلى القلق وعدم الارتياح عند المفكرين الذين يأخذون بهذا الرأى .

وهكذا فإن الإتهام الموجه للأسرة أنها فشلت فى وظيفتها أو خسرتها ، أى أنها بشكل ما لا تؤدى وظيفتها بسبب الإهمال المتعمد أو التفكك الأسرى الناتج عن التغير الاجتماعى الذى يحدثه التصنيع . والحقيقة أن الأسرة لا تحتمل مثل هذه المهاترات ، لأنها ليست فرداً أو شيئاً مادياً ، ولكنها نمط ثقافى فالأسرة تعيش فى أفرادها ومن خلال سلوكهم ، وهم المسئولون وحدهم عن أعمالهم وأكثر من هذا فتحول الوظائف من الأسرة إلى النظم الاجتماعية الأخرى لا يعنى أنه يظهر مدى رسوب الأسرة فى أداء وظائفها ، ولكنه يعكس ويظهر أن النظم الاجتماعية الأخرى قد تغيرت أيضاً وأصبحت أكثر قدرة على القيام بهذه الوظائف .

فالأسرة القديمة الواسعة كانت تقدم معظم عمليات الترفيه لأعضائها لأنها كانت النمط الثقافى الوحيد القادر على مثل هذا الغرض ، ولكن الآن السينما تعتبر جهازاً أكثر قدرة على تقديم ترفيه من نوع أحسن من أى أسرة ذكية . ولذلك فإن وظائف الاسرة تحولت إلى نظم أخرى ليس لفشل الأسرة فى القيام بواجباتها ولكن لأن نظماً أخرى يمكنها أن تحقق تلك الوظائف بشكل أكثر إيجابية .

وهناك فريقان من المفكرين يسمحون بالتغير الأسرى ولكن لديهم أفكار خاطئة عن التغير .

الفريق الأول يقول : إن الأسرة لا تتغير فقط ، ولكنها تتحلل أيضاً والأسرة عندهم مقدرا لها أن تختفي كلية[١] . وهؤلاء المفكرون يتخذون أدلتهم من هؤلاء الناس الذين يهربون من التقاليد الأسرية ، وازدياد نسبة العزاب . وأن هؤلاء الناس يتزايدون بصفة مستمرة طالما أنهم يرون في الأسرة والزواج عبئاً اقتصادياً وتتضخم تكاليفها باستمرار . كما يشيرون إلى التغير في الرأي العام نحو الشخص الأعزب حيث أصبح لا ينظر إليه على أنه شخص شاذ[٢] . ويذهب أيضاً مولر Muller في كتابه الأسرة Die Familie إلى أن الجنس البشري قد مر خلال تاريخه في مرحلتين : القبيلة والأسرة، وهو الآن يمر بمرحلة ثالثة، وهي : الفردية . فأولا كانت الأسرة تابعة للوحدة الكبيرة وهي القبيلة أو العشيرة وبتحطم القبيلة نتيجة لتغير الظروف الإقتصادية ، ظهرت الأسرة كوحدة منفصلة واستمرت لعدة قرون تحكم سلوك الفرد . فكان على الزوجة أن تضحي براحتها في سبيل زوجها ، وكان على الإثنين أن يضحيا في سبيل راحة الأسرة كلها . ففي بعض البلاد مثل الصين واليابان يمكننا أن نرى كيف أن سلوك الفرد متحكم فيه ، وتسوده وتضبطه جماعة الأسرة . ولكننا الآن حسب رأي مولر Muller نمر بالفترة الثالثة من التطور الإجتماعي حيث رفاهية الفرد في المقام الأول . فإذا تصادمت اهتمامات الأسرة بتلك التي للفرد ، فاهتمامات الأسرة هي التي يضحي بها[٣] وفي ذلك يقول ريد Ried ، إن المنزل لم يعد الهدف ، وأصبحت رفاهية الفرد ونموه هي الهدف .

The home is no longsr the goal, Individual welfare and development are the gools.(٣)

(١) Nimkoff : «The Family» P. 235.

(٢) Ibid ., P. 244.

(٣) Ibid ., P. 245.

(٤) Read, R. : "The Modern Family" Rnodf, New York. 1929 P. 25.

ويقول لنا هؤلاء المفكرون : إنه إذا كان الفرد هو الشيء الهام وليس الأسرة فهذا يعني أن الأسرة قد فقدت أهميتها، وبذلك تصبح الروابط الأسرية لا تزيد عن تلك الروابط التي بين الأصدقاء . ويبدو لي بجلاء أن هذه الأفكار هي نتيجة للأيديولوجية الغربية التي تدين بالمذهب الرأسمالي الذي يقدس الفرد وحريته ، والتي أعطت ظهرها للدين وروابطه .

ويذهب مفكرون آخرون إلى وجهة نظر أخرى ، وهي أن الأصل في تكوين الأسرة هو ما يحتاجه الطفل من عناية ورعاية في المرحلة الأولى من حياته، وهي الوظيفة الرئيسية للأسرة من قديم الأزل ، وأنها أيضاً السبب في استمرار بقائها . وهم يرون أن التصنيع ودخول المرأة الصناعة أدى إلى تفكيرها في التخلص من أعباء تربية الأطفال وامتناعها عن الإنسال، ويؤيدون أفكارهم هذه بازدياد عدد الأسر التي لا أطفال لها . وكذلك يستدلون على أن اشتغال المرأة أدى إلى اختراع دور الحضانة التي أصبحت تؤدي هذه المهمة الرئيسية للأسرة واستمرار زيادة هذه الدور . وفي روسيا قيل إن الوالدين يمكنهما التخلص من أعباء رعاية أطفالهما كلية ، وإن الأطفال بأعداد كبيرة يربون في دور حضانة عامة . كل هذه الأفكار يرون فيها بذور تدهور النظام الأسري(١) .

والفريق الإخر لا يرى أن الأسرة مآلها إلى الانحلال والاختفاء، ولكنهم يرون أن الحياة الأسرية الآن ليست جذابة كما كانت في الماضي . وهؤلاء الأشخاص يريدون أن تعود مرة ثانية تلك الظروف التي كانت سائدة في الماضي

---

(١) Nimkoff: « The Family » P. 345—347.

وهم يعتقدون أن الأسرة كانت أكثر تكيفاً فى البيئة الزراعية عنها الآن فى البيئة الصناعية[١] .

ولكن التصنيع وجد ليبقى، بل وليستمر فى الازدياد، وأن المجتمع سيزداد تعقيداً تبعاً لذلك عما كان عليه . والمدن لن يقلل من شأنها أن تجد بعض الأزواج وزوجاتهم يذهبون للسكنى فى القرى ، فالمدن ستظل تنمو وتزدهر ولن تصغر .

كما أنه لن نكسب شيئاً من محاولة إعادة عقارب الساعة إلى الوراء . والذى لا بد أن يحدث هو العمل على تكيف الأسرة لتلك الظروف الجديدة للحياة الحضرية التى أوجدها التصنيع .

إن الأسرة أتت من القرية إلى المدينة، ولا يمكن إعادة تنظيمها بعودتها مرة ثانية إلى الريف ، بل بالعمل على خلق عادات جديدة وأفكار جديدة تتلاءم مع الظروف الجديدة المعقدة فى الحياة الحضرية فى ظل التصنيع .

٤ بيان أن التصنيع أهم سبب فى التغير الاسرى

لقد رأينا أن الأسرة قد تغيرت تغيراً كبيراً، فهل هذا التغير يرجع إلى نمو الأنانية الفردية ، أو إلى الضعف الأخلاقى، أو السعى وراء ملذات أكثر، أو إلى أسلوب الحياة الحضرية والتصنيع الذى أوجد وظائف وأعمالا للرجال والنساء بعيداً عن المنزل ؟ كل هذا عبارة عن فروض يمكن أن توضع موضع الدراسة .

---

(٢) Ibid ., P. 236.

(أ) التغير لا يفسر إلا بمتغير :

التغير لا يمكن تفسيره بشئ ثابت ، فالتغير لا بد من تفسيره بمتغير آخر[١] . فمثلا الزواج فى سن مبكرة وزيادته لا يمكن أن يفسر بالرغبة الجنسية ، فهى شئ ثابت ، ولكن يمكن تفسيره بظروف أخرى متغيرة مثل الحرب أو النجاح المطرد فى الأعمال . إذا تغير شئ فنحن نسميه متغيراً ، سواء أكان هذا التغير فجأة كصنع شئ جديد مثل اختراع ، أو كان مستمراً مثل التغير فى متوسط سن الزواج عند المرأة . وتسمى هذه الظواهر متغيرات ، طالما أنها تتغير ولا تبقى ثابتة كما هى .

والدوافع لا تصلح كمفسر للتغيرات الاجتماعية[٢] ، فمثلا فى حالة الدعارة ، وزيادتها فى الحضر عنها فى الريف ، هل ترجع إلى زيادة الإحساسات الجنسية نحو طلب رفيق غير قانونى فى الحضر عنه فى الريف ! ؟ إن الإحساسات الجنسية موروثة ، فهى عنصر ثابت فى الحضر والريف على السواء ، ولكن التغير فى تغير الأثر الدينى بضعفه فى الحضر عنه فى القرية ، وكذلك تغير الضبط الاجتماعى فى الحضر عنه فى الريف ، فهو فى الأخير أقوى تأثيراً .

(ب) طريقة البحث عن الأسباب :

عندما يحدث تغير فى متغير بواسطة تغير فى متغير آخر ، فإن التغيرين يحدثان معاً ، أو أن يحدث واحد بعد فترة ، مثل التناقص فى التوظف سنة ١٩٣٠ (الأزمة العالمية) صاحبها التناقص فى عدد الزيجات ، وقد حدثت الحركتان معاً تقريباً ، وهذان يسميان متغيران متلازمان . ولكن ليس كل التغيرات المتلازمة ذات سبب أو ذات صلة أو علاقة ببعضها . فى الأزمة العالمية

---

(١) Qgburn & Nimkoff : op. cit., P. 18.

(٢) Ibid., P, 23.

سنة ١٩٣٠ كانت نسبة الوفيات ومعدل الزواج منخفضين . فهل يمكن أن نربط بين تناقص الوفيات وتناقص معدل الزواج، قد يؤثر انخفاض معدل الزواج في تناقص معدل الوفيات ، ولكن بعد فترة زمنية كبيرة وببطء شديد .

يتضح إذن أنه لابد أن يكون هناك أساس للصلة وراء تلازم المتغير ، وإقامة هذه الصلة ليست ببساطة تقام على أساس مجرد جدول إحصائي يظهر التلازم ، فمثلا جدول يبين لنا أن الآباء الطوال يكون لهم أبناء طوال ، والآباء القصار يكون لهم أبناء قصار، فمثل هذا الجدول لا يبين لنا بذاته أى متغير هو السبب . ربما نستنتج من الجدول أن الآباء الطوال سببهم الأبناء الطوال، تماماً بنفس القوة التي تمكننا من القول إن الأبناء الطوال سببهم الآباء الطوال . فالجدول ليس إلا بياناً مرسوما يمكننا من رؤية التلازم ومقياسه ، أما السبب ذو العلاقة فيمكن إقامته من معرفتنا عن الوراثة .

وبالمثل جدول يبين علاقة بين ارتفاع معدل المواليد والنجاح فى الأعمال لا يبين أيهما أحدث الآخر . فنحن نحاول أن نسترجع معلوماتنا لمعرفة من السبب ومن النتيجة ؟ . فولادة أطفال جدد لا يمكن أن تسبب النجاح فى الأعمال ، ولكن النجاح فى الأعمال يمكن أن يحدث زيجات أكثر، وبالتالى مواليد أكثر .

إذا تغير متغيران عبر فترة طويلة من الزمن مثل حالة زيادة معدل السكان فى مدينة ما، وزيادة معدل الوفيات ، ولا يوجد هناك سبب ذو صلة مباشرة بين الاثنين عن طريق المعلومات المستخرجة من الجدول ، فهناك احتمال قوى أن هناك علاقة غير مباشرة ، علاقة من خلال متغير ثالث ، فى حالة معدل السكان

ومعدل الوفيات السابق ذكرها ، فالصلة هى خــلال زيادة الأعمال وزيادة المواصلات وزيادة سرعة رتم الحياة، وهو متغير ثالث .

وفى بعض الأحيان نفسر العلاقة على أساس حالة واحدة أو ملاحظة واحدة، مثل تفسير كثرة الطلاق بعد الحرب ، فإن الحرب عملت زيجات سريعة لم تستطع تكوين أسر بالمعنى المفهوم ، فكانت أسر قابلة الانحلال ، مثل هذا التفسير الذى حدث فى بلد واحد (أمريكا) لا يمكن أن يعمم فى كل الحروب وفى كل البلاد ، ولكن يمكن توقع حدوث بعض الطلاق بعد الحرب (١) .

(ج) هل هناك سبب واحد أو عدة أسباب :

فى الفقرة السابقة كنا نتحدث عن التغير كأنما يحدثه متغير واحد فقط . ولكن الدلالات التى عملت عن التغيرات المتلازمة بين متغيرين ، حيث يكون التغير فى متغير واحد يحدث نتيجة تغيرات متلازمة ليس فى متغير واحد فقط، ولكن فى متغيرات أخرى كثيرة ، مثل ارتفاع معدل الطلاق بعد الحرب ربما يكون سببه :

١ — الزواج السريع .   ٢ — الانفصال أيام الحرب .

٣ — غياب الأبناء .

فالمؤثرات الثلاث تعمل معاً فى وقت واحد ، ونحن عادة عندما نتحدث عن السبب نجد أنه يجب الحديث عن سبب إلا أنه عادة يكون هناك أكثر من سبب وراء تغير الظاهرة الاجتماعية . فهناك أكثر من سبب لاشتغال المرأة

---

(١) Ibid., P. 20.

خارج المنزل ، فى مجتمعنا كل الظواهر تتغير فى وقت واحد . وطالما أن هذه الأجزاء المختلفة كلها متداخلة الصلة ، فمثلا التربية تتصل بالأسرة والنظام الاقتصادى ، والأسرة والنظام الاقتصادى متصلان ، فلذلك فإن أى تغير اجتماعى يبدو أنه سيكون متأثراً بالتغير بأكثر من عامل . فاشتغال المرأة فى المصانع والمكاتب يتصل ويتعلق بأشياء كثيرة ، بحجم الأسرة وبحجم الدخل وغياب الأطفال ، والحاجة إلى العمل ، وكل منها متغير .

وفى بعض الأحيان يعين السبب المتغير مجملا . فمثلا فى المدينة يزيد معدل الطلاق عنه فى القرية ، ولكن كلمة مدينة هى مصطلح واسع جداً ، وتتضمن متغيرات كثيرة ، كالوظائف للمرأة ، وقوانين النسل ، والجاذبية خارج المنزل وضعف الضبط الاجتماعى ، وتصبح الحاجة إلى معرفة أى الأسباب أكثر فاعلية فى المدينة يؤدى إلى رفع نسبة الطلاق . وفى هذه الدراسة لن يكون هناك عامل واحد نعزله ، ولكن عوامل كثيرة . فمثلا الوظائف للمرأة خارج المنزل فى المدينة أكثر منها فى الريف ، وكذلك إحساس الفرد أنه غير معروف فى المدينة يؤدى إلى قلة الضبط الاجتماعى من الجيران والمعارف . كما أنه يوجد أيضاً قلة الأولاد فى زيجات المدينة . وهكذا فى البحث عن الأسباب من المستحسن أن نأخذ بعين الإعتبار أنه قد يكون هناك عوامل كثيرة تقدم نتائج أوضح من أى نتائج يقدمها عامل واحد .

وهكذا تعتبر أسباب التغيرات الأسرية إلى حد بعيد أسباباً مباشرة ، فنشأة المصانع سبب مباشر لتناقص الإنتاج فى المنزل . ولكن إذا تساءلنا عما أدى إلى نشأة المصانع ، نجد الإجابة أنه الحاجة إلى التصنيع نظراً لزيادة السكان وقلة الأرض مما أدى إلى انخفاض مستوى المعيشة . وهكذا يمكن أن نعتبر أن زيادة السكان هى سبب فى تغير الأسرة ، وهذا السبب مستخرج من السبب الرئيسى

وهو نشأة المصانع . ولكن إذا كان هناك سبب استخرج من السبب المباشر أو الرئيسى، فإنه يمكن أن يكون هناك سبب آخر يمكن استخراجه من السبب المستخرج أولا، [ويسمى السبب المستخرج ثانياً]، وهكذا يمكن أن يكون سبب مستخرج ثالث، ولذلك فهناك سلسلة من الأسباب، وبذلك تكون عملية العلّية متتابعة، وطالما أن السبب المباشر هو السبب الذى عادة ما يذكر، وأن الأسباب المستخرجة تختفى، فإنه من الملائم أن نفكر فى هذه الأسباب التى تشبه السلسلة .

(د) التصنيع وعمليات التجمع والتشتت والعلية :

التصنيع عبارة عن تجمع عظيم لكثير من عوامل التغير، فزيادة المصانع وزيادة السكان بنمو المدن والهجرة إلى المناطق الصناعية، وزيادة المواصلات ووسائل النقل، وفتح وظائف جديدة للمرأة، كل هذه متغيرات قد تجمعت لإحداث التغير الاجتماعى فى النظام الأسرى، وكلها يمكن اعتبارها أسباباً لتغير الأسرة . والأسباب المتعددة التى تعمل على إحداث تغير فى ظاهرة اجتماعية يمكن اعتبارها تجمع « فعادة ينتج التغير من عدة أسباب وليس من سبب واحد، وهذه الأسباب المتعددة تميل إلى أن تتجمع، وظاهرة التجمع Cnvergence مترابطة مع ظاهرة التتابع[1] » . فمثلا عند البحث فى أسباب ضعف روابط القرابة نجد أن أحد الأسباب هو تفرق الأقارب، ولكن هناك أسباب أخرى كثيرة، منها كثافة السكان، فحيث يعيش أفراد كثيرون متقاربين فى المدينة فهناك اتحادات ونقابات بدلا من القرابة، والفرد يعتمد بدرجة أقل على الأقرباء وحدهم . إذ يوجد هناك الصداقة والإتحادات . فزيادة التفرق ليست إلا سبباً

---

(١) Ibid , P. 24.

من بين سببين ، وبالمثل هناك أسباب كثيرة للتفرق ، فإلى جانب الحراك الاجتماعى ، هناك أختلاف الأعمال تعتبر سبب أيضاً فى تفريق الأقارب ، وعامل ثالث فى إحداث تفرق الأقارب هو اختلاف الدخل والتعليم ، وهـذا نجده فى المناطق الصناعية . وهـكذا نجد أن الحراك الاجتماعى أحد عوامل ثلاث فى التفرق الأسرى ، وأحد عوامل خمسة فى ضعف صلات القرابة .

ولا تصبح صورة العلاقات المتبادلة المتداخلة بين الأسباب كاملة بدون دراسة عملية التشتت Dispersion التى هى عكس التجمع، فـكما أن كثيراً من العوامل تتجمع لإحداث التصنيع ، فإنه كذلك يوجد عامل واحد يفرق ويوزع ويشتت تأثيره على أشياء كثيرة ، فمثلا الهجرة التى أحدثها التصنيع يتشتت أثرها على أشياء كثير مثل زيادة نمو المدن وتخلخل العادات والتفكك الأسرى وضعف صلات القرابة . فى التجمع الآثار العلّية تنصب فى النتيجة ولـكن فى التشتت فإن الآثار تنبعث من السبب . فمثلا اشتغال المرأة خارج المنزل أثرت على علاقاتها مع زوجها وأبنائها وملابسها وموقفها الاجتماعى وتعليمها .

وهـكذا تصبح عملية العلية أشبه ما تـكون بالشبكة، حيث يكون مفهوم التتابع مرتبطاً وملتحماً بمفهومى التشتت والتجمع . ولهذا عملية العلية فى الظاهرة الاجتماعية معقدة، ولـكن ليست بالضرورة محيرة أو مربكة، لأنه ليس كل أجزاء الشبكة مشعوراً بنشاطها فى نفس الوقت ، وربما يـكون نشاطاً هاماً ذا أثر كبير عن سبب غير هام . ومن هنا يتضح أننا نبحث عامة عن أهم الأسباب .

(د) التصنيع أهم سبب فى التغير الأسرى :

السؤال الآن : كيف نبحث عن أهم الأسباب؟ من الواضح أنه السبب الذى يكون له قدر كبير فى جزء كبير من النتيجة . فمثلا إذا كان الارتباط بين

التحول فى معدلات الزواج ودورة العمل هو ٨ر٠ أى يكون لدورة العمل ٦٤٪ من التغير فى معدل الزواج، معنى هذا أنه سبب هام . معاملات الارتباط هذه تعتبر تحديدات حسنة لبيان الأهمية ، ولكن ذلك عندما يكون باقى التغيرات ثابتاً .

ولكن فى حالة غياب مثل هذه المقاييس، علينا أن نتبع التحديدات التقريبية، ففى بعض الأحيان يمكن الاستدلال عن الأهمية على أساس معلوماتنا العامة بدون قياس ، وبمثل هذه الطريقة يمكن أن نستدل مثلا على أن زيادة ممارسة تحديد النسل سبب هام فى تغير حجم الأسرة ، وربما نرغب فى أن نذهب إلى أبعد من ذلك: فى سلسلة الأسباب لنعلم: سبب الزيادة فى هذا الاستعمال .. وبالتالى يمكن أن نجد أسباباً كثيرة إذا تتبعنا الأسباب فى سلسلة العلية وعادة يكون السبب الأبعد أقل أهمية .

والأسباب الهامة عادة لاتكون فى منطقة خارجة عن فترة التغيرات المدروسة . فمثلا فى هذا البحث إذا كنا ندرس التغيرات فى الأسرة فى الفترة بين ماقبل التصنيع حيث كان أسلوب الحياة الزراعية هو السائد وما بعد التصنيع ، وبهذا يكون أسلوب الحياة فى المناطق الصناعية هو السبب الهام ، حيث لم يكن هناك تصنيع قبل ذلك .

فإذا كنا ندرس التغيرات فى الأسرة خلال العشر سنوات الماضية مثلا ، فإنه من الصعب البحث عن الأسباب فى اختراع حدث منذ زمن بعيد، إلا إذا كان استعماله تغير خلال هذه السنوات العشر ، فعامل التغير يكون مهماً بقدر مايحدث من تغيرات . فالانتقال من اللا تصنيع إلى التصنيع أى من اللاموجود إلى الموجود، هو تغير هام جداً، فبمقدار عظم الاختلاف يكون مقدار عظم التغير .

فإذا أضيف إلى هذا أيضاً أن الأسباب الهامة توجد فى حالة تجمع العوامل أكثر منها فى عامل واحد بسبب ظاهرة التجمع ، اتضح لنا أهمية التصنيع كسبب من أسباب التغير . ويقول فى ذلك أوجبرن Ogburn التجمع المسمى الثورة الصناعية سبب هام جداً .

The cluster called the Industrial Revolution is, a particularly important cause(١)

وهذا هو مانعيشه الآن فى مصر .

وأيضاً بسبب نظرية التشتت قد يكون لسبب واحد آثار موزعة تتجمع فيما بعد . فالتصنيع مثلاً الآثار التى تتشتت منه والتى تظهر فى الإنتاج والنقل والمواصلات وجذب العمال والجمع بين الجنسين ، تجمعت كل هذه الآثار الناتجة من كل هذه الأشياء لتنقص من وظائف الأسرة ، ومثل هذه العوامل تكون مهمة جداً لأنها تحتوى على عمليتى التجمع والتشتت .

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن التصنيع يعتبر من أهم العوامل فى هذه الفترة فى تغير الأسرة .

ويجب ملاحظة أن الآثار ليست دائماً تحدث فى آن واحد مع السبب ، فالأثر الكلى يحدث ويظهر بعد فترة . فمثلا المهاجرون من القرية إلى المناطق الصناعية لايحتاجوا أكثر من يوم للانتقال إلى المناطق الصناعية ، ولكن قد يحتاجون إلى أشهر وسنين لتعلم أسلوب الحياة الحضرية . وأيضاً يوجد آباء وأزواج كثيرون فى المدن فى الوقت الحاضر مازالوا يحاولون حكم أسرهم وزوجاتهم وأبنائهم كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم فى الأسر الريفية .

---

(١) Ibid., P. 28.

ولهذا فى تقدير الأسباب يجب أن لا نهمل ظاهرة الفجوة كما يقول Ogburn

In Appraisisng causes The phenomenon of lag should not neglected.(١)

(فعندما يتغير نظام اجتماعى ذو أجزاء متداخلة ، ولا تتغير كل الأجزاء فى نفس الوقت أو بنفس المعدل ، تحدث الفجوة الثقافية . وهكذا قد تفقد الأسرة عديداً من وظائفها الاقتصادية فى مكان ما، ولـكن الضوابط القانونية للإنتاج والملـكية قد تظل بدون تغير ، أو تتغير ببطء أكثر . وبالمثل إذا انتشرت المدن بسرعة، لنقل خلال قرن، تصبح الحياة اليومية للأسرة مختلفة عما كانت عليه فى المناطق الريفية التى أتت منها الأسرة الحضرية . وتختلف هذه الحياة اليومية باختلاف مناطق عمل أعضاء الأسرة أو باختلاف أساليبهم فى الترويح وشغل أوقات الفراغ . ومع ذلك ربما تستمر القوانين الإجتماعية المتوافقة مع الحياة الريفية ، وإن كان يلحقها التغير، ولـكنه تغير طفيف، وهكذا يمـكن أن تظل أقوال الـكبار مثل النوم مبكراً والإستيقاظ مبـكراً يجعل الإنسان معافاً وغنياً وحكيما ، هذه الحـكمة كانت تتلاءم جداً مع حياة أسرة قروية تتعامل مع الحيوانات المستأنسة.

وكذلك فى المدن روابط الأسرة تضعف ، وأعضاء الأسرة ينبعثون كأفراد لهم حقوق كأشخاص مستقلين ، ومع ذلك، الروابط الأسرية التقليدية للحياة الريفية تتغير ببطء . وذلك لأنه بصفة عامة التقييمات الاجتماعية التى تأخذ شكل قوانين وجزاءات وأيديولوجيات تقاوم التغير . وعادة تتغير أولا المظاهر الإقتصادية والتـكنولوجية للأسرة، أما النواحي الفـكرية فتتغير مؤخراً . وهـكذا تظل الأسرة لوقت ما بعيداً عن الإنسجام مع الوسط الحضرى الجديد[٢] .

---

(١) Ibid ., P. 30.

(٢) Ogburn, W. F. : "Why tge family is changing" ،In Prespetives on the social order. op. cit. pp, 299—302.

الباب الثانى

الناحية المرفولوجية

- من ناحية نطاق الأسرة وكثافتها وحجمها
- من ناحية الطبقة
- من ناحية الهجرة

الفصل الرابع

من ناحية نطاق الأسرة وكثافتها وحجمها

أولا : نطاق الأسرة وكثافتها

إذا أردنا أن نعرف أثر التصنيع على الأسرة من حيث نطاقها وكثافتها فإن الدراسة المقارنة بين الأسرة الريفية والأسرة فى المناطق الصناعية أى الحضرية هى خير سبيل إلى ذلك .

تتكون الأسرة الريفية من سلسلة من الأسر المتلاحقة التى يجمعها منزل واحد ، وذات وظائف متعددة ، فالوظائف سواء داخل المنزل مثل تجهيز الطعام لمن يعمل فى الحقل وإرساله لهم ، وكذلك حلب الجاموسة والطحن وعمل الخبز وصناعة الجبن والزبد تستدعى كل هذه العمليات استخدام أيد عاملة كثيرة . كما أدت هذه الحاجة الإقتصادية إلى زيادة روابط القرابة ، وبالتالى زيادة عدد الأقارب المقيمين مع الأسرة ، وهذا يعمل على اتساع نطاق الأسر ، فيتزوج الأبناء ويستمرون فى منازل آبائهم . بل كانت المنازل تضم أبناء الخال الذين يعتبرون كجزء من الأسرة . ذلك أن الحياة الريفية خارج المنزل وهى فلاحة الأرض تتطلب الإحتفاظ بالأرض وزيادة رقعتها مما يتطلب التماسك الأسرى على أوسع مداه ، كما أن مراكز الأسر فى السلم الإجتماعى تعزى إلى اتساعها وتماسكها ، كما يرجع إلى مقدار ما تملكه من الأرض . ويتضمن الاتساع فى ذاته زيادة فى حجم الأرض المملوكة للأسرة . وتتميز هذه الأسر بالعمل الجماعى والإنتاج الجماعى ، وبهذا فالعائلة فى القرية عليها أن تشبع إلى درجة ما الحاجات الإقتصادية والإجتماعية لأعضائها . وعلى ذلك تكون العائلة داخل القرية

وحدة مستقلة ، وتكون روابط العائلة أشد ما تكون كلما زادت درجة الإشباع ووصلت إلى حد الإشباع .

ولكن فى المناطق التى دخلها التصنيع وحولها إلى أسلوب الحياة الحضرية أصبحت العلاقات تقوم على أساس من القواعد المدنية أو العلاقات المدنية، وهكذا وجد مصطلح المدينة . وفى المدن الكبيرة فى هذه الأيام العلاقات بين الأصدقاء أكثر قوة منها بين الأقارب ، وأصبحت الواجبات بين الأقارب تمثل عبئاً ثقيلا .

فلماذا نلاحظ هذا الضعف فى روابط القرابة فى المناطق التى تصنع ؟ هو أن التصنيع يعمل على إزالة هذا النوع من الأسر ، وهو يعمل ذلك لأنه أولا : يحطم الروابط التى بين الأسر والقرية ليملأ المدينة بالعمال الفقراء الذين يعتمدون على المصانع فى معيشتهم(١) . فتبعثرت الأسرة وتفرق الأقارب . فبعضهم يعمل فى الريف وبعضهم فى المدينة، بل وفى مدن مختلفة، ومن الطبيعى فى مثل هذه الحالة لا يمكن للروابط الأسرية أن تمتد عبر المسافات الطويلة دون أن يصيبها ضعف(٢)

وطبقاً لنظرية التشتت ، ينبعث من التصنيع أثر آخر هو : الانتقال الاجتماعى فالغريب يتحرك بعيداً ، ذلك أن التصنيع لا يسمح حتى بأسرة حضرية ذات عمق ثابت، لأنه يتطلب سكاناً متحركين متنقلين بالمعنيين الجغرافى والإجتماعى، فالتصنيع يتطلب حركة وفيضاناً عمالياً أكثر من الجمود الجغرافى القائم على الموطن الأسرى(٣). وكذلك ما أتاحه التصنيع من فرص كبيرة للعمل ومن زيادة الدخل،

---

(١) Schneider : "Industrial Sociology" p. 425.

(٢) Ogburn & Nimkoff: Technology and changing Sociaty p. 22.

(٣) Goode : op. cit. a. 535.

كان له أثر كبير فى زيادة الإنتقال الإجتماعى ، وكذلك التجارة والرغبة فى التوسع شجعت الحراك الإجتماعى ، وفى بحث حديث أجراه الدكتور صلاح الدين عبد المتعال الخبير بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية عن الأسرة المصرية تبين له (أن الحراك الجغرافى بين أبناء الأسرة الريفية كان مرتبطا بالحراك المهنى أفقياً ورأسياً ، حيث تباينت مهنهم عن مهن آبائهم التقليدية ، ويتفق هذا أيضاً مع دراسة للدكتورين عبد القادر وسرحان فى دراستهما عن التغيرات التى طرأت على الأسرة المصرية فى مدينة القاهرة)(١) وفى القرية يعمل معظم الأقارب فى الفلاحة فيجمعهم عمل واحد يوطد الصلات ويقويها .

ولكن التصنيع أدى إلى تنوع الأعمال واختلاف المهن ، وأدت الفروق الفردية إلى اختلاف قدرة كل من أفراد الأسرة الواسعة على اكتساب مهارة معينة وبالتالى على عمل معين مما أدى إلى تفرق الأقارب فى مهن وأعمال مختلفة ، فانعكس هذا على علاقاتهم الإجتماعية المتبادلة . والمعروف أن لكل مهنة وعمل مستوى من الدخل ومستوى من التعليم وتكسب صاحبها عادات وتقاليد ومعايير خاصة بمهنته ، أدى هذا إلى تشتت الأقارب فى مستويات مختلفة فى السلم الإجتماعى ، وبالتالى أدى إلى ضعف صلات القرابة وتفرق الأسرة الواسعة إلى أسر صغيرة.

ويعمل التصنيع على تركز السكان وكثافتهم ، وحيث يعيش أفراد كثيرون متقاربون فهناك اتحادات بدلا من القرابة والفرد يعتمد بدرجة أقل على الأقرباء وحدهم ، لأنه توجد هناك صداقة واتحادات(٢) ، واتفاق المصالح والأهداف .

وحيث تزداد كثافة السكان تزدحم المساكن وتقتصر كل أسرة على شقة

---

(١) د. صلاح عبد المتعال : رسالة الدكتوراه ــ جامعة القاهرة .
(٢) Ogburn & Nimkoff : op. cit p. 25.

تتكون من عدد من الحجرات وكل حجرة تضاف هي زيادة في تكاليف المعيشة ، وهكذا تميل كل أسرة إلى الإقلال من عدد الأقارب المقيمين معها .

ومن هذا يتضح أن التصنيع قد شكل الأسرة الحضرية الصناعية تبعاً لحاجات التصنيع بطرقه المختلفة . وأحد الأحداث الهامة التي حدثت للأسرة الحضرية هو عزلها عن مناطق المجتمع الأخرى . فالأسرة الحضرية في المناطق الصناعية ليست غارقة في علاقات القرابة الواسعة فهي من نمط الأسرة الزواجية. ونسبياً توجد أسر حضرية قليلة تحتفظ بصلات قرابة ففي بحث الدكتور صلاح عبد المتعال (تبين أن نمط الإقامة في الأسر الحضرية يتميز في غالبيته بنمط الإقامة الجديد أو المستقل ، وترتبط نوعية الإقامة بمتغيرات أخرى ، كنوعية النشاط الإقتصادي السائدة وتباين المهن ودرجة التصنيع وما يترتب عليه من حراك جغرافي ومهني يؤثر بشكل أو بآخر في الملامح البنائية للأسرة . غير أننا يجب أن نضع في الاعتبار المسافة الكائنة بين موطن إقامة العائلة الأصلية للشخص والإقامة الجديدة . حيث أن طول المسافة أو قصرها قد يعوق أو يساعد في تيسير عملية الامتداد بين الأسرة الموجهة والأسرة المنجبة ، فلا شك أن المسافة بين مواقع العمل وموطن العائلة الأصلية للشخص قد يلعب دوراً في تحديد نوع الإقامة ، كأن يظل الشخص المتزوج في إقامته الأبوية التقليدية مادام قريباً من موقع العمل أو يضطر لإقامة جديدة عندما يكون موقع العمل بعيداً عنه . ومن ثم نرى أن القرى القريبة من الحضر تحتفظ بالشكل التقليدي أو المعدل للأقامة الأبوية ، مادامت القدرة على الإنتقال من القرى إلى الحضر متيسرة في نفس اليوم . ويمكن أن يلاحظ ذلك بالنسبة للمناطق الريفية المحيطة بالمدن ، وبذلك نرى من الأسر الحضرية التي تمت ذراستها وتقيم في المدن القريبة من القرية ، حيث تقيم الأسرة الأصلية ، تمثل النمط المعدل في علاقاتها

مع هذه الأسر الأصلية وذلك لقرب المسافة بين القرية والمدينة . ومن ثم فإن مآل الأسر بنائياً نتيجة لاختزال المسافة والزمن بسبب سهولة المواصلات قد يؤدى — بجانب عوامل أخرى — إلى التخفيف من حدة الإتجاهات الإنعزالية التى يمكن أن تحدث تحت وطأة التحضر والتصنيع والحراك المهنى)[1] .

وفى الهند وجد بوسكال جسبارت أن إحدى نتائج وطأة التصنيع على الأسرة هو التحول من بناء الأسرة المترابطة إلى الأسرة الفردية أو الزواجية. حقيقة أن بعض الأسر الموسرة ، حتى ولو سكنت المدينة تحافظ على علاقاتها مع أسرها المنغرسة فى القرية . ولكن الأمر ليس كذلك مع أسر الطبقة العاملة أو أسر الطبقة المتوسطة ، الذين سكنوا المدينة ، تشعر بأنها مضطرة أن تعيش فى أسرة زواجية لسهولة التكيف لهذا النمط الأسرى ، وذلك بسبب نقص الموارد المالية وعدم القدرة على التكيف لمتطلبات الصناعة ، ومهما حاول علماء الاجتماع أن يفكروا فى هذه المسألة ، فالحقيقة أن التغيرات التى حدثت فى الأسرة الهندية ، ترجع إلى حد كبير إلى اضطرابات السكن والتوطن)[2] .

فرغم أن التصنيع يعمل على الانتقاص من أهمية الأسرة الممتدة إلا أن جماعة القرابة الواسعة تحتفظ ببعض وظائف القرابة الهامة فى المجتمع ، ولكن أهميتها تختلف بإختلاف الطبقات والمواقف .

ففى الطبقة العليا حيث المراكز العليا تصبح جماعة الأقارب واسعة ومهمة وظيفياً . فاسم العائلة له أهمية كبيرة لمنزلة الأسرة والأسلاف والأنساب

---

(١) د. صلاح الدين عبد المتعال : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٢) Gisbert, P. : op. cit. p. 267.

ودرجات القرابة ، فاتساع الأسرة فى الطبقة العليا له وظيفة هامة ، ولذلك فهى تعمل على طرد الخارجين على تقاليدها ومعاييرها ، إذ تعتبرهم يهددون الطبقة وامتيازات مراكز أعضائها . كما أن جماعة القرابة المتسعة فى الطبقة العليا تحاول أن تضبط عملية الاختيار فى الزواج ، فالأفراد الذين يتزوجون يختارون زوجاتهم عادة من نفس الطبقة . ولما كان عدد الزيجات الفردية محدوداً فى الطبقة العليا لذلك زاد عدد الزيجات من بين أقارب الأسرة الواحدة مما يقوى الروابط الأسرية وصلات القرابة عندهم . وهناك وظيفة هامة اقتصادية لاتساع أسرة الطبقة العليا ، فإن توحيد أو تفريق الثروة فى أغلب الأحيان ، يتبع عن قرب خط الزواج والاتصالات الأسرية ، وعروض العمل وتبادل المعلومات كل هذا أيضاً يتبع خط العلاقات فى الأسرة الممتدة)[1] .

والأسرة الممتدة فى الطبقة العاملة ربما يكون لها أيضاً وظيفة هامة ، ولو أنه ليس هناك أهمية تعلق على الاسم والأسلاف إلا أنها تعمل كمنظمة للتشغيل ، فأفراد الأسرة الممتدة فى الطبقة العاملة يتاح لهم العمل فى الهيئات والمصانع التى للأسرة عليها تأثير . وفى الحقيقة أن عدداً كبيراً من العمال فى منطقة معينة نجد أنهم يمتون بصلة القرابة لعدد كبير من الأسر الممتدة . والأسرة الممتدة أيضاً فى الطبقة العاملة تعمل على حماية أعضائها من مخاطر العمل مثل الفصل والتغيرات التكنولوجية . وفى أوقات الأزمات تعمل الأسرة الممتدة كإسعاف لأعضاء الأسرة المصابين ، فتمدهم بالأكل والإيجار ، وربما يتقاسمون الدخل ، وتعمل أيضاً فى حالة الوفاة على تربية الأطفال .

وقد ألقى كثير من البحوث الضوء على هذه المسألة فقد قدم ألدوس

---

(١) Sehneider : op. cit. p. 436.

وآخرون Aldous آراء عن أن أنماط الإقراض والمساندات والزيارات بين القرابة الممتدة لم تختف بعد حتى فى المدن الصناعية الحديثة[1] . ووصف جونسون (أسلوب البناء الموحد للأسره الممتدة الذى أمكنة التكامل بإتقان مع عمليات التصنيع فى اليابان)[2] . كما وجد دافيز Davis (فى اختياره لأسر طبقة منخفضة ، أن الأسرة الممتدة بالنسبة لهم هى الوسيلة الرئيسية لإنقاذ الفرد من المصائب مثل فقد الوظيفة أو فقد رأس المال ، إذ يتوقع عضو مثل هذه الأسرة الكبيرة ، أن أقاربه سوف يرعونه إذا أحس بالحاجة إلى ذلك ، وهم بدورهم يتوقعون منه أن يرعى الآخرين ، إذا كان سعيد الحظ ونال وظيفة حسنة . وهكذا تعيش الأسرة كوحدة كبيرة إذا لم تستطع الحياة كمجموعة من الأسر النووية)[3]. ويذهب وليام جود Goode إلى أن (الطبقات الوسطى والعليا فى الحقيقة لها حرية أكثر واتصالات أوسع مع قرابة ممتدة ، وتضبط سلوك ما قبل الزواج لأبنائها بكفاءة أكثر ، وتمنح حرية أقل فى اختيار الشريكة ، ولديها معدل أقل فى الطلاق . أعنى أن الأسرة الأكثر نجاحاً ، وافعياً تتكيف بأقل ما يمكن لحاجات التصنيع . أسر الطبقة المنخفضة تتكيف لحاجات التصنيع ، وأسر الطبقة العليا والمتوسطة تكيف التصنيع لحاجاتها ، وتقاوم ضغط الإتجاه نحو نسق الأسرة المزدوجة . المراكز الرئيسية

---

(١) Aldous, Joan : "Urbanization, Extended family and Kinship ties in west Africa, Soc. forees. 1962. p.p. 6-12.

(٢) Johnson, E. H. "The stem family and its extentions in modern Japan" . Paper introduced to Anthropol. Ass. Minneapolis, 1960.

(٣) Davis, A. : "The motivation of the under-Privleged worker" in W·E. Whyte (ed) "Industry and Society" Mc Graw New York, 1964.

التي تتقلدها طبقة الذوات تجعل المحافظة على صلاتهم القرابية ذات فائدة أكثر)(١) .

هذه الآراء وتلك البحوث تكشف عن أن الأسرة الريفية ذات الصلات القرابية التي تهاجر إلى المدينة للعمل في الصناعة ، تهاجر كأسرة زواجية ، وتقع بعد ذلك تحت وطأة الظروف الاجتماعية والاقتصادية في البيئة الجديدة من جهة ، ومن جهة أخرى تحت جذب صلات القرابة ذات العلاقات الإجتماعية المؤسسة من زمن بعيد ، ومن ناحية ثالثة التصورات الفكرية والأساس العقائدي للأسرة المهاجرة . ومن ثم فنمط الأسرة المهاجرة هو محصلة تفاعل هذه المتغيرات . فإما أن تظل الأسرة محتفظة بصلاتها القرابية الواسعة وتظل وحدة في أسرة ممتدة رغم البعد المكاني ، أو أن تتحلل من صلاتها القرابية وتتحول إلى أسرة فردية أو نووية .

وغني عن البيان أن هذا التفاعل وتلك النتيجة تعتمد إلى حد كبير على أيديولوجية الأسرة وأساسها العقائدي ، إذ يقاومان أو يسهلان ، طبقاً لمفاهيمهما التغيرات في الأسرة . فإن كانت أيديولوجية الأسرة وأساسها العقائدي يدعو إلى الترابط ويقيم وزناً كبيراً لصلات القرابة ، مثل العقيدة الإسلامية التي تعلي من صلات القرابة : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) . ذلك لأن هذا الترابط الأسري يؤدي إلى ترابط المجتمع ، وكلما زاد الترابط بين وحدات المجتمع ازداد قوة ، فإذا ترسب وتأسس مفهوم : (إنما المؤمنون إخوة) أصبح المجتمع كله أسرة واحدة . وفي ظل مثل هذه الأيديولوجية لا يخشى التحيز الأسري :(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل — ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى) .

(١) Goode : op. cit. p.p 535-536.

أما المجتمعات الرأسمالية التي تعلي أيديولوجيتها وتقدس الفردية ، وتتخذ من النجاح الفردي عقيدة لها ، تساعد وتسهل مثل هذه الأيديولوجية المتغيرات الأخرى على تحويل الأسرة إلى النمط النووي . بينما في نفس المجتمعات ورغم هذه الأيديولوجية الرأسمالية فإن أسر الطبقة العليا ، كما بين الكتاب الأمريكان ، تحتفظ بنمط الأسرة الممتدة ليسهل عليها حكم الأسر النووية في الطبقات الأخرى المتناثرة في النسيج الإجتماعي .

ثانياً : من ناحية الحجم

أ — العامل البيولوجي كسبب في تناقص حجم الاسرة

إن التناقص في حجم الأسرة يرجع إلى تناقص عدد الأولاد فيها ، فهل للعامل البيولوجي أثر في ذلك ؟ إن الرغبة الجنسية هي عامل ثابت ، فميل الإنسان إلى الجماع لم يتغير في ذاته ، كما أن الخصوبة لدى الرجال والنساء لم تتغير فالإنسان لم يتغير ولا توجد بحوث تثبت تغير الخصوبة لدى الرجال والنساء . كما أن نسبة الأمراض التناسلية قد قلت من جهة ، ومن جهة أخرى أصبح علاج تلك الأمراض أكثر فاعلية وفي متناول الجميع نتيجة للتقدم العلمي والطبي ، مما يدعو إلى زيادة الخصوبة ، وبالتالي كثرة المواليد وزيادة حجم الأسرة.

وإن كانت هناك بعض البحوث تبرز عامل الخصوبة في الأسرة إلا أن تلك البحوث دلت على أن التغير في الخصوبة ليس للخصوبة في ذاتها ، ولكن للخصوبة في علاقتها بالطبقة ، فقد دلت البحوث على أن هناك علاقة عكسية بين خصوبة الأسرة وبين مركزها الطبقي[1] . بمعنى أن الطبقة العليا لديها أطفال

---

(1) Schneider : op. cit. P. 434.

أقل مما لدى الطبقة المنخفضة ، وأن الطبقة المنخفضة لديها عدد من الأطفال أكثر . وهذا مايفسر استمرار زيادة نسبة المواليد عامة فى مصر، ذلك لاتباع القاعدة الشعبية . كما أن هناك بحوثاً أيضاً أثبتت علاقة عكسية بين التعليم والخصوبة ، وهذا أيضاً يؤيده مانراه من احتفاظ نسبة زيادة المواليد فى جمهورية مصر بثباتها لزيادة نسبة غير المتعلمين فى الجمهورية . كل هذه العوامل التى غيرت من الخصوبة هى عوامل اجتماعية ، فالمتغير هنا هو العوامل الإجتماعية وليست الخصوبة ذاتها فهى عامل ثابت .

وكذلك فترات الحمل والولادة ونسبة عدد المواليد فى كل ولادة ، كلها لم يصبها تغير ، ففترة الحمل مازالت تسعة أشهر كما هى ونسبة المواليد لكل ولادة كما هى لم تتغير ، إذن فالعامل البيولوجى ثابت لم يتغير ، ولا يمكن تفسير المتغير بالثابت ، إذن فالتغير الذى حدث لحجم الأسرة هو تغير من نوع آخر هو تغير فى الأسرة كنظام اجتماعى (ولا يمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية إلا بظاهرة اجتماعية .) (١)

فلنذهب إلى العوامل الاجتماعية المتشابكة مع الأسرة لنرى ما أحدثه التصنيع فيها من تغير كان له أثره على تناقص حجم الأسرة .

٢ — العوامل الاجتماعية

(ا) من ناحية الازواج والزوجات :

قد يتبادر إلى الذهن أن حجم الأسرة قد تأثر نتيجة تناقص معدل الزواج بأكثر من واحدة فى مصر ، ولكن هذه النسبة لازالت كما هى لم يحدث فيها

(١) أميل دوركيم : « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ترجمة محمود قاسم — مكتبة النهضة — القاهرة ١٩٥٠ ص ١٦٧ .

تغير إذ أن النظام السائد فى مصر هو نظام الزواج بواحدة ، وقد تكون النسبة قلت ولكن بشكل ضئيل جداً لا يؤثر على تغير حجم الأسرة .

وكذلك الترمل قد يؤثر على حجم الأسرة، ولكن المشاهد أن هذه النسبة أيضاً تكاد تكون ثابتة فهى عامل ثابت ولا يمكن أن يكون سبباً فى التغير فى حجم الأسرة . كما أن تعدد الأزواج نظام غير معروف فى مصر لأن الشرائع السماوية فى مصر لا تبيحه ولا القانون يبيحه أيضاً . إذن فالتناقص فى حجم الأسرة يرجع إلى التناقص فى عدد الأطفال فيها ، فهل معنى ذلك أن التصنيع يؤدى إلى اتجاه الأسرة إلى تحديد نسلها والإقلال من عدد الأطفال ؟

(ب) التصنيع يجعل من الطفل عبئاً اقتصاديا .

الطفل فى الاقتصاد الزراعى يعتبر مورداً إقتصادياً [(١)] . فمن الصفات المميزة لنسق العمل فى المجتمع الريفى أن ينشأ الطفل مبكرياً فى حياة لا تعرف تميزاً حاداً بين العمل والراحة واللعب ، فالحياة هى العمل والعمل هو الحياة ، ذلك للنقص فى التخصص، واتساع هدف نسق العمل [(٢)] . فالطفل فى الريف ينضج فى فترة مبكرة ، ذلك أنه يبدأ فى العمل فى سن مبكرة عن أقرانه فى المناطق الصناعية ، ويحصل على النضج الاقتصادى والاعتماد على النفس فى فترة مبكرة ، وعادة يقوم الأطفال الصغار فى الريف فى ساعة مبكرة ليقوموا بنصيبهم فى العمل، فيساعد البنات أمهاتهن فى الأعمال المنزلية من حياكة وغسل وطهى . أما الذكور فيقومون بالأعمال المختلفة فى الحقل ، وقد يساعدهم فى ذلك البنات أيضاً . ولا ينتظر من الأطفال فى الريف أن يشاركوا فى مسئولياتهم نحو الاقتصاد المنزلى فقط ، بل عليهم أن ينموا بسرعة حتى يمكنهم أن يقوموا بنصيب أكبر

---

(١) Nimkoff: The Family P. 209.

(٢) Looms : op. cit. P. 73.

وأهم من الواجبات الأسرية . فليس مسموحاً للطفل فى الريف أن يظل طفلا لمدة طويلة ، وأن ينال رعاية خاصة ، بل لديه عقله وجسمه اللذان دربا مبكراً ليتلقى مبكراً أيضاً مسئوليات الكبار . ولهذا ليست فترة الطفولة فى الريف فترة للعب ولكنها وقتاً للاعداد للحياة ، فترة لتعلم أعمال كثيرة والحركة نحو أعمال جديدة عندما تسمح بذلك القوة والنضج .

ولكن الطفل فى الاقتصاد الصناعى ليس له هذا الاعتبار الاقتصادى فهو لا يتعاون فى الإنتاج (١) ، بل إن الاتجاه العام فى الدولة يعارض تشغيل الأطفال فى الصناعة ، والقوانين نفسها من ناحية تحدد السن الأدنى لتشغيل الأحداث ، ومن ناحية أخرى تحدد نوع العمل الذى يسند إليهم ، وتضع الشروط الوقائية مما يجعل أصحاب الأعمال يعزفون عن تشغيلهم .

ذلك إلى جانب أن التصنيع أدى إلى تعقد الحياة الثقافية ، وأصبح الطفل فى حاجة إلى فترة كبيرة ليمكنه أن يصل إلى دور الإنتاج . وببساطة يمكن القول إن المعارف والمهارات المطلوبة للتكيف فى المجتمع الزراعى ليست صعبة ، فمهنة الزراعى حرفة بسيطة غير معقدة . أما فى المجتمع الصناعى فإن أقل قابلية للتكيف تحتاج إلى تدريب على مهارات لم تكن موجودة من قبل (٢) . فالحياة تغيرت من الريفية حيث كان الفرد يتعلم المهارات من والديه إلى حياة معقدة يتعلم فيها الطفل مهارات أخرى قد لا يعرفها والداه حتى يمكن أن يكون عضواً منتجاً .

ومن ذلك يتضح أن التصنيع يعمل على تغيير مركز الطفل من وحدة منتجة فى الأسرة إلى عبء اقتصادى . ليس فقط من ناحية أنه لا يمثل وحدة

---

(١) Nimkoff : op. cit. P. 209.

(٢) Mirrel : Society and Gulture P. 375.

منتجة فى الأسرة منذ سن مبكرة ولـكنه أيضاً يشكل عبئاً اقتصادياً، إذ أنه فى حاجة إلى فترة طويلة من الرعاية حتى يصبح عضواً منتجاً، علماً بأن الطفل فى المجتمع الصناعى الحضرى أى — فى المدينة — يعنى شيئاً آخر، وهو أن الأسرة فى حاجة إلى زيادة فى السكن [١] . وكل غرفة زيادة هى زيادة فى تـكاليف المعيشة وهـكذا يصبح كل طفل حملا على ميزانية الأسرة ، ذلك بالإضافة إلى الملابس والعناية الطبية ومصاريف الترويح والمصاريف الأخرى التى يتحملها سكان الحضر أكثر من سكان الريف وهذه الحقيقة جعلت الأسرة الحضرية تجنح إلى صغر حجمها ، أى الإقلال من عدد الأولاد .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ذلك الحقيقة الإنسانية ، ألا وهى أن الراحة الشخصية تعتبر من أهم أهداف الحياة ، وازدياد هذا الاتجاه فى الحياة الحضرية ، كما يولع الإنسان بأى شىء يجعل الحياة أسهل ، ويطرد أى شىء يؤدى إلى زيادة مصاعب الحياة . كما أنه ليس هناك أى شك فى أن أسلوب الحياة الحضرية قد قوى الرغبة فى تجنب المسئولية . وقد تبين أن التصنيع جعل من امتلاك طفل مسئولية كبيرة والعناية به مهمة تحتاج إلى جهد كبير ، كما أنها تمتص جزءاً كبيراً من ميزانية الأسرة . ففى بحث أجراه نيمكوف Nimkoff عن سبب متاعب الأمهات أجابت ٩٧ ٪ من الأمهات أنه العناية بالأطفال ، ٣٨ ٪ العناية بالمنزل ، ٧ ٪ إعداد الطعام [٢] . وهذا يدل على مدى ما تعانيه الأمهات من متاعب الأطفال الذى يحدوا بهن إلى الإقلال من الإنسال .

(ج) المرأة العاملة وحجم الاسرة :

تقوم المرأة فى المجتمع الريفى بجميع الأعمال المنزلية فهى تقوم بعمل الخبز ،

(١) Faris : Sociat Disorganization. P. 388

(٢) Nimkoff : "Family" P. 205.

وطهى الطعام ، وحياكة الملابس ، وحلب البقر ، وصناعة المسلى والجبن فمكانها المنزل ونادراً ما تشارك زوجها فى أعمال الحقل خارج المنزل . ولقد انسحب هذا الأسلوب فى الحياة على مكانها فى الحياة الحضرية فى المدن ، بل انتزع من المرأة الحضرية ، قبل التصنيع ، ذلك الجزء اليسير من العمل خارج المنزل الذى تقوم به المرأة الريفية ، حتى استقر فى ثقافتنا أن المرأة مكانها المنزل وليس لها أن تعمل خارجه ، وأن العمل هو للرجل لأن التوقعات الاجتماعية لدوره أنه عائل الأسرة .

فما الذى دفع المرأة — وخاصة المتزوجة — للعمل فى الحياة الحضرية بعد التصنيع ؟ هل هو الرغبة فى مستوى أعلا من المعيشة ؟ ذلك لأن كثيراً من النساء يعملن للحصول على دخل لزيادة دخل الأسرة ، أى على مستوى معيشة أعلا . ثم تزايدت المشتغلات على مدار السنين . ما الذى أدى إلى تزايد تعداد النساء اللاتى يعملن ، هل هو تزايد الرغبة فى مستوى المعيشة عند أعداداً كثر من النساء ؟

المشاهد أن رغبة النساء فى مستوى معيشه أعلا كانت دائماً موجودة فهى ليست عاملا جديداً . فكل زوجة كانت دائماً ترغب فى منزل أحسن ، وكذلك ملابس أحسن وغذاء أحسن وتعليم أفضل لأبنائها . فعامل الرغبة فى مستوى أعلا لم يتغير كثيراً ، فهو يكاد يكون عاملا ثابتاً . فإذا كانت الرغبة فى مستوى معيشة أعلا عاملا ثابتاً فهى لا يمكن أن تكون سبباً فى التغير الذى طرأ على زيادة اشتغال المرأة المتزوجة .

الذى تغير هو زيادة الفرص التى أتاحها التصنيع لاشتغال المرأة وفى ذلك يقول جود Goobe (إن المرأة تعمل فى كل المجتمعات ولكن

التصنيع هو النوع الأول من البناء الاجتماعى فى تاريخ العالم الذى أتاح للنساء الحصول على أشغال تقدم على أساس مميزاتهن، مستقلين عن قرارات أزواجهن وآبائهن . الإمبراطورية الرومانية مثلا أعطت حريات شخصية عديدة للنساء لـكنها لم تسمح لهن بمجال للنمو المستقل (١) .

فالتصنيع دفع المرأة المتزوجة للعمل على إنقاص القيود التى تربطها بالمنزل، ليـكون من السهل عليها أن تباشر عملا خارج المنزل . فالعوامل والمسئوليات التى تجذب المرأة المتزوجة داخل المنزل يمكن أن تعتبر عوامل سالبة ، كما يمكن أن تعتبر الوظائف الـكثيرة فى الخارج التى أتاحها التصنيع عاملا إيجابياً فى زيادة اشتغال المرأة خارج المنزل . ومن أهم العوائق بالنسبة لاشتغال المرأة المتزوجة وجود أطفال صغار بالمنزل . ولهذا كان اشتغال المرأة خارج المنزل من أهم العوامل فى تناقص حجم الأسرة ، ذلك أن الحمل والولادة وتربية الأطفال عبء ثقيل جعل كثيراً من النساء المتزوجات العاملات يفضلن عدم الإنجاب والاقتصار على واحد أو اثنين أو تأجيل الإنجاب إلى حد الاكتفاء من العمل . كما أن المرأة المتعبة من العمل فى الخارج والداخل تصبح غير صبورة ولا تحسن تربية أطفالها مما يجعلها تميل إلى الإقلال منهم .

فالنمط الذى كان سائداً فى مصر قبل الثورة الصناعية هو أن المرأة لا تعمل إلا فى حالة الترمل أو الطلاق أو لشدة الحاجة الاقتصادية أو أن تعمل الفتاة حتى تتزوج فتترك العمل وتتفرغ لإدارة شئون منزلها .

ولـكن النمط الجديد هو زيادة النساء اللاتى يستمررن فى العمل بعد الزواج،

---

(١) Goode : op. cit, P. 536.

أى أن الزواج لا يقطع الاستمرار فى العمل ولكن وصول الطفل هو الذى قد يسبب الانقطاع عن العمل وليس الزواج نفسه . وفى ذلك يقول أوجبرن Ogburn إنه فى الولايات المتحدة سنة ١٩٥٠ نصف الفتيات اللاتى تزوجن وكن يعملن استمررن فى العمل وفى نهاية السنة الأولى للزواج كانت النسبة ⅓ استمررن فى العمل وأصبحن ⅕ من ٢ : ٩ سنة زواج ، ومعظم الأخيرات فى منازلهن يراعين أولادهن . فعمل النساء له علاقة وثيقة بعدد الأطفال من جهة وسنهم من جهة أخرى فكلما زاد عدد الأطفال كلما نقص عدد المتزوجات فى العمل[1] .

فزيادة الزوجات العاملات أصبح ممكناً وسهلا عن طريق صغر حجم الأسرة . وتدل الشواهد الآن على أن النساء المشتغلات لا يرغبن فى زيادة الأطفال كما كان يحدث من قبل وأنهن غالباً يفضلن الاحتفاظ بوظائفهن .

(د) أثر التصنيع فى الاتجاه نحو ضبط النسل :

إذا ذهبنا فى سلسلة الأسباب فإننا نرى أن أعظم تناقص فى حجم أسرة يرجع إلى تناقص الأطفال فيها وأهم سبب فى تناقص الأطفال فى الأسرة يرجع إلى تناقص معدل المواليد . (وأهم سبب لتناقص معدل المواليد هو ما أحدثه التصنيع من تغير جوهرى فى عادات الناس وتقاليدهم والقيم التى يقدرونها والمعايير التى يكيفون سلوكهم تبعاً لها)[2].

فالعادات والتقاليد الشعبية التى تحيط بولادة الأطفال قد أصابها تغيير

---

(١) Ogburn & Nimkoff : Technology & changing Family P. 148

(٢) حسن الساعاتى : « التصنيع والعمران » ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ١١

أميانى ، وفى مقابل الاعتقاد أن ولادة الأطفال عمل إلهى أصبح يقابلها بعد التصنيع الإتجاه إلى ضبط النسل . فهناك تغير عظيم فى الاعتقاد السابق بأن على المرأة أن تملأ وظيفتها المقدسة باستمرارها فى الولادة وإنجاب الأطفال بقدر استطاعتها ، إلى نمط الميل إلى التوالد بالاختيار . ويعتبر الإقبال على استعمال وسائل منع الحمل والأخذ بسياسة تحديد النسل أهم مظهر لهذا التغيير ذى الأثر الخطير فى إنقاص عدد السكان وحل مشكلة تزايدهم ، فقد ثبت من دراسة نسبة المواليد فى الدول التى أخذت بأسباب التوسع الصناعى منذ زمن بعيد أن الزيادة الطبيعية تأخذ فى النقصان كلما زادت نسبة التصنيع فى هذه الدول[1] .

(ذلك أن التغير فى التقاليد الشعبية حول منع الحمل كان شيئاً طبيعياً نتيجة للانتقال من القرى إلى المدن الصناعية)[2] . ذلك أن انتشار إختراع ما ، أو معلومات علمية تعتمد على وسائل الإتصال الجمعى التى تحتاج بالضرورة إلى الاحتكاك والاتصال سواء وجهاً لوجه ، أو عن طريق الصحف أو البريد أو الإعلام ، ووسائل الإتصال الجمعى سهلة فى المدينة ، ولذلك نجد أن ضبط النسل أكثر شيوعاً وانتشاراً فيها ، (وليس أدل على ذلك من أنه وجد أن المناطق الريفية المتاخمة للمدينة يوجد فيها معدلات مواليد أقل منها فى تلك الأكثر بعداً عن المدينة)[3] .

ومن الحقائق المقررة أن أهم الأسباب التى تعمل على تناقص حجم الأسرة هى انتشار ممارسة ضبط النسل والحقيقة أننا نرى ظاهرة التشتت dispersion

---

(١) المرجع السابق ص ١١

(٢) Bergess Ernest W. & Look, Hary J : «The Family» American Book Company. New York 1935. P. 455.

(٣) Ogburn & Nimkoff : op. cit. P. 116.

من أوضح ما تكون فى عملية التصنيع فقد تشتت من التصنيع آثار كثيرة تجمعت لتعمل على انتشار ضبط النسل ، وبالتالى لإنقاص حجم الأسرة .

والعوامل التى تؤدى إلى انتشار ضبط النسل من نوعين :

أولا يوجد فى الدوافع الإنسانية التى تدفع الفرد إلى ممارسة ضبط النسل أو معارضته ، والآخر هو تلك الظروف التى توجد مصاحبة لهذه الممارسة .

ويمكن تفسير عامل الدوافع الإنسانية بأنه هو الرغبة فى عدم تحمل تكاليف تربية الأطفال . وهذا الدافع يكون ذا فاعلية وظهور فى المدن أكثر منه فى الريف لكثرة ما تتكلفه تربية الطفل فى المدينة . ذلك أن التصنيع — كما بينت سابقاً — قد حول الطفل من مورد اقتصادى فى الاقتصاد الزراعى إلى عبء اقتصادى فى الاقتصاد الصناعى . ويقول برجس Bergrss ربما كان سبب التعجيل بقبول ممارسة ضبط النسل هو سن قوانين تشغيل الأطفال التى حولت الطفل من مورد إقتصادى إلى مسئولية إقتصادية للأسرة(١) . والدلائل الموجودة تشير إلى تزايد مستوى المعيشة فى المجتمعات الحضرية الحديثة التى أوجدها التصنيع ، فهو عامل رئيسى فى نشأة تنظيم النسل . ومستوى المعيشة وخاصة فى المناطق الصناعية أصبح شيئاً مخططاً ، وأصبح الطفل يحسب حسابه فى ميزانية الأسرة كما يحسب تماماً حساب الثلاجة والتليفزيون والبوتاجاز ، وعند معظم الأسر الحضرية هذه الأشياء تحتل مكاناً متقدماً فى ترتيب الحاجات عن الحصول على طفل . ولقد أورد أوجبرن ونمكوف عدة بحوث(٢) عن تكاليف تربية الطفل فى المدينة ، وهى :

(١) Bergess : "The Family" P. 455.

(٢) Ogburn & Nimkoff : op cit. P. 119.

Clyde V. Kiser : Indianrpolis study 1941. P.K.W Helpton, Social & Sychological Foctors Affecting Fertility and The Intanational of Fertelity, Fertility Planiug and Feeling of economic society.

أظهرت تلك البحوث بوضوح أن الأسباب التى ذكرت حول عدم الرغبة فى كثرة الأبناء ، كان السبب الأكثر عمومية هو التكاليف والأعباء الإقتصادية لتربية الطفل ، فنصف الزوجات ، ٢/٥ الأزواج قالوا إن السبب الرئيسى لعدم الرغبة فى الأطفال هو الأعباء الإقتصادية لتربيتهم . وكانت هناك أسباب أخرى إلا أن معظمها ذات طابع اقتصادى أيضاً ،مثل:عدم التأكد من كفاية الدخل واستمراره ، ومثل ليس لدى الآباء وقت لتربية الأطفال ، ومثل المشاركة فى السكن ، كل هذه الأسباب الاقتصادية فى مضمونها أدلى بها ٢/٣ الزوجات ، ٣/٥ الأزواج .

ورغم هذا فمن دواعي الاستغراب أن نجد أن الأسر ذات الدخل المنخفض لديها أولاد من ذات الدخل الأكثر ارتفاعاً . ذلك أن مستوى المعيشة لا يتضمن فقط الإستعداد لتربية الطفل وتعليمه ، ولكن أيضاً تبعاً لتوقعات مختلف الطبقات الاقتصادية . فتحول الطفل إلى عبء اقتصادى فى ظل التصنيع يتناسب طردياً مع توقعات الطبقة الإجتماعية التى تنتمى إليها أسرة الطفل ، أى أنه كلما كانت ثقافة الطبقة تعطى أهمية لمركز الطفل فى الأسرة كلما زاد إحساس الأسرة بأن الطفل عبء اقتصادى .

ولهذا فإن أسر الطبقة المنخفضة لا تعتبر الطفل لديها عبئاً اقتصادياً رغم وجودها فى المجتمع الحضرى ، ذلك لأن المحتوى الثقافى لهذه الطبقة لا يعطى أهمية للطفل سواء من ناحية التعليم أو توفير مكان ملائم لنومه أو لترويحه . ولذلك فسرعة تغير أجور هذه الطبقة إلى الارتفاع ، فى جمهورية مصر، نتيجة

العمل الصناعى لم يقابلها تغير بنفس السرعة فى المحتوى الثقافى لتلك الطبقة ، إذ أن الثقافة المادية فى البيئة الصناعية أسرع تغيراً من الثقافة اللامادية ، ومن هنا حدثت الفجوة ، فزيادة الأجور عملت على زيادة معدلات الزواج عند هذه الطبقة ، أدت أيضاً إلى زيادة النسل وكبر حجم الأسرة ، ويحتمل أن يكون ذلك سبب زيادة السكان فى مصر ، بزيادة التصنيع ، وخاصة أن معظم أبناء هذه الطبقة العاملين فى الحقل الصناعى قد أتوا من الريف الذى تتضمن ثقافته أن الطفل مورد اقتصادى فيدفعه ذلك الى الزواج والإنسال ، ولا يتبين حقيقة أن الطفل عبء اقتصادى فى المجتمع الحضرى إلا بعد أن يكون قد تم إنجاب ثلاثة أو أربع أطفال ، أى بعد أن يصل الطفل الأول إلى سن الإنتاج فى المجتمع الزراعى ولا يجده منتجاً فى البيئة الجديدة بل عبئاً اقتصادياً .

وهكذا فقد يعيش الغنى والفقير متقاربان إلا أن عاداتهما وتقاليدهما وقيمهما عن ضبط النسل لا تكون واحدة ، فالمهم إذن هو مدى الآثار التى أحدثها التصنيع فى تغير العادات والتقاليد والمعايير .

وأيضاً إذا ذهبنا فى سلسلة الأسباب بعيداً فإننا نرى أن التصنيع يؤدى إلى تعقد الثقافة ، وتعقد الثقافة يؤدى إلى ارتفاع سنين الدراسة التى يحتاجها الفرد لاكتساب المهارات التى تساعده على التكيف فى الإقتصاد الصناعى ، وهناك دراسات كثيرة تدل على أن المدن الأمريكية التى تزداد فيها سنوات التعليم تقل فيها نسبة المواليد عن تلك التى تقل فيها سنوات الدراسة(١) .

فأزواج سيدات الطبقة المتوسطة المتعلمون لا يرغبون فى قبول حياة مضغوطة فى أحياء مزدحمة ونقص فى الغذاء إلى جانب ملابس قديمة وترويح

(١) Ibid ., P. 711.

أقل فى سبيل إعالة أسرة كبيرة ، كما أنهم يرفضون أن يأتوا إلى العالم بأطفال أكثر كى يستطيعوا توفير المسكن الملائم لهم وتغذيتهم وإلباسهم بشكل حسن وكذلك تعليمهم وإعدادهم إعداداً مناسباً .

مما يدل دلالة واضحة على أن التعليم من أهم عوامل نشر ممارسة ضبط النسل . والتصنيع من أهم العوامل التى أدت إلى نشر التعليم وتزايده فى المناطق الصناعية .

وأثر آخر من أهم آثار التصنيع فى تطور النظرة إلى ضبط النسل ، ذلك أن التصنيع كما بينت سابقاً قد أدى من جهة إلى خلق وظائف كثيرة للمرأة دفعتها إلى التعليم ففتح هذا أعين النساء على أشياء كثيرة وخاصة فى الاعتقاد السائد أن وظيفتهن الأساسية التى خلقن لها هى الإنجاب ، وأنهن وجدن أولا وأخيراً لاستمرار النوع البشرى ، وأنهن لسن غايات فى ذاتهن .

فالتصنيع بما أتاحه من وظائف للمرأة جعلها تشعر بأنها يمكنها الاعتماد على نفسها ، والتعليم زودها بأفكار جديدة عن الحياة ، وتفاعل العاملين أدى إلى جعلها تصر على إلغاء النظرة القديمة إليها ، واعتبارها غاية فى ذاتها ، وأنها شخص حر ، ولسن أدوات للإنسال ، وأصبح من حقوقهن الأساسية أن يقررن ليس متى يتزوجن فقط ، بل ومتى ينجبن وتحت أى ظروف وأى عدد ينجبن . فمن أهم التغيرات الاجتماعية التى أحدثها التصنيع ، هى ثورة النساء ضد الأمومة الإجبارية .

٣ — أثر صغر حجم الأسرة على الوالدين

يعنى صغر حجم الأسرة بالنسبة للوالدين التحرر من مسئولية رعاية الأطفال ، إذ أن أهم وظيفة كانت للأم هى العناية بأسرتها وأطفالها . فإذا كان هناك طفل

أو اثنين ترعاهم الأم فمعنى هذا أن هناك جزءاً كبيراً من حياتها يتبقى لها بعد أن تنتهى من الفترة التى يحتاجها فيها آخر طفل . ذلك الوقت المتبقى تفكر فى شغله بطريقة مستقلة . فصغر حجم الأسرة يعطى الأم فترة طويلة لا يشغلها فيها شىء تستطيع أن تملأها بطموحها الخاص . وتعطى الأسرة صغيرة الحجم الوالدين صحة أحسن . إذ أنه بالنسبة للأم فإن إنجاب عدد كبير من الأطفال والتوافر على تربيتهم ورعايتهم وما يتطلبه ذلك من الجهد الشاق سواء في العمل أو الولادة ، ثم بعد ذلك السهر أياماً ، عديدة تمتد إلى عدة سنوات ، بل قد تكون متصلة على مدار حياتها بتضاعف عدد الأبناء ، كل هذا يؤثر على صحتها ويستهلك قواها فتصاب بكثير من الأمراض . وكذلك الأب ذو الأطفال العديدين لكى يستطيع أن يشبع حاجات أسرته الإقتصادية فقد يضطر إلى مواصلة العمل وشغل وقت فراغه بالعمل أيضاً ، فلا تتاح له فرصة للترويح ، بل تكون حياته كلها عملا شاقا متصلا يؤثر على صحته فيستهلك فى وقت قصير .

ومن الأشياء الهامة ملاحظة عملية اختفاء الطموح بعد حياة طويلة من العمل ، فمعظم الناس كبار السن لم يحصلوا من مهنهم على الرضا والطموح الذى تصوروه فى شبابهم ، ومن ثم يصبح الاهتمام بالأسرة أكثر وبخاصة الأطفال ، والأجداد يجدون سروراً أكبر فى أحفادهم أكثر من أبنائهم عندما كانوا صغاراً ، ذلك لعدم وجود أى شعور بالمسئولية بالنسبة لهؤلاء الأحفاد . ومن ناحية أخرى فإن الشيوخ يتكلون عادة على أبنائهم للحصول على حياة أرغد فى شيخوختهم ، ولهذا فإن فرصة أن يعيش الفرد حياته فى الكبر وحيداً تتناسب عكسياً مع عدد أولاده . ولهذا فالأزواج الذين لم ينجبوا أطفالا يكون عليهم أن يواجهوا شيخوخة مهملة . ولهذا فعدم الإنجاب يعرض الوالدين لحياة شاقة من العمل يتبعها شيخوخة خائبة الأمل ومملوءة بالأسف .

٤ — أثر صغر حجم الأسرة على الطفل

المفروض أن يتم خلق الشخصية الإنسانية الإجتماعية عند الأطفال عن طريق عمليات التأثير المتبادل فى الحياة الأسرية . ذلك أنه فى الأسرة يتلقى الطفل أول المفاهيم عن الحياة الإجتماعية والمسئوليات تجاه الآخرين ، وعن التعاون . وأيضاً يحصل الطفل فى مطلع حياته على اللغة وطرق استعمالها ومجال استخدامها والمستويات الإجتماعية ، وبالرغم من أن العادات الشعبية والقيم مثل اللغة شىء يخص المجتمع كله ، إلا أنه فى الأسرة يحصل الفرد على جزء هام منها ، وأن درجة حساسية الفرد لمستوى معين من الفروق الاجتماعية وكذلك لمستوى معين من القيم عادة تعتبر نتيجة لحصوله الذى ناله أثناء تربيته فى نمط معين من الأسرة (١) .

الطفل فى الأسرة ذات العدد الكبير من الأبناء حيث يكون الأبناء الكبار فى فترة ثقافية متقاربة من الآباء الذين مازالوا يتذكرون طفولتهم ، وخاصة فى مجتمع بطىء التغير ، كل طفل فى مثل هذا النمط من الأسر يكون له فرصة الاستفادة ليس من الآباء فقط ، ولكن أيضاً من إخوته الكبار ، بل وفى كثير من الحالات يكون الطفل الأخير له قرابة دموية بإخوة كبار هم أنفسهم آباء لهم أطفال .

وعندما يبلغ الطفل سن الأبوة يكون قد زود بمجموعة كبيرة من التجارب عن الأطفال فى مختلف الأعمار إذ أنه أمضى سنين طويلة فى أسرة كانت فيها عملية تربية الأطفال نشاطاً مستمراً .

---

(١) Faris : Socisl Disorganizatión p. 391.

وبالعكس فى الأسرة الصغيرة وخاصة تلك التى يتأخر فيها سن الزواج تتأثر عملية استمرار الثقافة واتصالها ، حيث ينشأ الأطفال وبينهم وبين آبائهم فترة كبيرة من السن تجعل اختلاف الثقافات واضحاً ، وخاصة عندما لا يكون هناك أعضاء فى الأسرة يمثلون مرحلة وسطا بين الآباء والأبناء ليعبروا هذه الفجوة (١)

فالرجل والمرأه اللذان أنجبا أول أطفالهم فى منتصف الثلاثين واللذان نادراً ما يتذكران طفولتهما ، واللذان لا يكون لديهما سوى المعلومات الشعبية الناقصة عن تربية الأطفال . هؤلاء الآباء عادة ما يجهلون أبسط القواعد الفنية للعناية بالأطفال ، ويرتبكون لأقل الصعوبات التى تصادفهم فى تربية أطفالهم . وإذا حاولوا الاستعانة بكتاب ومتابعة معلوماته فقد يخطئون فى فهم إشاراته فيؤدى إلى إضافة أخطاء جديدة إلى أخطائهم . وفى أثناء نمو الطفل مثل هؤلاء الآباء الحضريين الذين نشأ معظمهم فى بيئة مختلفة تزداد حيرتهم وجهلهم بطبيعة أطفالهم ، ولهذا فهو يفقدون ذلك النوع من التأثير الذى ينمو من طبيعة الفهم المتبادل ، ولهذا ينمو الطفل وإن كان على أحسن ما يستطيعون إلا أنه ينمو محروما من فوائد إرشاد الوالدين أو من أى شخص أكبر منه يهمه أمر رعايته ، ولهذا فمثل هؤلاء الأطفال يصلون إلى سن الزواج وليس لديهم أى ذكرى عن نظام أسرى ناجح ، ودون أى فهم لطبيعة الأطفال . وهكذا يقاسون من نفس الحالة السابقة لذويهم .

ولكن يذهب كثير من المفكرين إلى أن تناقص حجم الأسرة يعتبر عاملا من عوامل زيادة الرعاية والعناية المبذولة للطفل . وأنه ببساطة يمكن القول إنها

---

(١) Ibid., P. 390.

مسألة عرض وطلب ، فإذا كانت هناك كمية من الخدمات معينة فإنه كلما قل عدد الأطفال كلما زاد نصيب الطفل من الخدمات [١] . فقانون العرض والطلب يعمل عن طريقين ، الأول : هو زيادة نصيب الطفل بقلة عددهم . والثانى : أن قلة عددهم ترفع من قيمة الطفل . فالمرأة الريفية التى تلد كل عامين طفلا، إذا لو مات منها طفلا ، لا شىء ، ذلك أنه سيأتى طفل آخر عبر السنين .

ويقول البعض أن تناقص عدد الأطفال علامة على عدم الاهتمام بالأطفال وليس على عظم الاهتمام بهم . وطبقاً لهذه النظرية فالزيادة فى عدم الاهتمام بالأطفال تكون ذات دلالة إذا أمكن أن يظهر أنه هناك زيادة فى الزيجات التى بدون أطفال . ولكن تدل شواهد اللاطفولة على عدم الزيادة فى الوقت الحاضر ، فوسائل منع الحمل تستعمل فقط فى ضبط النسل لا منعه على الإطلاق .

وعلى أى حال فإنه من الواضح أن قلة عدد الأطفال مكن آباءهم من أن يمنحوهم نصيباً أكبر من العناية ومن الخدمات، وخاصة أن التصنيع بزيادته للتحضر أدى إلى زيادة كمية الخدمات، مما أدى بالتالى إلى زيادة نصيب الطفل منها .

فالأسرة الصغيرة الحجم ذات العدد المحدود من الأطفال تستطيع أن تبذل جهداً أكبر وموفقا فى سبيل أطيالها والعناية بهم ، وأنه يمكنهم من أن يبلغوا أطفالهم أهدافهم فى الحياة .

وهذا ما حدا بكثير من الأسر إلى أن تتجه إلى نمط الأسرة ذات الطفل الواحد حتى يمكن أن توفر له أكبر نصيب من الخدمات ، ولكن فى هذه الحالة يصبح نصيب الطفل كبيراً جداً إلى حد أنه قد يفسده . ذلك أن ما يتوقعه

---

(١) Ogburn aud Nimikoff : Techno Logy and The Changing Family P. 209.

الآباء فى هذا النمط من الأسر أن طفله الوحيد سيكون أكثر تمتعاً وتصبح فرص السعادة موفرة له . فالوالدان اللذان لهما طفل واحد لاشك أنهما يستطيعان توفير الأمن الذى قد يخطئه كثيراً لو كان له اخوة وأخوات كثيرة، ذلك أنهم يعتبرون أن طفلا واحداً يمكن توفير سبل النجاح له فى الحياة أكثر مما لو كان له أخوة وأخوات .

ولكن هناك بعض الآراء التى تقول بأن الطفل الوحيد يقابل صعوبات كثيرة مثل ما يعانيه من مشاكل التكيف الإجتماعى[1] . فالأطفال الوحيدون يمضون وقتاً كبيراً إما وحدهم أو فى صحبة والديهم . بينما فى الأسرة الكبيرة الحجم يتعلم الطفل خبرات كثيرة عن طريق الأخذ والعطاء، تعينه على عملية التكيف الإجتماعى ، فالطفل يتعلم عن طريق تعارض رغباته فى بعض الأحيان . ولكن الطفل الوحيد لا تكون لديه مثل هذه الخبرة التنشيئية ، ولهذا تبقى شخصيته بها بعض العلل التى لم تزل . فرغباته لا تكون موضع منافسة مع رغبات الأطفال الآخرين،ولهذا فرغباته تعتبر شيئاً حفيا لدى والديه مما يجعلهم أكثر قابلية للاستسلام لرغباته ، ولهذا يفترض بعض المفكرين أن الطفل الوحيد طالما أنه لم يتعلم عملية التكيف فى أسرته فهو،لن يتعلمها فى مكان آخر .

وبالطبع ليست هذه النظرية حتمية ، فليس كل طفل وحيد لديه نقص فى التكامل العاطفى . ولكن لا يمكن أن يكون تزايد ذلك الاعتقاد القديم بأن الطفل الوحيد يفسد دون أن يكون له أساس من الواقع . وكذلك يقال إنه بدرجة أقل تحدث نفس المشاكل للأسرة ذات الطفلين .

وأهم ما يمكن أن يقال بشأن الطفل الوحيد إن احتكاكه أقل طالما أنه

---

(١) Nimkoff : The Family p. 227.

لا يوجد معه اخوة و نتيجة لهذا فحصيلته من الخبرات تنخفض إلى الصفر. فإذا أضفنا إلى هذا أن أسر الجيران أيضاً صغيرة الحجم ولديهم أطفال قليلون فمجال الإتصال بالأطفال الآخرين يقل أيضاً .

وإن كان الذهاب إلى المدرسة يبدو أنه يعوض عملية النقص فى الاحتكاك بالإخوة والأخوات ، إلا أن وقت الأطفال الذى يمضونه مع الأطفال الآخرين أقل ، ذلك أنهم يذهبون إلى المدرسة فى سن السادسة من ناحية ، ومن ناحية أخرى هم يمضون ربع أوخمس وقتهم بالمدرسة . ونتيجة لهذا فهم يقضون أكثر وقتهم مع الكبار أو وحدهم . وفى الأسرة التى لا تعمل فيها الأمهات يمضى الطفل معظم وقته مع والدته أو مع الخدم فى الأسر القادرة على ذلك . وهنا يتبادر إلى الذهن ما هى نتائج عدم اختلاط الطفل مع أطفال أخرين من ناحية ، ومن ناحية أخرى زيادة اتصاله بأمه ؟ لا يمكن إعطاء اجابة مؤكدة ، ولكن يمكن وضع عدة فروض، فشخصية الطفل إلى حد كبير هى نتيجة استجابات شرطية . ففى ظل نظام الأسرة الصغيرة هناك احتمال أكثر لاستجابة متكررة لأفراد قلائل، وخاصة الأم، واستجابات أقل بالنسبة للأفراد الآخرين . ومن هنا يمكن أن يتخيل المرء أن مثل هذه العملية تؤدى إلى نمو شخصية معينة محددة وذات درجة أقل من ناحية العمومية . الإرتباطات الشرطية القوية لعناصر التودد فى طبيعة الطفل عن طريق فرد واحد سواء الأم أو الحاضنة تجعل من الصعب على الطفل أن يجد له شريكة حياته فى مستقبل عمره . (وأكثر من هذا اذا أمضى طفل ما ، فترة طويلة من حياته مع نفسه أى وحيداً فإنه محتمل أن تتضخم لديه أحلام اليقظة وكذلك تتضخم اتجاهاته نحو الإنطواء)[1] .

---

(١) Nimkoff : The Family P. 229.

وهذا الحديث يسوقنا إلى الحديث عن أثر الأسرة على شخصية الطفل الأكبر والطفل الأوسط والطفل الوحيد، فكثير من الدراسات تقول إن الطفل الأكبر أكثر اختلافاً بينما الطفل الأوسط يكون عادياً، كما أنه يقال أن الطفل الأخير يكون أكثر اختلافاً عن الطفل الأوسط، ولكن ليس كثيراً كالطفل الوحيد أو الطفل الأكبر.

وفى الأسرة الصغيرة الحجم نادراً ما نجد هذا الطفل الأوسط فكثيراً من الأسر الصغيرة الحجم نجد لديها طفلا أصغر، وتباعد الفترة بين الطفلين تجعل من الطفل الأكبر مدة طويلة الطفل الوحيد. ومن ناحية أخرى تجعل أيضاً من الطفل الأصغر وحيداً، وذلك لأن الطفل الأكبر يكون قد كون له جماعة من أترابه، فتباعد السن بين الطفلين يجعل هناك تباعداً بين مستوياتهما فى اللعب.

وتكرار لعب الأطفال فى جماعات هو أسهل طريقة وأحسنها فى معالجة اضطراب الشخصية، ذلك إذا ابتدأت مبكرة جداً، واذا عملت بوعى وحكمة فإنها تحطم تلك الارتباطات الشرطية الزائدة بفرد واحد وتعمل على تشجيع الإتجاه والميل نحو الواقعية فى التعامل مع الآخرين.

ولهذا يمكن القول إذا تشابهت الظروف المحيطة بأسرتين فإن نظام الأسرة الصغيرة الحجم يؤدى الى خلق شخصيات شاذة، أو على الأقل يمكن القول أن متوسط ما تنتجه الأسرة الكبيرة الحجم من الشخصيات العادية أكثر من الأسرة الصغيرة الحجم، إذ أن الأطفال فى الأسر الكبيرة الحجم يلعبون وقتاً طويلا فى جماعات معاً(١) :

---

(١) Ogburn, W. : "The changing Family With regard to the child" the Annals of the Amerciau Academy of Political & Soeial Science, Sept. 1930 P. 20.

الفصل الخامس

من ناحية الطبقة

١ — فى معنى الطبقة

تختلف الجماعات والأفراد بعضها عن بعض فى صفات معينة كالجنس والمهنة ويمكن تصنيف الناس على هذا الأساس، وقد يكون الاختلاف بينهم من طبيعة يمكن قياسها مثل اختلاف الدخل أو اختلافات العمر. كما أن الأفراد والجماعات غير المتجانسين من حيث الجنس أو المهنة، ويقومون بوظائف مختلفة عندما يتفاعلون، وعندما تثبت هذه الوظائف المختلفة عن طريق الثقافة فى نموذج يحدد الموقف الاجتماعى لشخص معين يشغل هذا الوضع، فإننا نسمى هذه الوظائف بالأدوار الإجتماعية. ولما كان المجتمع عبارة عن تنظيم من عدة جماعات تقوم بأنواع مختلفة من النشاط، فإننا نتوقع نتيجة لهذا وجود أدوار اجتماعية كثيرة. والملاحظ أن المجتمعات تمايز بين أعضائها على أساس الأدوار، ومن ناحية أخرى فالمجتمعات تقيم هذه الأدوار بطريقة متمايزة، ولهذا تعتبر بعض الأدوار أكثر أهمية وأكثر قيمة من أدوار أخرى. ويتبع ذلك أن المجتمع يقدر أولئك الذين يشغلون أدواراً مهمة من وجهة نظره. وهذا التقدير الاجتماعى المختلف للأدوار الاجتماعية التى يقوم بها الأفراد، هو الذى أدى إلى ظهور فكرة المركز، ولذلك ينظر إلى المركز على أنه الرتبة التى تقرنها الجماعة بدور معين أو مجموعة من الأدوار، ولذلك تسمى العملية التى عن طريقها ترتب الجماعات أو الأفراد فى سلسلة متدرجة من المراكز بالترتيب الطبقى،

---

(١) Sprott : Sociology p. 113.

والترتيب الطبقى ظاهرة اجتماعية وجدت فى كل المجتمعات الإنسانية وقامت على أساس اختلاف أدوار الناس ومراكزهم فى الحياة الاجتماعية . حتى أن وليم أوجبرن قد ناقش الترتيب الطبقى فى فصل أسماه (المركز والدور) كدليل عن اقتناعه بأنه يمكن استخدام اصطلاحى المركز والطبقة كل مكان الآخر كأنهما يعنيان نفس الشىء (١) :

وكذلك يعرض لندبرج Lundborg لطبيعة الطبقات الاجتماعية بقوله : إن أساس العضوية فى جماعة هو القيام بسلوك معين متوقع من هذه الجماعة ، ، ويسمى نمط السلوك المتوقع بالإضافة إلى وظيفة معينة (الدور) ويطلق على مبلغ الأهمية المرتبطة بهذا الدور اسم (المركز) ؛ ولهذا يمكن مقارنة مراكز الأدوار من حيث علوها أو توسطها أو قلة أهميتها ، ويقول إن كلا من الفرد والجماعة لهما مركز كما لهما أدوار ،ولذلك تسمى مثل هذه الجماعة طبقة اجتماعية والترتيب الطبقى هو صلة الطبقات كل بالآخر (٢) .

كما يذهب أرنولد جرين A Green إلى تقسيم الطبقات على أساس المراكز فيقول إن التفاعل محكوم إلى درجة كبيرة بالترتيب الطبقى ذلك لأن المراتب التى يحتلها الناس على أساس مراكزهم فى ضوء مكان الإقامة والمهنة والجنس والدين والثروة وأسلوب الحياة ، وتحدد فى نفس الوقت نفوذهم وقوتهم النسبية (٣) .

ويكاد يجمع علماء الاجتماع على أن كل المجتمعات الإنسانية التاريخية والمعاصرة تنطوى على نوع معين من الترتيب الطبقى على أساس إختلاف

---

(١) Ogqurn NimKoff : "Sociology,, Lonbon 1960 P 123

(٢) عاطف : علم الاجتماع ص ٤٢٩ .

(٣) عاطف : علم الاجتماع ص ٤٢٦ .

أدوار الناس ومراكزهم فى الحياة الإجتماعية. وتختلف الدعائم التى يستند عليها المركز باختلاف المجتمعات وباختلاف الفترات التاريخية فى هذه المجتمعات نفسها . فقد يقوم المركز على أساس اختلاف الدين أو المهنة أو السياسة ، وكلما أصبح لعامل من العوامل السابقة مركز الصدارة يصبح هذا العامل أمراً متعارفاً عليه فى التراث الاجتماعى كأساس للتمايز الطبقى . والتراث الاجتماعى هو الثقافة التى هى هذا المركب الذى يتضمن ، من جهة الأفكار والعادات والأخلاق والمعتقدات، ومن جهة أخرى من كل الأشياء المادية التى انحدرت إلينا من الماضى . والدور الذى يلعبه الفرد هو جزء من الثقافة لمجتمع ما ، وهى والدور أقدم من أى فرد حى ومتبقى أكثر من أى إنسان . (ولكن الثقافة لا تحدد الأدوار فقط ، ولكنها أيضاً تقدم قواعد وقيما معينة هى التى تؤدى بها الأدوار) (١)

فالقيمة تعنى نوعاً أو مستوى معين من الاختيار بين التنظيمات أو التوجيهات المتبادلة ، والقيم عادة تحدد الحسن والسىء ، وهى أيضاً تكون مصحوبة بشحنة من العواطف . تختلف القيم من مجتمع لمجتمع معتمدة فى ذلك على الثقافة . والأدوار بدورها تؤثر فى القيم وتتأثر بها، بل إنه فى بعض الأحيان تخلق الأدوار قيما . فكل جيل لا يرث فقط الثقافة أو التراث الاجتماعى ولكنه فى الوقت نفسه يعمل على صنعه ، فالطريقة التى لا بد أن يؤدى بها الإنسان الدور ، وأيضاً الطريقة التى يرتبط كل بالآخر تتأثر بواسطة البيئة الطبيعية والاجتماعية ، والحقيقة إن العلاقة بين الدور والقيمة هى من النوع المتداخل المتساند ، فالأدوار تخلق أو تؤثر فى القيم ، وهذه تكيف الأدوار .

---

(١) Schneider : Industrial Sociology P. 13.

وليس هناك شك فى أن انتماء الفرد لطبقة معينة يطبعه بطابع خاص ويحدد أسلوبه فى الحياة ونظرته إليها . وكذلك يؤثر الانتماء الطبقى على المرتبة الاجتماعية التى تؤثر بدورها على ما يمكن أن يحصل عليه الفرد من نفوذ أو من قوة فى الوسط الذى يعيش فيه . وهذا ما حدا بجنزبرج Ginsberg إلى القول فى كتابه علم الاجتماع بأن الطبقة الاجتماعية يمكن وصفها كجزء من المجتمع أو مجموعة من الأفراد يقفون متراصين فى علاقة من المساواة ويتميزون عن باقى الأجزاء بقبول مستويات من النقص أو الرفعة) (١) . وكذلك لاحظ مارشال Marshall أن جوهر الطبقة الاجتماعية هو الأسلوب الذى يعامل به الفرد من زملائه وبالتبادل الأسلوب الذى يعاملهم به ، فليس الأنواع ولا الأملاك هى التى تعلل المعاملة فكل طبقة اجتماعية هى جماعة يوجد فيها نوع معين من السلوك أكثر ترجيحاً عنه فى أى مكان آخر ، وهى تحدد إلى حد بعيد فرص الحياة لأعضائها ، وهى عادة تتميز بعادات فى الزواج والمأكل والمعشر (٢) . فطبقة الشخص هى الملامح الاجتماعية الأساسية التى تحكم كل مكوناته وما يفعله فهى تصنع مهنته ومن يتزوج وكيف يسلك وما يفكر فيه . وتذهب إلى أبعد من ذلك فهى تحكم حتى ما يلبسه وما يمكنه أكله ومن يمكنه أن يكلمه ، فالطبقة تحدد المجال الاجتماعى وتحدد الواجبات والحقوق التى تتضمنها حياة الفرد الاجتماعية (٣) .

---

(١) Sprott : Sociology P. 99.

(٢) Ibid., P. 100.

(٣) Leonard Riesman ; Class in American Society P. 382

٢ ـ الطبقه والاسرة

يمكن النظر إلى الطبقة على أنها سلم اجتماعى يقسم جماعات الوحدات الأسرية كدليل على عدم المساواة الاجتماعية . حتى أن جونسون Jonson فى كتابه علم الاجتماع (لندن ١٩٦١) عرف الطبقة الاجتماعية أنها تعنى شريحة داخلية للزواج تتكون من عائلات متساوية النفوذ تقريباً مؤهلين للتفاعل الاجتماعى كل مع الأخرى ، ويكون ذلك دليلا على عدم المساواة . ويدلل على ذلك بأن الأسرة ترجع إلى الجنس والسن، ولكن هذه الاختلافات تهمل عند الترتيب الطبقى لأن هؤلاء الأعضاء ينظر إليهم على أنهم متساوون طبقياً . كما أن الزواج يتم فى كل طبقة داخلياً ذلك لأن الرجال يميلون إلى الزواج من نساء غير مختلفين كثيراً عنهم فى الأصل الأسرى . وان التزاور بين الأسر وتبادل المودة والتعاون هو دليل على أنهم من طبقة واحدة ، أى أنه اتخذ من الأسرة الأساس للوجود والترتيب الطبقى [١] .

أو بمعنى آخر الطبقات هي عبارة عن أشكال من الترتيب الطبقى وهذا يرجع إلى الجماعات أكثر منه للأفراد لان الأسرة بجملتها تتبع نفس الطبقة وكقاعدة الاطفال يتبعون طبقة ابائهم [٢] . (فنتيجة اعتماد الاسرة على المجهودات الاقتصادية للأب ، ذلك يعنى أن مستوى الطبقة الاجتماعية للاسرة عادة يحدده المركز الطبقى للاب ومركزه الاقتصادى . ومن المعتاد أن ينسب كل عضو فى الاسرة إلى نفس الطبقة [١] . ذلك أن الطبقة تبدأ من الطفولة .

---

(١) عاطف علم الاجتماع ٤٢٨ .

(٢) Bergel, E. Ernest : " Urban Sociology ,, Mc Graw Hill Book Company, Inc. New York 1955 P. 196.

فني الطفولة تأخذ الشخصية بشكل عميق الخطوط العريضة لشكلها الأخير . حيث يتعلم الفرد الاستجابات المقبولة ثقافياً للأدوار التي سيلعبها ، وهنا يمكن مشاهدة آثار الطبقة ، إذ أن الثقافة عن طريق الأسرة وما تهيئه من فرص التعليم واللعب تضغط على الشخصية النامية وتشكلها وتقودها إلى خطوط معينة من السلوك تختلف عن الآخرين ، وأهم وجه لذلك هو عملية التنشئة الاجتماعية تلك العملية التي تجهزها وتشكلها القيم الطبقية . والأسرة التي تعتبر أهم محور في نقل الثقافة تنقل إلى الطفل ألواناً عديدة من القيم الطبقية التي تصبح جزءاً جوهرياً في الشخصية ، ومفهوم الوالدين الطبقي والقيم الطبقية التي يتمسكون بها تحدد جزءاً كبيراً من الأساليب التي يتبعونها في تنشئة أطفالهم ، ويغرس الوالدان قيمهما الطبقية في أطفالهما سواء عن وعي أو غير وعي . وطالما أن عالم الطفل محدد بوالديه وأقرانه في اللعب وبعد ذلك في المدرسة ، فهناك إذن تناقض قليل،وكذلك فرصة أقل في الاختيار ومقارنة القيم مثلما يتاح للكبار فما يتعلمه الطفل هو قواعد اللعب الاجتماعي والدور الذي عليه أن يلعبه والأسس التي تقوم عليها أحكامه بالنسبة لأعماله وأعمال الآخرين ، وكذلك مفهومه عن نفسه ، كل هذا في الواقع ما هو إلا سلسلة من القواعد والصيغ التي تضعها له بيئته من ناحية ووضعه هو في بيئة من ناحية أخرى : ذلك لا يحتمل أي تدخل وأيضاً لا يمكن معالجته عن طريق الأحكام التي تأتي فيما بعد نتيجة للنضج والخبرة : فهي مرحلة مضطردة في نمو الطفل : فعندما لا يكون لدى الطفل فهم عن حكمة الأدوار فيمكن أن يتقبلها كجزء عن العالم تماما كقانون الموت الذي لا يفهمه أيضاً وتصبح متحدة في أنماطه ودوافعه الاجتماعية : (وعلى أي

حال هذا لا يعني أن نمو الشخصية هو عبارة عن مجموعة من القوالب الطبقية تصب فيها الشخصية لتخرج من الناحية الثانية عملا نهائياً لطبقة عند الكبر إذ أنه لامجال للمناقشة في أن عملية نمو الشخصية عملية مركبة ، ولكن يمكن القول أن الطبقة هي عامل هام في نمو الفرد إذ أنها تصبغ معظم النظم التي تشكل وتضبط نمو الشخصية) (١) . وعلماء النفس الاجتماعي لم يستطيعوا حتى الآن وضع نظرية محكمة عن الشخصية وديناميكية نموها . فالقول بأننا لا نعرف جميع العوامل التي تتضمنها عملية نمو الشخصية أمر سليم ،ولكن أيضاً القول بأن الطبقة لها أثر كبير على نمو الشخصية هو أيضاً صحيح وإن كان لم يعرف كله .

وهكذا ، فالطبقة في معظم الحالات تورث،فهي موقف مشتق على أساس مركز الأسرة الموجهة ، ومركز الأسرة بدورها هو مركز الأب . وهذه الحالة هي إحدى رواسب النظام البترياركي القديم والذي مازالت آثاره باقية حتى الآن ،وهي أن الإبن يحمل اسم أبيه : كما أن هذا يعزى إلى إستحالة قيام نظام ذي وجهين يحفظ ذكرى الأبوة والأمومة معاً . كما أن المرأة مازالت ليست لها السيادة في الحياة العامة ، وعمل الزوج أكثر فاعلية بالنسبة للضبط الاجتماعي والتقويم في الأسرة ، ولا يمكن للمرأة أن تشارك زوجها في مركزه إلا إذا استطاعت أن تبني لنفسها مركزاً خاصاً. والنساء يمكن أن يكسبن أو يخسرن مراكزهن الإجتماعية ويحتفظ الرجال بطبقاتهم بغض النظر عن طبقات زوجاتهم اللاتي قد ينخفض إذا كان الفرق الطبقي كبيراً . وعلى كل حال فإن المركز الطبقي للفرد يتحدد على أساس المركز الطبقي للأب (والحقيقة أن الرجال والنساء يولدون في مجتمع ويجدون نظام السلطة والبناء الاقتصادي والترتيب

(١) Leonard Reisman : ,"Class in American Society" . The Free Press of Glencoe Illinion 1961 U.S A. 235.

الطبقى الاجتماعى موجوداً قبلهم ، ويبدأون بنوع معين من فرص الحياة يحددها مركز أسرهم فى الترتيب الاجتماعى والمركز الاجتماعى التابع له ، واختلاطهم مع رفقائهم من الرجال والنساء ، كل ذلك قد حدده الوجود السابق)(١) .

٣ — التمايز الطبقى والتضبيع

لقد كان الاعتقاد قديماً أن الطبقات نظام طبيعى لأنها فرضت على أنها النتائج الطبيعة للقوى الاجتماعية التى تفوق قدرة الإنسان أو الخارجة عن إرادة الإنسان ، وأن الإنسان لا يمكنه فعل شىء تجاه الطبيعة ، فالطبيعة تقبل كما هى والإنسان يتكيف لها . وكان المقصود بهذا التفسير هو محاولة إزالة الطبقات من مجموع المسائل الهامة التى يحاول الإنسان التفكير فيها . فالطبقات بهذا النمط والقيم كان يعتقد أنها تنظيم اجتماعى حيوى وما على الأفراد إلا قبوله ببساطة وبدون سؤال . وطالما يسود هذا الاعتقاد ، تبقى الطبقات بدون تغير ، وتبقى كجزء متمم للمسرح الاجتماعى ، ولا تهاجم سواء عن طريق التفكير أو العمل ، وبهذا يحدث الإستقرار الاجتماعى عن طريق هذا التفسير الطبيعى ، ذلك لأن الانقسام الطبقى يقبل كتصنيف اجتماعى أولى (٢) .

وتختلف القيم التى تجعل هذا النمط من نظام الطبقات شرعياً اجتماعياً باختلاف المجتمعات ، ولكنها فى الغالب إما دينية أو بيولوجية أو اجتماعية فى أصلها . فالطبقة الدينية Cast هى مثل من الانقسام الاجتماعى الذى يعتمد كلية على مفهوم دينى . ولو أن الطبقة الدينية هامة اقتصادياً ، مثلا فى تحديدها للمهنة ، فإن قوتها الأصلية مأخوذة من التقاليد الدينية التى تمد جذورها العميقة فى المعتقدات وعواطف وأخلاق الناس . وكل طبقة دينية مخصصة ومعينة

(١) Sprott : Sociology p. 113.

(٢) Riesman : op. cit. P. 382

وواجباتها ومسئولياتها الاجتماعية موضوعة . ومن الناحية النظرية يتضمن هذا كل ألوان التأثير المتبادل اجتماعياً وكل العلاقات الاجتماعية بين هذه الطبقات الدينية التي تلتحم وتتجمد في قالب الطبقة .

وهناك أيضاً تفسير بيولوجي كتعليل لطبيعة نظام الطبقات،وخاصة في حالة الأرستقراطية التي كانت تسود المجتمعات الغربية قبل التصنيع ، والتي كانت سائدة في مصر قبل الثورة وفي بدايتها في هذا المعنى الانقسام الاجتماعي طبيعي لأنه يعتبر نتيجة للوراثة البشرية . والاعتقاد بأن الأهمية الاجتماعية والتفضيل الاجتماعي ينتقل وراثياً ، وعمل النظام الاجتماعي في ذلك الوقت على ترسيبه في المعتقدات الاجتماعية ، وجعله جزءاً من الثقافة الاجتماعية ، وبذلك يحصل الاستقراطيون على مركز مرتفع اجتماعياً لأنهم هم وحدهم يعتقد فيهم أنهم القادرون على القيام بهذه الأعمال ، وبذلك يستأثرون بها دون غيرهم .

لهذا تدار تربية الارستقراطي وتضبط بعناية ويجبر اجتماعياً وبقوة خاصة في الزواج من داخل الطبقة ، وهذه النظرة تمتدجذورهافي التاريخ إلىأفلاطون في مبحثه المدينة المثالية ، فقد حاول أن يحكم الناس على أساس ما يتمتعون به من قدرات موروثة .

ولما كانت الأسس البيولوجية أقل قدرة على الثبات مثل الدينية ، إذ أنه يمكن إثبات تهافتها . ولهذا كان هناك تهديد مستمر لمثل هذه الأرستقراطية البيولوجية ، ذلك أن معظم الأفراد في المجتمع يفضلون عدم الاعتقاد فيها ويعتقدون في عكسها . والتفسير الديني يقع بعيداً عن مجال الهجوم العلمي فهو منغرس بعمق ، أما الارتفاع الاجتماعي على الأساس البيولوجي فيمكن فحصه عقلياً بينما العلو الديني في حرز من الفحص ، لأن الدين يجعل مجرد التفكير فيها أمراً محظوراً وصاحبه مذنباً .

والمجتمع المصرى دينه الإسلام وهو دين لحسن الحظ لا يقيم مثل تلك الطبقية التى فى الأديان الهندية ، بل يدفع الفكر دفعاً إلى المساواة ويؤكدها سواء فى شعائره أو معتقداته . ولهذا تصبح الطبقة الارستقراطية فى مصر فى خطر دائم ، إذا أقامت تمايزها على أساس بيولوجى ، وخاصة عندما تزايدت المعرفة وانتشر التعليم ، فذهبت الارستقراطية إلى تفسير اجتماعى لطبيعة الانقسام الطبقى مستندة إلى نظرية أن لكل فرد مقام معين فى الحياة نتيجة لقوى اجتماعية معقدة ومركبة . وهم يفسرون ذلك بأن الفرد يولد فى منزلة والديه ، وأرادوا أن يخففوا وطأة هذا التفسير فقالوا بأن هذا ليس ملزماً للفرد مدى الحياة ، ذلك أنه من الممكن أن يغير الفرد منزلته ، ولكن كانت القيم المؤيدة لهذا النظام لا تدفع الفرد على الدخول فى كفاح تنافسى لتحسين مركزه بل كانت تحرمه من كل المقومات المعينة له على هذا الكفاح ، وكانت القيم تؤيد بقوة القبول الهادىء للمنزلة ، ولهذا تقبل الفروق الاجتماعية بين المقامات العالية والمنخفضة كأنها جزء من النظام الطبقى .

إنه من العجيب ، ولكنها الحقيقة : إن التصنيع قد حول الانتباه من تحديد الطبقات وفى نفس الوقت وضع الأسس التى يقوم عليها التمييز بين الطبقات ففى المرحلة الأولى للتصنيع أى مرحلة التحول من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الصناعى كان شيئاً ثورياً ، إذ قلب الأسس الأرستقراطية للتقسيم الاجتماعى ووضع بدلا منها مقياساً جديداً للقيم الاجتماعية للرجل . ففى هذه المرحلة حطم التصنيع تراث الماضى والمعتقدات التى فى الثقافة الاجتماعية ووضع التصنيع تقاليده هو من أجل إقامة الاستقرار الاجتماعى (١) .

وبالطبع يعنى التصنيع أشياء كثيرة بالنسبة لترتيب الطبقات الاجتماعية فليس

(١) Leonard Reisman : Class in American Society p . 20

فليس فقط أوجد وأيد الاعتقاد فى أهمية تكافؤ الفرص وقلبه للبناء الاجتماعى السابق للمجتمع، ولكن أيضاً قدم أمنساً جديدة للمساواة . وفى ذلك يقول سسموندى sismondi إن أهم تطور لحق مجتمعاتنا الحاضرة التى تمتاز بالمزاحمة والمنافسة هو ظهور طبقة العمال التى يرجع اسمها إلى العهد الرومانى بينما ترجع وجودها بمعناها الحديث إلى عصرنا هذا (١).

وفى الحقيقة : إن التصنيع يؤدى إلى غلبة الحياة الاقتصادية التى بدورها تؤدى إلى تحديد المراتب الاجتماعية (٢)، فإلى عهد قريب فى مصر كانت توجد طبقة أرستقراطية تسمى : (طبقة رجال الأعمال) وهم أولئك الذين تسلطوا على الحياة الصناعية، وهم فى الغالب أبناء طبقة الملاك فى الريف الذين كان لديهم فائضاً من الأموال استغلوها فى القطاع الصناعى مع قلة من الطبقة البرجوازية التى عمرت المدن ، تلك الطبقة التى أدت إلى ظهور الاستقراطية الصناعية فيما قبل الثورة . فأصبح الشعب يتسلط عليه الإقطاع الزراعى فى الريف والإقطاع الصناعى فى المدينة . وكلاهما كون طبقة أرستقراطية ربطت بينهما مصالحهما الرأسمالية فى استغلال الطبقة الكادحة ، سواء فى الريف أو المدينة .

وبذلك أصبحت فكرة الاستغلال هى العاطفة الأولى والدائمة فى وجدان طبقة الفلاحين والعمال والمتوسطة وأصبحوا كالشعوب المغلوبة أى فى حالة تحفز دائم لكسر القيود والأغلال، ولنفض أيديهم من العمل فى أول فرصة .

---

(١) الدكتور محمد ثابت الفندى : « الطبقات الاجتماعية » . دار الفكر العربى — الاسكندرية ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

وهذا سبب نجاح ثورة ٢٣ يولية وتأييد المجتمع لها ، إذ جاءت تعبيراً عن رفض حالة الاستغلال التى كانت تسود المجتمع ، ومن ناحية أخرى تعبيراً عن حركة التاريخ كما قال الفيلسوف الاجتماعى سان سيمون (المجتمع الإنسانى هو الآن فى طريق الانتقال — بل هو يجب أن ينتقل من نظام الحكومة القائمة على حكم الإنسان إلى نظام السيادة أو التسلط على الأشياء) (١) .

ويفسر سان سيمون هذه العبارة بأنه يعنى أن نظام الحكومة القائمة على حكم الإنسان، وهو النظام المعروف قبل الثورة الفرنسية، وخاصة فى عصر الإقطاع وما قبله، هذا النظام مبنى على وجود فريق من الناس مهمته الحكم والتسلط على الفريق الآخر لابتزازه واستغلاله ، الفريق الأول الإقطاعيون والثانى الرعايا(٢) ويعنى كذلك أن المجتمع العالمى هو فى دور انتقال من حالة سلطان الإنسان على الإنسان إلى حالة سلطان الإنسان على الطبيعة . وهذه الحالة الأخيرة أى حالة الإنتاج المتزايد هى التى تميز وجدان الطبقة الجديدة التى يضع فيها سان سيمون الصناع ، وهذا الوجدان هو فى جوهره الشعور المتزايد بقيمة الإنتاج واعتباره العامل الأول فى رغد الشعب (٣). هذه الحقيقة التى ولدها التصنيع تظهر فى كل نظريات أسباب الانقسام الطبقى . فماركس أقام التراتيب الطبقى على أساس التوزيع (٤) . وذهب جوستاف شمولر Schmoller أن الانقسام الطبقى أساسه اختلاف المهنة وأن كل مهنة تترك فى أصحابها عادات اجتماعية تميزهم عن غيرهم (٥)

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٤ — ٦٥

(٥) المرجع السابق ص ٦٥ .

وذهب كارل بوخر Karl Bucher إلى أنه ليس المهنة، ولكن ما تدره المهنة من دخل ، أى أنه أقام الانقسام الطبقي على أساس الدخل (١). وذهب هاليفاكس إلى أن الانقسام أساسه نوع الحياة بمعنى أنه لم يأخذ بالدخل ولكن بالمنصرف أى نوع الحياة التى تشتريها كل طبقة (٢) . كما ذهب Davis وكذلك Bergel إلى أن الانقسام الطبقى يرجع إلى المهنة والدخل معاً . كما ذهب شنيدر إلى أن تقسيم المجتمع إلى طبقات يقوم على نوع الانتاج الذى تقدمه كل طبقة ويمكن أن تتضمن هذه الطبقات طبقات فرعية . وهكذا تقسم الطبقة العاملة إلى مهرة وغير مهرة ، فالأفراد يتحدون فى طبقة لأن مصالحهم الإقتصادية متشابهة فهم متشابهون فى ثرواتهم وفى نوعها . وقد يكون التشابه فى أنهم يشترون ويبيعون نفس المنتجات وتحت ظروف متشابهة فى القوة الشرائية . وحينما نجد جماعة ما تشترك بصفة عامة فى صفة هامة بارزة من المصالح الاقتصادية العامة يمكن أن تسمى هذه الجماعة طبقة . فهو يقول أيضاً إذا أريد أن يكون للترتيب الطبقى معنى فيجب أن يقام على أساس من المعايير التى لها أهمية ، سواء لأفراد الطبقة أو المجتمع أو كليهما (٣). وقد سبقه إلى هذا الرأى الدكتور الفندي إذ قال إن الانقسام الطبقى مرجعه القرب أو البعد من القيمة العليا فى المجتمع الذى يعيش فيه الفرد (٤) .

وكذلك يظهر أثر التصنيع فى تشكيله للتفكير الاجتماعى فى النظريات التى

---

(١) المرجع السابق : ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٣) Schneider , Industrial Sociology p. 373-375.

(٤) الدكتور الفندى الطبقات الاجتماعية ص ٤٣ .

تحدثت عن الطبقات الاجتماعية وعن أسباب انقسامها وأرجعتها إلى الدور والمركز مثل أوجبرن Ogburn فالطبقة والمركز عنده شيء واحد ، وناقش موضوع الطبقات فى فصل أسماه المركز والدور ، والطبقة عنده تعنى ناحية ذاتية وهى الشعور الطبقى وناحية موضوعية وهما الدخل والمهنة (١). وذهب إلى نفس هذا الرأى أيضاً جورج لندبرج (٢) ، وكذلك سوركن فهو يقول إن الطبقة جماعة متعددة الروابط أى أنها ترتبط عن طريق رابطين هامين هما : الرباط المهنى والرباط الاقتصادى (٣) . فاختلاف الطبقات الاجتماعية عنده عن غيرها من أنواع الجماعات يبدو فى الروابط الملتئمة التى تربط كلا منها ، وأخصها الروابط المهنية والاقتصادية إلى جانب روابط الانتماء إلى نفس الشريحة ، فإن ارتباط الروابط المهنية والاقتصادية معاً يعمل على إحداث تأثيرات بالغة القوة على العقل والجسم الأمر الذى يظهر فى طريقة السلوك وفى النظرة إلى الحياة والفرد . كما أن تأثيرها المشترك يزداد قوة عن طريق المركز المتشابه للأفراد داخل إطار التركيب الطبقى للمجتمع ، ويعتقد سوركن Soroken أن هذا التأثير وهذا التشابه هما اللذان يؤديان فى واقع الأمر إلى ظهور ما يسمى بالشعور الطبقى (٤)

ويذهب ليونارد رايسمان L. Reisman إلى أن المهنة أصبحت كافية لتحديد الطبقة ، فقد أصبح يقابلها مكانة اجتماعية وترتيب فى سلم اجتماعى للمراتب ، لأن المهن اقترنت وظيفياً بعملية التصنيع ، ولأنها يمكن أن تشكل أساساً للتقييم الاجتماعى ، ولم تعد الثروة الآن هى التى لها الشأن فى الحكم على المكانة

(١) Ogburn , Sociology p 125

(٢) Lundberg , Sociology p. 467.

(٣) الدكتور عاطف : علم الاجتماع ص ٤٣٥ — ٤٣٧

(٤) الدكتور عاطف : علم الاجتماع ص ٤٣٤ .

الاجتماعية ، فقد رتبت على أنها شيء غير هام . والذى أصبح له الشأن فى هذا الترتيب الإجتماعى هو التربية والتدريب والمسئولية ومظاهر الرفاهية الاجتماعية للمهن التى يمكن أن تمنح مقاماً اجتماعياً . وعلى هذه الأسس أصبحت المهنة أساساً للفروق الطبقية . فارق يقوم على أساس دقيق من الإختلافات طالما أن المهن تتعدد لتقابل احتياجات التصنيع (١) .

ويقول شنيدر Schneider إذا اعتبرنا الصناعة أهم منابع الوظائف فهى فى الوقت نفسه من أهم منابع المراكز الاجتماعية فى المجتمع (٢) فالتصنيع هو العامل الكبير والرئيسى الذى يقبع وراء الترتيب الطبقى فى المجتمعات المعاصرة التى اتجهت نحو التصنيع .

٤ — التصنيع فى مصر واعادة ترتيب الاسس فى النسق الطبقى

هناك الانتقال الذى ينتج من ثورة جارفة عارمة والتغير العظيم الذى يصيب المجتمع نتيجة لها . وعند ذلك تتبدل علاقات الطبقات تبدلا جذرياً نتيجة التغير المفاجىء سواء فى أسس المجتمع أو بنائه . وهذا يحدث بوضوح ظاهر خلال الثورة تلك هى المتغيرات التى حللها ماركس Marx فى دراسته للطبقات فى الثورة الفرنسية . وتحدث هذه التغيرات فى الثورات الأقل ولكنها تتساوى فى الأهمية تلك هى التغيرات التى تحدث بالتصنيع (٣) .

---

(١) Schneider : Industrial sociology p. 382.

(٢) Leonard R. ; "Class in American society" p. 28.

(٣) Leonard R. : op. cit. p. 302.

وثورة ٢٣ يولية كانت ثورة سياسية ذات أهداف اجتماعية ، ولذلك كانت ثورة شاملة لكل نواحي الحياة الاجتماعية ، فقلبت أسس المجتمع وبنائه . ثم اتخذت من التصنيع وسيلة فعالة لحماية الثورة وتحقيق أهدافها ، أي أن المجتمع المصري قد تضافر فيه أهم عاملين من عوامل التغير الاجتماعي ، ألا وهما : الثورة والتصنيع . وتحت مثل هذه الظروف ترتفع بعض الطبقات ويسقط البعض الآخر في البناء الطبقي . كما حدث للطبقة الأرستقراطية في مصر التي سبق الاشارة اليها في الفقرة السابقة . هذه الطبقة التي كانت تتكون من أصحاب الأراضي الواسعة في الريف وأصحاب الأعمال في المدن او الاقطاع الزراعي والاقطاع الصناعي أي الطبقتان الرأسماليتان . وكانت الملامح لمثل هذا النظام الطبقي هي أن كل العناصر الأساسية للقوة تتركز في طبقة ارستقراطية صغيرة عالية ، فهي تسيطر على القوة في الثلاث مجالات الرئيسية ، وهي الاقتصاد والسياسة والحياة الاجتماعية . ومعظم هذه القوة ينبع من المركز الاقتصادي الرفيع نتيجة لتجمع أموال الشعب في أيدي هذه الفئة القليلة ، سواء من وراثة الأرض . واحتكار ملكيتها والتوسع فيها . أو عن احتكار الصناعة . وعن طريق هذا المركز الرفيع كانت أسر هذه الطبقة الأرستقراطية لا تسود فقط الميدان الاقتصادي ، ولكن الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع . بينما كان معظم أسر الشعب محصورة بين الفلاحة في الأرض ومعظمها أجير ، والآخر كعمال عند أصحاب الأعمال في المدن .

ولم يكن من الصعب على أسر الطبقة الأرستقراطية وهي تملك كل القوى في المجتمع أن تضبط وأن تحكم الجماهير التي كانت مجردة من القوة الاقتصادية والسياسية . وكانت أسر هذه الطبقة تبرر مركزها بالوراثة الشرعية والتقاليد والمنطق الاقتصادي . ومن هذا الموقف كان يمكنها أن تضع نظاماً فعالاً للضبط على كل ملامح النظام الاجتماعي .

هذا النظام الطبقى ينقسم إلى قسمين الطبقة الأرستقراطية فى جهة ، وفى الجهة الأخرى العمال والفلاحون وفى الوسط قليل من المراكز مثل مراكز رجال الدين والجيش ورؤساء القوة العاملة وموظفى الحكومة . ولكن القوة كلها كانت تتركز فى الطبقة الارستقراطية ، مشيئتها هى التى تحدد نظام الطبقات وترتيب الأسر فى المجتمع . ذلك هو النظام الذى كان موجوداً فى مصر قبل الثورة وقبل التصنيع السريع . وقد كان هذا النظام أيضا هو الموجود فى كل أنحاء العالم قبل التصنيع وخاصة الدول الغربية ، ولقد اختفى هذا النظام من العالم الغربى تحت وطأة التصنيع ، وفى مصر إختفى ليس فقط تحت وطأة الثورة السياسية ، ولكن أيضا لنمو حركة التصنيع وما استتبعها من قوانين اشتراكية التى أكدت استمرار التغير الاجتماعى بما حققته من ثورة اجتماعية .

فالتصنيع فى الحقيقة هو القوة التى حطمت قبضة الأرستقراطية وهو الذى قدم ذلك التغير المفاجىء فى علاقات النظام السابق ، إذ أن التصنيع قدم أسساً جديدة للمراكز الاجتماعية والثروة والقوة . فبدلا من الأرض التى كانت محدودة ولهذا كان من الممكن احتكارها ، فان التصنيع أتى بالاقتصاد النقدى كما قدم وسائل جديدة لتكوين الثروة بل وتزيد عن قدرة الأرض فى عمل الثروة (١)

وهناك أثر عظيم ذلك هو أن التصنيع صاحبه نمو حضرى كبير إذ أن ذلك تتضمنه طبيعة عملية التصنيع . فقد تحركت الأسر من الأرض بعيداً عن الثقافة الزراعية . وذلك الضبط الاجتماعى القوى الذى كان موجودا فى المجتمع الريفى ، والذى كانت تعيش الأسر تحت وطأته ، وقد حطمه هجرتها إلى المراكز الحضرية الكبيرة . حيث انتشرت قيم مختلفة وقامت تقاليد جديدة .

وبما أن بناء المجتمع يتغير فإنه من المنتظر أن أهمية ووظيفة مختلف الطبقات تتعدل . ويحدث هذا عادة فى نظام الطبقة المتعدد الصفات . والأسرة كعضو فى الطبقة يمكن أن ترتفع أو تسقط ، كما سقطت الأسر الأرستقراطية، سواء من ناحية المكانة أو القوة . وذلك الارتفاع أو السقوط ليس بسبب المجهود الذاتى للأسر، ولكن بسبب القوى الاجتماعية العظيمة التى تحيط بها والتى عدلت بناءها الداخلى نتائج الإنتقال الإجتماعى المتضمن فى التغيرات البنائية . (فالنظام الطبقى ليس ثابتاً ، فطالما أن المجتمع فى عملية تغير مستمرة كذلك نظامه الطبقى يتغير استجابة لذلك التغير) (١)

فكما سقطت أسر الطبقة الأرستقراطية ارتفعت أسر الطبقة المتوسطة، إذ أن التصنيع فتح الطريق لأبناء هذه الطبقة للارتفاع فى المراتب إلى أعلى ، وأصبحت طبقة هامة فى السكان ، وكانت أولا طبقة صغيرة تثير سخط طبقة النظام الأرستقراطى السابق . ولقد جذبت الطبقة المتوسطة إليها أولئك الذين تظن أنهم سينجحون ويرتفعون عن طريق التصنيع الناجح ، ألا وهم طبقة العمال . وبتحطيم قبضة الأرستقراطية ولتوسع التغير الطبقى رأت الطبقة المتوسطة وطبقة العمال مستقبلهما مباشرة فى النمو الناجح للصناعة ، والأسلوب السياسى لتحقيق هذا الهدف هو عن طريق القومية والاشتراكية .

ويبين بوضوح تاريخ الدول النامية أن القادة الجدد لهذه القوميات الجديدة هم من أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة ، وليسوا من الأرستقراط أو من

(١) Ibid , p. 391.

(٢) Ibid , p. 390.

الفلاحين . وقد تخلصوا من الروابط القوية الشديدة ، ولم تعد القرية بعد هي الأفق الاجتماعي الحقيقي ، كما كانت عند الملتصقين بالأرض والحياة القروية . وبالعكس كمواطنين حضريين رأت الطبقة المتوسطة الأمة على مقياس دولي وأصبحت الحاجة إلى الفلسفة والفكر القومي والأسلوب الاشتراكي كي هو لحفظ الوحدة والتكامل القومي للأمة . وفي نفس الوقت هذه المعاني الأيديولوجية هي التي تعبيء كل الجهود للنمو الاجتماعي والاقتصادي .

وأبناء أسر الطبقة المتوسطة في هذه الأمم الآخذة بالتصنيع هم الأكثر تعلماً ، والأكثر قدرة على العمل ، ولهذا كان لهم الصوت النافذ . فتعليمهم يتيح لهم أن يقودوا ثورة كبرى وما هو أهم أنه عليهم أن يحاربوا في جبهتين الأولى يجب أن يخوضوا معركة في الداخل ضد أسر الطبقة الأرستقراطية الرجعية بتقاليدها الوراثية التي تبغي الاستمرار في التسلط والتمسك بالأساليب القديمة للحياة التي على أساسها تقوم قوتهم ، والجبهة الثانية عليهم أن يخوضوا معركة خارجية في سبيل الاستقلال الذاتي لدولهم من أطماع الدول القوية التي تهددهم ، وضد المغامرة التي تقوم بها للسيطرة على مقدراتهم . كتلك المغامرة التي قامت بها إنجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦ في هجومهم على مصر لاعادتها على ما كانت عليه من خضوع للاستعمار وأذنابه من أسر الأرستقراطيين الرجعيين وكذلك مغامرة أمريكا وإسرائيل سنة ١٩٦٧ .

ومن أجل كل الجماعات التي يشملها الرقي الاجتماعي العظيم الذي أوجدته ثورة التصنيع، فإن أسر الطبقتين المتوسطة والعمال هي التي — على الأرجح — قد تخسر أو تكسب كثيراً ، وتخسر بمعنى أنها تعود إلى مجتمع لا تستطيع أن تكون لها وظيفة فيه ، أو أن تعمل فيه وتكسب ، بمعنى أنها تربح مركزاً

اجتماعياً جديداً ، ومشاركة أكبر في القوة المحركة للمجتمع ونظمه . فبكل طبقة اجتماعية لها وظيفة محددة التي يجب عليها أن تملأها طبقاً لمفهومها وطبيعتها وأكثر من هذا موقف كل طبقة في البناء الكلي للأمة يعتمد من ناحية على الأهمية التي تتضمنها هذه الوظيفة ، ومن ناحية أخرى على مدى درجة نجاح الطبقة في تأدية وظيفتها(١) .

هذه العملية ليست هي التي حدثت في مصر فقط ، بل هي التيار التاريخي لمعظم الدول النامية في آسيا وأفريقيا التي تخلصت من الاستعمار حديثاً ، ففي كل من هذه البلاد ، دعاة لأفكار القومية والحرية بها ، كلهم بدون شك من أبناء الطبقة المتوسطة والعمال الذين ترتبط شخصيتهم بنجاح النمط الصناعي الحضري ، يجدون في القومية والاشتراكية الوسيلة التي يقبضون بها على مراكزهم ، تلك هي الأيديولوجية التي تمنحهم قوتها ، فإذا اتجهت جهودهم للعمل المبارك للصالح العام ، تتكلل هذه الجهود بالاستقلال السياسي والاقتصادي للدولة .

وفي هذه المرحلة تتغير أسس التمايز الطبقي بين الأسر من نظام الوراثة البشرية ، والاعتقاد بأن الأهمية الاجتماعية والتفضيل الاجتماعي ينتقل وراثياً ، أو أن الفرد يولد في أسرة معينة ولها مقام معين في الحياة وأن هذا نتيجة لقوى اجتماعية معقدة ومركبة ، ويؤيد هذا الاعتقاد القيم الاجتماعية التي تدعوا إلى القبول والتسليم بمنزلة الفرد التي ولد فيها ، وأنه ليس عليه أن يكافح لتحسين مركزه فهو ابن الطبقة التي ولد فيها . كل هذا يتغير في هذه المرحلة ويصبح أساس التمايز الطبقي في ظل المرحلة الجديدة بعد انهيار الأرستقراطية ، أساساً

---

(١) Ibid . P. 302.

آخر ، ذلك أنه ينظر إلى الطبقات على أنه نظام من الفروق فى المكافأة موزعة طبقاً لمقدار ما يشارك به الفرد ويعتقد أنه قادر على تقديمه للمجتمع . فالمكافأة والمشاركة تترجم فى مصطلحات من القيم التى يتمسك بها المجتمع، تلك هى القيم الجديدة المصاحبة للتصنيع . وقد يكون الجزاء مادياً مثل النقود أو مستوى مرتفع من الحياة ، وأيضاً يمكن أن تكون شرفية مثل المكانة أو الشهرة .

وفى هذا النظام المكافىء ، النمط وكمية الثواب تميل إلى أن تتكافأ مع مستوى العمل الذى يقبل كعمل مرضى ومرغوب ومضبوط . والمفروض أن يقبل كل فرد طبقتة على أنها تعويض عادل للمستوى الذى دفعه إليه عمله . وفى هذه الحالة تقل إلى أبعد الحدود حالات خيبة الأمل والإحباط والصراع الناتج عن نظام التمايز الطبقى والفروق الاجتماعية الناتجة عنه .

فنظام للطبقات يقوم على مثل هذا النمط من نظام الثواب يمكنه أن يصبح مقياساً للوحدة الاجتماعية ، طالما أن هناك إتفاقاً إجماعيا بين الأفرادعلى أن هذا النظام عادل . وحتما يكون هناك قليل من عدم الرضا عند بعض الأسر ، ولكن يعتقد الغالبية العظمى أنه ثواب عادل ومناسب . والانتقال إلى أعلى يعطى بعض الأفراد مستوى أحسن من الحياة ، ومكانة أكبر ومسئولية ، وكذلك دخلا أكبر عن ذى قبل . وبدون شك هناك فى مثل هذا النظام بعض خيبة الأمل ، ولكن أولئك شواذ عن القاعدة ، فعند الجزء الأكبر كانت الفرص متاحة للارتفاع .

والمنبع الرئيسى لعدم الاستقرار فى مثل هذا النمط من أسس التمايز الطبقى يقع على عاتق الاتفاق ، بمعنى أن نظام المكافأة نظام يطبق بعدالة ، وعلى أن المساواة فى الفرص موجودة حقا . ومن ثم تصبح عدم المساواة فى المكافأة

مقبولة على أنها نتيجة الاختلاف فى النجاح ، ولكن الفرص للنجاح يجب أن يكون معلوما عند كافة أبناء الأمر أنها متاحة للجميع وبشكل متساو . وعلى هذا تصبح أهمية الوراثة وتاريخ الأسر ونشأة الفرد ليس لها أهمية ، وإنما المهم هو ما يفعله الفرد ذاته بمجهوده الذاتى .

ولكن من استقراء تاريخ الدول التى سبقتنا فى التصنيع فى ظل النظام الرسمالى أنه باستمرار التصنيع وتقدمه يبدأ حدوث النمو الثانى لنظام الطبقات . وهى عملية إعادة التوحيد لقوة الطبقات المتسعة التفرق فى أيد طبقة مرتفعة . وهذه على العموم عملية من النوع الذى وصفه مللز Mills فى مقاله قوة الطبقة المرتفعة The Power Elite وتختلف الأسباب التى وراء هذه العملية عن تلك الأسباب التى ملكت الطبقة الاستقراطية قوة إحتكارية فالناس مختلفون والمواقف تختلف وكذلك الزمن ، ومن المدهش أن النتيجة واحدة فالقوى الاقتصادية والسياسية المتسعة تتقارب بعد نمو التصنيع ، ذلك أنهم عمليا يصبحون متساندين [١] .

فرجال القوة السياسية يتزايد إتجاههم فى الاعتماد على الرجال ذوى القوة الاقتصادية من أجل المحافظة على مراكزهم وتأمينها ، وهذا لا يحدث فقط بسبب كمية المال الكبيرة التى تحتاجها الانتخابات لتحقيق النجاح السياسى ، ولكن أيضاً للاعتماد على المهارة التى يتميز بها رجال الاقتصاد وقدراتهم على قيادة وتوجية السياسة فى زمن يسوده التصنيع ، وكذلك لأن السياسة العالمية أصبح كثير من مسائلها يتعلق بالاقتصاد ، وقراراتها تمس مباشرة الحياة الاقتصادية .

---

(١) Leonard R . op.cit. p 495.

إذن عناصر المركز والمكانة تميل إلى أن تتركز فى أيدى أولئك الذين يملكون القوة السياسية والاقتصادية ، فهم فى الموقف الذى يعلى مكانتهم وعن طريق هذا الموقف يحصلون على مراكز ومكانة عالية . وأكثر من هذا ينشأ ميل نحو وضع تقاليد لهذه المكانة ، كما أشار فبر Weber فى شرحه التغير الطبقى إذ قال : إن هناك رغبة عند أولئك الذين يقبضون على المركز العالى فى أن يؤسسوا قوتهم بربط مواقفهم على أسس تقليدية كما هو فى النمط الارستقراطى[١] ، فتوضع عوائق غير معقولة أمام أولئك الذين يريدون الدخول فى الطبقة العليا . ومن ناحية أخرى لكى تضمن الطبقة العليا أن وريثهم سوف يصبح تلقائياً من أبناء هذه الطبقة عن طريق الأسرة . ولهذا كان الاتجاه عند الصفوة أن يضعوا أساساً تقليدية لمركز الصفوة وأن يباشروا ضبطا احتكاريا على عملية الاختيار . والوسيلة الوحيدة التى استطاعوا بها عمل هذه الأشياء هو إقامة طبقة الصفوة على أساس أرستقراطى كما كان فى الزمن الماضى. فماضى الأسرة والزواج من الداخل وضعت فى الأذهان كأنماط اجتماعية. ولهذا أصبح الدخول فى طبقتهم ليس ببساطة مكافأة تعطى لكل من يستطيع النجاح ، ولكن أصبحت شيئاً ممتازاً يمنح للخواص وتحتاج إلى تاريخ أسرى يثبت أن أباه من الصفوة .

وقد أوضح جود Goode هذه العلاقة بين الطبقة وبناء الأسرة فى ظل التصنيع بقوله (إن خريطة تلك العلاقات هى مفتاح اختلاف الطبقة ، ويبدو أنها كذلك فى المجتمع الغربى منذ قرون . فإنه عندما يمتد ويتسع النظام الاقتصادى أو السياسى ، تستطيع الشريحة العليا أن تضبط الوظائف الجديدة ،

---

(١) Ibib ., b3 96 .

ذلك لأنهم هم الذين أدخلوا هذا التوسع والتمدد، وكذلك أول من اطلعوا عليه. فى القرن الحادى والثانى عشر أتاحت الكنيسة فرصاً جديدة، عندما أقامت الأديرة للرهبان والراهبات والكنائس ، واستطاعت الصفوة منح تلك المراكز فى مقابل الطاعة الأسرية . والفرص التجارية والسياسية فى التوسع الاستعماري أيضاً ، سمحت لكبار السن من الصفوة المحافظة على ضبط الشباب ، طالما أن الصفوة هم المنظمون لهذا التوسع . وعلى العكس ، كبار السن فى أسر الطبقة المنخفضة لابد أن يتيحوا لشبابهم الرحيل ، فليس لديهم بديلا خيراً منه يمنحوه لهم . ولا يستطيعون طلب تبعية الشباب إذ كان الشباب يستطيع أن يعمل أحسن بدون دعواتهم وبركتهم)(١) .

وقد أفصح عن هذه الحقيقة أيضاً كثير من علماء الاجتماع الأمريكان فى الحديث عن مجتمعهم. فبرجل فى كتابه «علم الاجتماع الحضرى» . يحدثنا عن أن الانتقال الاجتماعى بين الطبقات ممكن عن طريق العمل ، وأن الانتقال من الطبقة المنخفضة إلى الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة أمر سهل بقليل من التعليم والمهارات ، وتطرد صعوبة الانتقال من طبقة إلى طبقة بالارتفاع فى سلم الطبقات ، ثم يستطرد ويقول إنه عادة لا يعرف المجتمع قدرات الأشخاص ولكن ينظر إلى مراكزهم ، والمراكز لا تكافىء عن طريق المنافسة حيث توجد عوامل أخرى غير القدرات تلعب دوراً هاما وخادعاً ، وبحكم الضرورة الانتقال إلى أعلى أصبح مقيداً ، والملاحظ أنه ليس هناك دليل على أن الذين يفشلون فى التقدم إلى هذا النطاق أقل كفاءة ، كما أن هناك كثيراً من المهن

---

(١) Goode : op cit . P 536

ذات المراكز العليا تحتاج إلى رأسمال لا يتوفر لدى أبناء الطبقة المتوسطة أو المنخفضة . والانتقال إلى أعلى طبقة من الصعب جداً ، فإن هذه الطبقة صغيرة جداً إلى درجة أن أى زيادة طفيفة فى عددها يغير من تركيبها الداخلى . وهذه الطبقة تحدد اتصالها بشكل يكاد يقتصر عليها ، وبدون اتصالات لا يمكن قبول العضو الجديد .

ويستطرد برجل فيفصح عما يصيب نظام التمايز الطبقى على أساس نظرية الطبقة كنظام مكافىء فى ظل النظام الرأسمالى ، فيقول : إن العمل يساعد على الانتقال إلى الطبقة العليا ، ولكنه ليس بكاف بنفسه لبلوغ هذه الطبقة وكذلك ليس المال وسيلة لدخول هذه الطبقة فالأسرة التى ليس لديها مدخرات من أسر الطبقة العليا لأنها لم تعمل حساب المستقبل تفرح بزواج ابنها من بنت صانع ملابس صعد من القاع إلى السطح وأصبح مليونيرا ، ولكنهم لا يقبلون والد العروس فى طبقتهم ، ذلك أن المال ليس كافيا لإعطاء صاحبة عضوية الطبقة العليا ، كما أنه بدونه لا يمكن البقاء فى الطبقة العليا . فالمراكز فى الطبقة العليا تعتمد كثيراً على السمعة التى تتمتع بها الأسرة . وهكذا إذا تميز أبو الأسرة فإن مركزه ينعكس على أبنائه وإذا استمر أعضاء الأسرة فى الحصول على المراكز العليا جيلا بعد جيل فإنها تكتسب السمعة العالية وتصبح من الطبقة العليا ، ويعرف أفرادها ويقبلون من المجتمع كقادة ويضرب أمثلة على ذلك بأسماء (روزفلت ، دلاس ، تافت) وهكذا يظل يترسب فى أعماق المجتمع أنهم قادة ويقبل المجتمع على منحهم مراكز الصدارة (١) .

وكذلك يقول سبروت Sprott إنه طالما الطبقة العليا هى الأغنى من

---

(١) Bergel ; Urban sociology . P. 174-176.

تلك التى تحتها فإن لديها القدرة على أن تضع أسلوباً فى التربية يعمل على تثقيف أجيالها القادمة[١]. ويقول سبروت Sprott أيضاً: أن المستوى الاقتصادي والمكانة المهنية والمركز الرسمى والطبقة الإجتماعية كلها وثيقة الترابط، وبشكل أوسع أعضاء الطبقات العليا فى السلم الإجتماعى يوجدون فى القطاعات العليا من الدرجات، وبالتالى أولئك الذين يعملون فى مراكز عليا فى المهن أو الدخل أو الدرجات العليا يحسنون مراكزهم وكذلك لأبنائهم[٢].

وكذلك يقول سوركن فى حديثه عن خصائص الطبقة: إنها من الناحية القانونية مفتوحة لمن يدخل فيها أو يخرج منها، ولكنها من الناحية الواقعية شبه مغلقة وهى ضيقة ومتماسكة وعدائية للجماعات الأخرى[٣]. ولا شك أن هذا ما هو إلا عودة بنظام التمايز الطبقي إلى نظام الطبقات الأرستقراطية الذى كان يسود فى المجتمعات الإقطاعية. وكذلك تظهر هذه الحقيقة واضحة فى حديث أشنيدر وهو يتحدث عن الإنتقال الإجتماعى فى المجتمع الأمريكى: فيقول إن معظم الشواهد تدل على أن جزءاً كبيراً من قادة الصناعة لهم أصول فى الطبقة العليا من المجتمع. ويستدل على ذلك بدراسة Toussing & Joslyns فى كتابهما عن قادة الأعمال الأمريكان.

"American Business Leaders" The Macmillan Company N.Y. 1952 p 78 table 17.

إن ١٠ ٪ من قمة القادة فى كل أنواع الصناعات أتوا من أسر ذات أب عامل سواء كان ماهراً أو نصف ماهر أو غير ماهر، وأن ٥٧ ٪ من آباء قادة الأعمال كانوا يملكون أو رؤساء أعمال كبيرة أو صغيرة. وكذلك فى الجدول

---

(١) Sprott ; sociology p 104

(٢) Ibid ., P 112.

(٣) عاطف : علم الاجتماع ص ٤٣٥.

رقم ٤٥ من نفس المرجع السابق اتضح أن ٤٥ ./. من القادة يشغلون نفس المناصب التى كان يشغلها آباؤهم بمعنى وراثة وظائفهم ، ويستقى من دراسة ورنر وجيمس « الانتقال المهنى فى الأعمال والصناعة الأمريكية » .

Warner & James : Occupation Mobility in American Bsiness and Industry

إن ما يقرب من ٤٠ ./. من قادة الأعمال كان سبب حصولهم على هذا المركز أثر قرابى ومركز مالى ساعدهم فى خط سيرهم . وهكذا رغم أن جزءاً من القادة صنعوا أنفسهم إلى حد ما ، إلا أن الحجم الأكبر لم يصنع نفسه بيده . ويضم شنيدر بعض الشواهد لتكوين صورة عن طريقة الانتقال الاجتماعى فى المراكز العليا فى المجتمع الأمريكى الرأسمالى ،معتمداً فى ذلك على دراسة أنديانا ، فقد أبرزت أن ضعفين ونصف من أبناء المديرين فى مختلف الصناعات ومختلف أحجامها كانوا فى مستوى مهنى مثل آبائهم . وبصعوبة كان يوجد بين هذا المستوى العالى من المهن أبناء المهنيين والكتبة والباعة . ونسبة ضئيلة جداً كانت لأبناء العمال المهرة وغير المهرة . .ووجد شنيدر فى دراسات كثيرة عملت على مدن الولايات المتحدة أثبتت هذه الحقيقة ، وهى أن معظم الطبقة العليا من أصحاب الأعمال أتوا من أسر آباؤها أصحاب مهن عالية وأنه لا يوجد بين أصحاب الأعمال الكبار أحد كان والده من العمال غير المهرة . وقد وصل شنيدر إلى نتائج هامة هى : أن كل الدراسات دلت على أن ملاك المؤسسات من مختلف الأحجام من أسر آباؤها من نفس المستوى . وأيضاً وجد أن كثيراً من الدراسات التى أوردها عن الإنتقال بين الطبقة العاملة أن ٥٠ ./. من العمال المهرة ، ٤٥ ./. من أنصاف المهرة ، ٢٨ ./. من العمال غير المهرة كانوا فى نفس المستوى المهنى لآبائهم .

وكذلك دلت الدراسات فى بنسلفانيا على أن ٦٤,٥ ٪ من جيلين من أبناء وعمال المناجم كان آباؤهم عمال مناجم . وتدل دراسات ليند Lynd فى مدلتون أن الصعود خارج طبقة العمال أمر صعب . وقد وصل شنيدر فيما يختص بالانتقال فى طبقة العمال إلى أن الجزء الأكبر من طبقة العمال لا يتغير بشكل هام ، وأن عددها يتزايد بشكل كبير[١] .

كل هذه الدراسات تدل دلالة واضحة أنه إذا ترك التصنيع ينمو فى ظل النظام الرأسمالى فإن نظام الطبقات الاجتماعية الذى استفاد فى بداية التصنيع من تحطيم النظام الطبقى الأرستقراطى ، سيعود مرة ثانية تحت وطأة النظام الرأسمالى إلى نظام طبقى مغلق كما كان قبل الثورة ، تتحكم فيه الطبقة العليا وتضع له القواعد والقيم التى تضبطه من ناحية وتضمن من ناحية أخرى استمرار استيلائها على منابع القوة ، لضمان سيادتهم . فكل الاتجاهات فى السياسة والاقتصاد ومجال المراكز فى المجتمعات الرأسمالية تتجه لتتوحد فى نفس النقطة ألا وهى « خلق طبقة من الذوات قليلة العدد تتركز فيها أهم عناصر القوة فى الطبقة » وهذا ما جعل ليونارد Leonard يصل إلى نظريته نتيجة لدراساته فى المجتمعات الغربية من أن نمو النظام الطبقى يتم فى دائرة كاملة من الأرستقراطيين إلى الأرستقراطية ، ومن الذوات إلى الذوات(١) .

هذه الحقيقة المرة التى أفصحت عنها الدراسات الاجتماعية السابق ذكرها فى المجتمعات الرأسمالية تدل دلالة واضحة على أهمية بل وتبارك الخطوة التى اتخذتها جمهورية مصر بالاتجاه إلى النظام الاشتراكى حتى ينمو التصنيع فى ظل نظام لا يسمح أبداً بتركز عناصر القوة فى أيدى فئة قليلة تصنع المجتمع وفق

(١) Schneider : Industrial Sociology P 389 — 393

(٢) Laonard B. Class in American Society P . 397 .

هواها وتسخره لمصالحها ، فتأميم الشركات والبنوك ومصادر القوة الاقتصادية قد حولها من أيدى فئة قليلة تحتكرها وتسىء استغلالها إلى أيدى الدولة، ومن ثم يقع على عاتق الجماعة التى تدير هذه المؤسسات نيابة عن الشعب أن تجعل نظام التمايز الطبقى كنظام مكافىء يعمل بحرية وبعدالة فيمتنع الصراع الطبقى ويشعر كل فرد أنه نال ما نال من مركز اجتماعى نتيجة لعمله ، لا لشىء آخر ، وهذا يوضح أهمية نشر القيم الدينية والتربية الأخلاقية ، وتبدوا أهمية ذلك كله فى أن فرص الحياة تتأثر بشدة بالمستوى الاقتصادى والقوة الاقتصادية التى تملكها كل طبقة . فأهم اختلاف بين الطبقات هو ما تتيحه كل طبقة لأفرادها من فرص الحياة . ونعنى بفرص الحياة : الفرصة فى الحصول على متطلبات الحياة الاجتماعية . فإذا نشأت الأجيال القادمة فى ثقافة تؤكد أهمية العمل الاقتصادى للفرد ، فإن النتيجه المنتظرة أن يترسب فى ثقافة المجتمع أن العمل المستمر المثمر يؤدى إلى رفع المستوى الاقتصادى للفرد ، أى إلى الانتقال الاجتماعى له ولأسرته ، وطالما أن الانتقال المهنى والاقتصادي فى بؤرة شعور الأفراد فإنهم ينظرون إلى موقفهم الاقتصادى على أنه مساو لنمط حياتهم ومجهوداتهم العملية ، والمقارنة بين الأنماط الحالية والأنماط المتوقعة تتضمن فى أوسع معانيها اتجاهات الناس تجاه أعمالهم وتجاه أنفسهم وأسرهم ومجتمعهم .

والتصنيع قد أتاح فرصاً عظيمة وعديدة للانتقال الاجتماعى إلى أعلى ، وذلك بالتوسع العظيم فى أنواع المهن ، وكذلك التغير فى توزيع الدخل ، وبقدر ما هذه التغيرات بنائية أساسية . فإنها تتضمن ظروفا عظيمة للنجاح والانتقال الاجتماعى . ذلك لو أتيح لنظام الطبقات كنظام مكافىء أن يعمل بحرية وعدالة . أى أن تكون هناك مساواة فى الفرص وعدالة فى التوزيع وبعد عن التحيز القرابى . (فإن من أهم عوامل إعادة توزيع الدخل هو التغير فى البناء

المهنى)[1] ، الذى أتاحه التصنيع والذى سمح لجزء كبير من الشعب أن يعمل فى مهن ذات دخل أحسن عن ذى قبل ، وتبع ذلك انخفاض فى الوظائف ذات الدفع الفقير ، أى يؤدى إلى التقليل من الفوارق الطبقية . وقد دلت الدراسات على أن مختلف المهن تدر دخلا مختلفاً . والدخل لا يحدد فقط مستوى المعيشة ولكن له أيضاً علاقة دقيقة بالفرص التى يمكن أن تتاح للفرد فى الحياة . فمثلا دلت الدراسات على أن أعمار الطبقة العليا أطول من الطبقة المنخفضة ، وكذلك دلت الدراسات على أن طفل الأسرة من الطبقة العليا تتاح له فرصة أوسع من التعليم ، والتعليم العالى أيضاً شىء عادى بالنسبة له ، وطفل الأسرة المنخفضة من نفس مستوى الذكاء لا يتاح له شىء من هذا كله ، وهذه الحقيقة أيضاً قد تنطبق على أبناء الأسر الفقيرة حتى ولو كان مستوى ذكائهم عالياً . وهذا مما يضيع على المجتمع قوة بشرية فعالة . وكذلك يؤكد حتمية عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص لنمو تصنيع يعود بالرخاء على جميع الطبقات ويعمل على محو الطبقة الفقيرة المحرومة من كل مقومات الحياة .

٥ ــ التصنيع واختلاف الأدوار فى الأسرة باختلاف الطبقة

تعيش مختلف الطبقات فى عالم ثقافى متميز عن بعض ومنفصل ، ذلك رغم أنهم يشاركون فى بعض العناصر العامة للثقافة العامة ، فهناك إذن ثقافة فرعية . والأساس النظرى للصيغة العلمية للثقافة الفرعية للطبقة هى أن القيم وأسلوب الحياة والأهداف والسلوك لمختلف الطبقات متمايزة ومختلفة ، وأكثر من هذا فإن التغيرات الثقافية فى داخل أى طبقة ملتحمة ، وتميز كل طبقة عن الأخرى الثقافة الفرعية هى إذن وحدة ثقافية ومن هنا ينشأ التمايز الحقيقى لثقافة الطبقة

---

(١) Schneider : op.cit. P. 382.

العليا ، وثقافة الطبقة المنخفضة . ولهذا تختلف أدوار أفراد الأسرة باختلاف طبقتهم ، والواقع أن الأفراد فى مختلف الطبقات يسلكون سلوكا مختلفاً وتدفعهم قيم مختلفة ، فالطبقة الاجتماعية تصنع فروقاً بين السلوك البشرى[1] . وعلى أى يمكننا أن نسمى هذه الاختلافات بالثقافة الفرعية التى تذهب وراء القبول للاختلافات الطبقية وتشكل بذلك الصفات الفعلية للطبقة .

وأحد الفروض العلمية لهذه الثقافة الفرعية ، هو : أن كل طبقة لها وحدة كجماعة وأعضاء ، أى طبقة ، يشتركون فى قبول عضويتهم فى طبقتهم بشكل يشبه أعضاء الجماعة العنصرية أو الفكرية الذين يعرفون أولئك الذين من جماعتهم،وأولئك الخارجين عنها . فرغم أن الطبقات تعمل معاً إلا أنها لا تعيش معاً ، فإن كل طبقة تسكن حيا خاص بها ،فهناك عزل اجتماعى إيكولوجى . فرغم أن الطبقات الاجتماعية تتعاون فى المجال الاقتصادى،ولكن تنفصل فى العلاقات الاجتماعية (٢) فرغم أن صاحب المصنع والمهندسين والعمال يعملون معاً فى المصنع إلا أن الصلات الاجتماعية لا تتم إلا بين أفراد الطبقة الواحدة . فالصداقات لا تحدث إلا بين أفراد الطبقة الواحدة ، وقد يحدث أن يدعو عامل رئيسه فى مناسبة اجتماعية مثل زواجه ، إلا أن العبرة بأن رئيسه لا يدعوه فى مثل هذه المناسبات الاجتماعية أو يقبله فى ناديه.

والزواج أيضاً لا يحدث إلا بين الطبقة الواحدة ،ومن هذه الناحية تبدو الطبقة وكأنها مغلقة ، وهذه أيضاً تجعل نظام الطبقات ظاهرة حضرية ، فإن أغنى ريفى لا يمتنع عن دعوة للغذاء من الفقير لأنه لا يمثل عنده أنه من طبقة أدنى . والتزاوج لا يحدث فى الريف بين الأغنياء والفقراء لا لاختلاف طبقى ،

---

(١) Leonard R. op.cit P. 174

(٢) Bergel Urban Sociology P. 181 .

ولكن يرجع إلى الناحية الاقتصادية . (فروز التمايز بين الطبقتين المنخفضة والعالية فى مجتمع صناعى كائنة فى كل مكان .. ومن ناحية أخرى يمكن أن تلاحظ فروق قليلة بالنظر إلى منازل الطين فى قريةفى لبنان .. فى نمط المجتمع الريفى البسيط كل فرد يكون معروفاً لكل فرد آخر حتى أن رتبته ليست فى حاجة إلى إعلان ، ولكن معظم الأفراد فى المجتمع الحضرى غير معروفين كأفراد كل للآخر)(١) .

والنتيجة الثانية لاستعمال مفهوم الثقافة الفرعية أن خط السلوك يرجع إلى قيم النظام عند مختلف الطبقات بدلا من رجوعه إلى تأثيرات البناء الاجتماعى نفسه . فهناك ميل إلى اعتبار السلوك كنتيجة لنظام القيم فى الطبقة أكثر منه خضوعا لتأثيرات العوامل الاقتصادية والقوى الاجتماعية ، ولهذا السبب تصبح عقدة التمايز الطبقى إحدى القيم ، التى تصبح بدورها سبباً للإختلافات الطبقية فى السلوك . وفى هذه الحالة الطبقة المتوسطة يمكن أن تميز باهتمامها الكبير بالمكانة الاجتماعية والانتقال الاجتماعى إلى أعلى ، والطبقة المنخفضة بقبولها لنوع من النقص الاجتماعى والطبقة العليا باعتقادها فى وراثتها للعلو الاجتماعى(٢) .

ولقد تأثرت الثقافة الفرعية لكل طبقة من الطبقات بالتصنيع ، ولهذا تأثر السلوك لأفراد الأسرة عند كل طبقة وتأثر أداؤهم للأدوار أيضاً ، فالثقافة لا تحدد الأدوار فقط ، ولكنها تقدم أيضاً قواعداً وقيماً معينة بها تؤدى الأدوار ، وهكذا ، فالتصنيع قد أثر فى البناء الداخلى لحياة الأسرة . فالتصنيع سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر قد عمل على تشكيل الأدوار التى تؤدى

---

(١) Looms. op. cit p 88

(٢) Leonard R : op'cit P. 175.

داخل الأسرة، كما شكل العلاقات بين هذه الأدوار . فأدوار الأزواج والزوجات والأبناء وكبار السن كلها عبارة عن استجابات بدرجة مّا للقوى النابعة من عملية التصنيع ، وتعكس الطبيعة الخاصة لهذه الاستجابات نوع العلاقات بين الأسرة والصناعة، وأهمها العلاقات بين الأسرة والعمل (١) .

١ ـ دور الزوج :

دور الزوج في الأسرة هو الدور المتأثر مباشرة بالتصنيع، فالحاجة الاقتصادية والقيم فى المجتمع تنظر إلى الرجل على أنه من الضرورى أن يكون ذا عمل . وفى مجتمع صناعى ينتظر أن تكون معظم هذه الأعمال فى الصناعة ، ومعنى هذا أن الرجال من جميع المستويات يتجمعون فى مكان الإنتاج ، تاركين منازلهم إلى عالم آخر يختلف فى قيمه وتقاليده . وعلى هذا فالأزواج فى جميع المستويات هم أعضاء ـ بعض الوقت ـ فى أسرهم، وهم يحاولون بشتى الطرق أن يوفقوا بين العمل القائمين به وحاجات حياتهم الأسرية . وقد يفشل الزوج أو ينجح فى ذلك ، وحتى إذا نجح فإن هـذا يـكون على حساب راحته الشخصية ، ذلك أنه يضطر إلى تقسيم نفسه إلى عامل وعضو فى أسرة . وتختلف طبيعة التوفيق بين هذه الذوات باختلاف المستويات فى العمل .

فى المستوى العالى من المجتمع ، دور الرجل فى الأسرة قد يكون له علاقة قليلة بدوره فى العمل . فقد يكون الرجل اكتسب سلطة كبيرة عن طريق دوره فى العمل ، ولـكنه لا يستطيع أن ينقل ما حصل عليه من سلطة ومكانة إلى حياته الأسرية . إذ عادة ما يكون مركز عائلة الزوجة مساوياً أو يزيد على

(١) Schneider : op . cit . P. 436.

المركز الذى حصل عليه الزوج فى العمل ، وفى كثير من الأحيان تكون الزوجة لها مدخرات كبيرة ، وربما يكون لها نفوذ عن طريق جماعة الأقارب . وإلى جانب ذلك فإن ضغط الحياة العملية فى مستويات العمل العالية تقلل من الوقت الذى يمكن أن يمنحه الرجل لأسرته . وعلى هذا تصبح الحياة الأسرية ثانوية بالنسبة لحياة الرجل وليست حتى قريبة من المساواة فى الأهمية لحياة العمل .

وفى الطبقة الوسطى ، عالم الياقات البيضاء والفنيين والحرفيين ، مركز الرجل فى الأسرة يختلف بعض الشيء لاختلاف القيم التى تنمط السلوك فى هذه الطبقة ، فقوة الرجل وقدرته على الكسب أعلى من قدرة زوجته التى غالباً ما لا يكون لها مورد مالى يذكر عن طريق الميراث . وهكذا فالمستوى المالى والقوة الاقتصادية تعتمد على مهنة الزوج وما تدره من دخل ، ومن ثم يتوقف مركز الأسرة على مدى نجاحه فى العمل . فالزوج فى الطبقة المتوسطة والأب شخصية هامة لها اعتبارها فى الأسرة . وفى كثير من الأحيان تتعادل سلطته وأهميته فى الأسرة مع سلطته وأهميته فى العمل . إذ أنه عادة يشغل عملا معقداً فنياً يبدو غير مفهوم لأعضاء الأسرة ، ولهذا فهو لا يستطيع القيام بدور المثال لأبنائه . ونادراً ما يستطيع أن ينقل إلى أسرته حماسه ومجهوده وانتصاراته فى حياته العملية ، ولهذا فالزوج فى الطبقة المتوسطة عليه أن ينشىء لنفسه دوراً فى الأسرة لا يكون له علاقة بدوره فى العمل . ومن طبيعة الأشياء أن يكون هذا الدور ثانوياً لأن العلاقات الهامة فى الأسرة تتجمع حول الأم والأطفال ، وعلى هذا فإما أن يتحول الرجل إلى أداء دور مؤدب عبوس أو صديق بشوش لأطفاله ، وذلك طبقا لأيديولوجية الأسرة .

وبالنسبة لزوجته فعليه أن يؤدى دورا خاصاً إذ أنه طالما لايستطيع أن ينقل إلى المنزل سلطته فى العمل ، وكذلك لا يستطيع أن يباشر سلطات الأب البترياركى التقليدى فعليه أن يكيف نفسه مع شخصيتها وحاجاتها وطموحها . فهو يعيش فى منزلها هى ، وإذا أراد أن يكون ناجحاً فى زواجه فعليه أن يفهم هذه الحقيقة . وأكثر من هذا : الزوج فى الطبقة المتوسطة يعتمد على زوجته فى شىء آخر ، فإن نجاحه يعتمد فى جزء كبير منه على نوع الحياة التى توفرها له زوجته ، قدرتها على الترفيه عنه ، وقدرتها على توجيهه نحو الأهداف الرفيعة ، وقدرتها على إيجاد حياة منزلية متكاملة برغم الميزانية المحدودة . ومن ناحية أخرى ، نجاح الزوجة فى رفع الأطفال لمستوى الطبقة المتوسطة وفى تعليمهم الإتجاهات والدوافع الحسنة للمحافظة على المستوى الطبقى ، بل والعمل على رفعه. وفى الحقيقة يقع على عاتقها المسئولية الكبرى فى تدريب الأطفال وعند الحاجة يدعم الأباء هذا التدريب بالأسس الخلقية .

مركز الزوج فى طبقة العمال فى الأسرة أيضا له اتصال مباشرة بمركزه فى عالم العمل . فإذا قورن برجل الطبقة المتوسطة فإن عمل الرجل العامل لا يتطلب مركزاً مالياً مرتفعاً ولا مركزاً اجتماعياً مرتفعاً ، والزوجة وحتى الأطفال قد يكون لهم عمل ، وفى الأزمات ربما تكون للنساء والشباب ميزة الحصول على العمل أكثر من أب الأسرة .

ولهذا السبب فإن سلطة الأب والزوج فى هذه الأسرة دائما مهددة . وفى الحقيقة لوحظ الميل نحو ظهور الأسرة الأمومية فى الطبقة السفلى من المجتمع . رغم ذلك كله فإن الأب والزوج فى طبة العمال كثيراً ما يكون من النوع المتسلط

فمعظم أسر العمال هى أسر منتقلة حديثاً من مناطق الأسر التقليدية فما زالت الثقافة الفرعية لهذه الطبقة تسودها مسحة الأب البترياركى . فاذا أضفنا إلى هذه القيم الإجتماعية القوة الاقتصادية للرجل فى الطبقة العاملة . ذلك أنه بالرغم مما قيل من قدرة الزوجة على الكسب ، فإن الزوج فى معظم أسر العمال مازال هو المصدر الوحيد للدخل ، وضعف المركز المالى لمعظم أسر العمال يجعل لدخل الزوج أهمية كبرى ، وأكثر من هذا فإن ضعف مركز الزوج فى الحياة العملية ربما يسوقه إلى أن يؤدى دور المتسلط فى حياته الأسرية ، سواء كان هذا تعويضاً لضعف مركزه فى العمل ، أو ليعمل على تأمين سلطته المهتزة فى الأسرة إذا كانت الزوجة تعمل .

وهكذا فالعمل والحياة الأسرية متشابكة بطرق مختلفة عديدة، فكل مركز طبقى يتضمن قيما تحدد الدور الذى يؤديه الرجل فى الأسرة .

ب — دور المرأة المتزوجة :

التصنيع له أثران كبيران على دور المرأة . أولا الصناعة فتحت مجالا كبيراً لاشتغال المرأة واستخدمت قدراً كبيراً من النساء المتزوجات ، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى تأثيرات كثيرة على مركز المرأة فى الاسرة . فتوظيف المرأة المتزوجة له علاقة بعاملين ، أولا عدد الاطفال فى الأسرة فانه سبق أن تحدثت فى الفصل الخاص بحجم الأسرة أن توظف المرأة عمل على إنقاص عدد الأطفال فيها ، والعامل الثانى هو المركز الإقتصادى الإجتماعى للزوج . فبالنسبة لمركز الرجل الإقتصادى فقد دلت الإحصائيات أن نسبة النساء المشتغلات تزداد كلما قل مركز الزوج .

ومن الواضح أن دور المرأة المتزوجة يتأثر بالعمل وأن تركها المنزل إلى العمل

يكفى لإثبات هذه الحقيقة . ولكن النمط الخاص والهام الناشىء من اشتغالها يعتمد فى جزء كبير منه على قيم الطبقة التى تنتمى اليها ، إذ أن الدافع إلى العمل يختلف بين النساء من طبقة إلى طبقة .

ففى الطبقة العليا والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة ربما تعمل الزوجة لشغل وقت الفراغ أو لدافع خلاق أو هواية ، وطالما أن القيم فى هذه الطبقة هى أن المرأة المتزوجة لا تعمل من أجل الأسرة ، فإن المرأة المتزوجة يجب عليها أن تختار عملها بدقة . وبدون شك فإنها تحصل على نوع من الحرية والاستقلال من دورها فى الأسرة ، وإن كانت عادة مرتبطة بمنزلها وأطفالها . ومهما كان الدخل الذى تربحه من وظيفتها فإنه نادراً ما يكون له أثر فى المركز المالى للأسرة . وفى الواقع ، معظم هذا الدخل يضيع أجوراً للخدم أو فى تربية الأطفال . ولا ينتظر أن يتأثر مركز الأسرة بالعمل الذى تشغله الزوجة ، ولهذا فمن المشكوك فيه أن تحصل الزوجة على سلطة داخل الأسرة نتيجة لاشتغالها خارج الأسرة .

وفى الطبقة المتوسطة الدوافع للعمل تتضمن العمل نفسه ، وخاصة عندما لا يوجد أطفال ، والحصول على مستوى خاص من الحياة ، أو حاجة اقتصادية مباشرة . وعلى أى حال فالمرأة فى هذه الطبقة تعمل على مساعدة أسرتها إلا أنها تصرف جزءاً كبيراً من دخلها على الخدم وحضانة الأطفال ، وهى عادة تترك عبء رعاية المنزل مقابل واجباتها فى العمل ، وطالما أن دوافع المرأة للعمل غير سطحية ولا سريعة الزوال فإن مركزها فى الأسرة يرتفع وتصبح شخصية هامة لمستقبل الأسرة المالى .

ومما لا شك فيه أن خروج المرأة للعمل يتضمن طرقاً جديدة لتكييف الزوج

والأطفال للمنزل . ومهما كانت صعوبة هـــذه التـكيفات إلا أنها فى النهاية تنتهى إلى تـكيف مرض بين الزوج والزوجة .

وغنى عن البيان أن معظم النساء فى كل الطبقات حتى طبقة العمال يعملن ربات بيوت وزوجات وأمهـــات . ورغم أن دور الأسرة التقليدية مازالت تسانده قيم المجتمع بشدة القائلة بأن المرأة المتزوجة وخاصة ذات الأطفال يجب أن تعطى وقتها كله لدورها الأسرى ، فإن هذا يعنى أن التصنيع لم يباشر تأثيره فى البناء الطبقى للأسرة .

وعلى العموم يبدوا أن التصنيع يزيد من قوة حرية المرأة فى الأسرة وليس أدل على ذلك من الحقيقة الـكامنة فى أن خروج الرجل من المنزل للعمل بعيداً عن الأسرة أدى إلى زيادة أهمية الزوجة ودورها . إذ كيفية سير الأمور فى المنزل وكيفية إدارته وكيفية تربية الأولاد، وأى نشأة ينشئون ، كل هذا يعتمد كلية على رغبة الأم واتجاهاتها وقدرتها .

والملاحظ أن مركز المرأة فى الأسرة يختلف طبقاً لمركز الأسرة الاجتماعى . ففى الطبقة العليا ، تتمتع بمركز عال فى الأسرة ، وهذا المركز كما سبق أن بينت قد يعتمد على ميراثها أو على مركز أسرتها الاجتماعى والاقتصادى، وربما يتوقف مركز الأسرة كلها على مركز أسرة الزوجة . ولما كانت الزوجة فى الطبقة العليا لديها القدرة على استخدام الخدم والأدوات الميكانيكية وعلى تربية الأطفال خارج المنزل فى دور الحضانة المرتفعة الثمن ، لهذا تصبح وقد تخلصت من كل الأعباء المنزلية ولديها وقت فراغ كبير .

أما الزوجة فى الطبقة المتوسطة بالعكس تجد نفسها تواجه دورا صعباً ومعقداً . فطالما أن مواردها محدودة فعليها أن تتحمل أعباء كل الأعمال المنزلية والأعمال

المتعلقة بتربية الأطفال ، وقد تضطر إلى العمـــل فتكون مسئولة عن عملها كمسئوليتها عن منزلها . وقد يخفف عنها عملها المنزلى بواسطة الأدوات الميكانيكية ، ولكنها لا تستطيع أن تدفع بأطفالها لدور الحضانة المرتفعة الأجر فتتركهم للخدم . وهى فى كل ذلك تجد نفسها مضطرة أن تساعد زوجها فى مستقبلة باتباع نوع معين من الحياة .

أما الزوجة فى طبقة العمال فقد تكون مقيدة فقط بالعمل المنزلى كزميلتها فى الطبقة المتوسطة إلا أنها عادة تكون أكثر أطفالا . ولكن دورها أقل توتراً فليس عليها أن تدفع أطفالها بطريقة ما لتحافظ على مظاهرها فى الطبقة المتوسطة وأسرة العامل ليست جزءاً من مستقبلة ، وإلى جانب هذا فإن الزوجة فى الطبقة العاملة تتقاسم غيرها فيما تمنحه الصناعة من حرية المرأة ، فهى لها الحرية فى إدارة منزلها بعد خروج زوجها للعمل ، ومن ناحية أخرى فزوجات طبقة العمال نادراً ما يكون لهن قدرة عدم الاعتماد على الزوج ، كزوجات الطبقة العليا ، أو أن يكون لهن مركز المساواة الذى لزوجات الطبقة المتوسطة ، فالثقافة الفرعية لهذه الطبقة مازالت تؤيد النظام البترياركى ، فالمرأة فى الطبقة العاملة عليها أن تكيف نفسها مع زوج له ميول السيطرة على الحياة الأسرية ، ولكنها ليست بدون قوة تجاه الزوج المسيطر . فإن قيمها لا تمنعها من الحصول على العمل غير المرغوب بالنسبة للطبقات الأخرى . والتصنيع قد أتاح قدراً عظيما من هذا النوع من الأعمال مما جعل هذه الزوجة لديها القدرة عند الحاجة للتمرد على سيطرة هذا الزوج البترياركى . وإذا كان من الضرورى ترك هذا الزوج فإن جماعة القرابة الواسعة التى مازالت تحتفظ الثقافة الفرعية لهذه الطبقة بقيمها ، يمكن أن تعتمد عليها فى أعالتها حتى تجد عملا أو زوجاً آخر .

(ج) دور الطفولة والتصنيع :

العلاقة بين دور الأطفال والتصنيع هو عن طريق غير مباشر ، إذ أن أثر التصنيع على الأطفال هو عن طريق التغير الذى أحدثه التصنيع فى البناء الأسرى . فوظيفة الأب من أول الأشياء التى تؤثر بمختلف الطرق على الطفل فكل الأعمال تحدث أنواعاً معينة من التوترات والانفعالات فى شخصية الفرد الذى يؤدى دورها . وبالعكس تعطى الأعمال درجات معينة من المواقف الاجتماعية والسلطة والشخصية . هذه التوترات وتلك الإنفعالات وتلك المكانة والمقام الاجتماعى والقوة أو غياب أيهما ينقل إلى الأسرة ويصبح جزءاً من البيئة التى يتشكل فيها عقل الطفل وشخصيته . فمثلا مهنة الوالد تصنع بعض التوقعات بالنسبة لاختيار الإبن لمهنته . فقد تكون التوقعات أن يتبع الابن خطوات أبيه أو بالعكس أى لا تشجع الابن على تتبع مهنة أبيه . وإلى جانب أن المهنة قيمة كبيرة فهى كذلك إطار مرجعى عن طريقه يرى ويحكم الابن على أبيه . وعامل آخر يتدخل فى مقارنة الإبن وهو : المعلومات التى يتلقاها الابن عن مهنة أبيه ، وهذه المعلومات بدورها تصبح مشجعة أو محبطة للإبن عن دخول نفس الحقل(١) .

وفى المرتبة الثانية مركز الأسرة الطبقى له تأثير هام على تنشئة الطفل اجتماعياً(٢) والدور المعقد المتعدد بالنسبة للطفل هو دور الأم لأنها أثناء غيبة الأب فى العمل هى التى تقوم بنقل كل الأغراض العملية فى التنشئة ، فهى تنقل الدوافع الناشئة من الموقف والطبقة لأطفالها . القيم والأخلاق والميول والأذواق التى تعلمتها خلال حياتها فى طبقة خاصة من المجتمع بالتأكيد تؤثر بشكل قوى

---

(١) Leonard R : Class in American Society P. 310-3Il.

(٢) Schneider, op. cit. P. 444.

فى نمو شخصية الطفل ، وهكذا تعكس الصورة النهائية لشخصية الطفل نوعاً هاماً من التقسيم الإجتماعى فى المجتمع ، وهو كما رأينا شديد الاتصال بالتصنيع .

ونتيجة لذلك فإن كل مستوى فى المجتمع ينتج نمطا معينا من الأدوار للأطفال . فنى الطبقة العليا الطفل يشغل دوراً هاماً فى الأسرة ذلك رغم أن الأب قد يكون مشغولا بعيداً ، وقد تكون الأم مهتمة بهواية خاصة خارج المنزل ، والعناية بالطفل وتربيته متروكة لمربية أو دار حضانة . فإن الطفل هو حامل اسم الأسرة ويرث الولد مركز والده العالى . فالتنشئة الاجتماعية للطفل تنقل مباشرة له قيم وأخلاق الطبقة العليا ومستوى الذوق فى الطبقة والطريقة التى يختار بها أصدقائه والجمعيات وطرق اللبس . ويعيش الطفل فى ظل توترات معينة ليعيش فى مستوى تقاليد الأسرة . فالطفل يشعر منذ نعومة أظافره بضغط اجتماعى يدفعه لأخذ دور معين . فهو يعلم أن مركز الأسرة قد بنى بالعمل الشاق ، والمحافظة على تقاليدها ، وأنه لا بد أن يعمل عملا يدر دخلا يمكنه من المحافظة على مركز الأسرة الإجتماعى (١) .

ويتأثر مركز الأسرة فى الطبقة المتوسطة بسلوك الطفل ، فرغم أن الطفل فى هذه الطبقة يعتبر عبئاً إقتصادياً ، إلا أن الأسرة نظراً لأنها تعتبر الطفل هو الواجهة التى تعرض نفسها من خلاله على العالم ، صار من أهم إتجاهات التنشئة الإجتماعية فى الطبقة المتوسطة ، هو تعليم الطفل كيف يعمل عملا مضبوطاً ، وكيف يلبس جيداً ، وكيف يحافظ على مظهره الأنيق النظيف الذى يدل على إرتفاع مستوى الطبقة المنتمى إليها . وإن كان المركز الاجتماعى لهؤلاء الأطفال فى أعين المجتمع تلقائياً هو مركز آبائهم ، إلا أن الآباء

(١) Miller & Form : Industrial Sociology P 665.

الطموحين يخططون لرفع طبقة أبنائهم ، وفى سبيل تنفيذ هذا الأمل يميل آباء الطبقة المتوسطة إلى نسيان أنهم هم أنفسهم إبتدأوا حياتهم الزوجية بأقل قدر من المكانة الاجتماعية ، وكذلك بقدر أقل من الأموال . وهكذا يشجع الطفل على الذهاب للعمل من حيث انتهى والده . ولهذا فإن من أهم إتجاهات التنشئة الإجتماعية عندهم هو غرس قيم النجاح والرغبة فيه عند الطفل . ويعلم الآباء الأطفال أن يتفوقوا على زملائهم فى المدرسة ويعلموا قيمة التعليم العالى ويلقنوا أن يهدفوا إلى الوظائف ذات المراكز المحترمة .

ولهذا فأسرة الطبقة المتوسطة الناجحة تقدم لأطفالها منزلا مفروشاً جيداً وغذاءاً جيداً وكذلك ترويحاً جيداً . وبمرور الزمن آلاف من العادات والميول تكمن فى مطالب الطفل لمستوى معين من النفقات التى لا يمكن له بلوغها إلا إذا شغل مركزاً اجتماعياً محترماً . ولهذا يعمل الآباء الطموحون بصبر وثبات على تنمية الأذواق الرفيعة ذات التكاليف العالية عند أبنائهم وهم يشجعون أبناءهم على التفكير فى أنهم مؤهلين ليبدأوا أعمالهم من حيث وصل آباؤهم بعد فترة طويلة من العمل . وكذلك تشجع الفتاة على مواصلة الدراسة لرفع مكانتها الاجتماعية فى سبيل الحصول على زوج أحسن ذى مركز اقتصادى متين من أسرة كبيرة يمكنها من أن تعيش حياة اجتماعية واقتصادية ذات مستوى عال (١) .

فآباء الطبقة المتوسطة يتوقعون بالنسبة لأدوار أبنائهم فى الحياة العملية ، أن يعلم الأبناء أن الوظيفة هى علامة على المركز الاجتماعى فى المجتمع ، وعليهم أن يبتدئوا حياتهم العملية فى مكان ما ، وأنها من غير الممكن أن تكون دائماً حسب اختيارهم ، ولكن المهم أن لا تكون الوظيفة منخفضة فى السلم المهنى

بشكل كبير ، وعليهم أن يعملوا بجد ليحققوا النجاح ولا يعمل عملا يدوياً ، ويحصل على الوظيفة التي تقدم له دخــلا يكفيه لإ عالته وإعالة أسرته ويعطى لأبنائه تعلما جيداً ، وأن يعيش فى حى سكنى جيد ويستمر فى النجاح والتقدم . ونجاح أو فشل الطفل فى هذه المساعى يضيف احتراما للأسرة أو يسلب الأسرة ذلك الاحترام .

أما موقف طفل طبقة العمال فيختلف عن أطفال الطبقات الأخرى . فإن هؤلاء الأطفال غير مهمين لمستقبل الآباء أو لمركز الأسرة فى المجتمع كما ليس هناك أهمية لمركز الأسرة فى المجتمع أو أهمية لاسمها. ونتيجة لهذا فطفل هذه الطبقة المنخفضة لا يدفع إلى النجاح أو العمل على الوصول للمراتب العليا ، وهذا لا يعنى أن الطفل لا يعمل طبقاً لنوع معين من القيم ، ولـكنها تلك هى قيم الطبقة وثقافتها الفرعية ، وبالإضافة إلى تجمد مركز طفل هذه الأسرة هناك ضعف مركزها المالى وعدم الأمان النسبى وتخلف موقفها الأسرى . فإذا ذهب هـــذا الطفل إلى المدرسة حيث يوجد أبناء الطبقة المتوسطة فما يعوقه بشدة فشله فى مشاركة أبناء الطبقة المتوسطة فى قيمة النجاح .

بالرغم من الجمود الطبقى لابن الأسرة المنخفضة ، فإنه من ناحية أخرى يتمتع بحرية فى اتجاهات أخرى ، فهو لا يضحى بوقته فى سبيل تدعيم مستقبله كما أنه لا يقوم بعمليات مقارنة أو منافسة بينه وبين الآخرين وليس مطلوباً منه أن يحاول الارتفاع إلى مستوى أعلا مما هو فيه ، وربما يحصل على حرية كبيرة ، فهو يمضى وقتاً كبيراً فى الشارع أو مع عصابة الرفقاء ، كما أنه مفروض أنه لا يعرف المحرمات الخاصة بالنظافة أو الخبرات الجنسية ، وهى حرية تتضمن وجوداً شائـكاً وغير صحى ، بل وخطر .

ومن أهم المشاكل التى يواجهها هؤلاء الأطفال : مشكلة انحرافهم .

(ويمكن القول أن انحراف الأحداث أصبح مشكلة هامة فى بعض المجتمعات التى زاد فيها التصنيع وزادت تبعاً لذلك المراكز الحضرية. فمثلا فى المناطق التى لا تحكم نفسها لوحظ زيادة كبيرة فى انحراف الأحداث ، حيث يوجد عدم تكامل لتقاليد وأساليب الحيـــاة ، مع نمو ملحوظ فى المراكز الحضرية والصناعية ، أو سرعة فى النمو الاقتصادى ، ففى هذه المناطق انحراف الأحداث أصبح ظاهرة هامة وتشابه تماماً الموجود فى الحضر أو المناطق الصناعية)[١].

(بينما مشكلة انحراف الأحداث فى بعض المناطق طفيفة جداً أو لا توجد إطلاقا ، ففى المناطق مثل بريونى Bruni وسرواك Sarawak حيث الأسرة هى الهيئة الأولى للضبط الاجتماعى ، وحيث معظم السكان يعتمدون على الزراعة والحرف المشابهة ، وحيث لا توجد مدن حضرية ، وإن وجدت فهى صغيرة ، وحيث التصنيع له وطأة محدودة ، فمشكلة انحراف الأحداث فى نهايتها الصغرى ولا يوجد انحراف أحداث إطلاقاً فى بعض المناطق فى أفريقيا حيث التأثير الخارجى لم يمزق الأسرة المتماسكة والبناء الاجتماعى والتنظيم القبلى)[٢] .

فى هذه المناطق التى بها قليل من انحراف الأحداث أو ينعدم وجوده ، فى هذه المجتمعات تمثل الأسرة والمجتمع المحلى الهيئات الأساسية فى الضبط الاجتماعى . وفى بعض هذه المجتمعات تلعب القبيلة أو البطن دوراً قوياً ولا يكون هناك

---

(١) Internaional Review of Criminal Policy Nos - 7 - 8 Jenuary July 1955 - United Nations. p. 21.

(٢) Ibid ., 22.

حاجة إلى التوسع فى استعمال القوانين الوضعية أو البوليس أو المؤسسات. فأنماط السلوك محددة تماماً ، ويعرف كل عضو فى المجتمع ما هو منتظر منه ، وبالتالى يعرف ما ينتظره الآخرون منه . وقواعد السلوك متغلغلة فى شخصية كل عضو فى الجماعة ، ومعظم الناس متكيفون لنمط معين من أنماط الحياة . ولكل طفل وصغير دور وظيفى محدد واضح فى المجتمع ، ويشاركون عن قرب فى أنواع النشاط اليومية مع الكبار (١) .

فمثلا فى القرى الصينية ، الأطفال يعيشون فى ظل ضبط اجتماعى قوى ويربون على الورع البنوى . وين Yen فى تحليله فى بحثه [الجريمة وعلاقتها بالتغير الاجتماعى فى الصين] يقارن بين الأحداث المنحرفين فى الصين والولايات المتحدة ، يوضح أنه فى الولايات المتحدة انحراف الأحداث يلعب دوراً مزعجا ولكنه ليس بمشكلة فى المدن الصينية . وربما باستثناء شنغاى التى تتبع الأنماط الصناعية والتجارية الغربية . فحياة عصابات الأطفال التى تعتبر ملامح ضرورية لسلوك الأحداث المنحرفين فى أمريكا ، لا توجد إطلاقاً فى الصين .

وحتى فى شنغهاى حيث نمو الأولاد المشردين يرجع لأن آباءهم مشغولون جداً بأعمالهم ، وليس لديهم وقت للعناية بأطفالهم . ولكن هؤلاء الأولاد المشردين غير منظمين فى عصابات . ولا توجد مؤسسات إصلاحية فى طول البلاد وعرضها ، فيما عدا مؤسسة شبه رسمية وجدت فى بيبنج Peinping أوجدها الرئيس السابق هوسى لينج هوسنج بوحى أمريكى ولكنها أغلقت فى ربيع سنة ١٩٢٩ بسبب نقص كل من الميزانية والنزلاء . ومحاكم بينج نفسها لم

(١) Gluck. sheldon (Edited) ; "The Problem of Delinquency" Houghton Mifflin Company. Bcsten 1959. p. 509

ترسل منحرفاً واحـــداً إلى الإصلاحية خـــلال العامين السابقين لغلقهـا .

وللبحث عن تفسير مناسب لعدم وجود ظاهرة انحراف الأحداث فى الصين، على الإنسان أن يرجع إلى التقاليد المتغلغلة عبر الأجيال للورع البنوى الذى يعبر عن القانون الأساسى للنظام الأسرى واحترام الـكبار ، فالطاعة للوالدين تعتبر أرفع فضيلة يمكن أن يمتلـكها الإنسان . ويعتبر من أهم أوجه الحياة فى الحياة الأسرية فى الصين ، هو ذلك الاحترام والطاعة للوالدين والتى يقدمها الأطفال دون سؤال، وحتى بعد النضج بفترة طويلة[1] .

وأيضاً يمـكن اتخاذ مقاطعة سموا Samoa كمثل لمنطقة حيث يوجد الضبط الرسمى ، ولـكن أيضاً حيث لا داعى لمعاملة الأحداث المنحرفين ، إذ أنه يمكن الاعتماد على الأسرة فى العناية بهم . وقد كتبت الولايات المتحدة تقريراً تقول فيه (إنه لم يبلغ فى خلال العام إلا عن حالتين من حالات انحراف الأحداث ، وكان رئيس المحـكمة يرسل لرئيس القبيلة ووالدى الحدث خطابا ، ولا يتضمن هذا أى إجراء بوليسى ، ويأخذ رئيس المحـكمة تعهداً على رئيس القبيلة ووالدى الحدث بأن يـكونوا مسئولين عن السلوك الحسن فى المستقبل للحدث . فلا قبض هناك ولا أحكام بالحبس ولا تقارير تحفظ لإرباك الحدث فى المستقبل[2] .

وفى النمط الثانى من المجتمعات حيث أصبح انحراف الأحداث مشكلة اجتماعية تتميز هذه المجتمعات بالتغير الاجتماعى . ففى هذه المناطق التصنيع

---

(١) Burgess & Lock : The Family p. 39.
(٢) Glueck, Sheldon ., Eleanor : op cit.. p 209.

يتزايد ، والمناطق الحضرية تنمو ، والعادات والتقاليد والقيم القديمة تختفى وأصبحت فى صراع مع الجديدة . وصراع القيم بين القديم والجديد هى عادة المسئولة عن خلق التفكك واضطراب الشخصية . وهذه النقطة الأخيرة ذكرها تقرير حديث لهيئة اليونسكو تحت عنوان معاونة العلوم الاجتماعية فى دراسة الظروف الاجتماعية فى المستعمرات الإفريقية (رغم أن المجتمعات الآخذة بالأسلوب الغربى مازالت قليلة فى أفريقيا ، وعدد أولئك الذين يشاركون بدرجات مختلفة فى كل من الثقافتين مستمر فى الزيادة ومن وجهة النظر السيكولوجية ، هذا يعنى أن الفرد ، بينما يطلق لنفسه الحرية من الواجبات نحو والديه ، وجماعة الأسرة أو القبيلة ، ويبحث عن التكامل مع الجماعات الأخرى فهو فى النهاية عرض نفسه لمجموعتين من القيم ، ووضع نفسه تحت نوعين من الضغط)(١) .

ففى هذه المناطق يترك الوالدان المنزل للعمل خارجه ويترك الأطفال لرعاية أنفسهم ، وأعضاء المجتمعات الحضرية الجديدة ليست لديهم نفس العلاقات الاجتماعية المتينة ولا علاقات القرابة القوية التى توجد فى أسلوب الحياة القروية القديمة .. ومن ثم المجتمع لا يمكنه أن يباشر نفس التأثير الذى كان يباشره من قبل ، ولهذا اضطر إلى استخدام التشريع لضبط أفعال الأفراد ، كذلك تأسست الهيئات الإجتماعية للضبط لتحل مكان بعض الوظائف التى كانت من قبل موكولة إلى الأسرة والمجتمع .

وفى كثير من بلاد آسيا والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية وبلاد الشرق الأوسط ، قد زاد انحراف الأحداث ، وكان التصنيع هو من أهم عوامل زيادتها

(١) International Beview : op .cit. p. 25.

فمثلا فى آسيا والشرق الأقصى وجد عدد كبير من وقوع الاعتداء على الملكية، وقد أعتبر أن هذا ربما يكون راجعاً إلى عماية التحضر الآخذه فى الوجود مع نتائجها من اضطراب الحياة الأسرية مع ما تنتجه من المشاكل الشخصية والتكيف الإقتصادى [١] .

وخاصة عند الطبقة المنخفضة التى تتميز بكبر الحجم وانخفاض مستوى الدخل .

وفى الحقيقة إنه فى بحوث انحراف الأحداث المتقدمة تاريخياً كان هناك اهتمام بالحالة الطبيعية والاقتصادية المصاحبة للانحراف . وأوضحت كثير من الدراسات عن حجم الأسرة أن عددا متباينا وغير متناسب من المنحرفين ينبع من الأسر الكبيرة الحجم القليلة الدخل . وميريل Merrill فى دراسة حديثة جدا حقق هذه النقطة عن طريق عينته ، وتبين له أن حجم الأسرة له علاقة مباشرة بالمركز الاجتماعى والإقتصادى الذى قدر عن طريق نسبة الدخل ووجد أن الطفل من الأسرة الكبيرة العدد والفقيرة قد يصبح منحرفا ليس بالضرورة لحجم الأسرة ، ولكن لازدحام السكن ، ولظروف المنزل السيئة الفقيرة ، وللجوار السيء ، والتوقف مبكرا عن التعليم ، والبداية المبكرة لعمل الطفل ، كل هذه المظاهر تصاحب ظروف المعيشة عند تلك الأسرة ذات المركز الاجتماعى الاقتصادى المنخفض [٢] .

الظروف الاقتصادية السيئة التى تبدو فى هذه المنازل بالإضافة إلى التأثيرات

---

(١) Glueck, Sholdon and Eleanor : op. cit. p. 211

(٢) Glueck : The Problem of Delinquency" Essay on The Family and Juvenile Delinquecy by"Havy M. s hulman. p. 129.

الأخرى . لها بعض العلاقة بانحراف الأحداث . والدراسات الرئيسية لعينات محاكم الأحداث المقبوض عليهم تظهر انخفاض المركز الاجتماعى الاقتصادى المنخفض للأسر ، وأن جزءاً كبيراً منهم يتناول مساعدات من الهيئات الاجتماعية الخاصة . وسيرل برت S. Burt فى دراسته فى لندن اكتشف فقراً أكثر فى منازل العينة عما وجده فى المجموعة الضابطة من غير الجانحين من نفس الجوار ونفس المدارس . وقد وجد ميرل Msrrill أيضاً فروقاً حادة فى المراكز الاجتماعية الاقتصادية بين عينة من المنحرفين اختبرت بعناية بالنسبة لمجموعة ضابطة من غير المنحرفين .

وعمل أو وظيفة الوالدين شىء مهم فى علاقته بالمركز الاقتصادى. فدراسات ظروف العمل لآباء الأطفال المنحرفين أوضحت زيادة فى عدد وظائف القليلى المهارة أو غير المهرة ، ونسبياً أقل فى أنصاف المهرة أو المهرة ، هذا دليل على شدة زعزعة وعدم ثبات وأمان الوظائف وقلة المنبع الاقتصادى وانخفاض المركز الاجتماعى لمعظم آباء المنحرفين . وكذلك معظم الدراسات عن المنحرفين أظهرت ضخامة العدد الإجمالى للعاطلين بين الآباء ، وكثرة عدد الأسر التى فيها الأم هى المصدر الوحيد للرزق ، أو حيث يعمل الوالدان فى صناعات منخفضة وفى الحالة الأخيرة يلاحظ أثر هام آخر وهو عدم قدرة الوالدين على رعاية الأطفال .

والازدحام كما هو محدد بعدد الأفراد فى الحجرة ، قد ظهر فى دراسات كثيرة أنه أكثر عند أسر المنحرفين عنه فى غير المنحرفين فى المناطق المزدوجة. فمثلا شولمان Shulman فى دراسته New York State Crime Commission على المتشردين اكتشف أن متوسط عدد الأفراد فى الحجرة الواحدة

كان ٧ر١[١] . والازدحام بينما هو أثر لكبر الحجم وانخفاض المستوى ، له أثره الاجتماعي الهام فى إحداث النقص فى الخلوة الأسرية ، ويؤدى إلى انهيار حدود التجارب الجنسية داخل الأسرة ، وإلى الحد من النشاط . ويؤدى إلى الشجار وإلى هروب الأطفال والكبار من المنزل إلى الشارع أو إلى أنواع النشاط الترويحي التجارى ، وإلى الرفاق .

وموضوع العلاقة بين الانحراف والمساكن الفقيرة درست فى دراسات المناطق المتخلفة وعلاقتها بالانحراف . وقد دلت تلك الدراسات على أنه توجد علاقة . فمن المعتقدات العامة أن ظروف المساكن الفقيرة وخاصة المزدحمة وغير المناسبة صحياً هى مراكز لإنتاج السلوك المنحرف . فدراسات شو ومكاى وسلنجر Shaw, & Me Kay, Sullnggr قد أوضحت أن المنازل الفقيرة تسود فى مناطق الانحراف[٢] .

وأهم الدراسات وأمتعها هى الدراسات التى أجراها شلدون وإيليونورا جلوك Sheldon & Eleonora Glueak متوجاً به بحثهما لمدة عشرة سنوات فى البحث عن أسباب الانحراف ، انتهى هذان الباحثان الممتازان إلى أن صفة وميزة مركز الأسرة له أثر كبير جداً فى خلق الانحراف أكثر من أى سبب آخر . فالأساس التركيبي للشخصية فى تشكيل أدوارها واتجاهاتها وميولها تغرس خلال الطفولة المبكرة . إذ وجدا أنه بالمقارنة الدقيقة لأنماط التنمية لخمسمائة طفل منحرف من الأماكن المتخلفة بمدينة بوستن مع مجموعة ضابطة من خمسمائة طفل غير منحرف من نفس المنطقة ، اكتشفا أنه إذا كانت حياة

---

(١) Glueck, : op. cit. p. 129

(١) Neumeyer : op.cit p. 209

أسر الأطفال مناسبة تكون فرصة الانحراف ٣ ./. ، ومن جهة أخرى إذا كان مركز الأسرة فقيراً فإن فرصة الانحراف ترتفع إلى ١٨ ./. وإن كان من المهم جداً من وجهة النظر الاجتماعية وجود العوامل الاجتماعية الأخرى ، إلا أن مركز الأسرة فى التركيب الاجتماعى المنبعث من الظروف الاجتماعية التى تفصح عن نفسها فى اتجاه وميول الآباء له الأثر الأكبر . فعادة يذكر فى الدراسات لجماعات المنحرفين مثل هذه العوامل ، القسوة أو التساهل أو الخطأ فى نظام التربية الذى يتخذه الآباء ، عدم العناية من الأم ، أو عدم العناية بوقت الفراغ عند الطفل ، أو النبذ أو الترك والطرد بواسطة الوالدين . والحقيقة أن وجود مثل هذه العوامل يبدو أن لها علاقة وثيقة بالصفات البنائية لأنماط معينة من الأسر أو البيوت(١) .

فالزوجات فى طبقة العمال حيث الدخل منخفض والأسرة كبيرة الحجم ليس لديها وقت كاف ولا تدريب كاف لعملية تربية الأطفال ، وعندما تحاول الأم تنظيم أطفالها تظهر خشونتها القاسية ، وفى كثير من الأحيان تترك الأطفال يجرون على الفطرة همجيين . وعادة تمضى وقتها بدون تنظيم ، فهن يتركن الأطفال حتى يسقطوا نائمين أو حتى يطفىء الآباء الأنوار للذهاب للنوم . وإذا حاولت الأم زيادة دخل الأسرة بالعمل ، فالأطفال إما يتركون فى الطرقات أو أن يذهبوا إلى منزل الجد أو بعض الأقارب حتى عودة الأم من العمل(٢) .

وفى أسر كثيرة من أسر الطبقة المنخفضة تترك تربية الأطفال الصغار

---

(١) Glueck, sheldon and Eleanora : 1000 Juvenile Delinquency" .

(٢) Burgess and Look : The Family p. 117

للأطفال الكبار ، وتترك الأطفال فى الثالثة والرابعة للعناية بأنفسهم ، والطفلة فى السادسة من عمرها تترك فى المنزل للعناية بإخوتها الصغار من البنات والصبيان وفى أسر عديدة حيث يعمل الوالدان فان الأطفال يتناولون وجبة غذائية واحدة فى اليوم ولا يعلم الوالدان أبداً ما إذا كان أطفالهم فى المنزل من عدمه فى المساء [١] .

ومن ناحية أخرى فان مركز الأسرة الطبقى فى التركيب الاجتماعى يحدد بدرجة كبيرة نوع وأثر وطئة القيم الثقافية على الطفل .

فبالنسبة للتربية مثلا وجد شنيدر Schneider أن الغلام من الطبقة الدنيا أو من الجماعات ذات المراكز المنخفضة عاجز ، ليس عن عجزه فى المستوى الاقتصادى ولكن أيضاً عن طريق اتجاهاته السلبية عن التربية ، وأورد إحصائية بأخذ الرأى عن أهمية التعليم الجامعى ، دلت على أن نسبة ٦٨ ٪ من الطبقة العليا يؤيدون أهمية التعليم الجامعى وأن ٥٢ ٪ من الطبقة المتوسطة يؤيدونه ، بينما كانت النسبة فى الطبقة المنخفضة ٣٩ ٪ ، ووجد أن جدول الترتيب المهنى يطابق النسب السابقة . وقال إن هناك عنصراً آخر فى ثقافة الطبقة الدنيا يعمل على عجز أبناء هذه الطبقة فى المنافسة ، إذ يرث أبناء الطبقة الدنيا ثقافة لا تعطى وزناً للأفكار المجردة مثل الرياضة والعلوم أو القراءة وتضعها فى مستوى منخفض ، بينما أى منها ذو أهمية فى النجاح فى كثير من الأدوار المهنية . وقد يرث ابن الطبقة المخفضة ثقافة تشك فى كل ما هو جديد وما هو غريب ، وقد يشعر أن أى تغيير ليس فى مصلحته . وفى نفس الوقت فابن الطبقة المنخفضة ربما يكون ساذجاً بسيطاً ويمكن التغرير به ، وسهل التأثير عليه بالدعاية ضد رغباته . وغالباً ما يكتسب أو يرث ابن الطبقة الدنيا

(١) Ipid : P. 118

إحساساً عميقاً بالدونية مما يكسبه عادة الاذعان والخضوع والاستسلام للقوى المحيطة به فى العالم الذى يعيش فيه (١) .

فاختلاف أنماط التدريب للأطفال فى مختلف الطبقات الاجتماعية لها آثار على أنماط السلوك الاجتماعى الذى يتضمن الإنحراف . فمثلا رجلا حازما صلبا أكثر إحباطاً لدوافع التسلية العشوائية ، هذا بجلاء صفة الطبقة المتوسطة وبعكس هذا تتميز تربية الطبقة المنخفضة بالتساهل فى خبراتها . ويميل آباء الطبقة المتوسطة إلى بذل جهد أكثر فى أنماط تربية الأطفال مبكراً ويحافظون على ذلك مدة أطول من آباء الفقراء . عادات ضبط التبول والفطام تقوم مبكراً وبصلابة أكثر بين الطبقة المتوسطة ، ومتأخراً وبشكل أكثر تساهلا عند الطبقة المنخفضة . أطفال الطبقة المتوسطة يشرف عليهم آباؤهم عن قرب أكثر من أطفال الفقراء . ويتوقع منهم المشاركة فى الواجبات المنزلية أكثر من الفقراء . هذه الحقائق تضع سؤالا ، إذا كان الاحباط له علاقة بالإنحراف وإذا كانت تربية الطبة المتوسطة تتضمن المحافظة على كثير من التوترات ، لماذا لا يكون لهـــذه التوترات أثر فى الأحباطات مؤدية إلى الإنحراف ؟ وتقع الإجابة فى الآتى :

أولا : أن أنماط الأحباط فى الطبقة المتوسطة والمنخفضة يبدوا أنها تختلف فطفل الطبقة المتوسطة تجبر على المحافظة على التوترات المؤدية إلى النظام ويتعلم ويستفيد من المهارات ، ويحذر من الوقوع فى سلوك اللذة المبكرة ذى الأنماط غير السوية ، أما طفل الطبقة المنخفضة فهو أقل تقيداً فى اختياره ومجال نشاطه ويسمح له بحرية أكثر فى اختيار أصدقائه ووسائله الترويحية وبحرية فى الوقت

---

(١) Schneider : Industrial Sociology. p. 385.

الذى بعد المدرسة ، وطفل الطبقة المنخفضة يكون فى إطاره المرجعى خبرات جنسية مبكرة وغير متجانسة . وهكذا إحباطات طفل الطبقة المنخفضة ليست فى علاقة مع الضبط القوى على حريته . فهو يمارس الاستقلال جزئيـــاً لأنه يحصل مبكراً على مركز المتكسب لعيشه ، بينما يبقى طفل الطبقة المتوسطة فى المدرسة ويعتمد اقتصادياً على والديه مدة أطول . تربية الطبقة المتوسطة تؤخر البلوغ والنضج الإجتماعى طويلا ، بينما تقيم سلطة أبوية مبكراً .

ويبدوا أن طفل الطبقة المتوسطة يتقبل إحباطاته أكثر فلسفياً كجزء من نمط حياته . واختلافات الأنماط تقع فى المبادآت المبكرة والإهتمام العظيم فى التمسك بالجهود المضنية فى تربية أبناء الطبقة المتوسطة . فطفل الطبقة المتوسطة يتقبل سلاحه وعدته من أنماط التوترات على أساس من العادات ، لأنه أقل انغماساً وأقل خضوعاً لخبرات التربية المبهمة الغامضة غير الثابتة، وبالنسبة لطفل الطبقة المتوسطة ، الأحباط يتضمن الطاعة التى تعطيه مركزاً كوريث لمركز والده الذى يطمح إليه الطفل ، ولكن بالنسبة لطفل الطبقة الفقيرة إذا كانت الطاعة تعطى مركزا كوريث لمركز والديه فلماذا يتقبلها الطفل وهو لا يطمع فى مركز والديه ، فهو مركز غير مرغوب فيه ولا يشرئب اليه الطفل الفقير .

وهكذا يتحمل طفل الطبقة المتوسطة التوترات لأنها تقوده إلى هدف مقبول لديه وفى ثقافة مجتمعه . ولكن طفل الطبقة المنخفضة لا يتحمل التوترات لأنها تقوده إلى هدف غير مرغوب فيه .

ثانياً : ينشأ انحراف أطفال الطبقة المنخفضة من ظروف تربيتهم . فالحرمان العظيم من الوسائل المادية للسرور ، والصدام العنيف للاختلافات المزاجية فى الحياة الأسرية بسبب تناقض ونقص النظام فى التربية . وأنواع الإنحراف بين الأولاد تتكون فى معظمها من الأنماط المختلفة من السرقة ، وعند الفتيات

التشرد وعدم الضبط . بينما يتميز انحراف أطفال الطبقة المتوسطة من الشقاوة الحادثة تحت تأثير الجماعة وبعض الاعتداءات الجنسية .

ثالثاً : صفات الجرائم عند الطبقة المتوسطة نجدها تختلف عملياً عن جرائم الفقراء ، وتميل نحو النصب فى مقابل السرقه عند الفقراء . فإذا تركنا جانباً فرص المهنة ، يمكن استنتاج أن بناء الشخصية التى يتطلبها النجاح فى النصب تتكون من تدريب وتعليم الطبقة المتوسطة . ولا يعتمد فى هجمة واحدة ناجحة كما هو فى قطع الطريق أو السرقة ، بل تعتمد على عدوانية مقادة بعناية وتتضمن المعرفة واستخداماً لمجال واسع من المهارات الفنية ، والصبر والجلد فى الرسم والتنفيذ وخداع واسع من خلال القانون بقدر ما تسمح به مهاراته ؛ هذا الفرض يقوم على أساس أن طفل الطبقة المتوسطة الذى يلجأ فى حياته المتأخرة إلى الجريمة يفعل هذا فى ضوء خبراته المبكرة التى علمته أن النظام الاجتماعى له منافذ قليلة وله قيود كثيرة ، بينما الطفل الفقير يلجأ إلى أنماط الجريمة التى تفترض أن الخبرات المبكرة قد علمته أن النظام الإجتماعى له منافذ كثيرة وقيود قليلة .

وتوجد دراسات تؤيد أن ثقافه الطبقة الدنيا وسط مولد لعصابات الأحداث ، ومن أهم هذه الدراسات دراسة ميلر Miller ودراسة جون بارون مايز John Barron Mays.

ويعتبر ميلر من رواد دراسة ثقافة الطبقة الدنيا . اتخذ من دراسة الإتجاه الأيكولوجى وأثره فى انحراف الأحداث سبيلا لدراسة ثقافة الطبقة الدنيا ، وهى دراسة أنثروبولوجية على جماعات الشارع .

وقد انتهى ميلر بإجابة مقنعة عن كيفية حدوث ثقافة الطبقة الدنيا ، حين

أعلن نتائج دراسته الميدانية الأيكولوجية الثقافية التى كان مجالها أحد أحياء بوسطن وقد لاحظ ووصف وحلل هؤلاء السكان الذين يمكن أن تطلق عليهم جماعات الطبقة الدنيا المتخلفة Residual lower status groups وقد اعتبر هذه الجماعات هى أفراد الأقلية العنصرية حديثى الهجرة ومعظمهم عادة من المهاجرين الذين هم فى حراك زائد ومستمر ، والزنوج الذين هم فى نفس الحالة ، والمواطنين البيض ممن يعيشون فى ظروف مماثلة للأقليات المهاجرة والزنوج .

وقد بين ميلر فى دراسته أنه يسود فى هذه المناطق المكتظة نسبة كبيرة من الأماكن المتخلفة Slums التى يسودها نوع من التنشئة الاجتماعية أساسه العنصر النسائى لإدارة شئون المنزل ، هذه التنشئة سببت فى تزويد الأطفال فى هذه المناطق بإعداد ضعيف لمعركة المنافسة مع معايير الطبقة المتوسطة ، فهو يعتبر أن العنصر النسائى فى إدارة شئون الأسرة من أهم مصادر تكوين ثقافة الطبقة الدنيا التى هى فى نفس الوقت من أهم مصادر الجناح(١)

ودراسة جون بارون ما يزهى من الدراسات الإجتماعية الأيكولوجية الحضرية بمعنى أنه يهتم بدراسة الجنوح فى منطقة يبدوا الجنوح فيها كثيراً جدا بالقياس إلى الأحياء الأخرى من المجتمع ، وعلاقة ذلك بعدد وقدرة مؤسسات وهيئات رعاية الشباب ، ونوع العلاقات السائدة فى الحى ، والأنماط السلوكية فى الجماعات الصغيرة فيه ، ونظام القيم والتقاليد والمعتقدات السائدة والمهن المتنوعة ، ونوع ومدى الكفاية والمهارة فيها ، وكان مكان دراسته المنطقة الواقعة جنوب ميناء

---

(١) Miller. Walter B. : "Lower class culture as a generating milliew of gang Delinquency" Journal of social Issus, 1958. 14 No. 3, 5-19.

ليفربول المتصلة بمركز الأعمال والتجارة . ووصل فى دراسته هذه أيضاً إلى أن ثقافة الطبقة الدنيا وسط مولد لإنحراف الأحداث (١)

وهذه الدراسات ترى أن الثقافة الفرعية الجانحة تظهر وتنمو من الفجوة القائمة فى البناء الاجتماعى ، الناتجة عن عجز أبناء الطبقة الدنيا عن تحقيق توقعاتهم وآمالهم وطموحهم ، نظراً لفقراء الوسائل والإمكانيات التى هى فى متناول أيديهم لتحقيق هذا التطلع .

وطبقاً لوجهة النظر هذه فان عملية التنشئة الاجتماعية للطبقة الدنيا لا تهىء للأطفال قيامهم بأدوارهم طبقاً لاحتياجات ومتطلبات النظم السائدة لدى الطبقة المتوسطة . ولذا فإن أطفال الطبقة الدنيا غالباً ما يعانون من موقف الحرمان من المركز الاجتماعى أو الشعور بالدونية ، فوجود أعداد كبيرة من هؤلاء الأبناء فى علاقات متبادلة التأثير فى المناطق الحضرية تؤدى إلى جيل من الجماعات تحمل قيما تعوض فى آن واحد ، فقدان إحترام النفس من جهة ، وعزل الأطفال نتيجة لمعاناتهم من المراقف العقابيـــة بسبب مركزهم الإجتماعى . ولذا فقيم الثقافة الجانحة هى عكس نظم الطبقة المتوسطة ، فمثلا التشرد بدل الجد والاجتهاد ، والعدوانية بدلا من ضبط النفس (٢) .

وحينئذ يعمل هذا المركز الاجتماعى المعوق على زيادة الدوافع لتكوين ثقافة فرعية منحرفة عند أبناء الطبقة الدنيا وأنه مهما كان الأمر فإن الدوافع وحدها لا تكفى لتفسير أسلوب حياة جماعية . وبنفس التعقيد والتشابك ، تكون الحقيقة فى أن المواقف العقابية ذات العلاقة بالمركز الإجتماعى فى نظام

(١) Mays, John Barron : Growing up in the city - A study of juvenile Delinquancy Liverpol University Press 1954.

(٢) David J. Bordua : Sociological Theories and Their Implicatien for Juvenile Delinquency A Report of childern's Bureau conference 1960 p. 3.

إجتماعى مثل المدرسة تميل إلى التركز بدرجات متفاوتة فى جماعات الطبقة الدنيـا .

وهناك وجهة نظر تقول : إن معتقدات وقيم عصابة الشارع لا تنشأ عن أى شكل من مواقف حرمان المركز الاجتماعى ، ولـكن ببساطة عبارة عن ترجمة لثقافة الطبقة الدنيا كما يذهب إلى ذلك شو ومكاى (١) Shaw & Mc kay هذا الجهاز الثقافى يوصف على أنه تعبير عن القوة العضلية والحقد والقسوة والميول الأخرى التى تظهر بوضوح فى حياة العصابة .

ثقافة الطبقة المنخفضة طبقاً لوجهة النظر تلك ، هى إحدى الثقافات الفرعية العديدة التى تنمو حول الفروق الإجتماعية الرئيسية مثل العمر والجنس والطبقة والإقليم . وهى تتميز بمجموعة واضحة من القيم ، والأساس النسائى للأسرة كشكل للإشراف المنزلى كثير الوجود ، تماماً كما تتميز بنمو الجماعات الصغيرة من الجنس الواحد كشكل للاتحاد فى جميع الأعمار .

والأساس النسائى للإشراف المنزلى قد يتكون من واحدة أو أكثر من النساء الـكبار ، وعادة ذات علاقة قرابية بالأطفال ، وقـد يكون لهم آباء مختلفون . ومن المقطوع به حقيقة أن هذا النظام للإشراف المنزلى لا يعتمد على الذكر فى وجود الإعالة الإقتصادية أو استمرارها لضمان معيشتها ، فقد تأخذ المرأة دورها فى رعاية الأطفال ، وخاصة عند أولئك اللاتى يعملن ، كما يعتبر ما تدفعه هيئات الرعاية الاجتماعية مصدراً دائماً للدخل فى كثير من الحالات .

وتحت هذه الظروف تختلف العلاقات بين الأجناس بدرجة عظيمة عن

---

(١) David Bordua : op cit P. 4.

التوقعات العادية فى القطاعات الأخرى من المجتمع . وتميل المحادثات الجنسين المختلفين إلى أن تكون محدودة جداً فى كل الأعمار . وتأتى الجماعة الصغيرة من نفس الجنس لتملأ الوظائف المتشابكة خلال الحياة . وتنشأ مشاكل النضج النفسى بين الأولاد فى مثل هذا النظام ، فمنذ الولادة حتى النضج المبكر ينشأ الأولاد فى جو نسائى كثيف وتؤدى حاجة إثبات الذكورة إلى التعلق بجماعة الشارع من الذكور الصغار . هذا العامل الدافعى مضافاً إلى الحقيقه الأساسية أنه لكى يصبح الفرد أهلا لأن يكون عضواً ذكراً بالغاً فى ثقافة الطبقة الدنيا يتطلب تمرين البالغين على القسوة والشرب المفرط والمميزات الأخرى للبالغين من ذكور ثقافة الطبقة الدنيا ، مثل هذا التمرين والتدريب قد يتضمن مناشط عديدة ليست إنحرافية مثل العناية بشدة بالرياضية ، والأشياء الأخرى ذات الصلة المباشرة بالجنس الآخر .

ربما أهم عنصر من وجهة النظر هذه هى رفضها أن تصف ثقافة الطبقة المنخفضة كرد فعل لنظم الثقافات الفرعية الأخرى فى المجتمع ، وأهمية العلاقات المتبادلة المترابطة فى توضيح قيمها وأشكال بنائها الإجتماعى كما توجد فى شكلها الأصلى ، وليست كدليل على تفكك وانحلال أنماط الطبقة المنخفضة . ومثل وجهة النظر هذه تتطابق مع الأساس النسائى للأسرة .

وعلى أى حال فإن كل من هذه النظريات تفصح بوضوح عن أن الطبقة الدنيا بثقافتها هى وسط مولد لإنحراف الأحداث ، مما يدق ناقوس الخطر لما يتعرض له أبناء هذه الطبقة من الوقوع فى الانحراف ، مما يؤكد أهمية رفع مستوى هذه الطبقة من جهة ومن جهة أخرى توفير وسائل الرعاية الإجتماعية التى تؤدى إلى تغير الحياة الإجتماعية التى تحياها هذه الطبقة .

وفى دراسة أجريتها بمدينة الإسكندرية على عينة تبلغ ١١١٩ حدثاً من الأحداث المنحرفين لدراسة العلاقة بين توزيع الدخل وعدد أفراد الأسرة أن معامل الارتباط بطريقة بيرسون — ٠٫٢٥٣ مما يؤكد أن معظم الأطفال الجانحين يأتون من أسر ذات مستوى اجتماعى واقتصادى منخفض . كما تبين لشومان shuomon أن حجم الأسرة له علاقة مباشرة بالمركز الاقتصادى مقداراً عن طريق نسبة الدخل . أى أن الطفل الذى من أسرة كبيرة العـدد وفقيرة قد يصبح منحرفاً ليس بالضرورة لحجم الأسرة ولكن للازدحام الناشىء عن قلة الدخل الذى لا يتيح إلا مسكناً ضيقاً من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يوفر للأسرة حاجاتها الأساسية ، وبالتالى لا يشبع الحاجات الأساسية للطفل وتصبح الأسرة فى هذه الحالة عامل طرد للطفل . كما يؤكد ماذهب إليه شلدون واليانورا جلوك فى دراستهما عن أثر الفقر فى انحراف الأحداث السابق ذكرها .

وإذا كان من وجهة النظر الاجتماعية أن هنال عوامل كثيرة للانحراف مثل عدم عناية الآباء بأبنائهم أو الخطأ فى التربية أو الاهمال فى وقت فراغ الأطفال فإن هذه العوامل جميعاً لها علاقة وثيقة بمستوى الدخل للأسرة . فالدخل يعبر عن القدرة الشرائية لنوع من الحياة ، وانخفاض الدخل الذى يصل إلى حد الفقر معناه أن الأسرة لا تستطيع إلا أن تشترى حياة فقيرة سواء من الناحيـــة الإجتماعية أو الصحية أو السكنية أو الغذائية أو التربوية . مما لا يسمح بتنشئة اجتماعية سليمة للأطفال ، ومما يعرضهم للانحراف .

وهذا أيضاً يؤيد : لماذا كانت المناطق المتخلفة التى تسكنها مثل هذه الأسر الفقيرة عاملا من عوامل الانحراف ؟ لأن جميع الأسر التى تقطن هذه المناطق من الأسر الفقيرة والتى لا تستطيع شراء إلا أسوأ أنواع الحياة الاجتماعية ولا تستطيع

أن تفعل حيال العوامل الاجتماعية السيئة التى تدفع بأبنائها إلى الإنحراف إلا الإذعان والتسليم .

وعند دراستى للعلاقة بين عدد أفراد الأسرة وعدد الحجرات تبين لى هذه الحقيقة بجلاء فقد اتضح أن ٨٤٫٤ ٪ من أسر الأحداث تسكن فى حجرة واحدة ، وأن متوسط ما يخص الفرد من الحجرة فى ٢٨ حالة هو ٠٫٢ وفى ٥١ حالة كان متوسط ما يخص الفرد ٠٫١٦ وفى ٨٣ حالة كان متوسط ما يخص الفرد ٠٫١٢ وفى ١١ حالة كان هذا المتوسط ٠٫١ ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الإزدحام الشديد ظاهرة مصاحبة لانحراف الأحداث . وإذا كان الإزدحام فى حد ذاته هو تعبير عن كبر حجم الأسرة وانخفاض مستواها الإقتصادى ، فإن له أثراً هاماً فى إحداث النقص فى الخلوة الأسرية مما يؤدى إلى انهيار حدود التجارب الجنسية داخل الأسرة . كما يؤدى إلى الحد من نشاط أفراد الأسرة ولا يتيح مكاناً للتمتع بالحياة الأسرية ، وشغل وقت الفراغ داخل المنزل . وهكذا يصبح المنزل عامل طرد للأحداث الذين يهربون إلى الشارع ، والشارع هنا فى هذه المناطق الفقيرة هو مجال النشاط لعصابات الأحداث المنحرفين .

ومن ذلك يتضح أن الطفل فى طبقة العمال يواجه تجارب تختلف تماماً عن تلك التى يوجهها الأطفال فى الطبقات الأخرى ، وهى فى مجموعها خبرات مؤلمة تدق ناقوس الخطر الذى ينبه عما يحيط بأطفال هذه الطبقة من دمار ، مما يحمل المجتمع مسئولية العمل الجاد نحو رفع مستوى هذه الطبقة أى بتقليل الفوارق الطبقية حتى تتقارب مع مستوى الطبقة المتوسطة ، فيتغير المحتوى الثقافى للطبقة المنخفضة ، أى تخرج من نطاق هذه الطبقة وتتحول إلى ثقافة الطبقة المتوسطة .

الفصل السادس

من ناحية الهجرة

١ ـ الهجرة من وجهة النظر الاجتماعية

(أ) ماهيتها :

من المعروف أن هناك نوعين من التحرك الاجتماعي ، الأفقي والرأسي ، فانتقال الأفقي هو انتقال الناس من مكان إلى آخر ، ويطلق عليه عادة إسم الهجرة ، والانتقال الرأسي هو انتقال الشخص من طبقة اجتماعية إلى أخرى .

وربما يهمنا في هذا المقام هو الانتقال الأفقي أي الهجرة . فإذا قلنا إن الهجرة هي : أن يغير الفرد أو مجموعة من الناس محل إقامتهم ، كان هذا التعريف بعيداً عن الدقة . فالهجرة لا تشمل تحركات الأفراد النهارية العادية مثل ذهابهم إلى أعمالهم ، كما أنها ليست السفر في المناسبات كالأعياد والمواسم والأجازات . فالهجرة إذن هي حركة قد تحدث لمرة واحدة في حياة الفرد أو الأسرة ، ولكنها تغير حياتهم كلية(١) .

فالهجرة هي كلمة عامة تستعمل للدلالة على التغير الدائم نسبياً للمكان الجغرافي للأفراد والجماعات(٢) . وأهم نوع من أنواع الهجرة في مصر : هي الهجرة الداخلية وهي ما نهتم به في هذا المقام . أي الهجرة من المناطق الريفية إلى المدينة . تلك التي أحدثها التصنيع بصنعه وظائف جديدة وخاصة فروعه الجديدة

---

(١) Mirrell : «Society and Culture» p459

(٢) Lundberg, George A. «Foundations of Socilogy» p.486

التى احتاجتها الصناعة وخدماتها ، كالتليفون والتلغراف والراديو والتلفزيون وكثير من الصناعات الكيمائية ، قدمت وظائف عديدة أكثر من سكان المدن(١) . وهذا أيضاً حقيقى بالنسبة للخدمات العديدة التى إما أنها كانت غير معروفة من وقت قصير ، أو التى نمت بسرعة وخاصة فى ميدان الترويح التجارى ، أو المؤسسات مثل الجراجات ومحلات الإصلاح . وقد أدى التصنيع أيضاً إلى نشأة أنواع من الخدمات الجديدة مثل المحاسبين والمهندسين الاستشاريين والمعالجين النفسيين والتوجيه والتدريب المهنى والمتخصصين فى الرأى العام .

وباختصار جعل التصنيع من المدن والمراكز الصناعية أماكن للفرص والتوظف ، وما زالت تلك الفرص تمتد وتتنوع فى عددها ، وكذلك عدد من الفرص غير القانونية جذبت الناس وأضيفت إلى التدفق فى الفرص ، فالمدينة هى المكان الوحيد للدعارة وأشكال أخرى من الفجور . فالمدن الصناعية قد نمت بسرعة ، ولكن هذه الزيادة لم تأخذ طريقها خلال الزيادة الطبيعية للسكان عن طريق المواليد ، ولكن من خلال الهجرة(٢) . فقد زاد سكان القاهرة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٦٠ بنسبة ٦٠ ٪ والإسكندرية عن المدة نفسها بنسبة ٦٤ ٪ بينما كانت النسبة لزيادة السكان عامة فى الجمهورية عن المدة نفسها ٣٦ ٪

(ب) — أهمية الهجرة الداخلية :

ويهتم علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة الهجرة لأنهم يعتبرونها من أهم الطرق التى يعيد بها الفرد تكييف نفسه فى النظام الاجتماعى والاقتصادى ،

---

(١) Burgel : Urban Sociology . p. 217.

(٢) Farls : « Social Dicrganization » p. 632.

كما يعتبرونها طريقة لتصحيح ظاهرة عدم التوازن بين السكان والموارد الطبيعية للمجتمع . وينظر إليها على أنها تحدث تغييراً فى توزيع السكان حسب السن والجنس وهذا يؤثر فى معدل الزواج وفرصته ، إذ المعروف أن الريفيين المهاجرين معظمهم من سن ١٠ سنين إلى ٢٥ سنة ، وهـــذا يؤدى إلى تغير فى التركيب للمجتمع الذى يؤدى بالتـالى إلى تغير فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية وسائر النظم الاجتماعية(١) . كما أن الهجرة تقطع الروابط الاجتماعية للأفراد وتؤثر فى علاقاتهم بالنظم والمؤسسات الاجتماعية ، كما تؤثر فى النظام الاقتصادى حيث حركة السكان تستدعى تحرك السلع الاقتصادية(٢) .

فهذه الظاهرة لها تأثير عميق على كل وجوه المجتمع وخاصة فى العصر الحديث نظراً لزيادة الانتقال الاجتماعى الذى سهلته وسائل المواصلات (٣) .

وكذلك نظراً لرغبة كثير من المجتمعات التى تـكافح من أجل نمو صناعى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وهى ما يطلق عليها عادة الدول الآخذة فى النمو ، أو الدول النامية ، وبالطبع تختلف تلك المجتمعات فى كثير من الوجوه ، فبعضها يتضمن نظم الطرائق الشعبية مثل عديد من شعوب أفريقيا وآسيا ، وتتضمن أيضاً مجتمعات منبعثة من مدنية قديمة . كل من الفئتين من من الشعوب تخلصت حديثاً من الاستعمار ، واتجهت إلى التصنيع لأنها تعتقد أنه النظام الاجتماعى الذى يعوضها عما فات من ماضيها الاستعمارى ، ويلحقها

---

(١) Gist : Urban Sociology p. 55.

(٢) حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية : الدورة الرابعة ـــ سنة ١٩٥٤ ص ٤٦٥ .

(٣) Lundberg : Foundations of Sociology p 489.

بالتطور الحضارى الحديث . وبالطبع تختلف هذه المجتمعات كل عن الأخرى فى المنابع البشرية والطبيعية ، إلا أن كلا منها يكاد يتفق مع الأخرى فى الفروق الشديدة بين ريفها وحضرها والعلاقات المتبادلة بينهما . (ومن ثم من أجل فهم هذه العلاقات لابد أن يؤخذ فى الاعتبار الحركة الواسعة الكبيرة للأشخاص من الريف إلى الحضر ، التى هى إحدى نتائج عملية التصنيع . فمعظم نمو المدن فى تلك المجتمعات هو نتاج لهذه الهجرة الداخلية ، ولكن لابد أيضاً من معرفة أنه فى معظم هذه المجتمعات ، تم عملية التصنيع فى داخل محتوى انفجار سكانى)(١) .

(ويلاحظ أن نسب النمو الحضرى المعزى للهجرة الداخلية ، فى مقابل الزيادة الطبيعية فى المدن تختلف بين الأمم ، ففى أمريكا اللاتينية مثلا ، حسبت الهجرة الداخلية فوجدت حوالى ٧١ ٪ من النمو الحضرى فى فنزويلا بين سنة ١٩٤١ — ١٩٥٠ ، ولكن فقط حوالى ٤٢ ٪ من النمو الحضرى فى مكسيكو (١٩٤٠ — ١٩٥٠)(٢) .

ج — أسباب الهجرة الداخلية :

للهجرة الداخلية أسباب كثيرة وعوامل متعددة تتوقف عليها وتؤثر فيها ، وهذه العوامل قد تؤثر منفردة أو مجتمعة . وقد قسم علماء الاجتماع هذه العوامل إلى قسمين : الأول — العوامل الدافعة ، والثانى — العوامل الجاذبة . ولقد تحدثنا عن العوامل الجاذبة وهى فى موضوعنا هذا عملية التصنيع التى وفرت فرصاً اقتصادية فى المراكز الصناعية التى عملت على جذب العمال الزراعيين إليها

---

(١) Sjoberg, G. «The Rural-Urban dimension in Preindustrial Transitional and Industrial Sceiety. In Faris : op. cit p. 142

(٢) Hauser, P. (ed) « Uribenization in Latin America » Paris UNESCO, 1961 .

حيث يجدون فرصاً أكثر للعمل وأجراً أحسن ومستوى معيشة مرتفعاً . فنجد أن مدناً مثل المحلة الكبرى وكفر الدوار قد ازدهرت بسبب إنشاء مصانع النسيج التى أدت إلى هجرة عدد كبير من العمال الريفيين إليها . كما ينتظر أن تحدث هذه الهجرة إلى أسوان عند إتمام المشاريع القائمة على السد العالى وإتمام العمل فى مناجم الحديد ومصانع السماد ومصانع الصلب التى يجرى الآن إنشاؤها .

وكانت العوامل الدافعة للهجرة من الريف إلى تلك المراكز هى الزيادة الطبيعية للسكان فى الريف ، فنسبة المواليد فى الريف أعلا منها فى الحضر ، التى عمل على زيادتها الزواج المبكر فى الريف وقلة الحروب وعدم وجود وسائل التسلية وتمضية أوقات الفراغ . وزيادة السكان تدفع الناس إلى الخروج من القرى إذا لم توجد زيادة مماثلة فى موارد الثروة . ذلك أن هذه الحالة تحدث ضغطاً بين السكان ينتج عنه الهجرة أو تمهد السبيل إليها . فالزيادة الطبيعية للسكان تتعاون مع عوامل الجذب فى المدن فى دفع العمال الزراعيين إلى الهجرة من الريف . كذلك أدت عدم زيادة الموارد للثروة فى الريف إلى انخفــاض مستوى المعيشة فيه ، إذ أصبح دخل الأسرة غير كاف لإعاشتها مما سبب ضيق العامل الزراعى وأسرته فى الريف . فعدم زيادة الرقعة المنزرعة بنفس النسبة للزيادة الطبيعية للسكان يترتب عليه زيادة الأيدى العاملة فى الريف وبالتالى رخص الأجور نتيجة لزيادة العرض على الطلب ، وهذا يسبب الفقر ثم البطالة مما يدفع الريفيين إلى الهجرة من قراهم .

(ويلاحظ أن هناك بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية فروق أساسية فى الأسباب الرئيسية لانتقال القوة البشرية ، وتعتبر مستويات الدخل المنخفض سبباً عالمياً للحركة ، ولكن هناك أسباب مختلفة تعمل على خفض مستوى الدخول فى الزراعة بالنسبة للدخول الأخرى . ففى المجتمعات المتقدمة يترك العمال الأرض لتنمو وتثمر بأقصى كفاءة ممكنة ، ومن ثم فإنتاج الغذاء يتزايد بسرعة أكبر

من الطلب عليه ، ونتيجة لذلك يميل الدخـــل بالنسبة للفرد فى الزراعة إلى الانخفاض بالنسبة للدخول فى المهن الأخرى .

أما فى المجتمعات النامية ،فتميل الدخول من الزراعة إلى الانخفاض بالنسبة للدخول الأخرى للأسباب الآتية : (١) يزداد السكان على الأرض بسرعة أكبر من إنتاج الغذاء ، (٢) تتركز الاستثمارات الجديدة فى الإنتاج الصناعى والنمو الحضرى بصفة عامة ، (٣) أثمان المنتجات الأولية فى العالم آخذة فى الانخفاض . وربما تعمل عوامل ضغط الدخل هذه منفردة أو مجتمعـــة . فالزراعة فى هذه المجتمعات جزء من الاقتصاد لا ينظر إليه بعناية ، ويعانى من زيادة مزمنة فى العمالة ونقص فى رأس المال)[١] .

(ومع الزيادة السريعة للسكان تعانى المجتمعات الريفية مختلف الضغوط الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ولو كانت هناك هجرة خارجية كبيرة . فربما يزيد المجموع الكلى لسكان المجتمعات الريفية فى كثير من المجتمعات كما فى الهند ، حيث أصبح ملاك الأرض شظايا متناثره ، إذ يرث كل طفل من كل جيل تالى كمية أصغر فأصغر من الأرض ، ونشأت جماعة كبيرة لا أرض لها فى كثير من البلاد النامية ، ويصبح هناك عديد من العاطلين والذين فى سبيلهم إلى البطالة)[١] وتؤدى مثل هذه الهجرات إلى ضغوط ومؤثرات مختلفة يعرف القليل عنها حتى الآن . عادة يختلف المهاجرون وغير المهاجرون فى العمر والجنس وكمية التعليم . ونتائج التحول فى توزيع العمر والجنس فى داخل كل من القرية والمدينة

---

(١) International Labeur Office : « Why labour laves land». A comparative Study of treatement of labonr out ofagricultnre Geneva' 1960 .

(٢) Sjoberg : op. cit. P. 152.

تولد نوعاً جديداً من التنظيمات الاجتماعية ، فمثلا هجرة الشباب من المناطق الريفية إلى الحضرية ، تفقد القرية بينما تربح المدينة أشخاصاً عديدين فى أعلى سنوات الإنتاج فى حياتهم .

وفى الحقيقة أن أسباب الهجرة البشرية لم تفهم بشكل أكيد . فعندما يتحدث الناس عن الهجـــرة ، تكون فى أفكارهم الدوافع التى يحملها المهاجرون فى رؤوسهم وكذلك الظروف المحيطة بهم . وليس دائماً يتحقق أن يكون كلا النوعين من الأسباب متساندة أو متشابكة . وكل مهاجر عادة يكون له مأرب إلا فى حالات الهجرة الإجبارية كالعبيد . وعلى أى حال فإن آثار أى مأرب للمهاجر لا يمكن معرفتها حتى يمكن فهم الظروف ، ذلك أن نفس المأرب قد يكون مرضياً ومشجعاً فى وقت ما بالنسبة لسلوك ما ، وفى وقت آخر وبالنسبة لسلوك آخر ربما يكون العكس ، وهذا يتوقف على الموقف الاجتماعى للمهاجر . ولهذا فليس كافياً لفهم الهجرة أن نتعامل مع الدوافع أو الظروف كل على حدة ، ولكن لابد من دراسة الإثنين[1] .

كما أن فى الهجرة عنصراً عاطفياً من ناحية والتكاليف الاقتصادية من ناحية أخرى . فليس من السهل أن يترك المرء أصدقاءه وأقاربه والأشياء المحيطة به والمحببة إليه ، ويعيش فى مكان غريب عليه وعالم جديد بالنسبة له . وكذلك ليس من السهل إعداد رأس المال الضرورى للرحلة . ومن هنا يمكن أن نستنتج أن فوائد الهجرة لابد وأن يكون بريقها يجب تكاليف الهجرة . وبشكل عام يمكن القول أن هناك تناسباً طردياً بين زيادة تكاليف الانتقال ، وزيادة الفوائد التى يراها المهاجر . والظروف المحيطة بعملية الهجرة قد تخفض التكاليف بما يسهل الأمر على المهاجر ، كأن يكون له أصدقاء وأقارب فى الجهة الراحل إليها ،

---

(1) Davis : Human Society · p. 586.

أو إذا كان لديه وعد أكيد بوظيفة، أو إذا كانت تكاليف هجرته على نفقة الدولة كما حدث فى تهجير أهل النوبة ، ذلك كله يجعل الطريق ممهداً للمهاجرين . وقرار الهجرة عند المهاجرين يتوقف على عملية حسابية عسيرة فيها يقارن بين الفوائد والتكاليف ، ولهذا يظهر القرار كأنه قرار عقلى . ولكن على المرء أن يتذكر أن الأهداف تختلف من وقت لآخر ومن طبقة لأخرى . وكذلك قد يخطىء المهاجر فى حساب التكاليف وفوائد الهجرة .

كما أن هناك نقطة هامة وهى اتجاهات السكان الأصليين فى مناطق الهجرة نحو المهاجرين ، وهى تتوقف على عدة ظروف . ففى بعض الحالات، أولئك الذين فى الموطن الأصلى لا يرغبون فى هجرة الناس ، لأنهم يخشون الضرر الذى قد يلحقهم أو يلحق قراهم نتيجة لهذه الهجرة . وفى حالات أخرى فإن أهل القرى قد يرغبون فى هجرة الناس وهم يفكرون أن ذلك قد يؤدى إلى زيادة الأرض والثروة لأولئك الذين سيبقون .

وأما بالنسبة للمنطقة التى ينتقل إليها المهاجرون فإن السكان ربما يكونون من الضعف ، أو عدم الاهتمام إلى حد أن اتجاهاتهم نحو المهاجرين ليست بذات بال . وفى بعض المناطق المستقبلة ينشط الناس لمنع الهجرة عندما يكون فى ذلك فوائد لهم . فأحياناً هم لا يريدون مهاجرين ولكن يريدون مستهلكين ، وأحياناً أخرى يفضلون بعضاً ويرفضون الآخر على الأساس من الجنس والدين واللغة والصحة والمركز الاقتصادى ، وفى بعض الأحيان المبادىء السياسية . ويتبع ذلك أن الهجرة تنتخب ، ففى المقام الأول ليس كل الأشخاص فى منطقة واحدة متساوون فى دوافع الانتقال إلى مكان آخر ، وفى المقام الثانى ليس كل الأفراد متساوين فى السماح أو الترحيب بهم للمجىء .

(د) عوامل الهجرة الداخلية :

عملت دراسات خاصة بموضوع الهجرة ومن بينها : فى انجلترا قام بها روفنستين Rovenstein ، ولو نجستاف Longstaff وأوجل Ogle . وفى ألمانيا Ballod Hansed, Wolf, Van Mayr, Bucher وفى فرنسا ، Levasseur, Menrist, Turqan, Meline فى الولايات المتحدة A. Weber (١)

ويعتبر روفنستين Rovenstein أول من نشر نظرية متقنة عما أسماه قوانين الهجرة فى صحيفة المجتمع الإحصائى الملكى Journal of the Royal statistical Society -London 1885 & 1889 وكان عماد نظريته مفاهيم التيار Current والتيار المضاد Countercurrent وفروض الهجرة التدريجية . وباختصار كان يعتقد روفنستين أن هناك تغيراً مستمراً فى توطن السكان ، وكقاعدة يتحرك المهاجرون فقط إلى مسافة صغيرة من المناطق القروية إلى القرى الحضرية ، ومن المدن الصغيرة إلى المدن الكبيرة . ونتيجة لهذا فالسكان الحضريون بصفة مستمرة ينزحون ويحل محلهم آخرون . ولقد سمح أيضاً روفنستين بوجود هجرة لمسافة طويلة وفى هذه الحالة يتقدم المهاجر رأساً إلى المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة . وهو يعتقد أيضاً أن القرويين لديهم ميل كبير للهجرة عن سكان المدن ، والتى يمكن إعتبارها نوعاً من الانتخاب الأيكولوجى . وأكثر من هذا قال روفنستين : ينتج كل تيار رئيسى هجرة ذات تيار مضاد Migrotory Countercurent (٢) والتى يكون لها تأثير تعويضى . وأخيراً عمل على الأقل محاولة جدية لإيجاد مبدأ انتخاب بقوله : إن النساء لديهم ميل للهجرة أكثر من الذكور . وإنصافاً له نذكر أنه ركز دراسته فى الغالب على إنجلترا ، وفى ظل الظروف التى لاحظ

---

(١) Bergel : Urban Sociology p 220.

(٢) Ibid : p 220.

فيها نظريته كان على صواب. ولكن هذه الظروف كانت استثنائية أكثر منها عادية . ذلك أنه فى وقت دراسته كانت وطأة قوانين القمح بإنجلترا قد ظهرت، والبلاد اتجهت بسرعة نحو التحضر، والمراكز الصناعية انتشرت فى كل مكان جاذبة إليها الفلاحين المهاجرين الذين كانوا يعانون من انخفاض أجر الزراعة ومنافسة الصادرات الأجنبية . وطالما أن لا الصناعة ولا التجارة استأثرت بهما لندن — وحتى فرص التوظف كانت أحسن فى مراكز صناعة النسيج والصلب والسفن ، ولهذا كانت الهجرة القروية حذرة وتخطو خطوة بخطوة ، وليست مغامرة إلى مدن بعيدة — فكانت الهجرة إلى لندن تفوق تكاليفها المميزات التى يجنيها المهاجر إلى لندن، بينما كانت الفوائد التى يجنيها المهاجر إلى المراكز الصناعية أكثر من تكاليف هجرته من قريته إلى هذه المراكز الأقرب إليه من لندن.

وفى ظل هذه الظروف المدن الكبيرة جذبت ليس فقط القرويين المهاجرين ولكن سكان المدن الصغيرة غير الناجحة والتى بدورها عوضت جزءا من سكانها التى فقدتهم بالهجرة من القرى المحيطة بها. وهذه الظروف بالنسبة لنظرية روفنستين عبرت عن الهجرة التدريجية والتبدل المستمر فى جماعات المهاجرين من الأماكن الصغيرة إلى الأماكن الكبيرة، كما ميز بين مناطق التشتت Areas of dispertion ومناطق الامتصاص Areas of absorption وظروف مشابهة لتلك التى أسس عليها روفنستين نظريته تسود حيث يوجد بلد يمر بعملية تصنيع وتحضر سريعة كما حدث فى القرن ١٩ وهى نفس الحالة التى تمر بها جمهورية مصر العربية .

وفى الولايات المتحدة فبر Weber فى كتابه The Groulh of Cities in the 19 th Gentury. أضاف إلى نظرية روفنستين بعض التحسينات . ولقد تركزت نظريته فى ثلاث قوانين :

١ — يكون تيار الهجرة نحو المدينة ، ولكن جملة الهجرة هي لمسافة قصيرة فقط .

٢ — المسافة التي يقطعها المهاجر تختلف بنفس المعدل الذي تختلف به أهمية المدينة المهاجر إليها .

٣ — نسبة الهجرة تزداد بنفس معدل زيادة أهمية المدينة ، ولكن عكسياً بالنسبة لأهمية المجتمعات الريفية .

وفي سنة ١٩٣٨ دعم وولستون Woolston في دراسته (دراسة في المجتمع الحضري A Study of Urban Gommunity N. Y .1938 . و Webr في كتابه The soeiology of rurel life. N. J. 1947. دعم أيضاً قوانين روفستين ، ولكن ببعض التغير الطفيف في التعبير : فبدلا من كلمة قوانين استعمل كلمة مبادىء Principales وجعلهم كالآتي :

١ — يتحرك معظم المهاجرين لمسافة قصيرة فقط .

٢ — عملية الإمتصاص هي كالآتي : يذهب سكان المناطق المحيطة مباشرة للمدينة ويخلفون ثغرات في السكان الريفيين — التي تملأ بالأشخاص من المناطق الأكثر بعداً .

٣ — كل تيار رئيسي للهجرة يحدث تياراً مضاداً تعويضياً ، وعملية التشتت هي الوجه الآخر لعملية الامتصاص .

٤ — يذهب المهاجر لمسافة طويلة رأساً إلى المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة (١) .

---

(١) Ibid . P , 221

ولقد ركز سميت دراساته على الهجرة من المناطق الريفية إلى المدن وبالعكس ، وسمى هذه المبادىء بالتعميمات Generalizations التى يمكن استخدامها فى الأوقات العادية . وقال انه فى أوقات القحط والشدة كل شىء يتغير ، إذ لا تصبح المدن الطرف المستقبل للمهاجرين ، ولكنها ترسلهم مرة ثانية إلى القرى . وهكذا لم يقع سميث فيما وقع فيه مابقاه على الأقل بالتورط فى وضع قوانين ثابتة (١)

لا يمكن شرح جاذبية المدن الكبيرة فى مصطلحات من قانون واحد ، ولكن يصبح الأمر واتجاهات النظم فى الأوقات العادية أسهل بتضافر الفرص بمعنى فى الفترات التى ليس فيها تغيرات فجائية أو هامة . والمراكز الكبيرة الصناعية تمنح فرصا للعمل أكثر من الصغيرة ، ولكن فى وقت التغيرات ، تقع المدن الكبيرة من حيث جاذبيتها خلف المدن التى فيه فرص جديدة ومنشآت صناعية جديدة ، أى أخذت بأسلوب التصنيع كما هو حادث فى كثير من مدن مصر كحلوان وأسوان وكفر الدوار وشبرا الخيمة . وإن كانت القاهرة والاسكندرية مازالتا كمدينتين كبيرتين تمنحان فرصاً أوسع ، إلا أن انتشار الصناعة خارج نطاق القاهرة والإسكندرية سيؤدى إلى وقف الهجرة من المديريات إلى هاتين المدينتين ، أو على الأقل يخفف حدتها ويعمل على إيجاد توازن فى الهجره الداخلية بين جهات الجمهورية . فقد أثبتت إحصاءات التعداد العام للسكان عام ١٩٤٧ أنه فيما عدا مديريتى الشرقية والجيزه نزح من مديريات مصر عدد من السكان أكبر بكثير من عدد أولئك الذين وفدوا اليها من خارجها ، وأن النسبة المئوية للنقص أى الفرق بين النازحين والوافدين تراوحت ما بين ١ر٢ ٪ فى مديرية الفيوم ، ٧ر٢٠ ٪ فى مديرية المنوفية أما فى مديرية المنيا فقد كانت ٩ر٠ ٪ فقط (٢)

(١) Ibid , p. 390.

(٢) الساعاتى : التصنيع والعمران ص ٦٧

كما كانت فى الوجه البحرى نسبة سكان الريف إلى مجموع السكان فى الحضر فى سنة ١٩٣٧ ٨٨٪ وفى سنة ١٩٤٧ ٨٤٪ . وفى الوجه القبلى كانت النسبة سنة ١٩٣٧ هى ٨٨٪ وسنة ١٩٤٧ ٨٥٪ وفى سنة ١٩٦٠ ٧٩٪ وكانت نسب سكان الريف إلى سكان الجمهورية عامة فى سنة ١٩٣٧ ٧٦٪ وفى سنة ١٩٤٧ ٧٠٪ وبلغت ٦٣٪ فى سنة ١٩٦٠ أى أن الهجرة من الريف إلى الحضر فى ازدياد مستمر .

وربما تكون أحسن طريقة لوضع ليس قوانين ولكن اتجاهات فى الهجرة هو تحليل الدوافع التى تدفع الناس للحركة(١) . فدارسى الهجرة تحققوا أخيراً من أن تنقلات السكان ليست تحركات بالصدفة ، فهم يتنقلون فى شكل جماعات معينة، وبمعنى آخر ، الهجرة دائماً عمليه انتخاب . وليس من الصعب اكتشاف أكثر المبادىء تكراراً فى الإنتخاب . فبداهة أن الانتخاب هو سلبي فى مناطق التشتت . وبمعنى آخر أن الناس الذين يرسبون فى التكيف فى مناطق ولادتهم ، ليس من الضرورى أن ينجحوا فى التكيف فى المناطق التى اختاروها، فالمهاجر ربما يفشل مرة ثانية ، ومن ثم يعود ثانية إلى منطقته . وإصطلاح الانتخاب السلبي Negative Selection ليس بالضرورى يتضمن معنى الحظ من القدر ، ولكن معناها أقرب إلى النقص فى الفرصة المتاحة لنوع من الأشخاص . وليس معنى اصطلاح الانتخاب الإيجابى Positive Selection يتضمن قدرات بارزة . فنى ظل ظروف ما المهاجر الذى يرحب به قد يكون هو العامل غير الماهر الذى لايمانع فى العمل الذى لايرغب أحد فى القيام به ، مثل العمل الشاق بالأجر الضئيل كعمال فى الجمرك . وفى ظروف أخرى ترحب مناطق الاستقبال بالعمال المهرة فقط لنقص لديها فى المهارات .

---

(١) Bergel : Op . cit :

هـ — عوامل الانتخاب :

وسنبدأ بدراسة عامل الإنتخاب السلبي فى المناطق الريفية . فطالما الأطفال صغار فإن الفلاح يقدم لهم وسائل العيش . ولكن الأرض القليلة لايمكن تقسيمها بين الأطفال العديدين ، ولهذا فعندما يكبر الأطفال ويستطيعون الاعتماد على أنفسهم يتحتم عليهم الرحيل ، ذلك أنه لامستقبل لهم فى الريف ، ولكن أولئك الذين يمكنهم الحصول على أرض لايوجد لديهم سبب ليرحلوا . وهذه القاعدة تنطبق على كل البلاد التى صغر فيها حجم الأرض فى أيدى الفلاحين إلى درجة أنه لايمكن تقسيمها بعد ذلك . والموقف بالطبع يختلف فى البلاد التى فيها أرض تستحدث ويمكن استغلالها ، وهذا ما اتجهت إليه الدولة فى استصلاح الأراضى وتعمير الصحارى ، أو أرض يمكن تقسيمها كما فعلت الدولة بإصدار قانون الإصلاح الزراعى الذى قسم أراضى الإقطاع على الفلاحين .

والمبدأ الأول فى الانتخاب فى الهجرة من الريف إلى المراكز الصناعية هو السن (١) ، إذ أنه نظراً لقلة الفرص بالقرية فإن المناطق الريفية تلفظ الزيادة فى سكانها بمجرد إمكانهم الاعتماد على أنفسهم أى فى سن الشباب يوضح أن المناطق الريفية ذات معدل عال فى أعمار الجماعات عنها فى المدن ، فالقرى ذات معدل أعلا فى الفئات التى بين ٢٠ ، ٣٠ سنة . والسن التى يهاجر فيها الريفى تختلف باختلاف الظروف الموجودة والتقاليد والعادات الشعبية الموجودة ، ففى مصر معظم الأطفال فى الريف لاينالوا تعليما ، سواء عاما أو مهنياً ، والسمة التى تجمعهم جميعاً هى الفلاحة . وحيث يظل السكان الريفيون فى مستوى منخفض من التعليم فإن الهجرة من الريف تبتدىء فى سن مبكرة

(١) Bergel : Ibid. P. 227.

وعادة تكون بين ١٢ ، ١٤ سنة . ويعمل الأولاد كصبيان فى الصناعة إذا أتيحت لهم الفرصة، والفتيات يعملن فى الخدمة فى المنازل الحضرية .

والمبدأ الثانى فى الإنتخاب هو عادة الجنس Sex (١) هذا القول يحتاج إلى إيضاح ، إذا أن الزيادة فى السكان عليها أن تهاجر بغض النظر عن نوع الجنس . ولكنه من الواضح أن الفلاحة كعمل فى معظم الأحيان تنتقل إلى الابن أكثر منها إلى البنت ، ولهذا فإنه من المحتمل أن تكون هناك هجرات أكثر بالنسبة للبنات . فهل أثر الجنس له علاقة بالعامل المسبب للهجرة أقل من العلاقة بين الجنس وبين هدف المهاجر وظروفه الاجتماعية ؟ فالعادات والتقاليد فى القرية المصرية ووطأتها بالنسبة للبنات تجعل هجرتهن لا تحدث إلا تحت ظروف إقتصادية شديدة قاسية تضطر الأسرة إلى التخلى عن بناتها للعمل فى الخدمة بالمنازل . كما أن ضغط العادات والتقاليد فى القرى البعيدة عن تأثير المتغيرات الحضرية مازالت لا تسمح بتشغيل البنات حتى فى أقرب المدن إلى قريتها . أما بالنسبة للذكور فوطأة التقاليد والعادات أقل بالنسبة للسماح لهم بالهجرة، فهى ليست من العوامل المعوقة لهجرة الذكور ، ومن ناحية أخرى فإن فرص العمل التى أتاحها التصنيع للذكور مازالت أكثر من التى أتاحها للبنات. وعادة أيضاً تؤثر نفس العوامل المعوقة من تقاليد وعادات وعرف فى المجتمعات القروية فى مدى المسافة التى تسمح الأسرة بها فى الهجرة ، ونتيجة لهذا فإن البنات لا يهاجرن إلى أماكن بعيدة عن قريتهن . ويوضح هذه الحقائق جدول عدد العاملات « بالغات وأحداثاً » والإداريات والفنيات والكاتبات بالمحافظات والمديريات(٢) .

---

(١) Ibid. 228.

(٢) مصلحة الاحصاء والتعداد « إحصاء التوظف والأجور وساعات العمل — القاهرة يناير ١٩٦٠ (الجدول السادس ص ١٣٢)

المحافظات	عدد المؤسسات	عاملات بالغات وأحداث	إداريات وفنيات وكاتبات	جملة المشتغلات
القاهرة	٣٦٠٩	٨٣٦١	٦٢٤٩	١٤٦١٠
الاسكندرية	١٣٢٢	٧٩٥٥	٣٠١٤	١٠٩٦٩
القنال	١٨٧	٥٢١	٢٣٤	٧٥٥
السويس	٩٧	١٩	١٧٣	١٤٢
أقسام الحدود	١١	٤	٩	١٣
البحيرة	١١٦	١١٣٥	١٥٩	١٢٩٤
الدقهلية	١٨٨	٢٧٠	١٠٧	٣٧٧
دمياط	٤٩	٢٠	١٨	٣٨
الشرقية	١٢٩	٣٧	٢٣	٧٠
الغربية	٣٥٩	١٥٩٧	٩٣	١٦٨١
القليوبية	٢٢٣	١٣٣٦	٧٤	١٤١٠
كفر الشيخ	٤٠	٦٦	١	٦٧
المنوفية	٦٩	١٣٢	٥	١٢٧
الجيزة	٢٠٣	١٠٩٠	٤٩٤	١٥٨٤
بنى سويف	٨١	٤٥	٢٩	٧٤
الفيوم	٧٧	١٤٩	١٧	١٦٦
المنيا	٢٠٠	٣٧	١١٦	١٥٣
أسيوط	١٣٤	١٨٨	١٤٤	٣٣٢
سوهاج	٥٨	٣	٣	٥
قنا	١٥٧	١٠	١٢	٢٢
أسوان	٢٩	٦٧	١٤	٣١

ومن ذلك الجدول يتبين أيضاً بوضوح أن القاهرة والإسكندرية يتميزان بأعلى نسبة من العاملات ، ثم يليهما المحافظات القريبة من القاهرة والاسكندرية ، أى التى أقرب ما تكون للتأثيرات الحضرية ، فالقاهرة يجاورها شمالا محافظة القليوبية وجنوباً محافظة الجيزة ، والاسكندرية يجاورها جنوباً البحيرة ، والثلاث محافظات هى المحافظات التى زاد فيها عدد العاملات زيادة ملحوظة عن باقى المحافظات ، ثم نرى بعد ذلك أثر الصراع بين التقاليد ومتغيرات التصنيع والتأثيرات الحضرية فى التدرج الواضح فى الجدول حسب بعد المحافظات عن المراكز الحضرية والصناعية .

و — صفات المهاجرين :

المشكلة الثانية من مشكلات الهجرة هى ما إذا كانت تهاجر الزيادة فى السكان عشوائياً ، أو أن هناك مميزات شخصية تفاضل فى عملية الهجرة ، وتعمل تلك المميزات كعامل انتخاب بغربل ، وتفضل الشخص الملائم عن غير الملائم . ولكن المشكلة بهذا الشكل تكون عرضت بطريقة سطحية وفجة فى الوقت نفسه ، إذ أنه ليس من الضرورى أن الشخص غير الملائم «أى غير الملائم للزراعة» ليس بالضرورة أن يكون ملائما للعمل فى المدينة . كما أنه ليس هناك عملية انتخاب يمكن أن تؤكد لنا أن بعض الفلاحين المقيمين فى مناطق ريفية غير صالحين للعمل بشكل أحسن فى وظيفة حضرية . وعلى أى حال فإن كل الدارسين لظاهرة الهجرة وافقوا على أن المميزات الشخصية هى عامل انتخاب ، وليس هناك اتفاق على نمط من المميزات ترجح الهجرة[1] . فبعضهم يؤكد أهمية العوامل البيولوجية وخاصة الميل الموروث نحو المخاطرة والجرأة والجسارة . وقد قيل إن البولنديين الذين هاجروا إلى أمريكا لم يكونوا جماعة تمثل النمط السائد فى بلادهم ، ولكنه نمط

(١) Bergel . op cit. P. 228

جنسى أكثر . وقد قال فيرتشايلد Fuirchild رأيا فى الإنجليز الذين هاجروا إلى أمريكا مشابها لذلك ، وكذلك روس Ross قال إن أكثر الناس ذكاء يهاجرون ويكون الريف للأغبياء . وزمرمان Zimmerman بعد فحص دقيق للبيانات التى عرضها كثير من البحاث وصل إلى نهاية تقترب من القانون، وهى (المدينة تجتذب المتطرفين وتحتفظ القرية بالمتوسطين[١] .

هذه الصيغة أحسن من النظرية ذات الوجه الواحد ، ونحن نميل إلى قبول هذه النظرة ، ولكن ببعض التعديل . فإذا قلنا إن أولئك الذين يهاجرون ، يهاجرون بسبب النقص فى الفرص. يصبح المبدأ الأولى للانتخاب هو الاقتصاد وليس شخصياً فى طبيعته . فالذين يملكون يبقون والذين لا يملكون يهاجرون، وهذا يعكس أثر الملكية أكثر من الصفات . فأولئك الذين لهم أرض أو لهن زوج له أرض يكونون أكثر ميلا للبقاء بغض النظر عن الصفات الشخصية ، حتى الفتيات الأقل جاذبية اللائى ميرثن أرضاً لديهن فرصة أحسن لأن يجدن زوجاً فلاحاً أكثر من الفتاة الفقيرة ذات الشخصية الجميلة والجذابة . وطالما أن الفلاحة كعمل فى القرية المصرية مازالت عملا مرضياً . ويعطى أماناً معقولا ومركزاً اجتماعياً لا بأس به يصبح الدافع للهجرة ضعيفاً، وهكذا يبدو أن القرية تعمل على إبقاء الناس الذين يملكون . ولا شك أن قانون الإصلاح الزراعى قد عمل على التخفيف من وطأة الهجرة بزيادته للذين يملكون . ولولا الزيادة العظيمة ــ فى الزيادة الطبيعية للسكان الريفيين من جهة ومن جهة أخرى الفرص الكبيرة المتعددة التى أتاحها التصنيع ــ لظهر أثر قانون الإصلاح واضحاً فى كسر حدة هجره الريفيين إلى المدن .

---

(١) I bid : d229.

ولقد أورد كثير من علماء الاجتماع بعض العوامل الشخصية كعوامل انتخاب بالنسبة للهجرة سنحاول أن نجملها فيما يلى :

(أ) الذكاء : عملت دراسات عديدة لتحديد دور الذكاء كعامل انتخاب فى الهجرة ، ولكن البيانات التى حصلت عليها هذه الدراسات فيها اختلاف كبير . فدراسات جى Gee وكورسون Corson فى فرجينيا تؤيد أن الناس الأكثر ذكاء يهاجرون وأن الناس الأقل ذكاء يبقون ، وكذلك يعتقد روس Ross أن هناك استنفاذاً ذكائياً للقرية . ولكن من المشكوك فيه أن الظروف فى فرجينيا تسمح بالتعميم(١) .

(ب) المستوى الأخلاقى : هناك قول بأن الفلاحين الأكثر أمانة أكثر هجرة من أولئك الأقل فى صفاتهم الحسنة ، ذلك القول ليس حقيقياً ، ولكن العكس هو الصحيح ، فمعتادى الإجرام والأفراد الذين لا يرغبون فى العمل ومحترفى الدعارة وأمثالهم من ذوى القيم اللااجتماعية يتركون القرية . ذلك أنه من المعروف أن المناطق الريفية تباشر ضبطا قوياً ، ولا تسمح بمثل هذه الفرص لأن العلاقات الاجتماعية فيها تقوم على أساس من علاقات الجماعات الأولية ، ولكن المدينة هى التى تسمح بهذا السلوك المنحرف ، وهكذا فإن كانت القرية تفقد بعض أذكيائها ، فإنها أيضاً تفقد أسوأ سكانها أخلاقا .

(ج) التعليم(٢) : يعتبر عامل انتخاب آخر ، ولكن البيانات غير كافية ففى العهود السابقة كان معظم المهاجرين — كما سبق أن ذكرت — غير مدربين ، ولكن الآن كثير من الفلاحين يعلمون أبناءهم ، وأولئك الذين يتعلمون يهاجرون

---

(١) Bergel: op.cit P. 229

(٢) Ibid: P. 232.

إلى المدينة . وكذلك مازالت هناك نسبة كبيرة من الفلاحين لم يتعلموا ، وأولئك الذين لم يتعلموا إذا لم يجدوا فرصة الحياة متاحة فى الريف لقلة الأجر الزراعى عن الأجر فى المناطق الصناعية فإنهم يهاجرون إليها . ولذلك فكلا الفئتين : للتعلمون جيداً وغير المتعلمين إطلاقا ، يهاجرون إلى المدينة . وهذا يتمشى مع رأى زمرمان وهو أن المدينة تجتذب المتطرفين وتحتفظ القرية بالمتوسطين .

(د) اللياقة البدنية[1] : وتعتبر اللياقة البدنية عامل انتجاب أيضاً ، فإنه من المشاهد أن معظم الأعمال التى تحتاج إلى قوة بدنية يقوم بها مهاجرون ، مثل الحمالون فى الجمارك وعمال البناء ، ذلك أنها أعمال لا تحتاج إلى تدريب ، ولكنها تحتاج أكثر إلى قوة بدنية ، بالإضافة إلى أنها ذات أجر زهيد ، فلا يقبل عليها أبناء المدينة ، الذين من ناحية أخرى يكونون أكثر تدريباً وتعليما ولديهم فرص أكثر فى وظائف أعلا أجراً .

ز — صعوبه وضع نظريه متكامله للهجرة :

وبالرغم من الدراسات العديدة التى عملت على هذا الموضوع فليس هناك نهاية محققة . وهذا مادعى دروثى توماس Dorothy Ihmas بعد دراسة إلى القول (بالرغم من أن الحقل قديم بالنسبة للتفكير التأملى ، إلا أنه جديد بالنسبة للبحوث التجريبية ، إلى حد أنه من الكمية الكبيرة من البحوث الحديثة يمكننا أن نجد خمسة من البحوث التى تبدو أنها تستحق شهرتها الواسعة وبالطبع مع التحسينات . وكثير من البحوث الأخرى يرجى منها ، كل هذا يدفع إلى التشجيع فى البحث . ذلك أن أكثر البحوث التجريبية الحديثة تبدو واهية وفى غير محلها ، كما أن نقص البيانات المناسبة والوسائل الفنية ، وأيضاً بالنسبة لرد

---

(٢) Ibid. P . 232 .

الفعل للحقائق الموجودة عن الصراعات ، وصيحات المفكرين عن أن المهاجرين (أحسن من) أو (أسوأ من) أو (كلاهما أسوء وأحسن من) أو (أنهم لايختلفون إطلاقا عن غير المهاجرين) .

ولقد لخصت أيضاً دروثى توماس Dorthy Thomas موقف البحوث الحالية عن الهجرة من القرية للمدينة فى قولها (هناك أدلة عديدة على أن الهجرة الداخلية كان لها تأثير ملحوظ على إعادة توزيع السكان وإلى أن إعادة الترتيب المكانى كان نتيجة لغربلة نوعية لم يدلل عليها حتى الآن بوضوح . فبالنظر فى البحوث التى عملت وجد أربع فروض تتعارض بالنسبة لاتجاه هذا الانتخاب ، وهى تقصد اتجاه الهجرة من المناطق الريفية إلى المدينة .

١ — المهاجرون إلى المدينة ينتخبون من العناصر الممتازة من مصدر السكان .

٢ — « « « « « المختلفة « «

٣ — « « « « عناصرهم من الممتازين أو المتخلفين .

٤ — المهاجرون إلى المدينة يظهر أنهم ينتخبون عشوائيا من مصدر السكان .

وبعد فحص الأدلة التى قدمت لتأييد كل من هذه الفروض قالت المؤلفة دروثى توماس Dorothy Thomas نحن لدينا إذن أدلة على أن الهجرة تختار العناصر الحسنة ، والعناصر السيئة ، وكلا العناصر السيئة والحسنة ، وأيضاً أنها لاتنتخب . وبالرغم من هذا يمكننا أن نقرر الأدلة التى وضعت ضعيفة ، وأنها تحتمل أن الانتخاب يعمل إيجابياً وسلبياً وعشوائيا فى أوقات مختلفة ، معتمدة على عوامل مختلفة لم تستقص بشكل مناسب حتى وقتنا هذا[1] .

(١) Lundberg: "Foundation of Sociology" P. 490

وفى المقام الأول : الاحتمال بأن أى إختلاف ملحوظ يعكس أن هناك إنتخاباً سكانياً ، يجب أن يكون فى الاعتبار ، وأن عملية الهجرة كانتخاب بالنسبة للسن والجنس والموقف تحتاج إلى فحص بطريقة مباشرة أكثر من تلك التى قدمتها البيانات الأمريكية والإنجليزية .

وفى المقام الثانى . تيارات الهجرة ليست ذات وجهة واحدة من القرية إلى المدينة ، وأنه بينما النتيجة النهائية لتيارين متضاديين ربما يكون لها أهمية بسيطة من وجهة نظر الانتخاب ، إلا أن الفروق بين تدفق الداخلين والخارجين ربما ينتج عنه عملية انتخاب عظيمة لإعادة التوزيع السكانى .

وفى المقام الثالث : القرية والمدينة أو الريف والحضر ، ليس تصنيفهما سهلا حتى يمكن تحديد الفروق ، ومازلنا فى حاجة كبيرة إلى تفاصيل كثيرة عن التصنيفات الفرعية التى تقوم على أساس أحكام اقتصادية واجتماعية ، إذا أريد تعريف الانتخاب بطريقة ملائمة .

وفى المقام الرابع : العوامل الزمنية فى حاجة إلى ضبطها أكثر ، ذلك أن قوة الإنتخاب قد تتغير مع الزمن ، حتى أنه قد يحدث أن ينعكس اتجاه الإنتخاب ، على أنه لا يؤخذ فى الاعتبار فقط المدى الزمنى البعيد ، ولكن أيضاً المدى الزمنى القصير ، فالتغيرات التى ترجع إلى أشكال دورة العمل لها أهميتها . يحتمل بنسبة كبيرة أن الصراع الظاهر لاتجاهات الانتخاب التى لوحظت عند مختلف البحاث ترجع إلى توقيت عرضى أو بالصدفة .

وفى المقام الخامس : سعة المسافة فى الهجرة تؤخذ فى الاعتبار كمعدل لقوة الانتخاب .

وأخيراً لا يمكن توضيح الانتخاب بدون العناية أكثر بتحديد مسرح تجارب

المجرة التى فيه تظهر الملاحظات المختلفة ، هل المهاجرون يختلفون فعلا عن مصدر السكان فى وقت المجرة ؟ . هل يحدث الاختلاف فى أثناء عملية المجرة أو أنهم أصبحوا يختلفون فى عملية التمثيل الاجتماعى أو التكيف الاجتماعى فى الهيئات الجديدة ؟

ويمكن القول إجمالا أن علمـــاء الاجتماع شرحوا بعض الهجرات فى مصطلحات مناسبة لبعض الحالات ، ولكنهم لم يكتشفوا قوانين أو قواعد تشمل كل الهجرات (١).

٢ ـ اثر الهجرة الداخليه فى البناء الاجتماعى للاسرة .

(ا) الاسرة تواجه ثقافه جديدة :

فى الأزمنة التاريخية كانت الهجرة عملية تتضمن كل القبيلة ، وهؤلاء الناس المتجولون يأخذون معهم ثقافتهم . وأعضاء الجماعة لا يفقدون أنماط سلوكهم السابقة (٢).

أما المهاجر الحديث فهو فى موقف يختلف تماماً عن ذلك، إذ أنه يترك ورائه علاقات القرابة المتشابكة التى تكون القاعدة الأساسية لثقافته ، ويدخل فى ثقافة جديدة يحاول أن يتكيف معها بقدر استطاعته، وأثناء عملية التكيف هذه تحدث تغيرات عديدة فى مواقفه الاجتماعية، فأماكن السكن والمهنة ومراكز الأسرة، كل هذه المظاهر والمواقف تتعدل . ذلك أن الثقافة ليست واحدة فى البلاد ، فمثلا يوجد فى مصر من أسوان إلى الاسكندرية اختلاف ثقافى كبير فى المعتقدات الشعبية فى كل محافظة ، وهناك اختلاف أيضاً بين المناطق الحضرية والريفية .

---

(١) Davis : "Human Soeity" P. 587.

(٢) Mirrell : "Tociety & Culture" P. 459.

ويسمى علماء الانثروبولوجيا مناطق هذه الثقافات الداخلية فى بلد ما بالثقافات الفرعية Subculture (والهجرة بين الثقافات المختلفة تؤدى إلى احتكاك أناس مختلفين عن بعضهم فى الدين والسياسة والاقتصاد وفى الاتجاهات والقيم الأسرية) [٢].

(ب) وطأة الهجرة على الاسرة :

فالفلاح الذى يتحول إلى عامل صناعى يضطر إلى القيام بعمليات تكيف كثيرة، فعليه أن يتعلم مهارة المهنة الجديدة، وعليه أن يتقبل الظروف الطبيعية الجديدة، وعليه أن يتكيف لبناء اجتماعى جديد، وأن يوفق نفسه لنظام جديد من العلاقات الأسرية.

والمعروف أن الفرد إذا استمر فى صلة وثيقة مع أنماط مختلفة من السلوك مدة طويلة كافية، يميل نموذجه إلى نموذج مغاير، ونتيجة لهذا إذا هاجر عضو من الأسرة إلى عالم اجتماعى مختلف وأصبح ذا علاقة وثيقة ودائمة مع أنماط مختلفة من السلوك، فإنه يميل إلى أن يصبح فردياً، (فالهجرة تعمل على وضع أفراد الأسرة فى اتحادات ومشاركات مع قيم ثقافية مختلفة).

فالشخصية ليست لها علاقة فقط بالعضوية فى مجتمع ما، ولكن أيضاً لها علاقة بالاستقرار فى علاقات حياة الجماعة الأولية ولعمق التكامل مع مجتمع محلى منظم. وأى ضعف فى الاستقرار أو التكامل له أثر تحررى ويسمح بنمو اللامسئولية والاضطراب والتفكك.

---

(١) Burgess, Ernest W. and Lock, Harvey J : „The Family" American Book Combany Ney York 1953 P. 467.

(٢) Ibid P. 497.

(٣) Faris : "Social Disorganization„ P. 110.

فأولئك الذين يهاجرون ويعيشون بين غرباء يتعرضون بدرجات مختلفة لهذا التأثر . فهم لا يضبطهم مجتمع منظم إلى الحد الذى يتمتع به الناس المستقرون . وهكذا فهم يصبحون أحراراً فى التعبير عن الفردية إلى حد بعيد ذلك أن الاستمرار والديمومة تعنى أن الجماعة الاجتماعية تظل ملتصقة فى المكان والزمان . فديمومة الأسرة فى مكان إقامتها هو فهرس وبيان للانتقال عبر الأجيال لثقافة غير متغيرة . فالأسرة التى تعيش فى موطنها الأصلى فى منزل الأجداد تكون محاطة بمشاهد من الرموز الطبيعية لاستمرار الأسرة وتماسكها . ويتشابك ويتداخل تاريخ الأسرة مع موطنها الأصلى ، وكذلك مع بنائها الطبيعى عن طريق الإضافات والتحسينات ، بل وحتى عن طريق تراكم الأثاث عبر السنين . فكما أن هناك كلمات معينة تعتبر رموزاً تعبر عن علاقات بين الشخص وأسرة معينة ، فهناك أيضاً أشياء طبيعية مادية معينة تعتبر رموزاً لارتباط الشخص بأسرته ، مثل بعض قطع الأثاث المعينة . أو شجرة قديمة أمام المنزل ، أو جدول يمر بقريته ، أو ساقية تدور بجانب منزله .

فاستقرار موطن الأسرة يجعلها أكثر تأثراً بضبط المجتمع من تلك التى تغير مكانها نتيجة للهجرة . فالأسرة التى لديها مفهوم عن نفسها أنها تنتمى إلى مجتمع ما تميل إلى العيش أكثر استجابة لتوقعات المجتمع ، وخاصة إذا كان مجتمعاً محلياً : فالمجتمعات القروية تقوم العلاقات فيها على أساس الجوار أى وجهاً لوجه أى علاقات الجماعات الأولية ذات التأثير والضبط القوى .

أما الهجرة إلى مكان جديد بعيد ، فإنها تبعد الفرد أو الأسرة المهاجرة عن الروح الاجتماعي والضبط الاجتماعي للعلاقات الاجتماعية الأولية ، وتجعل هؤلاء الأفراد أحراراً فى إهمال أو خرق المعايير والتقاليد الشعبية الموروثة ،

وتسمح لهم بالتعبير صراحة عن السلوك الذى كان من قبل ممنوعا ومكبوتا بسبب الضبط الاجتماعى ،وهكذا تجعل من الممكن للأنماط المنحرفة أن تصبح أكثر ترددا عند مختلف الأفراد والأسر . ومتى عادت هذه الأسر أو هؤلاء الأفراد مرة ثانية إلى جماعتهم الأصلية فإنهم يشكلون خطراً حقيقياً على السلوك التقليدى للأسره وتزداد الخطورة إذا كان عدد هؤلاء الأفراد المنحرفين كبيراً : (ومن الملاحظ أن الأساليب الجديده للسلوك لا تمارس سهواً : بل عن ميول واعية وربما تؤدى إلى تقويض وتخريب العادات القائمة من قبل ، وكذلك التقاليد ، وهكذا تعمل على زياده الصراع الأسرى)

ومن ناحية أخرى فإن الأسره التى تهاجر إلى مجتمع غريب عنهاتنزع من قالبها الاجتماعى وتنفصل من ارتباطاتهـا الاجتماعية الاسرية التى كانت تمدها بتأثيرتها فى مجتمعها السابق فإذا كان المكان الجديد يتيح لأعضاء الأسرة فرصة امتصاص وقتهم وطاقتهم بشكل مشبع فى هوايات ترضيهم ، فإن هجر العلاقات الأسرية الخارجية يمكن أن يكون أقل أثراً فى التفكك الأسرى ولكن إذا كان هناك عضو فىالأسره قد أنشأ ارتباطات مشبعة ، أو إذا كان له مركز هام فى موطنه الأصلى ولم يجد ما يقنعه أو يرضيه فى مكان إقامته الجديد فإنه قد يشعر بالضياع أو أنه منبوذ . وحتى إذا حصل المهاجر على مميزات المجتمع الجديد ومنها التحرر من جماعته الأولية ، فإنه يجد بعد فوات الوقت إلى أى مدى كانت هذه الحرية التى حصل عليها غير مرضية ولا مشبعة فكثير من الأفراد الذين فصلتهم الهجرة عن صلاتهم الأسرية الوثيقة الأولى لم ينجحوا أبداً فى إقامة علاقات اجتماعية مشبعة ووثيقة وأصبحوا أشخاصاً

(١) Burgess & Look : op. 466.

قلقين ، ولإحساسهم بالفشل فى الحصول على القبول والأمن والمركز الاجتماعى فى مشاركات الجماعات الأولية ، فانهم يبحثون بدون هدف عن الانتعاش الذى تمنحه الحياة الليلية فى المناطق المضيئة فى المدينة .

فالأسر المهاجرة ليس فى استطاعتها أن تستقر مباشرة فى توازن مستقر فطريقة الحياة بالأسلوب القروى غير ممكنة ، ومن ثم فهـذا الساكن الجديد للمناطق الحضرية لا يعرف كيف يحصل على حياة اجتماعية مشبعة . ذلك أن تلك الأسر المهاجرة لم تحصل بعد على حجم مشبع ناضج من المعارف التى تعينهم وتساعدهم فى علاقاتهم الاجتماعية ، فليس لهم أسلوب ثابت للحيـاة ، وفى كثير من الحالات لا يمكنهم فى وقت قصير بل فى عمر جيل واحد أن يحصلوا على أسلوب مشبع ، أسلوب من صنعهم (١) .

ولهذا فإنه عندما تهاجر الأسرة إلى مجتمع غريب فإنها تحتاج إلى وقت لعمل ارتباطات مطمئنة أو لتأمين مركزها الإجتماعى . وهذا أمر هام بدرجة أكثر عند الزوجات ، كما هو بدرجة أقل عند الآباء والأطفال الصغار . فالزوجة قد تصبر بعض الوقت فى سبيل الحصول على القبول الاجتماعى فيما بعد أو قد تهتم بمواساة أعضاء الأسرة وتصبح أكثر اتحادا معهم ، أو قد تصبح حزينة ومنفصلة وعصبية والمواقف التى كانت فيما سبق لا تخلق صعوبة أصبحت الآن تخلق توتراً وصدعـا . وتصبح الوحدة الداخلية للأسرة معرضة للخطر . وعادة يجد الأطفال صعوبة كبيرة فى التكيف فى المجتمع الجديد . (وقد قرر أحد علماء النفس أنه وجد فى عمله مع الأطفال فى المدارس نسبة كبيرة من عدم الاطمئنان ومركبات النقص بين أولئك الأطفال الذين انتقلوا حديثاً إلى مجتمع جديد (٢)

---

(١) Faris : "Social Disorganization,, P. 939.

(٢) Burgess & Lock : "The Family" P. 468

(د) صراع الثقافات بين الآباء والأبناء:

وهكذا كثيرا ماينشأ الصراع بين الآباء والأبناء عندما تختلف مستويات الأسرة بشكل ملحوظ عن التي يقابلها الأطفال فى خارج المنزل . وكلما زاد احتكاك الأطفال واتصالهم بالبيئة الخارجية يتشربون أنماطا من السلوك تختلف عن تلك التي يسمح بها الآباء الذين نشأوا فى ثقافة مغايرة . فالآباء المهاجرون ولدوا وربوا فى غير المجتمع الجديد ، فعالم الأطفال الجديد يحتوى على تقاليد شعبية ومعايير تختلف فى اتجاهاتها نحو الحياة . هذه الاختلافات فى الاتجاهات والقيم تعمل كعائق لوسائل الاتصال ، أو إذا كانت هناك وسائل اتصال فى ظل هذه الاختلافات فإنه من المتوقع أن ينشأ الصراع .

(فالتنظيم والتماسك الأسرى ينشأ من الاتصالات المتبادلة بين أعضائها المؤدية إلى الاشتراك والاتحاد فى الأعمال الجمعية، ويزداد التفكك عندما تتوقف أو تضطرب الاتصالات)[1] .

والهجرة ليست شراً بالنسبة للطفل. فهناك سبب آخر يجعل من الهجرة عامل فى صالح الأطفال . يبدأ الطفل حياته أولا مشاركا أسرته فى مركزها الاجتماعى. وفى المجتمعات المستقرة الثابتة نسبياً كالقرية، تكون فرص تغير مركز الطفل الاجتماعى أقل منها فى مجتمع سريع التغير كالمجتمعات الحضرية ، فالمركز الاجتماعى يتوقف فى جزء كبير منه على الثروة ، والثروة فى المجتمع الريفى تتركز فى الأرض، والأسرة التى تبقى فى الأرض تتحدد بها وتشغل موقفاً اجتماعيا معترفا به ، ومعروفا لدى الجميع فى القرية ، وهكذا تصبح الصلة بالأسرة ذات أهمية كبيرة للمركز الاجتماعى ويصبح السؤال الهام هو : ابن من هذا ؟ ولكن فى المجتمع الحضرى المكون

---

(١) Ibib. P. 4 5.

من غرباء ذى السكان الدائمى التغير تصبح الصلة بالأسرة ليست لها أهمية ، ويصبح إعتماد الفرد على عمله وفرص التقدم وتحسين المركز الاقتصادى والاجتماعى عن طريق الدراسة واكتساب المهارات وتنمية القدرات ، ويقدر النجاح تقديراً كبيراً ومن هنا نشأت أهمية الطفل وأهمية الاهتمام به . فالآباء الذين هاجروا ولم تتح لهم ظروفهم النجاح يرون أمل الإنتقال الاجتماعى وتحسين مركزهم الاجتماعى خلال العناية بأطفالهم ، وهذا يعنى التضحية فى سبيل أبنائه بإعطائهم أكبر قدر من الخبرات وتنمية كل أنواع المهارات والذكاء الذى يملكه الطفل . وسواء أكان الدافع على الاهتمام بالطفل لذاته أو لطموح الوالدين فالنتيجة هي الاهتمام بالطفل .

٣ ـ أثر الهجرة الداخلية فى الأسرة من ناحية الاسكان

(أ) السكن فى المناطق المتخلفة :

هذه الأسر المهاجرة عادة تسكن أماكن مزدحمة حول مراكز الأعمال والمناطق الصناعية فى المدن الكبيرة . وهذه الأسر تعيش تحت وطأة ظروف مختلفة تماما عن ظروف البيئة القروية المهاجرة منها . ومن المعروف أن أول مكان تحل به الأسرة المهاجرة فى جوار أسوأ المناطق السكنية المزدحمة والفقيرة وهذه المناطق تعتبر أيضاً ذات نسبة أعلى فى وفيات الأطفال وانحراف الأحداث وهى عادة مناطق تنقصها الخدمات الحضرية مثل الامداد بالمياه والصرف

تلك هى المناطق المتخلفة Slums وهناك نقاش عما إذا كان الناس هم الذين يحولون المناطق إلى مناطق متخلفة أو أن المناطق المتخلفة تعود إلى نمط منحط من السلوك لجماعة اجتماعية . أو بمعنى آخر هل ظروف الإسكان السيئة ترجع إلى مستوى اجتماعى وسلوك معين لجماعات معينة أو بالعكس ؟

ومن الواضح أن الجماعات ذات الدخل المنخفض لايمكنها أن تحصل إلا على مستوى منخفض من المعيشة . وهذا لايعنى أنه يتضمن بالضرورة أن هذه المستويات تتطابق مع ظروف المناطق المتخلفة . فكثير من المهاجرين اضطروا إلى المعيشة فى ظروف إسكانية تعتبر منخفضة بالنسبة للمستوى العام فى المدينة . وهذا يفسر جزئيا لماذا وضعوا فى ظروف إسكانية لاتعتبرها الجماعات الأخرى مناسبة ، ومن ناحية أخرى تفسر أيضاً لماذا بعض المناطق التى كانت سابقا فى حالة جيدة وتدهورت سريعا إلى مناطق متخلفة عندما غزتها هذه الجماعات المهاجرة فلا الفقير ولا المهاجر يمكنه تشييد منزل يلائم مزاجه . فالعادة أن منازلهم بناها أفراد يكرهون أن يقطنوا فيها . فالمنطقة المتخلفة هى نتاج عدة عوامل معقدة ، ولكن الفقر هو السبب الأكبر . فالمهاجرون يقبلون أجورا لاتسمح لهم بتأجير مسكن مناسب . فهم يقبلون أجورا أقل من المستوى العادى ولهذا لايمكنهم الحصول إلا على مساكن أقل من المستوى العادى ، فالدخل المنخفض يجبر المهاجرين على الحياة فى المناطق المتخلفة ، ولكن هذه الجماعات لاتعارض لأنها قد اعتادت على ظروف معيشية قد تكون أسوأ من ذلك .

(ب) غزو الأسر المهاجرة للاحياء الحضرية وأثره

وهكذا تباشر هذه الأسر المهاجرة عملية إيكولوجية هامة وهى الغزو لتلك المناطق . (وعملية الغزو Invasion هى غزو وظيفة اجتماعية أو جماعة اجتماعية لمنطقة مشغولة بوظيفة اجتماعية أخرى أو جماعة اجتماعية أخرى)(١) . والغزو الوظيفى صفة ديناميكية للمجتمع الحضرى حيث حى الأعمال المركزى يجود على المناطق الملاصقة ، والصناعات الخفيفة والثقيلة تجتاح المناطق السكنية . وتبتلع المراكز الحضرية القرى والمزارع .

(١) Merrill : "Society & Gulture" P. 461

أما الغزو الأشد أثراً وأكثر إنفجاراً فهو غزو الأسر المهاجرة، مثل غزو أبناء الوجه القبلي للمناطق المحيطة بالجمرك في الإسكندرية مثل حي القباري واللبان حيث يعملون حمالين بالجمرك بأجور منخفضة ويعيشون حياة اجتماعية تحت أسوأ الظروف الاقتصادية والاجتماعية. مثل هذه العملية عادة يصحبها مرارة، بل ربما ينشأ موقف صراعي بين الجماعات المهاجرة وبين الجماعات الشاغلة لتلك المناطق. وأصحاب الأملاك لا يقابلون الأسر المهاجرة الجديدة بالترحاب خوفاً من انخفاض قيمة ممتلكاتهم. وتتعرض هذه الأسر المهاجرة لأنواع من الرعب والإرهاب مبتدأة من قيود التقاليد والعرف إلى الثورة الصريحة والمقاومة العنيفة. وتصبح الأسر المهاجرة ضحية إضطرارها للحياة تحت وطأة ظروف سيئة متراكمة.

وعندما يحدث غزو من هذه الأسر المهاجرة لمنطقة ما يتبعها سريعاً عملية تعاقب Succession[1]. ذلك أن الأسر الحضرية الأصلية سرعان ما تترك المنطقة كلها إذ أن المركز المنخفض لجماعات المهاجرين يعني عادة أن السكان الأصليين يفقدون مكانتهم واحترامهم إذا استمروا في مساكنهم القديمة متجاورين مع الغزاة، والكرامة والمركز الإجتماعي عادة يكونان أكثر أهمية من الراحة ومن القرب وسهولة الوصول إلى العمل ومن الرخص النسبي للسكن.

وهكذا تخلو هذه المناطق التي غزيت من سكانها الأصليين، ولا يبقى بها إلا المهاجرون.

وهكذا تتعرض هذه الأسر لعملية العزل Segregation وهذه العملية

---

(١) Merrill : Ibid p. 463

كمفهوم إيكولوجى عملية ديناميكية تؤدى إلى إعادة التوزيع السكانى للأسر والنظم . وبهذا المعنى يتضمن العزل الإسكان الجبرى للأشخاص والجماعات فى مساحات معينة على أساس المستوى الإقتصادى[1] . ويأخذ العزل أشكالا متعددة . منها العزل الاختيارى الذى فيه الأسر ذات الثقافة الواحدة يتجمعون باختيارهم فى مناطق متقاربة . فالمهاجرون من نفس القرية يتجهون إلى المناطق التى سبقهم إليها أبناء قريتهم ليكونوا قريبين من ثقافتهم . ونوع آخر من العزل يأتى نتيجة أن الاختيار فى السكن ليس حسب الإرادة ، فمعظم المهاجرين الذين يعيشون فى المناطق الحضرية المتخلفة ليسوا هناك نتيجة لرغبتهم ولكن نتيجة لإمكانياتهم الاقتصادية . فالأسر الريفية المهاجرة تشكل عمالا جددا يطلبون أى عمل بأى أجر وعلى استعداد للمعيشة فى أحط الأحياء . وهذه الأسر التى تعيش تحت وطأة العزل الإيكولوجى تنعزل أيضاً عن مجرى الثقافة الرئيسى . ومن هنا تنشأ ثغرة عدم الاتصال الثقافى . وتتولد عادة اتجاهات خيبة الأمل والفشل وعدم الأمان وعدم الاستقرار للشخصية عن طريق عمليات العزل .

(هـ) وطأة التصنيع على الاسكان وأثره فى السكان :

وجزء هام من التلف الذى يصيب الأسر ساكنة المناطق المتخلفة هو نتيجة لارتفاع قيمة الأرض عن طريق التوسع الصناعى ، فبناء منزل للإسكان يعنى ترك فرصة لربح أكبر يتحقق عن طريق بيع الأرض للأغراض الصناعية . وحتى إذا أصر أحد أصحاب الأرض على البناء فإن السكان سيجدون أنفسهم سريعاً محاطين بالضجيج والدخان والمصانع . وحتى بالنسبة للمساكن التى تقع

---

(١) Merr.ll op. cit p. 460.

حالياً فى طريق تمدد المصانع فإنه عادة من الأمور غير المربحة إدخال تحسينات عليها ، وكثير من أصحاب المساكن فى المناطق المتخلفة لا يطمعون فى أكثر من دفع ضرائبها وينتظرون بيعها ليحققوا ربحاً . وهكذا ، فسكان المناطق المتخلفة يدفعون أجوراً منخفضة جداً لحد أنه لا يمكن أن يحقق ربحاً للملاك ومن هذا تنبع صعوبة إصلاح المناطق المتخلفة إذ أن هذا الإصلاح لن يحقق ربحاً لأصحابها ، فليس من المحقق أن هذا الإصلاح سيرفع من إيجارها .

ومعنى هذا استمرار وجود المناطق المتخلفة واستمرار زيادتها وأيضاً استمرار تدهورها .

وهذه المناطق توجد عادة على حدود المناطق الصناعية ومعظم سكانها من جماعات السكان الجدد على المدينة والجدد على الحياة الصناعية[١] أى من المهاجرين الذين جذبهم التصنيع .

فالبناء الفيزيقى للمناطق المتخلفة فى المدن الكبيرة يعتبر خطراً عظيما على الصحة والأمن لسكان المدن . فالمبانى فى معظمها قديمة وفى حالة سيئة لا تقبل الإصلاح ، وغير مجهزة بأى تسهيلات حضارية ، فمعظمها مظلم وينقصه التهوية السليمة ومعظمها سهل الاحتراق .

وقد قسم نيوميير Numeyor هذه المناطق إلى مناطق متخلفة ومناطق موبوءة واعتبر المناطق المتخلفة هى المناطق ذات المنازل المتهدمة والمهجورة والفقيرة الإعداد وغير الصحية ، وبشكل إجمالى يمكن القول أنها خطرة على الصحة والأمن والراحة وأخلاق سكانها . هى منطقة سكنية ذات منازل

---

(١) Faris, R.E: "Social Disorganization" P. 200

وظروف حياة من نوع حقير لا تجعلها صالحة لحيـاة الإنسان . وبالتأكيد هى مكان غير صالح لتربية الأطفال . ولسوء الحظ هذه المناطق بقدر ما هى مزدحمة بالسكان مزدحمة بتلك الآفات .

والمنطقة الموبوءة Blighted بالرغم من أنها قد ابتدأت فى إظهار سمة المناطق المتخلفة إلا أنها لم تصبح بعد منطقة متخلفة . فهى تبدأ أولا بمجموعة من الانحلال ثم تتوالى العمليات الانحلالية حتى تصبح المنطقة كلها منطقة متخلفة . والأنمـاط الثقافية التى تشاهد هناك هى أنمـاط المناطق المتخلفة . وبغض النظر عن درجة التخلف فى دورة التخلف The Slum Cycle ، فهذه المناطق مسكونة بطبقات معينة من الناس ، ويسود الفقر ، ويتغير السكان ، ولـكن عادة نحو التأخر كما يحدث للأعمال أيضاً فى المنطقة (١) .

فى مثل هذه المنازل السيئة تعيش الأسر المتخلفة فى أعداد ضخمة مكتظة كثيفة وبدون فرص للتمتع بالحياة الخاصة أو بحياة منزلية سارة ، ورغم أن كثيراً من الآراء تقول بأثر المظهر الطبيعى لمساكن المناطق المتخلفة أنه سبب هام ومباشر للانحراف ، فإنه لا توجد أدلة واضحة لصحة هـذه النظرية . وبالرغم من سوء حالة هذه المناطق فإنها أسوأ إعداداً أو أقل ازدحاماً من المناطق الريفية التى أتى منهـا معظم سكان المناطق المتخلفة والتى يعيشون فيها دون انحراف . فالنقص فى الحيـاه الأسرية الخاصة يعتبر ظرفاً يساعد على تنمية المعارف الجنسية مبكراً بالنسبة للأطفال ، ولـكنه من المحتمل أنهـا ليست أكثر ممـا تفعله الحياة الريفية ، وربما يظن أن شعوراً بالمرارة ناتج عن

(١) Neumeyer : op. cit. P. 204.

الاضطرار للحياة فى مثل هذه الأحياء التعسة ربما تدفع بعض الأطفال إلى اتخاذ الجريمة كتعويض أو انتقام(١) .

وفى الحقيقة : إن المنطقة المتخلفة ليست مجرد للمبانى المتدهورة ، إنما هى تقدم نمطاً ثقافياً يتضمن أسلوباً فى التفكير والعمل. فالمناطق المتخلفة الموبوءة تعتبر مزارع للجريمة إذ يجد محترفوا الإجرام فيها مأوى وعادة ينقلون وسائل وفنون الجريمة إلى الصغار . فتلك البيئات لا تصلح سواء من الناحية الطبيعية أو الأخلاقية أو الصحية لتربية الأطفال وهذه الظروف السيئة تترك آثارها فى شخصية الطفل(٢) فمظاهر الحياة فى الأحياء المتخلفة التى لها علاقة هامة بزيادة نمو الانحراف هى الظروف العـــامة للحياة الاجتماعية أعنى أنه الانحلال الاجتماعى المنتشر فى المنطقة . هـذا الانحلال الاجتماعى المنتشر فى المنطقة لا يسمح للجماعتين الأوليتين الهامتين اللتين عادة يضبطان سلوك الأطفال يمنعان الانحراف ألا وهما : الأسرة والجيران ، هذا الإنحلال يمنعهما من أداء وظيفتها بشـكل فعال ، وبالعـكس فجماعة الجيران ، هنـــا هم كما يقول زربو Zerboygh أناس عابرون فى منطقـــة الحرية والفردية واللامعروفين ، ويتألف سكانها إلى جانب العابرين من الأفاقين والمجرمين ، ومحترفى الدعارة والمهاجرين وسلالاتهم(٣).

فالمعتقدات والمستويات والأفـكار الأخلاقية التى تميز الجيران لها تأثير قوى فى تشكيل حياة الطفل . هـذه العوامل غير المادية والتى لا يمـكن لمسها يقال لها روح المجتمع The spirit of the Bommunity ، فالجو الأخلاقى

(١) Faris . op. cit, P. 201.

(٢) Neumeyer . op. cit. P. 202.

(٣) Ibid . P 204.

للمنطقة ينعكس مبكراً فى سلوك الطفل . والأطفال سواء عن وعى أو بدون وعى يتشربون مفاهيم الصواب والخطأ الموجودة فى عالم الكبار . فإذا كان هناك حديث كثير عن خرق القوانين ، والاتجاهات العدوانية نحو القوانين ، وخاصة إذا كان هناك خرقاً لقواعد عادات السلوك فإن الأطفال يتبعون خطوات الجناة الكبار بشكل طبيعى (١) .

والانحراف يوضح نوعا من التكيف للتقاليد ومستويات السلوك وما ينتظره الجيران . فتقاليد الانحراف فى منطقة ما تنتقل من خلال جماعات الرفاق ، فالاتحاد القوى بين أعضائها وتأثير القادة والجو الأخلاقى للعصابات له تأثير قوى وجبرى . ويأخذ الأعضاء الصغار مايحتاجونه من تقاليد الانحراف من العصابات ، وتعمل عصابات الشوارع والحارات كوسط يحصل من خلاله الأعضاء الجدد على الألفة مع اتجاهات ومستويات وشرائع قادة الجماعة ومع معتقدات العصابة نفسها . فالجماعات الانحرافية مثل كل الجماعات الاجتماعية تنمى أنماطها السلوكية التى بها ينظم ويضبط القادة سلوك أعضائها . والعصابة عادة توقع العقوبة على من يخرق قواعد سلوكها ، وأكثر من هذا فإن أعضائها يكونون تحت ضغطها بحيث لا يجرؤ أحد على خرق قوانينها ، فعدم الولاء للعصابة وخرق قوانينها المقدسة يعتبر أعظم من خرق قوانين المجتمع ، ففى بعض الأحيان الجماعة الداخلية تضاد الجماعة الخارجية ، والقانون والنظام لامعنى له عند الأطفال ، فهم يفعلون ببساطة مايفعله الآخرون ، لأنهم يتشربون تقاليد الانحراف ببساطة من المنطقة ، فإذا أصبح الانحراف شيئاً عادياً فى منطقة ما ، وتأسست روح الانحراف فى المنطقة ، فالسلوك السىء يميل إلى أن يقاوم حتى تغير السكان من جماعة

(١) Ibid : p. 151.

إلى أخرى أو من ثقافة جماعة لأخرى فالمعدل النسبى للانحراف فى مختلف مناطق المدينة يميل إلى أن يبقى كما هو خلال فترة طويلة من الزمن .

والأسرة فى مناطق الانحراف لا يمكنها أن تقاوم أو تعارض السلوك الإجرامى لأن بعض أعضائها مثل الأقارب أو الأصدقاء قد يكون مصدر رزقهم عن طريق منظمات غير قانونية ، كما أن العصابات كما سبق الإشارة تمارس ضغطا على الأطفال هو أكثر من ضغط أسرهم أو المجتمع . فإذا ما أقيم وتأسس الاتجاه الانحرافى فإنه من الصعب تغييره . كما أن التغيرات المتوالية فى تركيب السكان ، وعدم التكامل الناشىء من انتشار الثقافات المختلفة المستويات تسببت كل هذه الأشياء فى عقم وعدم تأثير منظمات الجوار والضبط .

وفى بحث أجريته فى مدينة الاسكندرية على عينة من الأحداث المنحرفين فيها تبلغ ١١١٩ حدثاً منحرفاً إتضح أن أعلى نسبة لمناطق سكن الأحداث المنحرفين فى مدينة الاسكندرية هى قسم محرم بك إذ تبلغ ٣٥٫٢٪ من مجموع الحالات . وحى محرم بك كان يقطنه حتى مطلع القرن العشرين الطبقة العليا وكانت مساكنه عبارة عن قصور للأغنياء من أهل المدينة . ولكن بنمو الصناعة على ضفاف قناة المحمودية التى تقع فى الحدود الجنوبية لهذا الحى حدث غزو سكانى من الطبقة الدنيا والمهاجرين ، وكانت نتيجة لذلك أن هجر السكان الأصليون الحى نتيجة لهذا الغزو خوفا على مكانتهم الاجتماعية من أن تنخفض . وبزيادة نمو الصناعات على ضفاف المحمودية فى العشر سنوات الأخيرة حدثت حركات غزو أخرى لحى محرم بك وهجرته أيضاً أبناء الطبقة المتوسطة الناجحة مما زاد نسبة الطبقة الدنيا بهذا الحى ، وتحولت المساكن الأصلية إلى مخازن أو مصانع ، ونشأت العزب من المهاجرين مثل عزبة الصفيح وعزبة الجمهورية وعزبة المنشية ، فسمات أطراف حى محرم بك تتفق وسمات المناطق المتدهوره من الناحية

السكانية أى الموبوءة كما يقول نيومابر ذلك بالإضافة إلى أنه أصلا توجد على ضفاف المحمودية عزب يسكنها قرويون مثل عزبة الصبحية ، وهذه العزب كان يسودها النمط الريفى ولكن بإنشاء المناطق الصناعيه بجوارها عمل جزء كبير من سكانها بالمصانع ، كما نزح إليها كثير من العمال المهاجرين من القرى ليكونوا قرب ثقافتهم ، فأصبحت هذه المناطق مناطق تحول Transtion تقع بين أسلوبين ثقافيين مختلفين بين المصانع التى تطلب أسلوباً حضرياً فى الحياة بينما هذه العزب ذات أسلوب قروى ، مما عرض أبناء هذه المناطق لصراع الثقافات كما يوجد بقسم محرم بك منطقة غربال ، وهى تعتبر من أشد المناطق تخلفا فى مدينة الإسكندرية ، وهذه المناطق يقطنها كثير من أبناء الطبقة الدنيا والمهاجرين وتسودها ثقافة هذه الطبقة وهى وسط مولد للانحراف ، فتلك المناطق لاتصلح سواء من الناحية الصحية أو الأخلاقية أو الطبيعة لتربية الأطفال .

الباب الثالث

من الناحية الفزيولوجية

- من ناحية الزواج
- من ناحية التربية
- من ناحيه الترويح وشغل وقت الفراغ

الفصل السابع

من ناحية الزواج

١ — الزواج من جهة النظر الاجتماعية

كلمة الزواج تدل عند معظم الناس على اتحاد رجل وامرأة على أساس الود المتبادل ويستمر مدى الحياة. هذا المعنى ليس هو ما يعنيه الإصطلاح عند دارسي الحياة البدائية. فعندهم الزواج يعني اتحاداً دائماً أو غير دائم بين الذكر والأنثى يستمر في الفترة ما قبل ولادة الأطفال إلى الوقت الذي يمكن فيه للطفل أن يعتمد على نفسه في قضاء حاجياته. ومن وجهة النظر هذه يصبح الزواج وظيفة بيولوجية ووسيلة لبقاء النوع[1]. ولكن إذا كان هذا هو المهمة الأساسية للزواج فإنه من الواضح أن مثل هذا الاتحاد لا يقتصر على البشر، ولكنه ينتشر بين أنواع كثيرة من الحيوانات العليا وخاصة القرود وحتى بين بعض الطيور، فإنه معروف عند علماء الحيوان أن الغوريلا تعاشر الأنثى حتى يمكن لنسلهما أن يعتمد على نفسه، وفي هذه الحالة ليس فقط ليحمي الذكر الأنثى بل ليجلب لها ولأطفالها الطعام.

ولكن ما هو أصل وظيفة ذلك الاتحاد الذي يتميز بنوع من الاستمرار. لا يفسر الود المتبادل بين الذكر والأنثى لنا هذه الحقيقة طالما أن الشريكين عادة ينفصلان لأسباب تافهة بين كل من القرود والبدائيين بعد أن يبلغ صغارهما القدرة على الاعتماد على أنفسهم. كما أن الرغبة الجنسية لا يمكنها في ذاتها تفسير الزواج طالما أن ضغطها يأتي ويذهب، وأيضاً يمكن إشباع الرغبة الجنسية بدون

---

(١) Willystine Goodsell : "Problems of Ihe Family" D. Appton-century Company New York 16 9 P. 4.

تـكوين هذه الروابط المستمرة ، إذ أن الاتصال الجنسى مباح فيما قبل الزواج عند بعض الأقوام المتأخرة فى بعض جهات ميلانزياوفى جزائر ترووبرياند ، ومن ثم فالزواج عندهم ليس بضرورة تحتمها إشباع الغريزة الجنسية .وكذلك الاتصال الجنسى ميسور فيما بعد الزواج بغير الزوجـة عند أقوام الاسكيمو وعند أقوام البايلا Ba-lla فى شمال روديسيا ، وأقوام المرارو فى جنوب غرب أفريقيا . وكذلك الإتصال الجنسى ميسور بعد إقامة بعض الطقوس الدينية فى الحفلات المعروفة باسم كرويوريه Corroboree عند زنوج استراليا ، وعلى الرغم من هذه الإباحة الجنسية نجد الزواج قائماً عندهم(١) .

والتفسير الحقيقى لأصل الزواج عند معظم الانثروبولوجيين يوجد فى عدم قدرة النسل عند البدائين على إعالة أنفسهم مما يتطلب عناية الوالدين لمدة طويلة من الزمن . وهؤلاء الآباء الذين لايقومون على العناية بأطفالهم يفقدونهم بالموت ولايخلدون أنفسهم : وهكذا فالطبيعة تختار للحياة تلك الطوائف التى تبلغ فيها العناية الأبوية بالصغار منتهى نموها .

وهكذا إذا كان عدم قدرة الأطفال على العناية بأنفسهم هو السبب الأول للاتحاد بين الذكر والأنثى بصفة دائمة إلى حـــد يمـكن تسميته بالزواج فإننا ننتهى للنتيجة الهامة : « أن الأسرة هى الأصـل الحقيقى للزواج وليس الزواج هو أصل الأسرة(٢) » .

يتضح من ذلك أن الحيوان يعاشر،ولـكن الإنسان يتزوج ، وأهمية هذا التميز واضحة ، فالمعاشرة أمر بيولوجى ، ولـكن الزواج عمل اجتماعى . الزواج

(١) الدكتور عبدالعزيز عزت . قانون جديد لتطور الزواج — القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ٤ .

(٢) Willystine Goodsell : Problems of the Family P. 4.

يتضمن مراسيم وطقوساً إذا لم تقم فلا يسمى الاتحاد بين الذكر والأنثى زواجاً. فهو يتضمن حفلة ، واتحاد ذوى ميول اجتماعية ، ومعرفة بفروض المجتمع الذى ينظم الدخول فى هذه العلاقة . فهو يقوم على أسس يرتضيها الأنا الاجتماعى المعبر فى بعض نواحيه عن سنن الجماعات وقوانينها . فالزواج مرتبط كل الارتباط بما فى كل مجتمع من عادات وعرف وتقاليد .

وكما أوضح مالينوفسكى **Malinowski** أن الزواج بين البشر حتى فى القبائل الاسترالية البدائية التى فى أقل مستوى ثقافى هو دائماً وفقاً لمعايير [1]. فى كلمات أخرى كل مجتمع إنسانى فى الماضى وفى كل العالم قد نظر إلى الزواج كأمر هام للرفاهية الاجتماعية ولهذا فقد عنى بتنظيمه وضبطه . فالعرف يوضح من هو الذى يسمح له بالزواج ، ومن أى جماعة يختار الشريكان أو لا يختاران، وعن طريق من يختار الزوجان ، وكيف يرتبطان، وأين يعيشان، وماهى حقوقهما ومسئولياتهما، وكيف ، ولأى سبب ينتهى زواجهما [2] ؟ .

فالمعاشرة إذن أمر بيولوجى بينما الزواج أمر اجتماعى . ولهذا فالزواج غير معروف عند الحيوانات ، ومعاشرتها شيئاً لا تنظمه الجماعة واتحادها لا يحتفل به وليس هناك نظام موضوع لطريقة معيشتها . ولهذا فمن الخطأ اعتبار أن الغوريلا أو الشامبانزى معاشرتهما زواج . وتحدث المعاشرة بين البشر ،ولكنها أمر غير شرعى ومضاد للمعايير الإجتماعية ، ولهذا يلزم التمييز بين هذين النوعين .

وهناك بالطبع بعض الوجوه البيولوجية فى الزواج الإنسانى ، ولكن أيضاً هناك الوجه الاجتماعى ، وهو الأهم ، ذلك أن هذا الوجه الاجتماعى يعتبر من أهم

---

(١) Burgess Lock ; Tge Family p. 6

(٢) Ibid., p. 2.

وجوه المجتمع البشرى ، وعلى هذا الأساس يمكن تعريف الزواج بأنه اتحاد مقبول اجتماعياً لرجل وامرأة فى علاقات زوج وزوجة .

فمنذ فجر التاريخ عرفت المجتمعات الإنسانية أهمية وضع حدود للرغبة الجنسية عن طريق الجماعة ، وفى نفس الوقت : التأكد من وجود منزل ملائم لتربية الأطفال .

وعلى مدار الزمن استخدمت قوة عقوبات العادات والقانون والدين لتصون الزواج وتحميه ، ولتمكنه من الدوام بقدر الإمكان ، حتى يجد الإنسان تأميناً على أن أطفاله هم من دمه . وكذلك لا يرغب المجتمع فى الذين يأتون سفاحاً ، إذ سيعتبرون عبئا عليه . ولم يجتمع الرجال والنساء فقط لرغبتهم فى العلاقات الزوجية ، وليس لإعجابهم العميق ببعض ، ولكن لتكوين شركة جميلة متفاهمة . وكل هذا لم يكن الغرض الوحيد من الزواج ، بل كان أيضاً ليضمن الرجل نسلا شرعيا وربة منزل عطوفة ، وبالنسبة للمرأة الإطمئنان إلى سكن دائم وبالنسبة للأطفال رعاية الآباء .

ولكن منذ جيل أو اثنين كل هذا تغير ، فلم يعد الزواج نظاماً اجتماعياً صمم لإنتاج الأطفال، ولكنه تغير إلى علاقات شخصية بين الرجل والمرأة والذى قد ينتج أسلافا أولا ينتج (١) . فالمرأة لم تعد مثل ما كانت من قبل تعتمد اقتصادياً كلية على الرجل ، كما أنها لم تعد فى حاجة إلى سكن إذا كانت تريد أن تعمل . ومن ناحية أخرى أصبح الرجل فى قدرته أن يعيش مستريحا وهو أعزب دون ربة منزل ، وكذلك لم يعد الأطفال موارد اقتصادية يمكن للآباء أن يبعثوا بهم للعمل فى سن مبكرة ويمكن أن يعتمدوا عليهم فى الكبر ،

---

(١) Willystione : prodlems of the Family p. 429.

فالأطفال فى العصر الحاضر يعتبرون عبئاً اقتصاديا إذا عنى بتربيتهم وتعليمهم .

وهكذا أصبحت العلاقات السعيدة بين رجل وامرأة يحبان بعضهما هى فى المقام الأول ، وكل شىء بعد ذلك يعتبر ثانوياً بالنسبة لهذا الغرض . وهكذا أصبحت علاقات الحب الخالصة هى الغرض الأساسى فى الزواج ، وليس من العسير إدراك أن التكيف الذى يجب ان يصنعه اثنان جمعتها علاقات زواجيه وثيقة فى إحتكاك يومى أمراً صعبا ودقيقاً،ذلك أنه فى الزمن السابق هذا التكيف من فرد نامى الشخصية لآخر جعله أكثر سهولة أن المرأة هى التى كان عليها أن تقوم بأكبر جانب منه ، فكان واجبها أن تكيف طبيعتها وآمالها ورغباتها طبقا لرغبة زوجها ، ولكن فى الوقت الحاضر إذا أريد القيام بعلاقة سعيدة فى الزواج فكل من الشريكين يجب عليه أن يبذل جهده للتكيف للآخر لتحمل المسئولية والتكيف العاطفى ولرغباته ، وحتى فى وقت التسلية وفى كل أغراض الحياة ، هذا التكيف لطبيعة فرد لآخر هو إلى حد ما عملية حياة لأن العلاقات الشخصية فى الزواج ليست ثابتة ولكنها تتغير وتنمو ، وقد ألف برجس فى هذا الشأن كتابا أسماه .

The Family From an Institition to Companionship.

ولكنه اشتط كثيراً فى اعتباره أن الأسرة كنظام اجتماعى قد تغيرت إلى مجرد رفقة ومصاحبة ، إذ أن ذلك أمر فيه بعد كبير عن الحقيقة ، فيقول برجس Burgess : إن الأسرة منذ أقدم العصور التاريخية فى حالة تغير من نظام لضبط سلوك الأسرة والمعايير والرأى العام والقانون إلى نوع من الرفقة أو الصداقة مع سلوك أسرى ينبع من العاطفة المتبادلة واتحاد وتوافق أعضائها (١)

(١) Burgess and Loek : She Family. F.rm an Institition to Gompanionship.

ويعترض ديفز Davis على هذا الرأى فيقول إن الكتاب المحدثين لا يوافقون على هذه الصيغة من ناحيتين . الأول أن نظرية برجس Burgess تقول أن المعايير والرأى العام والقانون قد توقفت عن ضبط السلوك الأسرى ، ولكن هذا مستحيل اجتماعياً ، فالزواج والعلاقات الأسرية محددة إجتماعياً فهى نظم ، ولهذا فإنه من المستحيل أن توجد الأسرة دون أن تضبطها المعايير . فإذا كانت الأسرة الحديثة تؤكد الصداقة Companionship فليس هذا لأن المعايير لم يعد لها شأن مع الأسرة ، وإنما لأن المعايير قد تغيرت ، فنحن الآن لدينا نظام للمعايير فيما يتعلق بالزواج والأسرة يختلف عن السابق وكذلك يختلف المجال الاجتماعى الذى يستعمل فيه هذا النظام . وثانياً : إن نظرية برجس تعتبر أن وظيفة النظام يمكن أن تختفى ، وبهذا تتوقف الأسرة عن أن تكون نظاما إجتماعياً . وإذا قيل إن الوظيفة العاطفية يمكن أن تبقى قوية للأبد ، ولكن هذا التعاطف لا يقوم على الهواء ولا يعمل فى فراغ ، إذا لم يكن الزواج بطريقة ما يتضمن إشراك الزوجين فى نشاط عام ووظائف أخرى غير الاتصال الجنسى ، فإنه لا يؤمل منه إنتاج صداقة مشبعة مرضية أو الحصول على استقرار . وباختصار إذا فقدت الأسرة وظائفها الاجتماعية فإن التعاطف فى الأسرة ، بل الأسرة ذاتها ستفقد أيضاً . فلا يمكن حفظ أحدهما دون الآخر . وعدم استقرار الزواج الحديث يعرض بوضوح أنه أصبح عاجزاً عن أن يكون منبعاً أو مصدرا للأمن العاطفى (١) .

فالزواج نظام اجتماعى يقوم على أسس يرتضيها الأنا الاجتماعى المعبر فى بعض نواحيه عن سنن الجماعات وقوانينها . والذى خدع برجس هو تغير هذه السنن والقوانين والتقاليد ، وما أدى إليه التصنيع من تغير المجتمعات من السمات القروية التى كانت تظهر فيها قوة العادات إلى المجتمع الحضرى الذى يظهر فيه قوة

(١) Davio : Humau Society p. 425 — 426

القانون الوضعى كنظم العلاقات . ومن ناحية أخرى تظهر بوضوح فيه الفردية وقلة الارتباطات الجمعية التى تسود المجتمعات المحلية .

٢ ـ الزواج قبل التصنيع

فيما قبل التصنيع حيث كانت السمات القروية هى السائدة، بل وكانت حتى تمتد إلى الحياة الحضرية التى لم تكن قد تركزت مظاهرها بعد، وكان معظم سكان الحضر مازالوا يحتفظون بالعادات والتقاليد القروية، إذ كان لهم علاقات أسرية وثيقة ممتدة بالأسرة فى الريف ، فكانت السمات القروية ما زالت تؤثر فيهم . فى هذه المجتمعات كان يؤدى الوالدان دوراً هاما فى اختيار الزوج أوالزوجة لأطفالهما . ذلك لأن الأسرة كانت مهمة جداً كنظام اجتماعى لضبط السلوك لأفرادها ، ففى بعض الثقافات ربما تمتد سلطة الوالدين إلى عملية اختيار الزوجة حتى أنه فى بعض تلك الثقافات الفرعية كان يرى الخطيبان بعضهما لأول مرة فى حفلة الزفاف كما يحدث فى بعض القرى المصرية . بل إنه فى بعض الثقافات فى الوجه القبلى لا يرى الزوج زوجته إلا بعد الحفلة أى عند ما يدخل بها . ومن الواضح أن مثل هذه الزيجات ليس فيها شىء من الغرام . والنظرية التى تقوم على أساسها هذه الزيجات ، هو أنه ما دام الزوجان ذوى أصول متشابهة وصالحين لعملية الزواج ، فهما سيكونان متناسبين ومتوافقين ، وإذا اعتبر الحب شيئاً مهما فإن التوافق والتناسب يقومان بديلا للحب

وكانت هناك عوامل كثيرة تتداخل فى عملية اختيار الزوجة تنظمها ثقافة المجتمع، وتحكمها بيد من حديد تقاليده وأعرافه وعاداته ، مثل أصل العائلة والدين والجنس والتعليم والمركز الاقتصادى وكذلك كفاءة الشخص أو الشخصة المختارة ، كل هذه العوامل تتداخل لتحديد الشريك أو الشريكة ، ولكن توزيع الأهمية لكل عنصر هو الذى كان يتغير من ثقافة فرعية إلى أخرى، وكان السؤال المهم هو : من أى أناس هو أو هى ؟ فالمركز الاجتماعى للأسرة له أهمية

عقلى ذلك لأن الفرد كان ينظر إليه على أنه عضو فى أسرة أكثر من النظر إليه كفرد له حقوقه ، وكان الزواج عملا أسريا وليس فردياً إذ أنه ، يؤسس علاقات جديدة بين كل أفراد الأسرتين ، وليس بين زوج وزوجة . فلم يكن الوالدان لكلا الزوجين يتأثران ، بل كانت جماعة الأقارب فى كلا الجهتين تتأثر بالزواج ، ولذلك فهى تهتم به أيضاً . فإذا اقتنع أهل الزوج أو الزوجة بمركز الأسرة الاجتماعى ، يصبح السؤال الثانى عند أهل الفتاة : هل يمكن للرجل أن يكون زوجا صالحا ، وهم يعنون بهذا قدرته على العمل والكسب، ذلك أن كل فرد ينتمى إلى طبقة اقتصادية ، وكذلك إذا كان الأصل الأسرى للفتاة مكافئا لأصل الزوج ، فإن السؤال الثانى لوالد الزوج يتركز حول قدرة الفتاة على القيام بأعمال المنزل وإمكانياتها فى القيام بواجباتها المنزلية كزوجة . والجاذبية الشخصية ونوع الأخلاق هى أيضاً موضع اعتبار ، ولكنه طالما أن أصل الأسرة معروفاً فيمكن تقديره من خلاله .

٣ — أثر التصنيع فى الاختيار

(ا) تناقص الوظيفة الاقتصادية للأسرة :

عندما كانت سمات المجتمع القروى هى السائدة ، وعندما كان معظم ما تستهلكه الأسرة يصنع فى المنزل ، كانت الأسرة بطبيعة الحال هى النظام الاقتصادى الهام ، ولهذا كان من الطبيعى اهتمام كلا الزوجين بالمهارات الانتاجية طالما أنها ستحدد مستوى المعيشة التى ستكون عليها الأسرة . فالزوجة عادة تطلب رجلاً له مهارات إنتاجية أكثر من اهتمامها بشخصيته أو شكله أو أى اتجاهات أخرى عن الشخصية . وكذلك الزوج يريد زوجة تكون ربة بيت ممتازة وطاهية ماهرة وتستطيع أن تصنع كل ما يحتاجه المنزل .

وبتزايد التصنيع تركزت مظاهر الحياة الحضرية ، وتزايدت تبعاً لذلك الأسر الحضرية حيث يعمل الأزواج والآباء خارج المنزل ، فتغيرت أهمية المهارات الإنتاجية كميزة مرغوبة فى الزوجة ، بينما ظل قائماً الاهتمام بقدرة الزوج على أن يدر دخلا محترماً . ذلك أن الصناعات المنزلية التى كانت تقوم بها المرأة فى المنزل تحولت كلها من المنزل إلى المصانع ولم يترك للزوجة إلا الطبخ وإنجاب الأطفال ورعايتهم .

وضياع الوظيفة الاقتصادية من الأسرة لتحول هذه الصناعات إلى المصانع غيرت وظيفة المرأة الاقتصادية . والمدينة هى مكان زيادة التصنيع ومكان التغير الاجتماعى ، فتناقص وظيفة الأسرة كوحدة منتجة يلاحظ بوضوح فى الحضر المصنع . وبالطبع كانت هناك مدن قبل عملية التصنيع ، ولكن كانت الحياة الحضرية ضئيلة بالنسبة للحياة الريفية ، وكانت الحياة الريفية ذات أثر أكبر من أثر الحياة الحضرية ، فأسباب تحول نوع عوامل الاختيار للزوجة يرجع إلى زيادة حركة التصنيع التى غيرت من وظيفة الزوجة الاقتصادية .

وبينما كان هناك تغير فى الاتجاهات نحـــو الصفات المطلوبة فى الزوجة والزوج نتيجة للتصنيع والحياة الحضرية التى غيرت وظيفة المرأة ، كان هناك فجوة تخلف فى هذا التغير . ذلك أن الأفكار القديمة عن مكان المرأة فى المنزل وصفاتها المثالية كربة منزل ما زالت ثابتة . وبتضائل أهمية الأسرة كنظام اجتماعى اقتصادى نمت أهمية الشخص الفردية ، أى أن الوظيفة الاقتصادية أعطت مكانها للوظيفة الشخصية (١) .

---

(١) Ogburn & Nimkoff : op cit p. 53.

(ب) ظهور عامل الحب :

فى النظام الاقتصادى عادة ينظر إلى الرجل من خلال ما يمكن أن يفعله وليس كفرد . وهكذا فالزوج المنتج فى المجتمع الريفى يتزوج سيدة منزل ، وهذا يتضمن أن أى سيدة لديها قدرة على أن تكون سيدة منزل يعتبر هذا كافياً ومقنع لأن تكون زوجة صالحة .

ولكن بتناقص الوظيفة الاقتصادية للأسرة فى ظل التصنيع أصبح اختيار الزوجة يتوقف كثيرا على شخصيتها وعلى قدرتها على التوافق ومؤهلاتها كأم. ومن ثم أصبح لعامل الجاذبية الشخصية أهمية للصلاحية كزوجة ، طالما أن الألفة ذات وظيفة هامة فى الزواج . وعادة تأتى الوظيفة الجنسية بعد الزواج بينما يأتى ويسود الاهتمام بالحب قبل الزواج كعامل فى اختيار الزوجة . ومن هنا نشأت تلك الإصطلاحات الشائعة للتعبير عن هذه الفكرة مثل من السلطة إلى الصداقة From authorty to ccmpanionship ، وكذلك للتعبير عن نمو الوظيفة الشخصية بالإصطلاح Personalization of the Family :

وهكذا تزايد إهمية عامل الحب فى الزوج بينما تناقص العامل الإقتصادى. والعوامل الغرامية فى اختيار الرفيق تتزايد فى المجتمعات الحضارية المصنعة ، بينما فى المجتمعات التى ما زال فيها نظام الاقتصاد المنزلى سائداً مثل القرية ، يكون عامل الحب ذا أثر ضئيل فى اختيار الزوجة .

وكدليل لمعرفة الدوافع التى يتضمنها اختيار الزوج أو الزوجة فى المجتمعات الحضرية فإننا نتجه إلى عدة منابع مثل مواضع السينما والأغانى الشائعة ، وهنا سنجد أن الحب الخيالى يتضمنها جميعاً ، ونجد أنه فى معظم هذه الأفلام قد محى كثيراً من الدوافع ، وأهمها الدافع الاقتصادى . وكذلك نجد أن الاعلانات تعتمد فى كثير من الدعاية للبضائع على الحب ، فنجد مثلا أنه باستعمال معجون

من نوع كذا ستكسب الزوجة أو الزوج من يحب ، وإذا استعملت المرأة العطر من النوع ستكسب الخطيب الذى ترغب فيه ، وهكذا فى مختلف البضائع كلها إعلانات تستمد فى جوهرها على الحب .

والحب عاطفة قوية ، ككل العواطف تشتت الواقع ، رغم أن تحريف تلك العاطفه يكون أكثر جمالا من الواقع ، وهذا ما يعنيه المثل الشعبي (أن الحب أعمى) ، ولا تعنى بذلك أن عقل المحبين ليس موجوداً ، ولكن نعنى أن الحكم يكون ضعيفاً ومهزوزاً بهذا الإحساس القوى . هذا الشعور القوى يرجح المحب عند حبيبه ويمنعه من تقدير صفاته بعدالة ، ولا يكون الفرد فى موقف يسمح له بالتقييم لزميله تقييما موضوعياً . فإذا كان اختيار الوالدين المبنى على التجربة يتفق مع هذا الاختيار، فإن إمكانية السعادة تكون أكثر لأن الحب سيكون مضافاً إليه التوافق والتجانس فى العلاقات .

أما إذا أخذ الصغار باختبارهم هم فقط المبنى على الحب دون أن يأخذوا رأى آبائهم ذوى التجربة فإنه من الصعب هنا إيجاد نفس الموضوعية فى الاختيار .

بينما فى المجتمعات التى يختفى من ثقافتها أهمية الحب نجد أن أى امرأة تتساوى مع الأخرى وتستطيع أن تقوم مقامها ما دامت ذات مهارات اقتصادية ، أى أن أى امرأه تشابه الأخرى طالما أنها سليمة صحيا ولها مهارات فى الصناعات المنزلية .

ويتضح من ذلك أن مفهوم الحب ظهر عندما تضاءلت النظرة إلى المرأة كآلة منتجة فى الاقتصاد المنزلى القديم. وقد تطورت هذه النظرة ونشأه الاهتمام بالحب منذ تغير النظام الاقتصادى للأسرة نتيجة للتصنيع الذى عمل على خروج الوظيفة الاقتصادية من الأسرة وعلى نمو المدن .

(ج) ما بقى من دور الاسرة فى ضبط عملية الزواج :

فى مجتمع مثل مجتمعنا السريع التغير نظراً لتزايد حركة التصنيع فيه ، توجد أنواع مختلفة من الجماعات الثقافية ، وفى مثل هذا الوقت الذى يتميز بالانتقال السريع نجد أيضاً أنواعاً مختلفة ومتباينة من السلوك . ومن ذلك يتضح أنه يوجد أنواع كثيرة من دور الآباء فى عملية اختيار الزوج أو الزوجة. وأقوى تأثير أبوى فى عملية الاختيار هو إلى حد كبير تأثير غير متعمد ، فهو أولا عن طريق التوقعات الأسرية التى تتضمنها الثقافة والطبقة والمبادىء المرغوبة فى الشخص . وثانيا التأثير المتبادل فى التطور العقلى فى الأسرة الذى يخلق نمط الاستجابة التى يبحث عن مثلها الشباب ليخلدها فى الحب والزواج . هذا الدور الأساسى للأسرة فى عملية الاختيار يتلخص فى عبارتين هما مثال الرفيق Ideal Mate والصوره الأبوية parental Imag

١ — مثال الزوج أو الزوجة Ideal Mate

يستعمل اصطلاح مثال الزوج أو الزوجة لبيان التصور الذى يكونه الشباب عن صفات الشخص الذى يحب أن يتزوجه . عادة يحتفظ كل شخص صغير منذ بلوغه فى تصوراته بصورة فى بعض الأحيان تكون واضحة ومحددة عن فتاة أحلامه أو عن فتى أحلامها. وهذه الصوره الخيالية ربما تتضمن شكل الجسم والوجه والصفات العقلية والمزاجية والأخلاقية والمميزات الاجتماعية .

ومن ناحية أخرى فإن بعض الأشخاص لا يكونون مثالا للزوجة ، ولكنهم يستعملون ميزاناً مشابهاً لاختيار الرفيق على الأقل بالمعنى السلبى الذى يشتمل على الاعتبارات الفردية مثل: الجنس والتبعية والديانة والمركز الاجتماعى والاقتصادى ومستوى التعليم .

وقد دلت الدراسات على أن مفهوم مثال الزوج أو الزوجة يعمل كوسيلة شعورية بشكل قليل أو كثير فى عمليـة الاختيار . فدراسات أنسلم استراوش Anselm Strauss على ١٧٣ رجل و ٢٠٠ امرأة تزوجوا منذ سنه أو أقل ، دلت هذه الدراسات على أن المثال والرفيق الحقيقى كانا متطابقين أو متقاربين جداً أو متقاربين سواء من الناحية الجسمية أو من ناحية الصفات الشخصية . وقد كشفت الدراسة عن حقيقة هامـة ، وهى أن الفرد عندما يقارن الرفيق الذى اختاره أخيراً بذلك الذى كان يجب أن يكون ، لم يكن هناك تقريباً أى اختلاف بينهما وخاصة من الناحية الجسمية . أما من الناحية الشخصية فهناك بعض الاختلافات فى سبيل الحصول على النمط المفضل فى الزواج . هـذه الاختلافات يبدو أنها تدل على أن مظهر الجسم عامل رئيسى فى الاختيار الذى من خـلاله يظهر اختلاف الاختيار من ناحية أساس الشخصية(١) .

٢ — الصورة الأبوية Parental Imag

نظريات دور الصورة أو الطيف الأبوى هى أن الشخص لاشعورياً يميل إلى أن يقع فى حب شخص يشابه والده أو والدته . فى الطفولة المبـكرة عادة ينمى الشخص علاقة عاطفية قوية مع شخص أو أكثر من دائرة أسرته . وبصفة عامة بالنسبة للأولاد تـكون العلاقة مباشرة لأمه، وبالنسبة للفتاة تتجه العلاقة نحو والدها ، وفى بعض الأحيان يكون هذا التثبيت معكوساً ، بمعنى أن العلاقة العاطفية للأولاد تتجه نحو والدهم وللبنات تـكون نحو والدتهن . وفى بعض الأحيـان يشعر الأولاد أو البنات بعاطفة قوية لأخت أو لأخ ، وعادة رد الفعل لهذا الحب

---

(١) Burgess & Lock : The Family P 350 . 351

(٢) Ibid ., P. 366.

لا يتركز على عضو واحد فى الأسرة . فبالنسبة للولد قد يمتد إلى والدته أو إحدى أخواته ، وبالنسبة للفتاة يمتد إلى والدها أو أحد أخواتها . وربما فى بعض الأحيان يتجه نحو كل من الأب والأم ، وعلى أى حال فإن الاستجابة لهذه العلاقة فى الأسرة تجعل البالغين يميلون إلى الاستمرار فى هذا النمط فى علاقاتهم بالشخص الذى يقع فى حبه . فالأولاد يقعون فى حب الفتيات اللاتى لديهن نفس الصفات المزاجية والشخصية لأمهاتهم ، ويعملون على أنماء وإيجاد نفس العلاقات التى كانت بينهم وبين أمهاتهم . وإذا كانت علاقاتهم مع والدتهم فى طفولتهم غير سارة فإنهم يعملون على اختيار زوجة بصفات تختلف تماماً عن صفات أمهاتهم ، ولكن يؤسسون معهن تلك العلاقات التى كانوا يرغبون فيها وهم أطفال ، وإذا كانت علاقاتهم العاطفية مع والدهم أو أخواتهم كانت تمثل كل رغباتهم فى طفولتهم فهم يميلون إلى الاتجاه نحو هذا النموذج فى نمط زواجهم[١] .

وتساعد نظرية الصوره الأبوية فى تفسير لماذا لا يحدد الوقوع فى الحب العقل ولا التدبير والتفكير ، ولكن العواطف .

والتأثيرات الأخرى للوالدين فى عملية اختيار الزوجة أو الزوج هى عن طريق ضبط الاتصالات الاجتماعية للصغار ، وكذلك بالتدخل لوقف الصداقات غير المرغوب فيها،وكذلك رغبة الصغارفى اختيار رفيق يكسب تأييد الأسرة[٢] وخاصة فى الطبقة العليا وإلى حد ما فى الطبقة المتوسطة يؤثر الوالدان بدرجة ملحوظة فى الاتصالات الاجتماعية لأطفالهم ، ويحدث هذا بطرق مختلفة ، إما

---

(١) Ibid ., P. 367.

(٢) Ibid ., P. 351.

بإدخال أبنائهم وبناتهم منذ الصغر فى مدارس خاصة مختارة ، وتقديمهم إلى النوادى الخاصه ، ويرتبون شئونهم الاجتماعية ، ويرسلونهم إلى الجامعات التى تخرج منها آبائهم أو أمهاتهم ، أو إلى المؤسسات ذات المركز الاجتماعى العالى ، والانتقال إلى جوار آخر مختلف . وبهذه الطرق وأخرى يخلق الآباء مواقف وينمون توقعات للزواج من أفراد نفس الطبقة أو من طبقة أعلى . ويميل الصغار إلى قبول هذه المستويات كأنها نابعة منهم وذلك عن طريق الضبط بواسطة ضغط الجماعة من نفس سنهم ، وخاصة عندما تكون ميول الفرد هى تجنب الانحراف عن الأنماط المقدسة لديهم .

(د) عامل القرب :

نظرية القرب توضح أن الفرد يميل إلى الزواج من أولئك الذين يعيشون بجواره أو الذين يلعبون معهم أو زملائهم فى الدراسة أو فى العمل . ويظهر بوضوح أهمية الدور الذى يلعبه التصنيع فى ذلك بما أدى إليه من زيادة الاحتكاك بين الشبان والشبات فى المصانع ، وزيادة المواصلات وسهولة أدوات الاتصال ، كما أتاح حرية أكثر للأفراد بعيداً عن ضغوط الأسرة . وبعبارة أخرى عمل التصنيع على تجميع أعداد ضخمة من الشباب والشابات فى علاقات اجتماعية مباشرة داخل المصانع، ساعد ذلك على إنماء الروابط الاجتماعية التى أتاحت لهم ولهن اكتشاف الزوج أو الزوجة المناسبة . فالصناعة تحضر أعداداً ضخمة من الرجال والنساء معاً حيث يعمل القرب قواه فيهم . ويمكن القول أن هناك نسبة كبيرة من الزواج بين الرجال والنساء فى نفس المهنة أو بين الرجال والنساء الذين هم فى مستوى مهنى واحد . كما أثبتت الدراسات أن بنات العمال يتزوجن من عمال من نفس المستوى المهنى . وليس من المستحيل إثبات أن هذه الزيجات المهنية هى نتاج الاحتكاك المباشر فى العمل .

(هـ) المركز الطبقى وأثره فى الاختيار :

التصنيع يؤثر فى تشكيل الزواج عن طريق غير مباشر وذلك عن طريق المركز الطبقى . ولقد سبق أن أوضحت أن الطبقة ملتصقة تماما بالبناء المهنى للصناعة . فاذا كانت هناك أدلة على أثر التدرج الاجتماعى على الزواج فإن هذا دليل على أثر التصنيع على الزواج . وهذه الأدلة موجودة ، إذ أن هناك دراسات كثيرة تثبت ارتفاع نسبة الزواج بين الأسر التى تعيش متجاورة ، فإن دراسة بوزارد Bossard أثبتت أن أكثر من ٥٠ ٪ من طلبـــات الزواج التى قدمت لمكتب فلادلفيا كانت لزوجين يعيشان خلال بعد عشرين بلوك أو أقل وأن ١٢ ٪ من هذه الحالات كانت بنفس العنوان أى من منزل واحد . ولما كان الناس الذين يعيشون فى نفس المنطقة عادة يـكونون من نفس الطبقة الاقتصادية ومن نفس مركز الجماعة ، فهذا دليل على أن الزواج يحدث بين الناس من نفس المستوى الاقتصادى الاجتماعى(١) وهناك أدلة أخرى على تدخل الطبقة فى الزواج ويمكن مشاهدة ذلك فيما نراه من التشابه فى المركز المـالى للزوجين ، فإن التشابه فى المركز المالى يتضمن أيضاً التشابه فى المركز المهنى ، وهناك دراسة على ألف أسرة أثبتت أن المركز المالى لوالدى الزوجين متقارب(٢) .

(و) درجة التعليم وأثرها فى الاختيار :

التشابه فى كمية التعليم ونمطه عند الزوجين يؤيد التشابه فى المستوى الاقتصادى الاجتماعى الأصلى للزوجين . وذلك أن التعليم دليل حساس على المركز الاقتصادى الاجتماعى لأن التعليم هو نتاج لفرص الحياة وفى نفس الوقت تحديد هام لتلك الفرص . ومن ذلك يتضح أن الزواج يتم بين الناس الذين يدفعون إلى العمل

(١) Schneider : Industrial Sociology P. 431.

(٢) Ibid., P. 432.

معاً ، أو الذين يجمعهم معاً مركزهم فى البناء الاجتماعى. ومعنى ذلك أن التصنيع فى كلا الحالتين يؤثر فى تكوين الزواج فى المجتمع الحضرى المصنع ، وذلك عن طريق ما يحدثه من تغيرات فى البناء الاجتماعى للمجتمع .

وهكذا تميل الأسرة فى المجتمع الحضرى المصنع إلى التكوين على أساس الإختيار الحر للرجال والنساء . وهذا لا يعنى أن تكوين الزواج فى هذا المجتمع هو عملية اختيار طبيعى خالصة ، ولكن بالعكس ، لأنه يتأثر بشكل قوى بالظروف الاجتماعية ، هذه الظروف تضع حدوداً يعمل هذا الإختيار الحر فى إطارها . وعن طريق مباشر أو غير مباشر فإن الصناعة تعمل على تشكيل البيئة الاقتصادية الاجتماعية التى فيها يتشكل الزواج . فحالات الزواج مرتبطة تماما وكلية بالتوقعات والالتزامات سواء الرسمية أو غير الرسمية والتى ليست ببساطة هى مطلق الحرية فى الاختيار التى يهتم بها الأفراد(١) .

ولكن ما جعل لعامل الاختيار أهمية فى الزواج فى ظل التصنيع هو ما تميزت به الحياة الحضرية المصنعة من مشاكل كثيرة متعارضة فى هذا النظام الأسرى الحضرى الصناعى. فمنذ أن أصبحت الأسرة غير مقيدة بالأملاك المحلية والأرض أو بالأسرة الكبيرة ، فإن استقرار الأسرة ونجاحها أو فشلها أصبح يعتمد كلية على توافق الزوج والزوجة ، أى على قدرة الزوجين للتكيف لبعضهما ، والتوفيق فى حل ما يعترضهما من مشاكل فى ظل هذه الحياة الحضرية المصنعة الشديدة التعقيد ، وطالما أن كل شىء يتوقف على العلاقات المزدوجة ، لهذا كان من الأوفق أن يتم اختيار الزوجين على أساس من الاختيار الشخصى .

---

(١) Talcott Parsons & Robert F. Bales : "Family" Routledge and Kegan Paul, LTD. London 1956. p. 17.

٤ — اثر التصنيع فى السن ومعدلات الزواج

(ا) اثر زيادة الدخل :

لقد رأينا فى الفصول السابقة أن التصنيع قد عمل على زيادة الفرص المتاحة للعمل، وقد أدى أيضاً إلى خلق وظائف كثيرة، وعادة هذه الوظائف ذات دخل أعلى من الوظائف التى يتيحها المجتمع القروى .

من الطبيعى أن تكون زيادة الدخل سبباً فى زيادة معدل الزواج ، لأن كثيراً من الشباب يمتنع عن الزواج لعدم قدرته على إعالة الأسرة . كما أن من يعمل تصبح قدرته على الزواج أكثر من العاطل. وطبقاً لهذه فإذا زادت الدخول وإذا زادت الوظائف فإن معنى هذا أننا نتوقع زيادة فى معدل الزواج وكذلك صغر السن عند الزواج ، ذلك أن زيادة الزواج تتضمن زيادة الزواج المبكر أيضاً .

وهناك علاقة من نوع آخر بين الزواج والدخل ويبدو أنها عكسية ، هى أن الدخول المرتفعة جداً لها أثر معوق على الزواج ، وتدل الاحصائيات على أن نسبة الزواج عند الجماعات ذات الدخل المنخفض أعلى منها عند الجماعات ذات الدخل المرتفع (١) . ولشرح هذا التناقض فى العلاقة بين الدخل ومعدل الزواج نلاحظ أن هذا يرجع إلى أن المقارنة ليست بين ظاهرة واحدة ، وهى أن زيادة الدخل تحدث زيادة فى الزواج وبالتالى فى الزواج المبكر . ولكن فى الحقيقة أن المقارنة هى بين ظاهرتين ، الأولى هى الفروق بين الطبقات الاقتصادية الاجتماعية ، والأخرى هى الفرق بين دخول الأفراد فى نفس الطبقة الاجتماعية الاقتصادية . فالأفراد فى الطبقة الاجتماعية الاقتصادية ذاتها تزداد نسبة الزواج عندهم إذا حدثت زيادة فى دخولهم فى خلال وقت قصير . ولكن تقل نسبة

Ogburn & Nimkoff . Technolog and Changingy Family (١) p. 80.

الزواج عند الأفراد ذوى الدخول المرتفعة عنها عند أفراد طبقة أخرى ذات دخل منخفض ، فلكل طبقة عادات مختلفة عن الأخرى وهى بدورها تؤثر فى السن عند الزواج وأيضاً فى نسبة الزواج .

فالشباب فى الطبقات ذات الدخل المرتفع جداً يمضون سنين أكثر فى سبيل الحصول على وظائف ذات دخول مرتفعة ، وكذلك تكون التوقعات لمستوى المعيشة لزوجة من هذه الطبقات مرتفعة، ولهذا فعلى الرجل أن يعمل أكثر ليصلح زوجاً لفتاة من هذه الطبقة مما لو كان فى طبقة ذات دخل أقل . ففى الطبقات ذات الدخل المرتفع يمضى الشباب سنين طويلة فى التعليم وتلك بدورها تؤجل السن عند الزواج . فهناك علاقة طردية بين السن عند الزواج الاقتصادى الاجتماعى للأسرة فالأسر التى مركزها المهنى عال يميل السن فيها عند الزواج إلى الارتفاع[1] .

وإذا قارنا سن الزواج عند الطبقات ذات الدخل المرتفع فى الريف والحضر نجد أن السن فى الريف منخفض عنه فى الحضر . وذلك لاختلافات العادات لكلا الطبقتين . ولهذا يمكن القول أن أثر الدخل على الزواج يتوقف على مدى التغير فى العادات والتقاليد التى صاحبت التغير فى الدخل سواء بالزيادة أو النقص كما هو موجود بالطبقات الاجتماعية[2] .

(ب) توظف المرأة وأثره فى الزواج :

من أهم العوامل التى تؤثر فى الزواج اشتغال المرأة ، ونحن نعلم أن التصنيع كان من أهم العوامل على زيادة اشتغال المرأة . فحيث النمو المضطرد فى المصانع وما تتطلبه من حياة حولها نجد زيادة فى نسبة النساء العاملات خارج المنزل .

---

(١) Schneider : Industrial Sociology. p. 434.

(٢) Ogburn & Nimkoff : Technolog and Ghanging Family. p. 81.

وهناك احتمالان متضادان لأثر توظف المرأة على مسألة السن عند الزواج :

الأول : أن الفتاة العاملة قد تؤجل الزواج فى انتظار فرصة أحسن إذ أنها فى وضع يمكنها من الانتظار طالما أنها تستطيع الاعتماد على نفسها اقتصاديا ، وليست مضطرة كأختها القروية إلى قبول أول رجل يطلبها .

الثانى : وهو الاحتمال المضاد للأول، وهو أن الفتاة العاملة قد ترى فى نفسها القدرة على المساهمة فى نفقات الأسرة المزمع تكوينها فتتزوج مبكراً عن تلك الفتاة غير العاملة التى عليها أن تنتظر حتى يصبح زوجها فى حالة اقتصادية تمكنه من الانفاق على الأسرة وحده .

وهنا أيضاً تلعب العادات والتقاليد دوراً هاما فى تحديد غلبة أى من الاحتمالين السابقين . والمعروف فى جمهورية مصر العربية أن الثقافة الشرقية التى يؤدى فيها الدين دورا كبيرا إذ يدعو إلى الزواج المبكر وقاية من الانحراف ومن جهة أخرى تلك المعتقدات المترسبة فى الثقافة المصرية من المجتمع الزراعى أن المرأة مكانها المنزل جعلت الفتاة المصرية وأسرتها ترى فى الزواج الهدف الأساسى لحياة الفتاة الاجتماعية ، وحيث تقوى هذه العادات والتقاليد نرى أن توظف المرأة كان عاملا مساعدا على الزواج ، وبالتالى الزواج فى سن مبكرة . هذا ما نراه فى الطبقة المتوسطة والمنخفضة حيث هذه القاليد فى الطبقة المتوسطة تدفع الأسرة إلى الإسراع بزواج فتياتها . وكذلك فى الطبقة المنخفضة التى معظم أعضائها مازالوا يحملون فى ثقافتهم آثار ورواسب سمات المجتمع القروى الذى هاجروا منه ، فتعمل تلك الرواسب على زيادة حدة فاعلية التقاليد ، ولذلك نرى أن هذه الطبقة قد أتاح التصنيع لبناتها فرصة عظيمة للعمل فى المصانع وأنواع الخدمات التى تحتاجها الصناعة ، مما أتاح لهن القدرة على المساهمة

فى نفقات الأسرة ، مما أثر فى زيادة معدلات الزواج عند هذه الطبقة وأكثر فى الزواج فى سن مبكرة .

أما فى الطبقة العالية حيث تخف وطأة هـذه التقاليد والعادات نرى أن الفتاة يتأخر سن الزواج من ناحية ، ومن ناحية أخرى تنقص معدلات الزواج ذلك أن لديها القدرة الاقتصادية على الانتظار حتى يأتى الزوج الذى لديه القدرة الاقتصادية التى تتناسب وطبقتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى الذى يتفق وصورة فتى أحلامها ، بينما فى نفس هذه الطبقة نرى الأسر ذات الصلات القوية بالدين والقرية أى التى ما زالت تحمل فى ثقافتها آثار المجتمع القرى ينخفض فيها السن عنـــد الزواج ، وتزداد معدلات الزواج عندها إذ تكون القدرة الاقتصادية عاملا مساعدا على ذلك .

٥ — تناقص معدلات الزواج عند المتعلمات

لقد دارت مناقشات عديدة حول الموضوع وكلها تميل إلى إلقاء المسئولية على المرأة فى ذلك . فإذا قيل إنها حتى هذا الوقت: العادات الاجتماعية فى مجتمعنا تمنع المرأة فى البدء فى إجراءات أخذ زوج ، وتمنعهن من إظهار ذلك سواء بالكلمة أو بالنظرة للرجل الذى لم يعلن بعد حبه لهن . وأنه من الصعب رؤية لماذا يلقى اللوم على الجنس فى تنظيمه لمن يقوم بالدور السلبى فى الزواج . إذا توقف التحريم ضد الفتاة فى أخذها المبادأة فى المساواة بالرجل فى محاولة التعرف على بعضهما بشكل أحسن والوقوع فى الحب والزواج ، فان هذا قد يجعل معدلات الزواج تعود إلى الارتفاع . ولكن بالتأكيد لن يختفى التحريم حتى يزداد عدد النساء اللاتى يستطعن الاعتماد على أنفسهن اقتصاديا ، ويظهرن قوة فى الوقوف على أقدامهن بعد الزواج ، ذلك لأن التحريم له جذور تمتد فى أعماقها إلى سبب اقتصادى . وطالما أن المرأة عند الزواج تتوقف عن العمل

المزيج وتنظر إلى زوجها على أنه العائل لها ، وطالما هي تعتمد عليه في ضروريات الحياة ، فهي ممنوعة من حرية البحث عن الرجل كشريك لها بنفس الحرية التي للرجل في البحث عنهـا كزوجة له . ولـكن الحدود الموضوعة للمرأة الصغيرة بشأن موضوع الحصول على زوج لها هي بالطبع عامل واحد لانخفاض معدلات الزواج بينهن . ولـكن السبب الرئيسي هو بالطبع يـكمن في أن التعليم والعمل المهني أعطى استقلالا للمرأة تماما كما فعل بأخيها . فالمرأة الذكية التي أثبتت قدرتها في اختيار وشق مستقبلها ، والتي وجدت الحياة تنفتح لها للارتفاع تفـكر مرتين قبل الزواج، وذلك لعده أسباب ، في المقام الأول أنها قد رسمت لنفسها مثلا في الحب والزواج على أساس المساواه والصداقة التي لا يوافق عليها معظم طالبي الزواج منها ، فمنذ ٢٠ سنة كانت المرأه توافق على التنازل عن هذا من أجل الهروب من الوقوع في أن تـكون عانسا عجوزا ، والتي ينظر إليها كل الناس على أنها فاشلة اجتماعياً ، ولـكن في الحيـاة الحضرية المصنعة الضبط الاجتماعي الذي يتمثل في العادات والتقاليد ، الذي كان يدفع المرأه المتعلمة للزواج قد خفت بشـكل عظيم وبدلا من أن تخفض مستواها ، فإنها تستطيع أن تستمر في العمل آملة في الحب الذي هو أيضاً صديق ، وتنظر إلى العالم بشجاعة لا تتأتى إلا لإنسان يستطيع أن يعتمد على نفسه ، ولديه الاكتفاء الذاتي اقتصادياً .

وأيضاً العروس المتعلمة التي بنت نفسها وتعلمت مهنة تفـكر طويلا قبل أن تعلن حبها وقبولها أن تـكون ربة منزل كمكافأه زواجية حتى للرجل الذي تحبه . وهذا ربما يكون شيئاً محيراً ولـكنه موقف لا مناص منه ، فهو موجود في كل مكان ، وهذا هو الموقف الذي تجد كثير من النساء أنفسهن أمامه عند الزواج . فقد تعلمت واتخذت لنفسها مهنة ، فهل تقبل أن تدع كل هذا لتصبح زوجة وربة منزل وأما . وحتى يمـكن أن نجد حلا لرغبة المرأه المتعلمة في أن تحب

وأن تنسل ، وفى مقابل هذا رغبتها فى التعبير عن نفسها وتنمية نشاطها الذاتى الذى منحه إياها الاستقلال الذاتى ، فإنه سيظل معدل الزواج بين المتعلمات منخفضاً .

وهذا هو أحد نتائج الحياة الحديثة التى صنعها التصنيع وأدت إلى ظهور الفردية ، التى أبرزت معنى قيمة الشخصية والمسئوليات الشخصية للعمل ، وأيضاً الاعتقاد فى أن كل إنسان له الحق فى تنظيم حياته التى صنعها ، وأن ينمى قدراته وأن يكون سعيداً .

ما زالت العادات والتقاليد والعرف فى بيئتنا تميل إلى تمييز الرجل المتعلم عن المرأة المتعلمة ، وإن كان قد خف هذا ، إلا أن المرأة مازالت متأثرة بشدة بالمعايير القديمة التى جعلت وقررت أن القيام بالواجبات المنزلية والأمومة هى المجال الطبيعى للمرأة ، وليس فى هذا المعنى أى أنانية ، فآلاف من النساء الصغيرات التى أتيحت لهن الفرصة فى العمل سنين عديدة قبل أن يأتيهن الزواج ، كن يعلمن أن عملهن كمدرسة أو طبيبة أو مهندسة فى مصنع كلها ذات قيمة اجتماعية إيجابية إلا أنها ثانوية بجانب الزواج ، والدليل على ذلك أن كثيرات منهن يتركن العمل من أجل الزواج .

وهناك سبب آخر لانخفاض معدلات الزواج بين النساء المتعلمات . المرأة المتعلمة فى احتكاكها بالصداقة مع الرجال لا يخفى عليها أنه تحت ظل كل الشبان المتعلمين الذين يحتكون بها تكمن فكرة نقص المرأة ، وأنها ذات مرتبة ثانية . وفى الحقيقة عدد ضئيل من الرجال الذين ينظرون بحق إلى المرأة كشخص مساو لهم . قليل من الرجال لديهم تقدير حقيقى لفردية الفتيات اللاتى سيعجبون بهن ، أو المرأة التى سيتخذها أحدهم زوجاً له ، ورغم هذا فإنهم يهتمون بمنع

هذه الفردية من الظهور . وما زالت النساء عند عدد كبير من الرجال الذين يتحدثون عنهن ويفكرون فى دورهن ، وأيضاً عن وظيفتهن الحيوية بطريقة تدل على عدم إحساسهم بأن فردية النصف البشرى المؤنث لم تأخذ مكانها بعد . هذا الاتجاه سيختفى ولكن ببطء جداً حتى بين الرجال الأذكياء والمتعلمين جداً . ذلك أن جذورها تمتد عميقا فى العادات والتقاليد الاجتماعية . وهذا بدون شك يعد عاملا مهما يجعل المرأة المتعلمة حذرة فى دخولها فى قيود الزواج. وأن تتخلى المرأة عن قدرتها على الاعتماد على نفسها اقتصاديا ، وكذلك حريتها الشخصية واعتبارها كفرد مستقل له أفكاره وآماله وقيمه ، هو شىء أكبر مما تستطيع المرأه المتعلمة أن تقدم عليه ، أى أن تدع كل هذا من أجل الزواج ، لهذا فانهن أدرن ظهورهن للزواج وبدون شك بأسف عميق ، مفضلة أن تختار العمل حاملة معها قدرتها على العمل والاعتماد على نفسها واستقلالها . وهذا يقتضى أنه على الرجال أن يغيروا اتجاهاتهم نحو النساء حتى لا يجعلوا المرأة المتعلمة تحجم عن الزواج وتنظر إليه على أنه تنازل عن حريتها أو تسليم بأن تصبح خادمة .

الفصل الثالث

من ناحية التربية

١ — التربية من وجهة النظر الاجتماعية

التربية ، (إنه من المعروف أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة تربية Educare التي تشير إلى تنشئة الأطفال بدنيا وعقليا . إنها كلمة ذات دلالة واسعة . مثلا إننا نقرأ أنها تهتم وتختص بكل الأنواع التي تكتسب خلال التعليم الفردي والتدريب الاجتماعي الذي يساعد على السعادة والكفاءة والقدرة . وأشار آدمز Adams إلى أن التربية ليست مجرد إعطاء كمية معينة من المعارف، ولكنها أيضاً تحسين طبيعة التلميذ(١) .

(والتربية كنظام اجتماعي هي نتيجة مباشرة للضبط الاجتماعي أكثر منه عملا فرديا)(٢). فالتربية نظام اجتماعي ينشأ تلقائياً في المجتمعات البشرية ، ويظهر الأفراد فيجدونه قائماً فيها ، فهو نظام خارجي سابق لوجودهم ، وهو أيضاً نظام لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية ، ويأخذ به الأفراد إجباريا لأن الجزاء ينتظرهم إذا خرجوا عن حدوده . ولهذا كانت التربية نظاما يضعه المجتمع لنفسه خاضعاً في ذلك لظروف المكان والزمان . (ولهذا يجب أن نميز بين الرسمي من

---

(١) Mannheim. Karl & Stwart, W A. «An Introduction to the Sociology of Education» Routledge & Kegan Paul London 1962 p. 15.

(٢) Marshall E. Jenes : «Basic Sociological Principles» Gennarnd Com. Boston 9148 p. 301.

مظاهر التربية المنظمة institutionalized مثل التى توجد فى المدارس، والفكرة الأكثر اتساعا وعمومية عن التربية الاجتماعية social education التى تنشأ من تأثير المجتمع المربى، حيث يربى خلال استخدام تأثير المجتمع . إننا لا نستطيع أن نفكر فى مصطلحات من الأقسام . هنا نحن نتعامل مع كل من المدرسة فى المجتمع، والمدرسة والمجتمع. أو بمعنى آخر فإن التربية يجب أن تعتبر واحدة وغير قابلة للتقسيم، التى فيها المدارس الرسمية، وكأنها هامة فإنه يجب فى كل الأحوال أن تنسب وترتبط بالعوامل الأخرى فى المجتمع)[1]. ومن ثم فالتربية فى نهاية الأمر تعميم وتخصيص لأنها من جهة تربط الفرد بالتراث العام للمجتمع فى سائر مظاهره ، ومن جهة أخرى تربط الفرد بالمحيط الخاص الذى يعيش فيه سواء كان ذلك طبقة اجتماعية أم أسرة أم مهنة . فكل ثقافة ترى أن التربية ضرورية للتنظيم والتأثير على الأطفال ليتعلموا أنماط الجماعة فى الحياة. فالتربية هى المسئولة عن إعداد الأجيال القادمة، ومن خلال مؤسساتها ومناهجها وفلسفتها ترسخ فى الأذهان القيم الاجتماعية التى تحقق مزيداً من التفاهم الفكرى ومزيدا من التراكم الثقافى ، وفى هذا إبقاء على استمرار النمو الحضارى .

وتعتبر الأسرة النظام الاجتماعى الأول الذى يؤثر فى حياة الفرد ويتعهده بالتربية بما تحتوى من علاقات وأنماط ثقافية تعبر عن الثقافة الأصلية. كأسلوب الزواج والعلاقات الزوجيه وعلاقات الآباء بالأبناء، والتماسك العائلى والمسئوليه المرتبطه به، وغير ذلك من الاتجاهات السلوكيه والممارسات الاجتماعية التى يتعرض

---

(١) Mannheim & S. : op. cit., p. 20

لها الفرد منذ نشأته لمدى كبير . وتتمثل الوظيفة التربوية للأسرة من ناحيتين جوهريتين :

(ا) أنها أداة لنقل الثقافة إلى الطفل ، فهى الطريق لمعرفة ثقافته وبيئته والأنماط السائدة فيها ، كأنواع الاتصال من إشارات ولغة ووسائل وأساليب الانتقال وتبادل السلع والخدمات ، ونوع الملكية ومعناها ووظيفتها والأنماط الأسرية والجنسية من زواج وطلاق وقرابة ، ومعايير وقوانين وقيم اجتماعية وأنشطة وأفكار ومراسيم دينية وعقائدية، واتجاهات اجتماعية كالتنافس والتعاون والتحيز والتسامح والتعصب .

(ب) أنها تنتقى من البيئة والثقافة ما تراه هاما تقوم بتفسيره وتقويمه وإصدار الأحكام عليه ، مما يؤثر على اتجاهات الطفل . وهذا يعنى أن الطفل ينظر إلى ميراثه الثقافى من وجهة نظر أسرته ، فيتعلم منها الرموز ولغة مجتمعه ، مشاركا فيها المشاعر العامة ، ونجد أن اختياره وتفهمه للأشياء متأثراً بنوع اختيار أسرته لها ، هذا إلى جانب تأثره بنوع الآمال التى ترسمها الأسرة والتطلعات التى تتضمنها ومستقبل أعضائها ، بل إننا نجد أن كثيراً ما تفرض آمالها ومثلها العليا على أطفالها .

فالأسرة لا تنقل التراث الثقافى بطريقتها الخاصة فحسب ، بل إنها تطبع أطفالها بالثقافة من خلال تصوراتها الفكرية عن العلاقات الاجتماعية السائدة ، ونتيجة لهذه العملية وهى عملية الاختيار والتقويم من جانب الأسرة تتكون المعانى لدى الطفل وقيمه . فكل ثقافة لها معاييرها وآدابها الشعبية وثوابها وعقابها . غير أن هذا كله متأثر بطريقة معالجة الأسرة لها وبالأسلوب الذى تنقله إلى أطفالها . ومن هنا تنمو شخصية الطفل فى سلسلة من أنواع الاختيار والانتقاء ويتشرب القيم المتأثرة بنظرة الأسرة .

وهناك الأثر التربوى للأسرة من خلال الطبقة الاجتماعية من حيث تشكيل اتجاهات الفرد ونظرته إلى الأمور والأحداث والعلاقات الاجتماعية . فإن أى مجتمع قومى ينقسم سكانه إلى عدد من الجماعات ذوات المصالح المختلفة . فكلما تميزت هذه الجماعات تميزت مصالحها وظهرت فى صورة طبقات لكل منها اتجاهاتها . ويكون للأسرة الأثر الكبير فى نقل هذه الاتجاهات الطبقية إلى الأطفال ، ومن ثم تمايز اتجاهاتهم فى معانيهم المختلفة الخاصة بمعنى التنافس والتعاون والعلاقات الاجتماعية والآمال والآلام . بل قد تؤثر الأسرة على الطفل بهذه الاتجاهات قبل أن يحتك بالدوائر الاجتماعية الجديدة . فالطفل يتعلم من أسرته أسلوبا معيناً من الحياة على أساس وجوده فى طبقة معينة ومكان معين ووطن معين ، فيتعلم كيف يكون مزارعا أو صانعا أو موظفا أو منافسا أو متعاوناً ، وهذا يعنى أنه يتعلم التوجيه الثقافى لطبقته ، لأن الأسرة هى المسئولة الأولى عن اتجاهات الناشئين فى هذا الشأن ، سواء فى المجتمعات التى يسود فيها النظام الطبقى ، أو فى المجتمعات التى تأخذ بمبدأ تذويب الفوارق بين الطبقات .

والأيديولوجية لها أهميتها فى تربية الأطفال والشباب والكبار على السواء ، وتساهم الاسرة بدورها فى هذا الدور . فيولد الأطفال فى أيديولوجية معينة تقوم على أسس لغوية وتاريخية وجغرافية وعاطفية تكون إطارها ومحتواها . وقد يحدث هذا التأثير فى صورة خفية وإن كانت مستمرة . فالصغار يتعلمون هذه التصورات الفكرية ويتشربونها ، فمن اتجاهات آبائهم وهم الكبار بصفة عامة تنتج ارتباطات عاطفية بقيادة المجتمع وتقاليده وخبراته واتجاهاته وآماله وآلامه ، فيتولد نتيجة لهذا الشعور بالولاء والفخر والإحساس بالمشكلات والأمجاد ، ويزداد هذا بتميزهم بين هذا الوطن وغيره من الأوطان التى تختلف فى نظمها الثقافية ، فيكتسبون معانى معينة لخبرات كثيرة وشعارات وألفاظ وكلمات

قد تختلف عن المعانى التى توجد عند غيرهم من أبناء المجتمعات الأخرى ».
وتشمل هذه الأيديولوجية أيضاً أنماطاً أخرى فرعية يستخرج منها الأطفال الكثير من المعانى السلوكية التى تتمثل لهم أكثر من معان قريبة إلى إحساساتهم وإدراكهم سواء أكانوا فى الريف أم فى الحضر فى الوطن الواحد . وبالتالى ينعكس هذا الاختلاف بين هذه البيئات على العلاقات الاجتماعية ومعانى الأشياء وطرق المعيشة والآمال والأهداف .

وتلعب جماعة الرفاق دوراً هاماً فى نمو شخصية الطفل وتربيته ، إذ هى المجال الاجتماعى الذى يتعلم منه الأنماط السلوكية ، وتزداد أهمية هذه الجماعات فى المجتمعات المعقدة التى انصرفت فيها الأسرة عن كثير من وظائفها الأولى بالنسبة للأطفال الناشئين ، بل إنها تزداد أهمية وتأثيراً فى المجتمعات الحضرية وفى المدن بصفة خاصة . فمنها يتعلم الأطفال والشباب كثيراً من الأمور التى لا يعرفها الآباء أو الكبار بصفة عامة ، ومن ذلك الأغانى والألعاب والمبتكرات الحديثة فى الأزياء والآلات ، كما يتعلمون منها عبارات واتجاهات قد تكون غريبة عن الآباء ، ثم إن هذه الجماعات تقوم بتدريب الطفل وفق مطالب زملائه وتنمى عنده ضميراً اجتماعياً ، وتوفر له مجموعة من القيم والاتجاهات الخاصة بسنه وبجنسه ، بل إنها قد تنمى عنده استقلالا عاطفياً عن أسرته ، بل إن كثيراً من المراهقين يتعلمون كثيراً عن معنى الصداقة والجنس والدين فى غضون هذا السن وداخل جماعة الأتراب .

واللعب بما فيه من ألعاب رسمية وغيرها يقوم بدور فى تربية كل من يشترك فيه بطريقة سلبية وإيجابية ، ففيه يعرف الطفل قوانين اللعب وأنواعه ومعنى المشاركة فيه والقيادة والتبعية ، كما يتعلم القيم والمستويات الخلقية والاجتماعية التى تربط جماعات اللعب . بل إنه عن طريق هذه الألعاب المتنوعة ربما يكتشف

الفرد عن نفسه وإمكانياته ودرجة استعداده من قوة أو ضعف فيعمل على توجيهها أو تثبيتها . وتبدو أهمية اللعب للباحثين فى ملاحظة السلوك الإنسانى للأطفال والشباب ليتلمسوا منها المظاهر العامة للسلوك وللوصول منها إلى اكتشاف أو معرفة خصائصهم فى سن معينة ، كذلك عن أنواع السلوك من تنافسى أو تعاونى ، ومن إيجابى أو سلبي ومن انطواء أو انبساط وهكذا .

والمؤسسات الدينية لها دور كبير ، فعن طريقها يتعلم الفرد المبادىء الروحية وما تتطلبه من ممارسة الدين من صلوات وشعائر ، وتتضح أهمية هذه المؤسسات فى أنها تشمل قطاعات كبيرة من الناس ، وأنها لا تعترف بما بينهم من فروق اجتماعية واقتصادية ، وهى فى مجالها قد تقوم بالدور الذى تقوم به الإذاعة والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام الحديثة فى تكوين الرأى العام والتأثير عليه . فهى تقوم بتثبيت عقائد الناس وتوجيههم ودفعهم إلى التزام المبادىء والقيم الروحية فى علاقاتهم وحياتهم العامة .

وفضلا عن ذلك فإن خبرات الحياة بصفة عامة تؤثر على كل منا ولو بدرجات متفاوتة وفى اتجاهات مختلفة . ففى دوائر العمل نتعلم معنى العلاقات الاقتصادية ومعنى الحق والواجب ، كما نتعلم مهارات متعددة فنية واجتماعية ، ونحدد أهدافنا ونستنبط وسائل تحقيقها ونتعرف على كثير من القيم . والظروف والتنظيمات الاقتصادية والسياسية ، كذلك تأثيرها فى تكوين وجهات نظرنا بشأن حقوق المواطنة وواجباتها وأبعادها . وللأحداث والأشياء التى تتعرض لها فى الطريق قيمة فى إدراكنا للكثير من الوسائل ، فنظام المرور وأساليب عرض البضائع والسلع وطرق البيع والشراء ، ومعاملتنا مع الآخرين وغيرها تؤثر على اتجاهاتنا وعلى خبرتنا العامة .

وفى سياق العلاقات الاجتماعية العامة التى نعيشها فى الأسرة وفى الطريق والمؤسسات العامة نعرف معنى السلطة والحرية وأنواع العقاب والثواب والقيم الجيدة والسيئة ، ومعنى الصداقة والزمالة والحق والواجب ، وغير ذلك مما يؤثر على كل منا فى علاقاته بالآخرين وفى حياته الخاصه[1] .

وهكذا فالهيئة التربوية الرئيسية فى المجتمع هى جماعه الناس التى فيها يعيش الطفل والأشياء التى يخلقها هؤلاء الناس ، علاقاتهم ، ثقافتهم ، وصلتهم بالمجتمع الكبير الذى هو من ورائهم . فى مثل هذا التصور تنمو فكرة التربيه فى التوفيق بين المتطلبات التى خلقها المجتمع الذى يعتبر الفرد جزءاً منه ومتضمنه فى داخل هذه الفكرة معرفة التأثير المقصود والعام المتولد بواسطه هذا المجتمع .

استخدم سير فرد كلارك Fred Clarke كلمة مجتمع مربى Educative society ويعنى بهذه الكلمة .

أولا : التأثير التربوى للمجتمع .

ثانياً : التربية التى تكتسب خلال عضويته فى المجتمع .

ثالثاً : التربيه المتعلقه بالمجتمع والمنسوبة إليه .

وبما أننا ننتمى إلى جماعات مختلفة مثل الأسرة ، والمدرسة ، والجيران ، والمدينة والأمة فنحن ننظم بواسطة وحسب تقنينات وأفكار تسود فى داخل ذلك المجتمع[2] وهناك سببان رئيسيان لهذا الضبط .

الأول : أن الصغار يجب أن يتعلموا أشياء معينة عن البيئة التى يعيشون فيها وشيئاً عن العلاقات الثقافية لهذه البيئة حتى يمكنهم الحياة . (ومن الحكمة

---

(١) الدكتور محمد الهادى عفيفى : «التربية والتغير الثقافى» مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤

(٢) Mannheim & Stewart : op. cit., p. 19.

فى هذه الرحلة التمييز بين المعنى الضيق والواسع الذى نستعمل فيــه هذا الاصطلاح . اعتبر دلتى W. Dilthy التربية كنشاط للتنمية ولتشكيل عقل الجيل الصغير . فنى التربية يؤثر الفرد فى الآخر من أجل تحسين نموه ، أى أن هذه العملية ليست فقط واعية ولـكنها معتمدة ، لأن المربى لديه الوعى الكامل فى سبيل تشكيل أو تحسين التلاميذ . فهناك وسيلتان بواسطتهما يمكن تحسين الأطفال.

الأولى : بواسطة تقديم أنواع معينة من المعارف فى أشـكالها المختلفة اختارها ونظمها المربى الحـكيم .

الثانية : خلال العلاقة المباشرة وغير المباشرة لشخصيتين (١) .

ولنأخذ مثلا من ثقافه بسيطة ، فنرى أنه على الأطفال أن يعرفوا المخاطر التى تحيط بهم ، مثل التهديدات المحتملة التى تتضمنها الحيوانات التى تحيط بهم . وإذا كانوا لا يعرفون هذه الأشياء فإنهم يواجهون خطر الموت مبكراً .

والموت المبـكر لجزء كبير من الأطفال يهدد بوضوح استمرار وجود جماعتهم . وفى مجتمعنا النمط العـام للتربية له نفس الأهداف السابقة إلا أنه يختلف فى التفاصيل ، فنحن نعلم الأدوات الأساسية للفهم والمعرفة عن طريق الـكتابة والقراءة والحساب ، وهى آلات مفيدة فى ثقافتنا ، ولـكنها ذات فائدة محدودة جداً فى مجتمع مثل مجتمع الغابة . ونحن نقر فى الأذهان قواعد السلوك : لهذا فإن المدارس تعتبر شيئاً هاماً جداً فى مجتمعنا حتى أننا فرضنا التعليم الإجبارى فى المرحلة الأولى بقوة القانون ، وهو الشـكل الاجتماعى عندنا فى سبيل تعليم النشىء .

والسبب الثانى : هو أن الأطفال عليهم أن يتعلموا أيضاً الوسائل التى تمـكنهم من شغل مركز وظيفى فى البناء الاجتماعى . فهم يتعلمون بعض المهارات

---

(١) Ibid., p. 16.

الاقتصادية والمهنية وكذلك يتعلمون شيئاً عن وظيفتهم كمواطنين، وهذا يؤهل الصغار للإنخراط فى المجتمع بحكمة ورؤية .

والتربية يمكن أن تنشأ من الموقف الاجتماعى : إذا كانت الحاجة إلى التربية تنشأ بين أناس يعيشون معاً ، يصبح أحد أهدافنا هو تمكين الناس من المعيشة معاً ، بأسلوب أكثر نجاحا بأوسع معنى لهذا المصطلح . وحيث تنمو المجتمعات ، تنمو الأساليب العادية لتنظيم حياتهم أيضاً، وتلك يسميها الإجتماعيون «النظم الإجتماعية للمجتمع» والنظم تقوم بدورها لتساعد على تحديد مجال الصراع المقبول والانسجام، أى أنها تقدم مساهمتها لنمو مظاهر السلوك الفردية والاجتماعية . بينما الأخلاق تقدم : كيف يسلك الإنسان : فالتربية ديناميكية على كلا الجانبين، أى أنها تتفاعل مع النمو المناسب للأفراد ، وبالمثل مع التغير والنمو للمجتمع .

فالمجتمع قبل الثورة كان النظام التربوى فيه محصوراً فى حشو رؤوس التلاميذ بأنواع المواد المختلفة التى لاعلاقة لها بتربية الفرد ، بل بتعليمه . وكذلك يمكن القول دون خطأ كبير بأن النظام التربوى السابق كان نظام تعليم فقط، والموقف الآن يتطلب نظاماً تربوياً ذا فاعلية لبناء أعضاء مجتمع متفاعلين بينهم وبين البعض، وبينهم وبين المجتمع ككل ، متجهين نحو التغير الاجتماعى الذى قامت من أجله الثورة . ونحن لدينا معلومات واسعة عن تقدم الإنسان فى الماضى، فالعلوم الاجتماعية تقدم بناءاً جديداً من المعلومات القاطعة والتفسير الرئيسى والملائم الذى يتضمن التنظيم العلمى للتغير الاجتماعى ، ويمكننا نحن عمل تغيير اجتماعى بطريقة منظمة ومفيدة إذا كان فى إمكاننا فقط أن نوفر إمداداً حسنا لمثل هذا التغير . إن العقبة الرئيسية تقع فى حقيقة أن التربية المنظمة إلى مدى بعيد مالت إلى أن تقر فى الأذهان معلومات واتجاهات تقاوم التغير الاجتماعى ، وأعطت انتباها واحتراما قليلا جداً للعلوم الاجتماعية . ونحن نأمل تجديد أفكارنا ونظمنا الاجتماعية ، ولا يتم ذلك إلا بالتوسع وتحسين الدراسات الاجتماعية .

فمسئولية التربية نحو المجتمع تنقسم إلى ثلاثة مواضيع كبيرة ، وهى :

١ — حفظ التراث الاجتماعي يقوم على أساس الحكمة والتمحيص .

٢ — شجاعة فى النقد الاجتماعى .

٣ — تخطيط اجتماعى ثابت العزم ومزود بأحدث العلوم والمعارف(١) .

إنه من المهم — كما كان دائماً — أن تنقل التربية التراث الاجتماعى للماضى ، وبدون هذه المعلومات وخاصة المعارف المطلوبة لعمل نسقنا الاجتماعى التكنولوجى الحالى ، لكان الإنسان دون مساعدة . ولكن لم يعد بعد هناك أى سبب لقبول كل التراث الاجتماعى دون نقد . إن ماضينا كان يميل إلى ذلك ، وهذا ما أدى إلى ، الأزمات الاجتماعية فى أيامنا ، فعلينا أن نغربل التراث الاجتماعي خلال تحليل واختبار واضح ، هذه العوائق القديمة المتخلفة والتى هى نتاج الجهل القديم فى الماضى نتيجة للاستعمار الداخلى والخارجى ووطأته على العملية التربوية ، حتى لا يسمح للمجتمع بالتقدم ، بل ليصيبه بالجمود والتخلف .

ومن أجل فحص التراث الاجتماعى ، ولخلق اتجاهات عقلية أفضل لهذه العملية فإن الدراسات التاريخية الاجتماعية يمكن أن تقدم خدمة جليلة . وبالتأكيد أن أكثر الأشياء إلحاحاً هو القدرة على مواجهة الماضى . وذلك بالانتقاء الحكيم المتحرر من الاحترام والتقديس للماضى . لا دراسة أخرى غير الدراسة الاجتماعية للتاريخ يمكن أن تدعى المسئولية المباشرة لتجهيز مثل هذه العقلية . هذا التجهيز لمثل هذا الاتجاه الذكى نحو الماضى أمر ضرورى ، كإعداد للوظيفة الثانية الكبرى للتربية وهى شجاعة النقد ، منظوراً إليها على أنها أداة للتقدم الاجتماعى ، وخاصة لتطوير النظام الاجتماعى الموجود . فلا يمكن الاقتراب من البناء الحالى للمجتمع بأى درجة من الموضوعية إلا إذا كان يمكننا رؤية أصول البناء مع فهم شامل له ، وبالمثل لا يمكننا أن نبتدئ بالعمل من أجل مستقبل اجتماعى أحسن إلا إذا كنا على علم تام

(١) Barnes ; op. cit., p. 113.

بنواحي الضعف واللاملاءمات فى النظام الاجتماعي الذى نعيش فيه وخاصة (أن التبعية التربوية التى غذتها الثقافة الإستعمارية قد أملت على السياسات العلمية فى كثير من الأقطار العربية فكرة التركيز على بذر بذور المفاهيم التى تمكن من تحكم منطق التجزئة كحددات ثقافية على أساس الإغراء بفكرة الاكتفاء القطرى فى المجال الثقافى ... إن النظم التربوية فى مرحلة التبعية السياسية والاقتصادية كانت ولا تزال فى كثير من قطاعات وأقطار الوطن العربى أداة لضرب الحركات والانتفاضات الوطنية التحررية ، كما كانت وسيلة لتجميد الأوضاع السياسية والاجتماعية)[1] .

وبعد أن تقدم الدراسة الاجتماعية للتاريخ تقريراً حكيما عن الماضى ، فعلى الدراسات الاجتماعية الأخرى أن تمدنا بوسائل النقد الموضوعية . أولا عليها أن تصف حقيقتنا كاملة ، كل وجه من وجوه المجتمع الذى نتحرك فيه إذ (فى تصورنا أن النسق التخطيطى التكاملى للمجال الثقافى لا يمكن أن تتوفر له عوامل التهيئة الوظيفية الإيجابية الشاملة إلا إذا ارتكز على مجموعة الدراسات الاجتماعية المتخصصة)[2] . إذا عملت هذه العملية بإجادة فإن الوظيفة النقدية للدراسات الاجتماعية سوف تنبعث طبيعياً وضرورياً .

(والنقد هو الاختبار والامتحان لأى نوع من المواضيع . قدرة النقد هى نتاج التربية والتدريب ، وهى عادة عقلية ومنبع للقوة، إنها ظرف أولى للرفاهية البشرية ، ولذا يجب أن يدرب عليها الرجل والمرأة . إنها الضمان الوحيد ضد التشاؤم والغش وسوء الإدراك لأنفسنا والظروف . إنها القوة التى تحمينا ضد

---

(١) دكتور أحمد الخشاب « مدخل فى علم الاجتماع التربوى » تحت الطبع .
(٢) المرجع السابق .

كل الاقتراحات والاستهواءات الضارة ، نحن كلما ننقد النتائج التى يصل إليها الآخرون ولا ننقد نتائجنا (١) .

التربية تعلمنا السلوك بحكمة ، وتصبح تربيتنا حسنة بقدر ما نستطيع أن ننمى من قدرة نقدية . ذلك أن العادة النقدية للفكر إذا كانت معتادة فى المجتمع ، فسوف تفحص وتدقق فى كل نظمه ، ذلك لأنها أسلوب فى تناول مشاكل الحياة . ومن ثم فالرجال الذين يتعاونون فى مثل هذا الوسط الاجتماعى لا يمكن استهواؤهم بالخطب الرنانة ، ولا يمكن أن تخدعهم الفصاحة الملتوية ، ويمكنهم مقاومة أى نوع من التحيز ، ويمكنهم فى نفس الوقت فهم وإدراك وتقبل الأدلة والبراهين الحقيقية ، وعندئذ يمكنهم أن يتمسكوا بها ويدافعوا عنها عن عقيدة ، وباستماتة . فالتربية للقدرة النقدية تعتبر التربية الوحيدة التى يمكن أن يقال عنها إنها تصنع المواطن الصالح .

٢ — تخلى الاسرة عن الوظيفة التربوية

(أ) التربية فى المجتمع الريفى :

كانت الوظيفة التربوية فى المجتمعات الريفية تعطى للأولاد والبنات إما فى المنزل أو فى الحقل . وكان المدرسون هم الآباء . أما الدراسة من الكتب فلم تكن منتشرة ، وكانت المدارس الموجودة ذات طابع بدائى ، حتى أنها كانت تحمل اسم الكتاب ، وليس المدرسة ، وكانت فى الغالب عبارة عن مدرسة ذات حجرة واحدة بعيدة عن المنازل . وفى الأسرة الغنية ، وهم قلة ، كان المدرسون يذهبون إلى الأسر ، ويتلقى الأبناء دروسهم فى المنازل . وكان لا يزيد مايلقن لهم عن أصول اللغة والحساب . أما فيما يتعلق بالتربية الأخلاقية وآداب السلوك فكانت من واجبات الوالدين .

---

(١) Sumner : op. cit., 662-633.

فكانت الأسرة هى النظام التربوى الوحيد إلى جانب المساجد . ومازالت الاسرة تحتفظ بهذه الوظيفة فى السنوات الأولى من حياة الطفل . (ورغم التغير فى حياة الأسرة فمازال لا يوجـد نظام أفضل من الأسرة كنظام تربوى فى السنوات الأولى للطفل)[1] .

ويتفق هذا النوع من التربية والمجتمعات الصغيرة البطيئة التغير ، إذ ينتفع فيها بالمواقف الثابتة أكثر منه فى مجتمع متغير ، إذ يكون لدى المجتمع شكل بسيط من التنشئة الإجتماعية . والتدريب فى شكله العام للثقافة يناله الصغار فى اتصالاتهم مع الكبار . ويتم التدريب على المواقف الخاصة خلال التعليمات غير الرسمية التى يلقنها الكبار للصغار فى تلك المواقف ، وعادة يكون أولئك الكبار هم أعضاء الأسرة . وتساعد فى هذه الحالة بعض الشعائر والرموز على إبراز تغير المواقف ، وعلى هذا فنمط الحياة لكل فرد محدد منذ البداية . والثقافة فى هذه المجتمعات البسيطة تتغير ببطء يسمح بأن يشكل الجيل القديم بيئة مناسبة لتنشئة الصغار[2] ففى المجتمعات الريفيه يمكن للفرد أن يتعلم من والديه أو أحد أقاربه معظم سمات ثقافته حتى لو ذهب إلى المدرسة ، فليس هناك حاجة ملحة لأن يحصل أكثر من مبادىء التعليم مثل : القراءة والكتابة ومعرفة بعض المعارف الشعبية . ذلك راجع إلى أن المجتمع الريفى يتميز بالاستقرار والسكون النسبى . حيث التغيرات غير كثيرة وبطيئة جـداً ، ولهذا يصبح الكبار متميزين لاعتبارهم مستودع المعارف والتجارب والحكمة ، ويعتمد عليهم الصغار فى التدريب وتلقى النصح والإرشاد . (إذ أنه حيث تستمر الحياة كما هى عليه لفترة طويلة تصبح الخبرة خير معلم ومعين فى الحياة)[3] .

(١) Mirrell : Society & Cultur. P. 378.

(٢) Davis : Human Society p. 218.

(٣) Ogburn & Nimkoff : Technology & Changing Family. p. 207

(ب) أثر التصنيع فى التربيه :

(يؤدى التصنيع إلى تعقد ثقافة المجتمع وطالما أن التعليم جزء من هذه الثقافة فهو أيضاً يميل إلى التعقد تبعا لتعقد الثقافة[١]) . وليس أدل على ذلك من أننا إذا قارنا بين النظام التعليمى فى القرية ، فنى مثل هذه الثقافة البسيطه ذات التغير البسيط وذات التخصص الاقتصادى الطفيف، والإحتكاك الأقل بالثقافات الأخرى، فإن النظام التعليمى يمكن أن يظل بسيطا أيضاً وأن لا يصيبه إلا تغير بسيط. فقبل التصنيع كان يمكن للإنسان العمل بنجاح بشىء قليل من المعارف إلى جانب خبرات الوالدين والأقارب . ولـكن هذا الوضع قد تغير تماما منذ قيام حركة التصنيع ، فإن التغير الذى أحدثته حركة التصنيع قد غير وجه المجتمع من نواح عدة .

وقد اقتضى هذا التغير تخطيطا اجتماعيا ثابتاً ، ووضع أهدافا محددة يتم الوصول إليها على مراحل متتابعة . وأول هذه الأهداف هو تعميم التعليم الأساسى فى المرحلة الأولى ، والعمل على إزالة الأمية بين المواطنين . والتوسع فى مراحل التعليم التالية حتى مستوى الجامعة بطريقة هرمية بحيث تتوفر فى النهاية أعداد من المتخصصين تفى باحتياجات المشروعات المختلفة حسب مواقيت تنفيذها على أساس البرنامج الزمنى للخطة العامة . وتهدف هـــذه السياسة أيضاً إلى إعداد مجموعات من الفنيين فى شتى الميادين من مستويات مختلفة فيما بين قاعـدة الهرم وقمته تحقيقاً لزيادة كفاءة القوة العاملة وتنميتها ورفع إنتاجها .

ولهذا فإن النظام التربوى كان عليه أن يميل إلى التخصص إذا أريد له أن يؤدى وظيفته الإجتماعية على الوجه الأكمل بالنسبة لأجزاء المجتمع المختلفة. فإنه أصبح من المستحيل أن يكون لدنيا نظام تربوى واحد جامد يمـكنه أن يشبع

---

(١) Marshall ; op. cil. 306.

حاجات أجزاء المجتمع الشديدة الاختلاف. فى ظل التصنيع حيث يكون المجتمع سريع التغير سريع النمو يميل فى معظم أنحائه إلى الأخذ بالسمات الحضرية، لا يمكن نقل ثقافته الضخمة التى هى نتيجة للتجمع الثقافى المادى وغير المادى، فإذا كانت الثقافة تتجمع بمعدل سريع فإنه من العبث نقلها على أسس من التنشئة غير الرسمية الفجة، ولا يمكن أن نجعل الأفراد ملائمين لمواقف مثل هذا المجتمع العظيم التعقيد على أسس من المواقف الموروثة الجامدة، إلى درجة أنها لا يمكن أن تلائم مثل هذا المجال السريع التغير الذى يظهر فيه مئات من المواقف الجديدة فى كل جيل. وهكذا تتضاءل تدريبات الآباء رويداً رويداً حتى يصبح من الضرورى فى النهاية الاعتماد على التنشئة خارج المنزل سواء فى الحضر أو الريف، للوصول بالقرية إلى أسلوب معيشة المستوى الحضرى. كضرورة أساسية من ضرورات التنمية ولا يمكن الوصول إلى هذا المستوى الحضرى عن طريق بناء المساكن أو المعدات الحضرية، فإن هذه المعدات لن تجد قبولا، ولكن ستجد مقاومة طالما لا يصاحبها أو يتقدم لها تغير فى مفاهيم وأفكار الناس، ولا يتم ذلك إلا بالتعليم. فهناك علاقة وثيقة بين التحضر والتعليم، فهو يزداد فى المجتمعات المتحضرة عنه فى المجتمعات الريفية كما يوضح الجدول الآتى:

(توزيع الأميين والمتعلمين فى المناطق الحضرية حسب النوع — تعداد السكان لعام ١٩٦٠) (بالألف)[1]

المناطق	أميون			متعلمون			الجملة		
	ذكور	إناث	جملة	ذكور	إناث	جملة	ذكور	إناث	جملة
حضر	١٣٢٧	٢٢٦٣	٣٥٩٠	٢١٣٨	١١٠٠	٣٢٣٨	٣٤٦٥	٣٣٦٣	٦٨٢٨
ريف	٣٧٢٢	٥٢٧٦	٨٩٩٨	١٧٩٨	٤٢٩	٢٢٢٧	٥٧٠٥	٥٥٢٠	١١٢٢٥
الجملة	٥٠٤٩	٧٥٣٩	١٢٥٨٨	٣٩٣٦	١٥٢٩	٥٤٦٥	٨٩٨٥	٩٠٦٨	١٨٠٥٣

وتشير بيانات هذا الجدول إلى أن نسبة التعليم فى المناطق الحضرية بلغت ٤٨ ٪ ، نصيب الذكور منها ٣٢ ٪ ونصيب الإناث ١٦ ٪ بينما بلغت هذه النسبة فى الريف ٢٠ ٪ نصيب الذكور منها ١٦ ٪ ونصيب الإناث منها ٤ ٪ فقط ، فإذا علمنا أن سكان الريف يمثلون ما يقرب من ثلاثة أخماس سكان جمهورية مصر العربية ، فإن هذا الجدول يوضح لنا اتجاهات الريفيين نحو التعليم ومدى اهتمامهم به ، ومن ناحية أخرى يكشف لنا عن وطأة التقاليد والعادات ، من أن المرأة مكانها المنزل ، وأن هذه التقاليد يتضح أثرها فى نسبة المتعلمات من الإناث فى الريف من جملة المتعلمين هى ٢٥ ٪ بينما نسبة المتعلمات من الإناث من جملة المتعلمين فى الحضر بلغت ٥٠ ٪ ومن ثم فهو يكشف لنا عن تصورات كل من سكان الحضر والريف عن تعليم المرأة .

(١) التعبئة والإحصاء : « زيادة السكان » القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ١٩٤ .

ويؤيد أيضاً العلاقة بين التربية والتحضير تلك الحاجة المتزايدة والتعليم في المجتمعات الآخذة في النمو بشكل عام، والتصنيع بشكل خاص ، فإن نمو المدن وانتشار أنواع مختلفة من المهن أيقظ الناس إلى حقيقة هي: أن تلك المعارف الشعبية البسيطة ليست كافية ، وإن الحاجة ماسة إلى زيادة التعليم . وساعد على ذلك ما أدت إليه الثورة من تغيرات في أيديولوجية المجتمع سواء في الحضر أو الريف .

ولقد أدي هذا إلى الاهتمام بالمدارس كهيئات مستقلة في المجتمع لتحمل وظيفة التعليم . فالمدارس لديها المدرسون المحترفون والإعداد اللازم ، لذلك يمكن للمدارس القيام بعبء العملية المعقدة والتعليم بطريقة لا يمكن للآباء القيام بها ، والمدارس مثل الآباء لها مركز السلطة بالنسبة للأطفال ، ولكن بالنسبة لاهتماماتهم الحرفية في التعليم وبالنسبة لما لديها من مصادر عظيمة ، فإنها لذلك أقدر على نقل هذا الحشد الضخم المعقد من المعارف الذى تعطيه للتلاميذ . وكذلك لديها القدرة على نقل أحدث المعارف ، تلك المعارف التى جعلها التغير الاجتماعى السريع الناتج عن التصنيع ، تميز الصغار بتوسيع الفجوة الثقافية بين الأجيال . لذلك فى ظل الثورة الصناعية حيث تغير النظم الإجتماعية وتجمع المعارف ، ويكون تزايدها سريعا، ونموها أسرع، وحيث تنشأ المدارس فتساعد على نقل هذا الفيضان من المعارف ، فإن الطلاب الأكثر حداثة هم الذين سيتعلمون آخر ما وصلت إليه المعارف والعلوم . فهناك أطفال كثيرون فى المدارس الآن لديهم معلومات ومعارف فى بعض العلوم ليست لدى آبائهم . فبعض ميادين العلوم ومنها علوم المجتمع العربى ، ايديولوجيته وسياسته واقتصادياته ، ربما تكون جديدة على الآباء ، إذ لم تكن تدرس هذه العلوم عندما كان يذهب آباؤهم إلى المدارس ، فى ظل الملكية والاستعمار الذى تعمد فصل مصر عن العالم العربى

ضرباً لمعنى الوحدة وخوفاً من تطوره . وكذلك فى كثير من ميادين العلوم الأخرى مثل الكيمياء والطبيعة وعلوم الفضاء ، فإن الأبناء لديهم معارف أوسع من آبائهم .

فالمدرسة فى هذا العهد الجديد ، فرضت التغيرات السريعة عليها وظيفة جديدة ، ذلك أن التغيرات السريعة فى كافة ميادين العلوم نتيجة زيادة التخصص فى فروع المعرفة وسهولة انتقال نتائجها من مكان إلى آخر ، ومن ثم زيادة قدرة سيطرة الإنسان على الطبيعة الفيزيقية والطبيعة الاجتماعية . فقد وضعت مختلف النظم الاجتماعيه تحت فحص العلوم الاجتماعية بمناهجها الحديثة ، مما زاد من قدرتها على توجيه التغيرات والتخطيط الاجتماعى والاقتصادى ، والكشف عن أصلح النظم الاجتماعية والسياسية التى تتوافق مع البيئة الاجتماعية . ولهذا كان لابد من تقديم هذا الحشد الضخم من المعارف إلى الأجيال الجديدة فى صورة واضحة ، ولكن فى إطار يراعى فيه الاقتصاد ، حتى يتمكن الناشئون من الوصول إلى نتائج الأجيال السابقة والقائمة فى أقل وقت ممكن ، وبأقل جهد أيضاً . وليس معنى الاقتصاد الثقافى اختزال التراث الثقافى لسهولة نقله أو الاقتصار على جانب منه دون الآخر ، إنما يعنى ممارسة النقد لاختيار الأحسن والتمييز بين فروع المعرفة ، مع جعل هذا كله فى متناول عقول التلاميذ وقدراتهم حسب مراحل التعليم المدرسى .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن حتمية تعليم كل طفل هى اختراع مدرسى ، ولكن التوسع فى التعليم يتوقف على وجود مجتمعات ذات كثافة كبيرة بعض الشىء ، وعلى تغير تصورات الناس ومفاهيمهم عن أهمية التعليم . فمن ناحية (المجتمعات وكثافتها هى نتيجة مترتبة على العوامل الاقتصادية والتكنولوجية)[1] .

---

(١) Ogburn & Nimkoff : op. cit., p. 140

وما حدث فى مصر من نمو سريع فى الصناعة عمل على زيادة كثافة المجتمعات ، فالتصنيع عبارة عن تجمع تكنولوجى ضخم ، وكذلك أدى إلى تحضر كثير من مناطق الجمهورية . وتصبح هذه المناطق وحدات لها مشخصاتها الذاتية ولها أثرها فى التربية . فعادة فى المدن تعزز التربية فى كل وجوهها المتباينة ، فنجد المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات . وهناك ما يمكن أن نسميه بالبيئة الاجتماعية الخارجية ، وهى البيئة المرفولوجية العامة التى تمثل الشكل الاجتماعى العام للمجتمع . فكل مجتمع من المجتمعات بحسب حجمه ومستواه الحضارى شكل اجتماعى محدد يعين مركزه فى تطور الحضارة ومرتبته بالنسبة لغيره من المجتمعات ، (وأثر البيئة الخارجية ينحصر فى خضوع التربية — باعتبار أنها نظام اجتماعى — للمسحة السائدة لبيئة المجتمع وتكوينه ولمستواه الحضارى . وهذا ما يسميه دوركايم بالكثافة المادية أى عدد السكان والكثافة الأدبية أى رقى النظم)[1] .

ولقد عملت الدولة على نشر الصناعة وعدم تركيزها فى القاهرة والإسكندرية مما أدى إلى تغيير الشكل الإجتماعى لكثير من مناطق الجمهورية وحولتها من مراكز قروية إلى مراكز حضرية . ومن ثم كانت السياسة التعليمية تلاحق هذه التغيرات ، فزادت ميزانية وزارة التربية والتعليم من ٢٦ر٣٤٠ مليون جنيه فى سنة ١٩٥٣ حتى وصلت إلى ٨٢ر٧٦٨ مليون جنيه فى عام ١٩٦٦/٦٥ وخطت خطوات بعيدة فى تحقيق أهدافها الأساسية ، وهى تغيير صفة المجتمع من الأمية إلى التعليم ، فقد أمكن فى الأعوام الخمسة عشر الأخيرة الوصول لنسبة استيعاب الأطفال فى المرحلة الأولى نحو ٦٩ ٪ وكانت نسبة الاستيعاب للذكور ٨٣ ٪ وللإناث نحو ٥٦ ٪ تقريبا .

(١) دكتور عزت : المرجع السابق ص٧٣ .

(تطور نسبة الاستيعاب فى التعليم الإجبارى)[١]

السنة	نسبة البنين	نسبة البنات	نسبة الجملة
٥٣/٥٣	٥٧ر٠	٣٤ر٧	٤٦ر٠
٦٦/٦٥	٨٣ر٠	٥٥ر٧	٦٩ر٠

وإن كان الجدول السابق يوضح جهد النظام التربوى فى محاولة استيعاب التلاميذ ، فقد ارتفعت نسبة الاستيعاب للبنين والبنات من ٤٦./٠ فى ١٩٥٤/٥٣ إلى ٦٩./٠ فى سنة ١٩٦٦/٦٥ أى بزيادة قدرها ٢٣ ./٠ ولكن من ناحية أخرى يكشف عن أثر التقاليد والعادات والتصورات الفكرية عن التعليم عند المجتمع. ومعروف أن الدولة لا تفرق بين تعليم البنين أو البنات فى مراحل التعليم الأولى ولا يتحكم فى هذه العملية إلا السن ، أى أن فرص التعليم بالنسبة للبنين والبنات فى المراحل الأولى متساوية. ومن ثم يلاحظ من الجدول السابق أنه بينما كانت تزيد نسبة تعليم البنين عن البنات فى سنة ١٩٥٤/٥٣ بمقدار ٢٢ر٣./٠ أصبحت ٢٧ر٣./٠ فى سنة ١٩٦٦/٦٥ ، مما يدل على أن الاتجاهات نحو تعليم البنات قد تطورت إلى الخلف أى تأخرت ، ومن ناحية أخرى يكشف الجدول أيضاً عن تزايد الاهتمام بتعليم الذكور عن الإناث . فبينما زادت نسبة تعليم البنين من سنة ١٩٥٤/٥٣ إلى سنة

(١) التعبئة والإحصاء « زيادة السكان » المرجع السابق ذكره من الجدول رقم ٨٤ ص ١٩٦ .

٦٥/١٩٦٦ بمقدار ٢٦ ٪ زادت نسبة تعليم البنات بمقدار ٢١ ٪ وفى الحقيقة ان معظم هذه الفروق تأتى من الريف ، حيث ما زالت التقاليد صلبة حتى أن نسبة تعليم الإناث بصفة عامة فى الريف ٤ ٪ من مجموع الإناث . مما يلفت النظر إلى أهمية العمل على تغيير تصورات الريفيين وتعديل اتجاهاتهم نحو التعليم من ناحية ، ومن ناحية أخرى إتاحة فرص أكثر للتعليم فى الريف بنشر المدارس ورفع المستوى الاقتصادى (أى دخل الأسرة) حتى تستطيع أن تتخلى عن عمل الطفل فى الحقل ، واعتباره مورداً اقتصادياً .

وقد ظهرت آثار السياسة التعليمية الجديدة التى تحاول اللحاق بانتشار التصنيع فى زيادة عدد التلاميذ المقيدين فى مراحل التعليم (فقد زاد عدد التلاميذ فى جميع مراحل التعليم بمعدل ١٣٢ ٪ فى حوالى إثنى عشر عاماً ، كما زادت نسبة التلاميذ فى مراحل التعليم الفنى من ١٤ر١ ٪ إلى ٨ر٢ ٪)[1] ، ويدل هذا التطور على اتجاه الدولة نحو التوسع فى إعداد المواطنين للمساهمة فى تأسيس النهضة الصناعية الحديثة .

ونمو المدارس وانتشار نظام التعليم الذى تموله الدولة يعنى وجود منظمة لها القدرة على القيام بالوظيفة التربوية خيراً مما تستطيعه الأسرة . وهكذا نتجت الحاجة إلى التعليم خارج الأسرة من تجمع المعارف التى ترجع بنسبة كبيرة إلى حركة التصنيع السريعة التى أدت إلى خلق وظائف ومهارات لم تكن موجودة من قبل بالإضافة إلى الزيادة الضخمة والتوسع الكبير فيما كان موجوداً من مهن . ولهذا وجدت المدارس وجهزت بالمدرسين المهنيين الذين يهتمون بالأساليب الفنية للتعليم وعلى درجة عالية من التخصص فى ميادينهم . وفى المدارس تفحص بدقة

---

(١) التعبئة والاحصاء (المرجع السابق ص ١٩٠

عناصر ومبادىء المواضيع وتختصر فى صيغ عقلية وتعلم فى زمن قصير حتى يمكن أن تلاحق التغير السريع والتجمع الأسرع للمعارف . وهكذا تجمع الوظيفة التربوية فى هيئة مستقلة أصبح ضرورياً حتى يمكن أن نوفق ونكيف عملية التنشئة طبقاً لاحتياجات المجتمع الذى نعيش فيه، والذى يتميز بانتشار التصنيع.

٣ – التعليم يميل الى العمل فى اهتمامات المجتمع

من المعروف أن التربية جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعى العام، ولها أثرها فيه وهى صداً لما يجرى فيه، ولا يمكن أن يقف النظام التعليمى على نمط واحد متحجر لا يتغير، وإنما التفاعل قائم دائماً فيما بين المجتمع والمدرسة . ففى مجتمعنا عملية التصنيع هى موضع اهتمام المجتمع، ولهذا فإن التعليم يركز أهميته على هذه النواحى من الحياة فى مناهجه، والاهتمام بالمواضيع التكنولوجية كلها شواهد على زيادة اهتمام المجتمع بالصناعة، وكذلك نحو الاهتمام بالمسائل التجارية والاقتصادية فى المعاهد والجامعات، حتى أن الدولة أنشأت عديداً من المعاهد التجارية والصناعية وكلية للاقتصاد، والتوسع فى التدريب المهنى، وهى استجابة للحاجة الصناعية لمجتمعنا الذى سادته حركة التصنيع السريع .

فبالرغم من أن النظام التربوى يقال عنه (إنه النظام الذى يعنى عادة بنقل أنماط الثقافة، وأن الوظيفة الأولى هى نقل تراث الجيل السابق إلى الجيل الحالى، فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن هذا يعنى الجمود والثبات عند الأنماط القديمة ولكن هذا يعنى حفظ التراث الاجتماعى والتراث الثقافى من الضياع)(١). فمعظم الثقافات تثبت وتعلى من أساليبها فى الحياة والتفكير، وتعتبر أنماطها ضرورية للحياة الاجتماعية، وتصبح أهم ضرورة هى نقل هذه الأساليب فى الحياة وطرق

---

(١) Gist : Op.. P. 330

التفكير للصغار ، ولهذا يقال إن النظام التربوى نظام حافظ . وهذا القول يتضمن أن التقدم فى العلوم والميادين الأخرى للمعرفة يأتى من خارج النظام التربوى أكثر من داخله . وهذه النظرة ليست صحيحة ، فهذه الحالة تعتبر غريبة بالنسبة للمفهوم العام للتعليم الذى هدفه هو التجديد والبحث عن الحقائق الجديدة ، وبذلك يكون النظام التربوى عاملا فعالا فى التغير والتقدم . ولكن هذه الوظيفة الأخيرة كانت متوقفة فى مجتمع ما قبل الثورة إذ كانت فلسفة المجتمع وأيديولوجيته لا تدعو إلى التجديد، ولكن تؤيد القديم والمحافظة عليه ولا تشجع التجديد (وإيضاحا لذلك يكفى أن نشير إلى أن النظم التربوية التى كان معمولا بها قبل انتفاضتنا الاجتماعية الراهنة كانت تمثل اتجاهات نابعة عن وضعية إقطاعية ومتأثرة بالتيارات الفكرية الرجعية ومعـــبرة عن محددات تيوقراطية ،متسلطة على القوالب التعليمية الوعظية ، وكانت هذه النظم تخدم بصورة مستترة مقنعة — عوامل التبعية التربوية وتزيد إرتباطات القوى المسيطرة على أجهزة التربية وتعلقها بأهداف السياسات والطرق التربوية الأجنبيه مع تعارض ومنافاة ذلك لظروف مسايرة النظم التربوية وانبثاقها عن الوضعيات الاجتماعية لمستويات الفئات التى تجرى عليها تلك النظم التربوية)(١) ولكن بعد الثورة حيث التجديد أصبح متوقعا فى كل ميادين الحياة الاجتماعية انبعثت هذه الوظيفة فى النظام التربوى وراح يجدد من أساليبه ومناهجه وطرق تدريبه وأهدافه .

وإن كانت التربيه تأخذ القيادة فى بعض النواحى فى الحياة إلا أنها فى الوقت نفسه تسودها اهتمامات الثقافة حتى فى هذه الوظيفة، فالتربية ليست من صنع فرد معين يوجهها حسب أهوائه ، وإنما هى من صنع المجتمع وحسب ما يرسمه المجتمع

(١) دكتور أحمد احشاب « مدخل فى علم الاجتماع التربوى » تحت الطبع .

من اتجاهات . ولهذا يمكن القول: إن التربية تميل إلى العمل بنشاط أكثر فى نواحى الحياة الأكثر أهمية للثقافة ، التى هى جزء منها . وهذا التأثير المتبادل يشتق من أن طبيعة النظم الاجتماعية تتداخل وتترابط ويفسر بعضها بعضاً . وهكذا يميل النظام التربوى للعمل فى المناطق الأكثر أهمية للمجتمع ، فهو يعمل ضمن تنظيم اجتماعى ، وهو أحد آلات هذا التنظيم الاجتماعى . فالنظام التربوى يمكن أن يؤدى وظيفته إلى المدى الذى تسمح به أجزاء الثقافة الأخرى، وبالأسلوب الذى يسمح به المجتمع . فالنظام التربوى لا يقود القوى الثقافية التى أصبحت ذات أهمية فى إنتاج أساليبنا فى الحياة ، وفى الحقيقة فإن القوى الأخرى تسود النظام التربوى، وأهمها النظام السياسى والنظام الأخلاقى والنظام الاقتصادى وهى أشدها أثراً فى التربيه كما يقول دوركايم . تلك النظم التى تبلورت فى مبدأ الإيمان والعلم الذى أخذ به مجتمعنا والذى اعتبر التقدم التكنولوجى من أهم العمليات الموصلة لتحقيق هذا المبدأ . ومن هنا كانت الصناعة شديدة الأثر فى النظام التربوى مما أدى إلى تشكيل هذا النظام ليلائم ذلك الأسلوب فى الحياة الجديدة . ففى مجال التعليم الجامعى اتخذت الدولة سياسة واضحه نحو التوسع فى القبول بالكليات العلمية بهدف توفير الخبرة اللازمة لتنفيذ المشروعات لخطط التنمية. ويوضح الجدول الآتى تطور التعليم بالكليات العلمية.

(تطور التعليم بالـكليات العمليه)

السنة	الكليات			
	الطب والصيدلة	الهندسة	الزراعة	العلوم
٥٣/٥٢	٦٦١٦	٥١٤٧	٢١٨٥	٢٠٥٨
٦٦/٦٥	١٩٢٤١	٢١١٩٥	١٣٥٨٠	٨٥٨٥
٦٧/٦٦	٢١٧٤٣	٢١٩٩٠	١٣٢١٢	٧١٥٢
٦٨/٦٧	٢٤٨٨٠	٢٣٠٠١	١٢٦٥٢	٦١٧١
٦٩/٦٨	٢٦٤٣٠	٢٢٤٩٢	١٣٣٥٤	٥٧٢١
٧٠/٦٩	٢٩١٤٢	٢٣٢٨٤	٢٠٨٥٠	٥٩٥٠
٧١/٧٠	٣١٢٤٢	٢٢٤٨٩	٢٢٣٨٩	٦٧٦٢

(١) التعبئة والاحصاء . زيادة السكان ، المرجع السابق ص ١٩٨ وبالنسبة لسنة الأساس وبقية الجدول من :

L'Agence central de La Moblisation Publique Et Des Statistiques. Annuaire Statique. Juin 1972. P 192.

٤ — التصنيع يجعل من التعليم هدفا اقتصاديا

لقد رأينا ما أدى إليه التصنيع من تعقد فى الثقافة ، وأن الفرد يحتاج إلى مدة طويلة ليمكنه أن يصل إلى درجة عالية من الكفاءة العلمية . ولهذا يمكن القول بأن المعارف والمهارات المطلوبة من الفرد للتكيف فى المجتمع الزراعى ليست صعبة التعلم ، فنى المجتمع الزراعى أى فرد بإمكانيات عادية يمكنه أن يصل إلى القمة بدون سابق تدريب كبير . أما فى ظل التصنيع وما أدى إليه من حياة حضرية ، فإن أقل قابلية للتكيف تحتاج إلى تدريب على مهارات لم تكن موجودة من قبل .(والفرد الذى يريد أن يصعد إلى سطح المجتمع يجب أن يكون لديه تدريب عام ومتخصص أيضاً وهذا لا يتأتى إلا عن طريق التعليم)(١) .

من ثم أصبح من المعروف أن التقدم فى السلم التعليمى هو الطريق الوحيد للوصول إلى الوظائف ذات المراكز الاجتماعية المرتفعة ،وإلى ظروف أحسن فى العمل والدخل . وهكذا أصبح ينظر إلى التعليم والتصنيع على أن بينهما علاقات متبادلة،ذلك أن كل درجة فى التعليم لها مقابل فى الترتيب الوظيفى فى الصناعة ، فكل تقدم فى التعليم أصبح معتقداً أنه يقابله مستقبل متقدم فى الحياة الوظيفية) (٢) . (لهذا أصبح التعليم أكثر الوسائل لاستخداما للتقدم الاجتماعى ، فالتعليم ضرورى للانتقال نحو المهنة أو الدخل الأعلى)(٣) . ويتضمن تاريخ نجاح الرجال دائماً وبدون تغير الحصول على درجة علمية . هذا الاتجاه قد زادته تأكيداً حاجات التصنيع التى تتطلب تدريباً متخصصاً ملائماً . وبالنسبة لمعظم الناس التقدم فى المراتب لا يمكن صنعه إذا كانت الخبرة هى العدة فقط، ولكن عن طريق التعليم حيث يوجد التدريب المتخصص الذى هو الوسيلة دائما للتقدم. فكل من

---

(١) Merrill : Society & Culture. P. 330.

(٢) Miller & Form Industrial Sociology. P. 600.

(٣) Leonard R; Class in American Society P. 332.

إدارة الرجال وإدارة المواد أصبحت علمية ؛ وأنه فقط عن طريق متابعة التعليم الرسمى الذى يمكنه نقل مثل هذه المعلومات بكفاءة ، يصبح الإنسان صالحاً لشغل هذه الوظائف . وربما يتشدد البعض ضد هذا الاتجاه على أساس أنه انحراف عن أهداف التعليم لتحويله إلى وسيلة لمضاعفة الدخل ، والبعد به عن الأهداف الاجتماعية ، إلا أن الواقع يؤيد أن هذا الاتجاه يتزايد فى حدته .

ولقد تعددت العناصر الاجتماعية التى عملت على تغير وظيفة النظم التعليمية من المتابعة الخالصة للمعرفة إلى وسيلة للتقدم ، وكان أهم عامل فى هذا التغير هو الحاجات الفنية والعلمية للمجتمع العربى فى مصر الذى يتجه نحو التصنيع بكل إمكانياته . فانتشار التمهن الذى أصبح يغطى مهناً أكثر وأكثر يعنى زيادة مصاحبة للإحتياجات العلمية . وطالما أن هذه المهن هى التى تدفع أجراً أحسن وتتضمن مكانة أعلى ، فإن الطريق إلى الانتقال الاجتماعى إلى أعلى قد وضح أمام الأسر . فمن طريق التوسع فى التعليم والارتفاع فى سلمه فقط، يمكن للفرد أن يرفع من سلم وظيفته ، ومن ثم من أسرته .

وقد يتعجب الإنسان من التغير فى فلسفة التعليم أنها صاحبت التغير فى وظيفة التعليم والهدف منه. ولكن يفسر هذا أن ضغط حاجات التصنيع على المؤسسات والنظم التعليمية لتتكيف مع ما أصبح المجتمع يعتقد أنه أهم الوظائف، ومن ثم فعلى مثل هذه النظم أن تخدمها. فالتيار الذى يضغط على علماء العلوم الطبيعية والمهندسين هو نتاج التصنيع ، والذى لا يمكن التجاوب معه إلا بجعل النظم التعليمية قادرة على تحقيق هذه الأهداف الجديدة . والنتيجة الهامة هى أن التعليم يتغير لمواجهة هذه الاحتياجات الهامة والسريعة . وعلى هذا يقل التعجب من أن النظم التعليمية أصبحت وسيلة وأداة للانتقال الاجتماعى : وسيلة لتعلم مهنة أو حرفة التى بدورها تعطى مكانة ونقوداً . هناك إذن عدة حقائق لا نزاع فيها عن دور التعليم وأهميته

بالنسبة للانتقال الاجتماعى، أولهما أنه أصبح واضحاً أن أهم مكافأة للتعليم الأعلى، الحصول على مهنة ذات مكانة أعلى . ويدل على ذلك أن تدرج الوظائف يسير مع تدرج التعليم، وزيادة الدخل هى أيضاً مكافأة يعطيها التعليم لمن حصل على تعليم أعلى وإلى مدى بعيد هذه إحدى وظائف المهنة والسلم المهنى .

ولذلك اعتبرت الأسرة أن أهم النظم التى تتيح لأفرادها ولها حياة أحسن، هو النظام التعليمى ، وأصبحت تنظر إلى المدرسة على أنها المكان الذى فيه يصعد الطفل ، وبالعمل الشاق المتواصل يبلغ مركز القوة والمكانة الاجتماعية فى مراتب المجتمع الآخذ فى التصنيع، فقد أخذت المدرسة مكان المصنع فى الانتقال والطموح لأبناء المجتمع ، هذا الاستعمال للمدرسة كسلم للأعمال المهنية، بالطبع غير محدود. فكمية التعليم التى يسعى للحصول عليها الفرد، تتوقف إلى حد كبير على التوقعات التى يعرفها الفرد عن أن كل ارتفاع فى الأعمال السبيل إليه هو ارتفاع فى عدد السنين المدرسية التى يقضيها بنجاح . وتدل الإحصائيات على أن معظم الذين على رأس المؤسسات الصناعية وغيرها من ذوى المؤهلات الجامعية العالية .

وفى ظل الاستعمار الداخلى والخارجى كانت هذه الحقيقة ضائعة تتعثر بين الوساطة والرشوة والحواجز الطبقية التى صنعتها كل هذه العوامل ، فقد كانت المراكز الاجتماعية العليا تميل إلى الوراثة البيولوجية أكثر منها إلى الكفاءة العلمية ، ولهذا كان أبناء أسر الطبقة العليا يذهبون إلى المدارس الثانوية الخاصة ثم بعد ذلك إلى الجامعة ، ولكن لم يكن يتم شباب الطبقة العليا دراستهم دائماً، إذ أن الذهاب إلى الجامعة كان نوعاً من الطاعة للأسرة وتقاليدها وتوقعات الطبقة، إذ كان شباب هذه الطبقة لا يرى ضرورة لبذل كل هذا الجهد طالما أنه سيدخل عالم الوظائف فى سن مبكرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى مركز اجتماعى يتفق مع مركز أسرته الطبقى وعادة كان فى شركة والده أو أحد أفراد أسرته .

أما أبناء أسر الطبقة المتوسطة فمعظم شباب هذه الطبقة تدفعهم أسرهم إلى التعليم، وذلك يرجع إلى قيمة النجاح المتمثلة فى هذه الطبقة، مما يدفع الشباب إلى العمل بنجاح فى دراستهم الثانوية والجامعية ، لأن ذلك مهم وحيوى بالنسبة لمستقبلهم المهنى ولزواجهم أيضاً . ولكن ما كان يعوق معظم أبناء هذه الطبقة عن مواصلة كفاحهم المدرسى هو النفقات الباهظة التى يتكلفها التعليم الجامعى . ولكن بعد تطبيق المبادىء الاشتراكية تدخلت الدولة وعملت على خفض تكاليف التعليم حتى وصلت إلى إلغاء المصاريف حتى فى التعليم الجامعى ، وذلك لتوسيع القاعدة المتعلمة ولإتاحة الفرصة للاستفادة من فوائد المجتمع المفتوح الطبقات . فكلما زادت إمكانيات النظام التعليمى فى إتاحة الفرصة للشباب الذكى الطموح من أبناء أسر الطبقة المتوسطة والعالية زادت فائدة المجتمع .

أما أبناء أسر الطبقة الدنيا فهم ليسوا عاجزين مادياً فقط ، ولكن أيضاً معوقون عن طريق اتجاهات الأسرة نحو التعليم ، فالطفل فى هذه الأسرة مجاله الثقافى محدود إذ أنه لا يشترك فى أى هيئة من الهيئات، (فمن المعروف أن فرص الحياة تتأثر جداً بمقدار القوة الاقتصادية التى تملكها الطبقة وتتأثر أكثر بالمستوى الثقافى لكل طبقة)(١) . فإذا كانت الدولة قد أزالت العائق الاقتصادى فهناك ما زال العائق الثقافى عند أبناء الطبقة الدنيا، فعادة يميل شباب هذه الطبقة إلى ترك المدرسة فى سن مبكرة ويدخلون القوة العاملة ، وعادة يشغلون الأدوار ذات الدخل الضئيل والتى لا تحتاج إلى مهارة ، وتدل الإحصائيات على أن أكبر نسبة منهم سواء من البنين أو البنات عمال غير مهرة ، وتقل النسبة كلما ارتفعنا فى سلم الوظيفى . (وعلى العموم أولئك الذين من الطبقة الدنيا لا يجدون فى ثقافة طبقتهم الدافع للتعليم العالى والأهم أنهم لا يجدون الإعداد لهذا النوع من التعليم)(٢) .

---

(١) Schneider . op cit. P. 382

(٢) Leonard R. ort, P. 239.

ولهذا يتضح أهمية الدور الذى تلعبه مجانية التعليم بالنسبة لأسر طبقتى العمال والفلاحين من محاولة رفع مستواهم الاقتصادى من ناحية، ومن ناحية أخرى رفع مكانتهم الاجتماعية ، أى محاولة دفعهم إلى داخل نطاق ثقافة الطبقة المتوسطة حتى يتمثلوا قيمها ، ومن أهمها التمسك بالنجاح كأساس للارتفاع والانتقال الاجتماعى أى محاولة تغير المحتوى الثقافى لهذه الطبقة . ذلك لأن فرص الحياة التى يواجهها الفرد تتأثر جداً بالمستوى الثقافى للأسرة التى ينتمى إليها . فتغيير محتوى الثقافة عند أسر طبقتى العمال والفلاحين سيتيح لها فرصة إدراك أهمية التعليم كوسيلة للارتفاع الإجتماعى ، وأن هناك تناسباً طردياً بين الارتفاع فى السلم المهنى وسنى الدراسة .

فليس من العجيب فى مجتمع مثل مجتمعنا السريع التصنيع أى السريع التغير ، أن المراتب المكتسبة تلعب دوراً هاماً فى التجديد وفى المنافسة أكثر من عملها كنابع مباشرة لمواقف خاصة . فبممارسة القدرات غير العادية وبالجلد والعمل الشاق ومواصلة الدراسة والتعليم فإن امرأة قد تؤهل لوظيفة رجل والرجل الصغير يمكنه أن يرتفع إلى مرتبة رجل كبير ، وشخص فقير يمكنه أن يصل إلى المراكز العليا الاجتماعية .

وهكذا أصبح السلم الاجتماعى المتناسب طردياً مع درجة التعليم يعطى حافزاً لبذل مجهود كبير فى التعليم ، وهكذا أصبح التعليم هدفاً اقتصادياً . (وأصبح الإعتقاد السائد هو أن كل درجة يصل إليها الإنسان فى سلم التعليم هى فى نفس الوقت خطوة نحو مرتبة أعلى ووظيفة ذات أجر أعلى) [١] .

---

(١) Miller & Form. Industrial Sociology. P. 579.

٥ — تغيير مفهوم التعليم عند الاسرة

لقد رأينا فى الفقرة السابقة أن التصنيع جعل من التعليم هدفا اقتصاديا وأن كل إرتفاع فى السلم المهنى هو نتاج للارتفاع فى سنى الدراسة . كما رأينا فى الفقرة التى قبلها أن التعليم يعمل أكثر فى المناطق التى يهتم بها المجتمع .

ولما كان مجتمعنا يهتم اهتماما كبيراً بالتصنيع كمنقذ من التخلف الاقتصادى الذى عانت منه مصر قبل الثورة ، ومن جهة أخرى لأنه صانع المستقبل وعماد الاستقلال ، لذلك كان التصنيع أهم اهتمامات المجتمع . مما جعل التصنيع يميل بكل ثقله على التعليم ليشكله ويحوره ليكون الآلة المنفذة والمعينة له على التطور والتقدم . وقد رأى أعضاء أسر الطبقة المتوسطة اهتمام الدولة واهتمام المجتمع بالتصنيع ، ورأت أيضاً أن قيمة الشخص فى مجتمعنا الجديد بعمله وإنتاجه ، وأنه على كل شخص أن يملأ وظيفة لها قيمتها فى المجتمع . والقيم كلها للوظائف التى تعمل فى حقل التصنيع فدفعت بأبنائها إلى التعليم الصناعى بعد أن كانت تأنف منه وتعتبر العمل الصناعى — وخاصة اليدوى — مهانة وانحطاطا ، ذلك لأن الأيدى العاملة كلها قبل الثورة كانت تأتى من بين أبناء الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة وأبناء الطبقة المنخفضة ، مما كان يدعو أعضاء المجتمع إلى الابتعاد عن هذه المنطقة ، ولكن التصنيع وما استتبعه من قوانين اشتراكية رفع من قيمة العامل ، ومن ناحية أخرى ما رآه المجتمع من اهتمام الدولة بالتعليم الصناعى ، وكذلك إرسالها البعثات من العمال إلى ألمانيا وروسيا ومختلف الدول الأوربية للتخصص فى مختلف الصناعات ، وما رآه أيضاً من أن الأعمال الصناعية تدفع أجوراً أعلى من الأعمال الكتابية . كل هذا جعل المجتمع من الطبقات العليا والمتوسطة لا ترى غضاضة من توجيه أبنائهم إلى التعليم الصناعي ، بل وتراه مطلبا مرغوباً فيه .

أما أبناء أسر الطبقة المنخفضة التى كانت تدفع بأبنائها للعمل فى سن مبكرة كصبيان فى شتى مختلف المحلات الصغيرة مثل البقالة والمكوجى والعمل كخدم فى المنازل . رأت هذه الأسر ألواناً مختلفة من التعليم الصناعى تتفتح أمامهم ، مثل المدارس الثانوية الصناعية . ومن كانت الظروف الاجتماعية المحيطة به تعوقه عن مواصلة التعليم فى المدارس الصناعية الثانوية ، كان يتجه إلى التعليم فى مراكز التدريب المهنى . التى استدعى وجودها التصنيع والحاجة إلى العمال المهرة . فقد بحثت وزارة الصناعة عند تنفيذ مشروعات السنوات الخمس عن الرجل الثانى الذى يقع بين المهندس وهو ابن الطبقة العليا أو ابن الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة وبين العامل العادى وهو من أبناء أسر الطبقة المنخفضة عادة فلم تجد سوى خريجى المدارس الصناعية الثانوية ، وحاولت أن تستعين بهم فى تنفيذ مشروعاتها ، ولكن كان معظمهم من أبناء الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة أو الأذكياء من الطبقة الدنيا . وكانت ثقافة الطبقة المتوسطة لم يتغير مفهومها بعد ، فهم يرغبون فى وظائف تبتعد بهم عن أن يظن أنهم من أبناء الطبقة المنخفضة ، كما أن أبناء الطبقة المنخفضة الأذكياء كانوا أيضاً لا يرغبون فى العمل اليدوى محاولين بذلك الارتفاع إلى عالم الياقات البيضاء أبناء الطبقة المتوسطة. ذلك أن التغير الثقافى عند بعض أعضاء المجتمع لم يكن يسير بسرعة التغير الصناعى الحادث فى المجتمع . فالمعروف أن التغير المادى أسرع من التغير اللامادى وهو ما أسماه أوجبرن Ogburn بالتخلف الثقافى ولهذا اتجه التفكير إلى إنشاء مراكز التدريب المهنى لتخريج الرجل الثانى من بين أبناء الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة ، وكذلك من بين أبناء الطبقة المنخفضة الأذكياء الذين عاقتهم إمكانياتهم الاقتصادية عن مواصلة التعليم . واستعانت على ذلك ببرامج مكتب العمل الدولى .

وكذلك حملت نقابات العمال رسالتها فى تبصير العمال وأبنائهم وتغيير مفاهيمهم الثقافية عن التعليم وإبراز أهمية التعليم كعامل من عوامل رفع مستوى المعيشة ، وذلك برفع مستوى الكفاءة الإنتاجية لهم ولأبنائهم حتى يرتفعوا فى السلم المهنى . فعملت ندوات ومحاضرات ودعايات كبيرة لرفع المستوى الثقافى وبصفة خاصة المهنى لأعضائها . فنظمت لذلك برامج للتدريب المهنى واستخدمت الوسائل التعليمية الحديثة التى أدى أيضاً إلى نموها التغير التكنولوجى ، وهى وسائل التأثير الجمعى ووسائل الاتصال الجمعى . كما أنشئت مؤسسة الثقافة العمالية لتغيير مفاهيم العمال .

وبذلك يتضح أثر حركة التصنيع الضخمة التى قامت فى مصر على النظام التعليمى واهتمام الدولة بالتعليم المهنى ، وكذلك اهتمام النقابات أيضاً ، كل هذا كسر التوازن العادى فى علاقات النظم الإجتماعية ، فمختلف أجزاء الثقافة متداخلة ، مع ملاحظة أن بعضها أكثر تداخلا من غيرها ، والتصنيع كان من أشد العمليات الاجتماعية أثراً على باقى النظم . وأى تغير فى أى جـــزء من الثقافة ينعكس فى تغيير المعتقدات الشعبية لنظم أخرى مثل الطبقات ، وهكذا تغيرت مفاهيم الطبقات ونظرتها إلى التعليم الصناعى والمهنى على أنه لايقل أهمية عن التعليم النظرى .

٦ — خطر وطأة التصنيع على النظام التربوى

تهتم التربية فى المدارس جداً بجهة واحدة فى ثقافتها ، ورغم عظم العـلوم الطبيعية فى تقدمها فإنها تعطى نمواً غير متوازن . فاللغـة والأدب تمثل ثقافتها ، والعلوم الطبيعية تساعد على تأمين السيطرة على مصادر الطبيعة . والتصنيع قد مال بثقله على التعليم فجنح به حتى صبغه بالعلوم التكنولوجية ، وكلها تعمل على

أن يحقق الفرد النجاح والقوة . والملاحظ أن أهمية العلوم الاجتماعية والرفاهية الاجتماعية لم توف قدرها . فكثير من قادة المدارس لا يعطون أهمية لهـا ، ومازالت أقل عند كثير من المهتمين بالتربية أو عند الجمهور .

إن أى إتجاه نحو وضع الرفاهية الاجتماعية فى الأذهان يجب أن يبتدأ فى سنى الدراسة المبكرة لأن معظم الأطفال لا يذهبون إلى المدارس أكثر من ثمان أو عشر سنوات ، وعندما يصبحون بالغين فإنهم كثيراً مالا يهتمون بإعطاء أصواتهم . وأكثر من هذا فإن الدراسات الاجتماعية فى حاجة إلى أن تعطى مكاناً رئيسياً فى المدارس العليا . (فالتدريب على رعاية الجمهور أمر هام ، وأكثر أهمية من التدريب على النجاح الفردى ، لأن الأخير فى ذاته يخلق أمة من المنتفعين والاستغلاليين والمعربدين والبلطجية)[١] . فالتربية التى تعلم الفرد التكسب ربما تكون كافية فى المجال الضيق،ولكنها تصبح مدمرة فى المجالات الشعبية العامة . فتربية التكسب يجب إزاحتها وأن يحل محلها التربية الاجتماعية والروحية ، بمعنى أن يحل محلها تربية تعلم التدريب على إعطاء الخدمات .

ولذلك نرى أن أهم عنصر فى تكوين القادة فى مدارس القرن العشرين فى أوربا وأمريكا وغيرها من البلاد الراقية هو اهتمام المدارس فى برامجها العامة بعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ، ذلك لأن هذه العلوم عبارة عن موسوعة خصبة من المعارف الحيوية الأساسية التى تتصل بكيان الفرد والأسرة والمجتمع أى بالحياة الاجتماعية التى يعيش فيها فعلا المتعلم والمتعلمة ، فتعلمهم كثيرا من شئون الأسرة ومشكلاتها والشئون الاقتصادية والسياسية والقانونية وغيرها

---

(١) Bogardus ; Sociology. P. 259.

من الدراسات المفيدة ، والتي يجب أن يدرسها الإنسان المتحضر في عهدنا الحاضر ولهذا يقاوم الاستعمار هذه العلوم ويحاربها للقضاء على روح التفرد الذاتي وخلق القيادات والكفايات المعنوية التي تهتم بشئون الناس قبل اهتمامها بشئونها الخاصة .

وهناك مفهوم اجتماعي هام وهو أن الطفل كله في حاجة إلى التدريب، ولهذا فكل وجه من وجوه شخصية الطفل يحتاج إلى نمو . فالمدرسة ليست مكاناً فقط يمكن أن يعتبر ببساطة مجالا لتنمية ذكاء الطفل . فتنمية الذكاء والقدرات التكنولوجية عند الفرد دون أن يصاحبها تنمية للأحاسيس والمشاعر والعواطف الاجتماعية شيء خطير ، ذلك أنها تضع أدوات قوية في أيدي أشرار لا يمكن الاعتماد عليهم . والتنمية الروحية في معظم المدارس مهملة ، فالطفل كله لا يمكن أن يكون ربي تربية صحيحة إذا كانت القيم الروحية والدينية مهملة .

ووطأة التصنيع على النظام التربوي زادت من دور العلوم الطبيعية في التربية فجعلت السيادة دائماً للطبيعة والماديات ، بينما اللاماديات والروحيات في خطر من أن تفقد جميعها رغم أنها تمثل روح الشخصية ولبها . فالتربية يجب أن لا تنصب فقط على تعليم الأبناء مهنة معينة تحبسهم في محيط ضيق . وإنما تنظر إلى إنسانية المتعلم كذلك ، فبجانب أصول المهن المختلفة ، على التربية أن تهتم بإبعاد المسحة الآلية عن الإنسان حتى لا يكون تابعاً للآلة فقط في ثقافته ، وإنما يجب أن يتحرر من هذه الآلية بإضافة عناصر جديدة تكمل وجوده كإنسان له شخصيته القوية ، لأن المتعلم المتخصص في مهنة معينة يصح أن يملأ وظيفة عامة لها خطرها القومي في المحيط السياسي والمحيط الاقتصادي وفي المحيط الدولي . ومن هنا يجب على التربية أن لا تجعل من المتعلم عبداً لمهنته ووظيفته ، وإنما يجب أن تفتح

أمامه أبواباً واسعة لتكوين ذات نفسه وتغذية قدراته وكفاياته الشخصية ليكون قائداً وخادماً فى محيطه الخاص والعام .

٧ — أثر التصنيع فى دفع عجلة التعليم وأثر ذلك على المجتمع

بينما الأمية تتناقص فى جزء كبير من الشعب فإن التعليم فى مستواه العالى هو أمر حديث العهد فقد تزايد عدد الطلاب زيادة كبيرة على ما رأينا من الجدول السابق عن تطور التعليم فى الكليات العملية .

عدد الطلبة والطالبات بالكليات الجامعة

الكليات	١٩٥٣/٥٢			١٩٦٧/٦٦			١٩٧١/٧٠		
	طلبة	طالبات	جملة	طلبة	طالبات	جملة	طلبة	طالبات	جملة
الآداب	٣٤٠٢	٩٨٦	٤٣٨٨	١٠١٢٢	٦٢٦٧	١٦٣٨٩	٦٦٣٨	٦٨٩٥	١٣٥٣٣
الحقوق	١٠١٨٧	٥٢٢	١٠٧٠٩	١١٦٨٥	٢٠٧٣	١٣٧٥٨	١٢٥٩٧	٣٢٤٠	١٥٧٤٧
التجاره	٨١٤٤	٣٦١	٨٥٠٥	١٨٠٩٠	٦٢١٠	٢٤٣٠٠	١٦٥٣٤	٨٢٠٨	٢٤٧٤٢
العلوم	١٨٠٠	٢٥٨	٢٠٥٨	٥٨٦٥	١٣٨٤	٧٢٤٩	٥١١٠	١٦٥٢	٦٧٦٢
الهندسة	٥١٣٦	١١	٥١٤٧	١٩٠٧٥	١٧٢٥	٢٠٨٠٠	٢٠٢١٥	٢٢٧٤	٢٢٤٨٩
الزراعة	٢٠٧٩	١٠٦	٢١٨٥	١٠٣٤٣	٢٠٥٠	١٢٣٩٣	١٧٧٧٥	٤٦١٤	٢٢٣٨٩
كليات الطب والصيدلة	٥٨٨٥	٧٣١	٦٦١٦	١٤٩٧١	٥٤٣٩	٢٠٤١٠	٢٣٧٩٨	٧٤٤٤	٣١٢٤٢
الطب البيطرى	٣٨٥	٢٨	٤١٣	٢٣٥٩	٢٨٣	٢٦٤٢	٢٢٣٣	٢٣٢	٢٤٦٥
كلية البنات	٠٠٠	٤٨٧	٤٨٧	٠٠٠	٢٢٢٩	٢٢٢٩		٣٥٣٩	٣٥٢٩
الإقتصاد والعلوم السياسية	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٥٧٣	٤٧٥	١٠٤٨	٤٥٨	٤٦٨	٩٢٦
التربية	٣٤٧	٠٠٠	٣٤٧	٣٧٠	٣٣	٤٠٣			
دار العلوم	٨٠٧	٠٠٠	٨٠٧	١٤٣٧	٣٨٨	١٧٢٥	١٩٩٢	١٠٩٤	٣٠٨٦
معاهد التمريض العليا	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٢١٠	٢١٠	٠٠٠	٧٩٥	٧٩٥
جملة	٣٨١٧٢	٣٤٩٠	٤١٦٦٢	٩٤٨٩٠	٢٨٦٦٦	١٢٣٥٥٦	١٠٧٢٦٠	٤٠٤٥٦	١٤٧٧١٥

(١) الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء : المؤشرات الاحصائية من
٥٢ — ٩٦٦ يولية ١٩٦٧ ص ١٤٣
وبيانات ٧٠ــ٧١ Anquaire Statistiquo : Op.cit.P.189 — 193

وكان تطور الخريجين عن المدة نفسها كما يوضحها الجدول الآتى(١)

الكليات	١٩٥٣/٥٢	١٩٦٦/٦٥	٧١/٧٠
الآداب	٥٢٩	١٩٢٣	١٩١٦
الحقوق	٧٣١	٩٨١	١٥٨٤
التجارة	١٠٨٥	٢٤٦٧	٣٤٨١
العلوم	٣٤١	١١٧١	٩٩٦
الهندسة	٥٧١	٢٠٠٩	٣٩١٥
الزراعة	٣٨٤	١٥٧٤	٣٢٦٠
كلية الطب	٦١٣	١١٣٩	٢٨٠٣
الطب البيطرى	٥٢	٣٦٦	٣٧٤
كلية البنات	٨٩	٢٩٥	٥٥٧
الاقتصاد والعلوم السياسية	٠٠٠	١٩٧	٢١١
التربية	٣١٨	١٥١	
دار العلوم	١٣٧	٢١٨	٥٠٩
معاهد التمريض العليا	٠٠٠	٤٤	
جملة	٤٨٥٠	١٢٥٣٠	

(١) المرجع السابق ص ١٤٤ ، وبيانات ٧٠/٧١ من المرجع السابق ص ١٩٤، ١٩٥

وهذا التغير بالضرورة ينتج تغيرات هامة فى نوع عقلية السكان ، فالآن الجزء الصغير من السكان يمكن اعتبارهم أكثر تعلماً من الجزء الكبير . وأثر هذا التطور فى كية التعليم ربما يأخذ عشر سنوات حتى يمكن الإحساس بأثره ، ولهذا يمكن التنبؤ بكثير من الثقة أن الربع الأخير من هذا القرن سيشهد تحسناً مضطرداً فى ذكاء السكان ، وبالتالى فى دور المجتمع المصرى بين المجتمعات العربية خاصة والإفريقية عامة .

بل وأصبح التعليم الجامعى والعالى فى متناول كل طالب يرغبه . وأثر هذه الزيادة سيأخذ وقتاً لبلوغ هدفه ، ولهذا فإن الجمهورية ستحصد محصولا من القدرات التى تعمل فاعليتها فى إزدهار الجمهورية . كما أن التعليم بعد الدرجات الجامعية يتزايد أيضاً مما سيؤدى إلى قدرة الجمهورية على مواصلة الكشف العلمى وتنميته إذ أن تقدم المجتمع يعتمد على قدرة الدولة فى مواصلة الكشف العلمى والتطور بالآلة واستخدامها حتى يمكن أن نسابق الدول المتقدمة فى هذا الميدان ولهذا اهتمت الدولة بالبعثات فى مختلف العلوم فى الطبيعة والرياضيات والعلوم .

ومن أجل هذا أيضاً أنشىء المجلس الأعلى للبحث العلمى فى عام ١٩٦٥ على أساس رسم سياسة للبحوث العلمية فى ضوء احتياجاتنا الفعلية وواقع امكانياتنا البشرية والمادية ، للإفادة الكاملة من الطاقات البشرية والفنيه فى مختلف الهيئات البحثية وقطاعات الإنتاج والخدمات. وكذلك الربط بين البحث العلمى ومشروعات التنمية القومية للدولة والعمل على حل المشكلات التى تواجهها . ثم دعم القاعدة الأساسية للبحث العلمى وأيضاً التنسيق بين البحوث فى مختلف الهيئات العلمية والبحثية وتحقيق القيادة الجماعية بين جميع المسئولين عن البحث العلمى تجنباً لتكرار البحوث . ثم متابعة نتائج البحوث وإخراجها إلى حيز التطبيق إذأن

تقدم التصنيع وتطوره يعتمد على قدرة الدولة فى مواصلة الكشف العلمى والتطور بالآلة واستخدمها حتى يمكن أن تسابق الدول المتقدمة فى هذا الميدان .

كما أن هذا التغير العظيم فى المعلومات والذكاء يمكن أن يؤثر فى الاستقرار العام للنظام الاجتماعى . وأنه من المحتمل أن كل الوجوه للحياه سوف تتأثر بطريقة أو بأخرى . ومن ناحية أخرى فإن بعض الآثار ستكون سريعة وحاسمة وواضحة . فكثير من وجوه الصحة والأمراض والحوادث ترجع إلى كمية المعلومات العامة للسكان . فليس المتوقع أن تقل الحوادث فقط ، ولكنه ستقل التكاليف التى تصرف على المستشفيات والعلاج . ويسهل التعليم المتقدم عملية التوظف والتكيف للمهن التى يحتاجها التصنيع ، وستقل الحاجة إلى العمال غير المهرة وهؤلاء عليهم أن يتعلموا ويزيدوا من كفايتهم الإنتاجية ليستطيعوا أن يتلاءموا مع النظام الصناعى المتقدم . وهكذا يعمل التصنيع على دفع كافة الناس إلى الاهتمام بالتعليم وبالتالى ينعكس على المجتمع فى صورة رفع لمستوى المعيشة من ناحية والاستقرار الاجتماعى من ناحية أخرى .

الفصل التاسع

من ناحية الترويح وشغل وقت الفراغ

١ — الترويح ووقت الفراغ من وجهة النظر الاجتماعية

كانت الحياة عند الأمم البدائية إما نشطة وأما غير نشطة، بدرجات مختلفة ولم يظهر سواء الترويح أو العمل كمفاهيم متمايزة عند الناس الأوائل. ولقد قفز اليونان قفزة بعيدة، فقد حملوا فكرة المسابقات فى شكل منظم ينتظم أعداداً ضخمة من المتفرجين، ويقوم به أشخاص عديدون سبق أن تدربوا لفترات كبيرة. ولقد قام الترويح عندهم على أساس من التربية البدنية وبلغ ذروته فى الجماعات التمثيلية وكانت عادة تمثل أحسن وأجمل آمال الناس. ولقد عشقها كثير من الناس كما شارك فيها ناس أكثر. ولقد كان للترويح عند اليونان قيمة علاجية فقد كانت تعنى بالأخلاق والولاء، كما أنه كان له أساس دينى كما هو واضح فى حقيقة أن الألعاب الأولمبية التى قيل إنها نشأت فى سنة ٧٧٦ قبل الميلاد ترجع إلى زيوس Zeus ولقد قامت الألعاب الأولمبية فى أثينا سنة ١٨٩٦ وكان لها تأثير دولى(١).

وعند الرومان وخاصة فى عصر نيرو Nero رسخ الاعتقاد بأن اللعب هو تعبير طبيعى عن مناشط الحياة، ومن المدهش أن هذا يشابه بعض النظريات الحديثة. إلا أن التسلية ووسائل شغل وقت الفراغ كانت فى ذلك العصر عند الطبقة العليا تتميز بالهمجية والغلظة.

ولقد عمل المسيحيون الأوائل بحزم ضد أساليب الرومان وفهمهم للترويح

---

(١) Bogardus : Socielgy. p. 217.

وذهبوا فى ذلك إلى نهاية الطرف المضاد . ونادوا بأن اللعب يجب أن يكبت . وأصبح دستور اوجستين Augustinian هو الحياة بجد دون هزل لعملية التحضير لحياة أخرى فى العالم الآخر .

ولقد نمى هذه النظرية الكوين Alcuin المربى المشهور فى القرون الوسطى وساعد على سيادتها فى أوربا عدة قرون(١) . ولقد قبل البيوريتان الضبط القاسى لدوافع الترويح ونقلوها إلى الولايات المتحدة أيضاً ، إذ انتشرت الاتجاهات البيوريتانية بشكل واسع فى الولايات المتحدة حتى هذا العصر . وتحت تأثيرهم كان يعتقد أن الترويح لا فائدة فيه ، وأن اللعب يجب أن لا يشجع بل يكبت . واعتبروا اللعب شيئاً ضاراً فى تسلية الأطفال الصغار .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت ونمت نظريات كثيرة عن اللعب وشغل وقت الفراغ ، فمثلا هربرت اسبنسر H. Spencer مقتفيا أثر شيلر Schiller الشاعر الألمانى . أعلن أن اللعب هو تعبير عن الطاقة الزائدة ، فعندما يكون لدى الطفل طاقة زائدة فهو يفرغها فى اللعب(٢) . ولكن يلاحظ أن هذه النظرية لا تأخذ فى حسابها الفتاة التى تظل تقفز الحبل حتى تقع من الأعياء ، ومعنى هذا أن نظرية اسبنسر وشيلر لا تتضمن كل أنواع اللعب ولكن جزءاً منها .

وكذلك قدم جون فسك John Fisk نظرية مجملة فى اللعب تقول إن الطفل فى حياته اللعبية هو يعيش أولا على مسرح النمو البشرى ، ففى لعبه المبكر يعبر عن أيام الجنس الوحشى ، ثم بعد ذلك يصبح مغرماً بأنواع اللعب التى تمثل أيام البرابرة ، ثم بعد ذلك عندما يأخذ مكاناً فى اللعب الجماعى والألعاب التعاونية يقال

---

(١) Bogardus : Sociology. 218

(٢) دكتور على عبد الواحد وافى : « اللعب والعمل » لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٤٨ ص ١١ .

إنه يبلغ مرحلة المدنية . فمثلا من مناوئة الحيوان أو الحرب فى العصابات يرتفع إلى اللعب الاجتماعى المضبوط(١) .

وأيضاً قال بمثل تلك النظرية متناثل هو Stanly Hall المربى الأمريكى فيما أسماه بنظرية التخليص أو الاسترجاع من بعض ميول وراثية ، وقال بأن هذه المراحل حسب تركيب ظهورها فى النوع الإنسانى . ووظيفة اللعب فى هذه النظرية هى تخليص الطفل من هذه الميول الوراثية (٢) .

ولقد عرف اللعب أيضاً على أنه إعداد للحياة ، أى أن اللعب تدريب على الحياة ، فلعب الطفل الصغير يعده لأنواع النشاط البناء والتحصيلى . فالطفل فى المنزل يلاحظ سلوك من حوله ، ثم يكرر هذا السلوك فى عالم خياله أو لعبه ، هذه العادة تتضمن أحد الأدوار واضعاً نفسه موضع العامل ومتخيلا ماذا يصنع العامل وماذا يشعر . يصبح اللعب الموضوع الذى يسهل عليه أخذ دور العمل فى عالم الغد ، فمثلا لعبة رجل المطافىء أو رجل البوليس هى أدوار يستخرج الطفل محتوياتها من حياة الكبار . وبهذه الطريقة عادات العمل وميول رجل المطافىء والبوليس تتدخل وتثبت فى شخصية الطفل ، وإن كان ذلك بقليل من التشويه ولكن بدون شك بقدر كبير من الحقيقة كافية لتؤثر فى الطموح وأهداف العمل . ومن ذلك يتضح أن الأهداف المهنية تتشكل وتنمو بالتأكيد عن طريق أخذ الأدوار أثناء اللعب ، وتصبح حقيقية عند الأطفال لأنهم يؤدونها كأهداف حقيقية (٣) .

فلعب الطفلة الصغيرة بعرائسها يعدها لدور الأمومة . وبنفس الطريقة يتعلم

---

(١) Bogardus : op. cit. p. 218.

(٢) د . على عبد الواحد وافى : اللعب والعمل ص ١٤ — ١٦ .

(٣) Miller & Form : Industrial Sociology p, 521

الطفل أثناء اللعب احترام القانون . فليس هناك طريقة تجعل الطفل يتحقق ويعرف قيمة القانون كما يكون فى مكان اللعب وهو يؤدى دوراً له حدود وقواعد على أرض الملعب مثلا . (وبنفس الطريقة أيضاً يتعلم احترام الآخرين ويكتسب عادات التعاون ويتعلم التضحية بالطموح الشخصى من أجل رفاهية الجماعة وطبقاً لهذا التفسير يصبح اللعب فى المقام الأول عملية تربوية)(١) .

وإذا قبلنا هـــذه النظرية القائلة بأن اللعب هو إعداد لأكثر جوانب الحياة . ومن يعمل على إيقاف ميول الترويح يشيخ ويهرم بسرعة، بل ويموت . وإنه لعمل جليل أن يكون لدى الإنسان القدرة على العودة من العمل اليومى ، وأن ينسى متاعب هذا العمل اليومى فى ترويح صحى . فلقد قيل إن الترويح هو ملك المجددين . وهو ضرورى وخاصة للعمال الكبار فالترويح ليس شيئاً كمالياً ، بل هو أده طبيعية لتنمية كل من ضبط النفس والميول الاجتماعية ، ومن الخير المحافظة عليه من أول الحياة لآخرها . ولقد قيل إن دوافع اللعب هى أساليب غرسها الله لتنمية الجسم والعقل والأخلاق .

وفى الحقيقة جماعة الترويح هى جماعة أولية تتميز بالوحدة ، ذلك أن مناشطها متضمنة فى روح السرور والبهجة والمتعة . وقد يبذل الفرد فى جماعة الترويح نشاطاً فى ساعة أكثر مما يبذله فى ساعة عمـــله ، ورغم ذلك يشعر بالبهجة عندما تنتهى ساعة الترويح . جماعة الترويح وجماعة العمل متكاملتان . فالترويح يعطي ميزاناً صحيحاً للعمل من ناحية ، ومن ناحية أخرى هو مهم كعامل لنمو الشخصية ، وخاصة عندما تقل ساعات العمل اليومى . وفى حيـــاة الـكسل يفقد الترويح كل معانيه .

فإذا كان العالم ومجتمعنا أيضاً يمر فى عصر وقت الفراغ ، فإنه من المهم مل‌ء

---

(١) Bogardus : Sociology .p219.

هذا الفراغ بأنواع من النشاط البناء أو تصبح الشخصيات غير متكاملة . والترويح له من الأهمية ما للدين والتربية والصحة والعمل ، وهى خمس عوامل رئيسية فى تكوين الشخصية ، وكذلك يعطى المجتمع حياة أكثر غزارة وحيوية. ويتوقف هذا المعدل العالى من الحيوية على الأساليب التى تجعل الترويح بديلا للعمل ، والتى تعطى الحياة لذة وحماسة وتنمى الشخصيات ، والتى يمكنها أن تبنى الأخلاق فى الجماعة . حتى فى زمن الحرب ، هناك الأنواع التى يمكنها أن تخلق حماسا وحمية، وتلك التى يمكنها أن توحد بين الناس فى حياة جماعة متفاعلة .

(الترويح والعمل والمهنة متكاملة . فالحياة الأسرية والنشاط المهنى والترويح هى متحدة طبيعيا)[١] . ولقد صار الترويح معروفا أنه أحد مناشط الحياة الرئيسية . وفى ظل التصنيع أصبح وقت الفراغ أوسع من وقت العمل ، ومن هنا صارت مشاكل وقت الفراغ تزداد بسرعة أكثر من مشاكل وقت العمل . ولقد كان شغل وقت الفراغ والترويح من الأمور التى تهم الإنسان، إلا أنه الآن أصبح يحتل مكانة هامة فى سجل الحياة الإنسانية ، وينظر إلى ملء وقت الفراغ بالطريقة الصحيحة على أنه علاج من ملل العمل اليومى .

٢ — تخلى الاسرة عن الوظيفة الترويحية

عندما كانت تسود سمات المجتمع القروى كانت الأسرة هى المكان الوحيد تقريبا للترويح عن أعضائها . ولقد مدح الناس الترويح فى المجتمع القروى بأنه يتم خلال الإطار الأسرى . وهذه الدعوى لها نصيب كبير من الصحة ، فالأسرة الريفية تمضى معظم وقت فراغها معاً . وما تفعله الأسرة الريفية فى وقت فراغها يتوقف على ظروفها . ففى المناطق البعيدة عن الحضر حيث تصعب وسائل المواصلات وتزداد تكاليفها تمضى الأسرة وقت فراغها كله مع أعضائها .

---

(١) Bogardus : Sociology. P. 216.

ولكن حيث تكون قريبة من المراكز الحضرية وتقل تكاليف المواصلات، فإن بعض الأعضاء يتركون الأسرة ليمضوا بعضاً من وقت فراغهم فى ملاهى الحضر.

والأسرة الريفية نظراً لظروفها الاجتماعية التى أدت إلى انخفاض مستواها الثقافى فإنها لا تعرف كيف تستغل وقت فراغها بطريقة معقولة. فأكثر الأنماط انتشارا لقضاء وقت فراغ الأسرة الريفية هى الزيارات وخاصة فى أيام العطلات أو فى الأمسيات. وإحدى البواعث المشجعة على الزيارات هى السهولة والسرعة التى تقوم بها الزيارة كعامل ترفيهى. ويلاحظ أيضا أن مهنة الفلاحة تسمح بالتجمع فى العمل والترويح، فالناس يغنون ويتحدثون أثنـــاء العمل. بل ويستطيع الفلاح أن يتوقف عن العمل ويمضى بعض الوقت فى حديث أخوى مع جيرانه أثناء مرورهم عليه. وكذلك فى المجتمع القروى هناك أنواع من النشاط الترويحى الجمعى، ويتم هذا عند وصول فرق المسرح الشعبي أو السينما الثقافية أو أثناء الموالد والأعياد الدينية.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الفلاح ليس فى حاجة إلى قضاء وقت فراغه فى أنواع النشاط الترويحى المتعلقة بالحركات الجسمية، وهو كذلك ليس فى حاجة إلى خفض التوترات الانفعالية التى تعزى إلى العمل على وتيرة واحدة أو العمل الذى يلهب الأعصاب. والنشاط الترويحى الذى يحتاجه الفلاح أكثر من العامل الصناعى هو النشاط الذى ينعش الذكاء والعقل.

ويمكن القول أن التوقعات الاجتماعية فى الأسرة الريفية أن يعمل الفرد بكل جهده طيلة اليوم وجزءاً من الليل، وأن يمضى وقتاً قليلا فى الترويح، أو لا وقت لمثل هذا النشاط.

ولكن التصنيع وما استتبعه من حياة حضرية أصبحت التوقعات الاجتماعية

عند الأسرة المتأثرة بالأسلوب الحضرى أن يبذل الناس أقل ساعات ممكنة فى العمل ، وأن يشارك الفرد فى وقت فراغه فى أنواع النشاط الترويحى المختلفة(١).

فإن أهم ما يميز المناطق التى غزاها التصنيع هو نوع العمل الذى يمارسه أغلب سكانها ، وهو عادة عمل صناعى . والعمل الصناعى الذى يقوم على التخصص يتميز بالرتابة والترداد ، ينعكس على العامل فى شكل إحساس بالملل والآلية ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتميز به العمل الصناعى من تقسيم للعمل والتواتر الآلى الذى يعطل عند العامل إشباع رغبته فى الإنجاز وحاجته إلى الإبداع . ذلك بالإضافة إلى جو العمل الصناعى المشبع بالضوضاء ، والبعد عن مظاهر الطبيعة الذى يؤثر فى العامل نفسيا ، ويلهب أعصابه .

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الترويح لابعاد العامل فترة زمنية عن هذا التواتر الآلى والرتابة والملل ، لتجديد نشاطه وطاقته وإعطاء معنى لحياته اليومية . فأنماط الترفيه الحضرية فى ظل التصنيع هى نتيجة الحاجة والتوافق ، فالترويح غلا وظيفة نافعة وصحية ، فالناس فى ظل التصنيع كما تبين يعيشون ويعملون تحت ظروف غير مرضية ، فهم فى حاجة إلى ترفيه أكثر من الريفيين . ولسوء الحظ فإنه فى بعض الأحيان يصبح من الصعب — وفى أحيان أخرى يصبح مستحيلا — الحصول على ما هم فى حاجة إليه فعلا . إذ أن أنواع النشاط التى تشارك فيها الأسرة السليمة تواجه ظروف ازدحام المساكن وارتفاع التكاليف خارج المنزل . والترويح الجمعى داخل الأسرة فى المدن الكبيرة غير كاف لصعوبة وجود حجرات للمجموعة الأسرية ، والترويح مع الجيران يعانى من نقص التسهيلات المكانية ، وكذلك من نقص روح الجوار ، تلك هى النقط بالضبط التى تواجهها الحاجة والتوافق(٢) .

(١) Burgss & Lock : The Family p. 468.

(٢) Borgell . Urbun Sociology p. 323

فالأسرة فقدت الوظيفة الترويحية لنفس الأسباب التى فقدت من أجلها وظائف أخرى إذ أن الهيئات المتخصصة فى الترويح تقدم إمكانيات أحسن . فإنه لا يمكن إنكار أن الازدحام المكانى للأسرة الناشىء عن ضيق المسكن من ناحية ، ومن ناحية أخرى استغلال الأراضى فى البناء مما جعل الأسر تتكدس فوق بعضها ، وأصبحت الأسرة تعانى من ندرة المسكن ، كل هذا يخلق نوعا من التوتر ، وأفضل وسيلة لخفض هذا التوتر هو تفرق أعضاء الأسرة .

وقد ساعد على ذلك ضيق نطاق الأسرة وانشغال كل فرد من أفرادها فى مجال عمله الذى يختلف عن عمل الآخرين فى الأسرة ، وكذلك اختلاف ثقافات الأفراد جعلت لكل فرد من أفراد الأسرة فكرة خاصة عن طريقة تمضية وقت فراغه . فأفراد الأسرة يختلفون فى أعمالهم فمنهم من يعمل نهاره فى مكتب مغلق فهو فى حاجة إلى أن يمضى وقته فى نادى ، ولكن الذى يعمل مهندسا للمبانى ويقضى معظم وقته فى العراء يريد أن يشغل وقت فراغه مستلقياً فى كرسى مع صحيفة أو كتاب ، والأطفال يبحثون عن أترابهم من الجيران للعب معهم . ولذلك فليس من المعقول الإصرار على تجمع كل الأسرة إذا كان هناك نوع من الترويح لا يتمتع به سوى عضو واحد ، وأكثر من هذا فإن التصاق الأسرة وتركزها حول نفسها ليس أقل ضرراً من عكسه ، فليس من المعقول أن نقوى تركز الأسرة ، ذلك الاتجاه الذى يوهن العلاقات الاجتماعية (١) . فإن من أهم وظائف الأسرة هو دفع أفرادها إلى المشاركة الإجتماعية خارج نطاق الأسرة . فمثلا من الضرورى أن نطلق سراح الأطفال من المنزل فى أوقات معينة ليلعبوا ويحتكوا بأبناء الجيران إذ أن ذلك يسهل التنشئة الاجتماعية للأجيال الصغيرة .

---

(١) Bergell : Urban Sociology p. 332.

فطالما أن تجمعات كبيرة من الأسر تزدحم فى مساحة ضيقة غير متكافئة والتى لا تتيح إلا منازل غير لائقة ، وكذلك طالما أن النشاط الاقتصادى فى ظل التصنيع لا يشبع رغبات ولا يشعر معظم العمال بالرضى إذ أن العمل الصناعى إما عمل رتيب ممل أو عمل يلهب الأعصاب ، وطالما أن العمال ضحايا للضجيج العظيم فى الصناعة ، وطالما أن الأسرة الحضرية تتميز باختلاف فى المستويات الثقافية والاهتمامات بين أفرادها ، اتضح لنا عجز الأسرة عن القيام بوظيفتها الترفيهية وأصبحت الحاجة ماسة إلى ترياق من هـذه السموم الاجتماعية ، وكان هذا الترياق هو وسائل الترويح خارج الأسرة التى تعددت أنواعها واختلفت أشكالها لتقابل هذه الحاجات المختلفة ولترضى هذه الأذواق المتباينة . والترويح خارج الأسرة يخلق فرصاً لا تستطيع الأسرة أن تقدمها ، وإن استطاعت أن تقدم شيئاً منها ففى مستوى منخفض جداً . وهكذا أصبح الترويح خارج الأسرة نظاماً اجتماعياً حضرياً فرضه التصنيع .

ومما لا شك فيه أن التماسك الأسري يضطرب إذا لم يمض أعضاء الأسرة بعضا من وقت فراغهم معاً ، لأن كل فرد إذا مال إلى متابعة نمطه الخاص فى قضاء وقت فراغه ، واستمر هذا فإن الأسرة يصيبها التفكك ، والعلاقات الأسرية تصبح واهية مهددة بالتمزق .

ومما لا شك فيه أن اتساع وسهولة الترويح فى الحضر قد خلق بعض الأنماط من الشخصيات غير السليمة . وهم الذين تصبح التسلية محور حياتهم ، فهناك الولد اللعوب ابن الطبقة العليا ، وعادة لعب سباق الخيل التى تشاهد عند كل الطبقات تعتبر من الترويح المدمر . وهؤلاء ينظر إليهم على أنهم شواذ من ناحية نمو الصحة العقلية .

(١) Ibid., p 325

كما أن هناك اعتراضات من ناحية رجال الأخلاق والعقليين . فرجال الأخلاق تبعاً لاهتمامهم بالمعتقدات يعتبرون كل أنواع الترويح التى خارج الأسرة غير أخلاقية ، لأنها لا تخدم أى غرض فاضل . أما العقليون فهم ساخطون من انخفاض مستوى النشاط الترويحى الحضرى [١] . ولم يلاحظو أن القيمة الاجتماعية للترويح لا تكمن فى مستواها العقلى . فالمجتمع الحضرى لا يتكون معظمه من الأمور العقلية . فإذا كانت أنماط الترويح الموجودة لا تعطى أفراد الأسر الحضرية ما يتطلبون فإنهم سيتحولون إلى أنماط من الترويح غير العقلية . فالإرهاق العقلى والعصبى الذى يعانيه العاملون فى الصناعة يدفعهم إلى البحث عن ألوان من الترويح تخفض هذا التوتر . ولذلك نرى أنهم يفضلون قراءة أخبار الرياضة والكوميديا والنكت وأخبار الجرائد ، ويعبرون الأخبار المهمة ولا يعيرونها انتباها، وهذا ما دعى (جورج شستر Goerge Fhuster من كلية هنتر أن يقول أن الأمة الأمريكية فى خطر من أن تصبح طفلية النزعة إذا لم تتحسن برامج التلفزيون الفارغة العقل) [١] . وكذلك الفنون الكبيرة العظيمة لا تعتبر ذات دخل مرتفع ، فهى دائماً فى حاجة إلى الإعانات ، ذلك لعدم إقبال الجمهور عليها . فمثلا بيوت الأوبرا لا يمكن أن تستمر دون معونات الدولة ، والشعر لا يجد رواجاً وإقبالا لدى الناشرين الآن قراءه قليلون ، فبالتالى يقل بيعه ، وبالمثل التمثيليات العظيمة والكتب ذات المستوى العالى تجد نفس العوائق ، وهكذا فنظام الأرباح هو المسئول عن الموقف المحزن لهذه الفنون والعلوم العظيمة .

ولتحسين أنواع الترويح لا يمكن أن يأتى فقط من ناحية منتجية، ولكن

---

(١) Ibid., p. 325.

أيضاً من ناحية طالبيه أى يجب رفع مستوى الطلب فالذى نحن فى حاجة إليه هو إشتراكية الفنون والآداب من ناحية ،وتعليم أرقى لكيفية شغل وقت الفراغ من ناحية أخرى .

وإذا كنا نلاحظ تناقص وظيفة الأسرة الترويحية إلا أننا نجد بعض الاختراعات الحديثة تحاول أن تعيد إليها بعض هذه الوظيفة ، فالاختراعات الكهربائية تسعى إلى جعل المنزل مكاناً للترفيه . فبرامج الراديو من الموسيقى والروايات إحدى تلك الوسائل ، كما أن التلفزيون ينقل المسرح إلى داخل المنزل، وكذلك ينقل إليه السينما . ويحاول المشرفون على البرامج التى تعرض أن تكون ملائمة لكل أفراد الأسرة وللأسر المختلفة الدين والثقافة ، ومختلف درجات التعليم . ويقول البعض إن التلفزيون سيتناقص تأثيره ويقل الوقت الذى يأخذه بذهاب جدته وحداثته ، والبعض الآخر يذهب إلى أن تحسين البرامج ، سيعمل على زيادة استعماله وينمى عادة الجلوس إليه .

وكذلك يقول البعض إن أنواع النشاط الترفيهى خارج المنزل ستعمل على زيادة قدرتها على منافسة التلفزيون ، ومن ثم يتناقص استعماله . ويبدو أثر التلفزيون على الأطفال فى أنه يعمل على الإقلال من نشاطهم ، وخاصة النشاط الفيزيقى ذو الأهمية القصوى لنموهم وشهيتهم . كما أن بعض برامج التلفزيون الخيالية تعمل على تعويق الطفل فى تعلم التفريق بين الخيال والواقع ، بل وأنها تستميل بعض الأطفال إلى اتباع الأسلوب الخيالى . إن كان التلفزيون يؤدى إلى إبقاء أعضاء الأسرة فى المنزل وقتاً أكثر ، ولكنه يؤدى أيضاً إلى إنقاص الاتصالات الشخصية داخل الأسرة بالصمت الذى يفرضه على أعضائها . وكذلك أجهزة التسجيل التى تتميز بسيطرة المستمع عليها، والتى يمكن تكوين

مكتبة موسيقية من أشرطة التسجيل . وكذلك الراديو خلق له جمهوراً عظيما من الأسر ،فإن مستمعيه يمتدون وينتشرون على مساحة عدة آلاف من الأميال . ويمكن للراديو أن يحول أمة إلى جمور واحد ضخم ، وبذلك يخلق شعور الجماعة الأولية . ولقد أدت أيضاً الموجات القصيرة إلى أن يخلق من العالم جماعة اجتماعية واحدة .

وهكذا فمخترعى ألوان الترفية الجديدة للمنزل يجاهدون عن طريق المخترعات الكهربائية العمل على حفظ أنواع أساسية من الترفية فى المنزل وإضافة أنواع جديدة ، وعلى أى حال فالملاحظ أن الوقت الذى يمضيه أفراد الأسرة الآن خارج المنزل قد تضاعف عن ذى قبل من ناحية ، ومن ناحية أخرى عن مثيلاتها من الأسر الريفية فى الوقت الحاضر . فأصبح الترويح لا يباشر معظمه بواسطة الأسرة ككل . فالأطفال يلعبون مع جيرانهم ، وإذا كبروا قليلا يذهبون بعيداً عن الأسرة مع جماعات الشباب فى شتى أنواع النشاط الترويحى خارج المنزل : والآباء قد يذهبون إلى نواديهم أو مقاهيهم ، وللأمهات صديقاتهن اللاتى ينشغلن معهن فى الحديث أو لعب بعض أنواع التسلية المنزلية . والأسرة حيث يكون الأب غائباً أو تكون الأم تعمل تعتمد على خدمات المجتمع الترويحية .

٣ — وطأة الترويح التجارى على الاسرة

تبين لنا من الفقرات السابقة أن طريقة الحياة فى المدن فى ظل الحياة الاجتماعية التى صنعها التصنيع قد قللت من الوقت المبذول فى العمل وزادت فى وقت الفراغ ، كما أدت إلى ارتفاع فى مستويات الدخل ساعد الناس على صرف جزء من دخلهم فى مسراتهم . فإذا أضفنا إلى ذلك ماتعانيه الأسرة الحضرية

فى المناطق الصناعية من ندرة السكن ، وبالتالى ازدحام المسكن ، وأيضاً ضيق نطاق الأسرة ، وانشغال كل فرد من أفرادها باهتماماته الخاصة ، واختلاف الثقافات بين أعضائها ، اتضح لنا عجز الأسرة عن المنافسة التى نشأت بينها وبين المنظمات التجارية لشغل وقت الفراغ ، وهى منافسة كما رأينا غير عادلة مما أدى إلى فقد الأسرة لهذه الوظيفة . ولهذا فالترويح التجارى أصبح نظاماً اجتماعياً حضرياً لعدة أسباب . فالأسرة على الأقل فى الجماعات المنخفضة لم يكن فى استطاعتها إشباع الحاجات الترويحية وخاصة بعد إنقاص ساعات العمل الأسبوعية . والدخل فى الحياة الحضرية عبارة عن نقود سائلة ، والترويح التجارى يعطى أنواعا من التسلية لاتستطيع الأسرة تقديمها ، وإن استطاعت أن تقدم شيئاً منها فى مستوى منخفض جداً . (فأنواع الترويح التجارى وجدت لأنها تقدم خدمات أفضل)(١)

ولكن الترويح التجارى الذى نما فى ظل النظام الرأسمالى الذى غايته الربح قد عمل دائماً على استغلال وتسخير الموارد الاقتصادية والأخلاقية للأطفال والكبار على السواء. فالمشاريع التجارية قد أخذت مميزات الترويح وأهميته كعنصر من عناصر الحياة الاجتماعية وحولتها إلى دراهم لمنفعة منظميها . وقد جهزت بأنواع من التسلية لكل فترة من فترات العمر ولكل مستوى اجتماعى أيضاً ، ولكل درجات الجهل . وفى مجتمع رأسمالى كالولايات المتحدة رأينا أحد مفكريها وهو سيمون باتن Simon Pattent الاقتصادى الذى أعلن فى سنة ١٩٠٧ أن الترويح التجارى قد ذهب بعيداً فى إخلاله بالحياة الاجتماعية ، فقال (لقد سيق العامل هنا وهناك عن طريق الحيل المزخرفة غير المفيدة إلا لأنانية المنظمين الذين دائماً يغرون العامل ، حتى أبادوا قواه وخفضوا أسلوبه الأخلاقى)(٢) .

(١) Bergel : Urban Sociology P. 324.

(٢) Bogardus : Sociology P. 220.

فمنذ عشرات السنين ووقت فراغ الناس قد تحول إلى رأسمالية عن طريق المشاريع الخاصة ، فبواعث الترويح عند الناس قد استخدمت، ليس لزيادة مجموع الرفاهية أو لبناء الشخصيات ولكن لتنمية رؤوس الأموال. فالرأسمالية أخذت الوظيفة الرئيسية للترويح التي هي الشفاء النفسي والجسمي ، وحولتها إلى وظيفة مدمرة في سبيل الربح ، فدفعت بعض الناس إلى إدمان السكر والمخدرات والدعارة والميسر . وهي أنماط من الترويح يمكن اعتبارها أنماطاً مرضية ، لأنها تقدم أنماطاً من الترويح منحطة وخطرة على الصحة وتعمل على عدم تنظيم الناس وتفسد حسن الجوار ، وتعمل على تفكك الأسرة وانهيارها . ويندرج تحت هذه الأنماط المرضية صالات الرقص والنوادي الليلية والمواخير والحانات (وهذه الأنماط المرضية تميل إلى منع نمو ونضج الشخصية وتجعل الناس ينسون واجباتهم الأسرية ، بل وواجباتهم كمواطنين)(١)

وهذا يقتضي الحاجة إلى تعليم كل الناس مبادىء الترويح وفوائده . فالجمهور في حاجة إلى أن يعلم كيف عملت الصناعة الحديثة في ظل النظام الرأسمالي على خلق ظروف منزلية للجماهير تتميز بالازدحام ، وغير معدة للسماح بالتمتع بقضاء وقت الفراغ في مرح في نطاق الأسرة ، إلا إذا عملت تغييرات أساسية في الحد من الازدحام . وبهذا الأسلوب يمكن للأسرة أن تفهم كيف أتيح للترويح التجاري أن يكون له ميزة الاستيلاء على ميول الجماهير للترويح ، وأعد نفسه لخدمة كل المستويات سواء من ناحية العمر أو الجنس أو الذكاء . والأسر أيضاً في حاجة إلى فهم كيف أن الترويح التجاري في ظل النظام الرأسمالي عمل دائماً على استغلال واستنزاف الموارد الاقتصادية والأخلاقية لكل أفراد الأسرة من آباء وأطفال وشباب على السواء .

(١) Bergel : op. cit.P. 328

إنه من الواضح جداً أنه فى ظل عمليات التصنيع السريع وما يتبعه من سرعة فى التغير الاجتماعى والتعقد لظروف الحياة ، وزيادة التركز السكانى فى المدن ، لا يمكن ترك شغل وقت الفراغ بعد ذلك تحت إدارة الأفراد والتجارة والأسلوب الرأسمالى الجشع .

فالضبط الاجتماعى لا يمكن أن يتناسى أو يهمل تلك الحقيقة : إن أفراد الأسرة جميعاً سواء الكبار منهم أو الصغار فى حاجة إلى ترويح من نوع ما ، فمثلا الملاعب للأطفال هى حاجة عامة ويجب أن تكون منظمة . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الضبط يجب أن لا يذهب إلى التطرف فيكون كابحاً تماماً فإن ذلك يضر أكثر مما ينفع ، وهو خير إذا كان منظماً وبناءاً .

ويقتضى هذا الضبط الاجتماعى أن نضع الترويح التجارى تحت الرقابة القوية والدائمة ، ذلك أن الترويح التجارى يجرى وراء الربح لا الرفاهية الاجتماعية ، وهنا تكمن خطورته . بل ويجب إلغاء أنواع الترويح التجارى التى تعمل على هدم قيم الحياة الأسرية . ومن الضرورى تقديم بديل عنها يكون ذا صبغة بناءة .

٤ — الترويح الاجتماعى

الترويح الاجتماعى هو أحسن بديل للترويح التجارى . والترويح الاجتماعى يميز بين التسلية والترويح ، فالتسلية سلبية وليس فيها مشاركة ، فهى تخلق متفرجين ، فالشخص طالب التسلية هو الشخص الذى ينظر ، بينما الآخرون يلعبون (أما الترويح فهو نشاط خلاق وبناء ومنعش) (١) . كما أن هناك

---

(١) Bogardus : Sociology p. 224.

أنواع من الترويح ليست اجتماعية فهى لا تحتاج إلى رفاق مثل الأعمال الخلاقة للهواة والقراءة وكل أنواع التأمل والتفكير وصيد السمك . وبينما كل هذه الأنواع من الاسترخاء تقع خارج دائرة العلوم الاجتماعية، إلا أنه يمكن استخراج بعض الأدلة منها . فالشخص الحضرى المنفرد يتبع طريقة الانعزال ، ليس لأنه لا يجد رفاقاً، إنما لأنه يعمل دائماً من آخرين . وفى الحقيقة ينال كثير من الناس ترويحا حقيقيا أثناء عملهم مع الآخرين ، وخاصة عندما يكون هذا العمل من النوع الذى يمنح فرصاً للأعمال الخلاقة والإبداع . ولكن الشخص الريفى عادة ينفرد بنفسه دون أن يثير أى اعتراض، فبعض المهن الريفية تتضمن الانعزال مثل حارس الأرض أو راعى الغنم ، وإذا أراد أى رفاق فما ذاك إلا لأنه يريد التغيير . أما ساكن المدينة الذى يعمل دائماً مع آخرين عادة يبحث عن المجتمع ليس لأنه يريد الهروب من نفسه ، فعدم القدرة على البقاء وحده حتى ولو لوقت قصير هو مظهر مرضى للحياة الحضرية المصنعة .

فآلية العمل الصناعى، وخاصة بعد أن ازاد التصنيع من تقسيم العمل والتخصص الدقيق الذى لا توجد فيه عناصر التسلية ، تدفع العامل إلى النظر إلى نهاية اليوم أو نهاية العمل بفارغ الصبر للذهاب للترويح . فآلية العمل الصناعى والإحساس بفقد القيم الروحية والعقلية تجعل عقول كثير من الناس فارغة إلى حد عدم القدرة على عمل شىء وحدهم . وبالعكس المنعزل الذى لا يترك أبداً حدود منزله ويتجنب جميع التجمعات البشرية هو أيضاً حالة مرضية .

فالمشاركات الجمعية مطلوبة أو على الأقل مفضلة فى كل أنواع النشاط الترويحى فمثلا الجلوس وحيداً فى دار للسينما خالية أو مسرح خال هو لا يجلب السرور إطلاقا . فالرجل كائن اجتماعى يرغب فى المصاحبة حتى فى الأكل

والشرب) . ولذلك فشغل وقت الفراغ بوسائل الترويح الجماعية يعتبر من أهم الوسائل للمشاركات الوجدانية التى تؤدى إلى الترابط الاجتماعى خارج نطاق الأسرة ، والترويح الجمعى يحقق هذا الهدف . ومن ناحية أخرى : إن الآلية فى الصناعة تؤدى إلى فردية أفراد الأسرة ، ولذلك فمن المهم أيضاً تنمية أنواع الترويح الجمعى المنزلى ، ذلك أنه يمكن أفراد الأسرة من العمل كوحدة. فالمنزل هو أحسن مكان يمكن أن يكون مركزاً للترويح الاجتماعى وخاصة للأطفال . فالفرص فى المنزل عديدة لأنماء اللعب كنشاط موحد للأسرة عن طريق المشاركات الوجدانية أثناء الترويح . فالترويح الاجتماعى داخل الأسرة مهم لعملية التماسك الأسرى ، كما أنه مهم لعملية التنشئة الاجتماعية للأطفال والبعد بهم عن الانخراط فى عصابات الأحداث المنحرفين .

والترويح الجمعى يمكن أن يكون منظما ويمكن أن يكون غير منظم . ويمكن القيام به بأسلوب ديمقراطى أو بدرجة أقل أو أكثر من القيادة المتسلطة. فسياسات الحكومات المتسلطة التى تضغط لدفع أفراد الأسرة إلى مختلف الوحدات الجماعية التى لكل منها نشاطها الترويحى الخاص بها ، ويحدث هذا عن طريق تقسيم الناس إلى جماعات من الأعمار والأجناس وإخضاعهم لنظام محكم ، وطالما أن هذه الجماعات تتطلب ولاء أسمى ، فإن الأسرة تعانى ليس فقط من فقد وقت الترويح ، ولكن أكثر من ذلك من الغض من شأن القيم الأسرية .

كما أن الترويح الجمعى يمكن أن تقوم به جمعيات خاصة أو مؤسسات أعمال أو منظمات ثقافية أو دينية أو هيئات اجتماعية ، وهذا يسمى بالترويح الجمعى الخاص ، وقد تنظمه الدولة ، وهذا ما يسمى بالترويح الجمعى العام وأحد أنواع الترويح الجمعى الخاص ذلك الذى يأخذ سبيله عن طريق جماعات الأصدقاء

ومصطلح الصداقة هنا يستعمل بشكل واسع ويمتد مداه فيشمل كل العلاقات من المعرفة السطحية إلى أوثق العلاقات بين الأصدقاء والمقربين . كل هذه الأنواع من النشاط لها أكثر من مجرد قيمة ترويحية، إذ أنها تقرب بين الناس ، وتعمل على تحسين التفاهم المتبادل ، وتزيد من شعورهم بالأمن ، إذ أنها تشعرهم بأنه يمكنهم الاعتماد على أصدقائهم فى الملمات . وكل الجماعات التلقائية محددة بإمكانياتها ، وكثير من هذه الأنواع من النشاط يحتاج إلى إمكانيات تزيد عن قدرة أسرة واحدة ، كما أنها تحتاج إلى مكان أوسع مما يتيحه المنزل . ولهذا السبب نشأت النوادى ، وهى نوع آخر من الترويح الخاص ، فبتجميع المصادر المالية أمكن للنوادى أن تقدم ما لا تستطيع الأسرة أو جماعات الأصدقاء تقديمه وتخدم بعض النوادى أغراضاً خاصة ، مثل نوادى السيارات والتجديف ، وبعضها فى ميدان معين من الترويح مثل النوادى الرياضية ونادى الشطرنج ونادى الفنون ، وبعضهما أكثر عمومية فى أغراضه .

وهناك نوع من المنظمات تفضل كل أنواع المنظمات الترويحية من حيث الضبط الاجتماعى والأثر على التنظيم الاجتماعى ، وهى منظمات الترويح الجمعى العام . فهى منظمات ليست غايتها الربح ، ولكن غرضها تقديم الترويح من أجل الترويح ذاته ، وهدفها إحداث أثر مفيد على العلاقات الاجتماعية .هذه المنظمات تعتبر من أسمى الجماعات لعدة أوجه ، فهى تخدم وظيفة خاصة ، وهى الترويح لكل الأسر ، وهى تدار بواسطة رواد مدربين مهنياً ويستخدمون أحدث الأساليب العلمية ، وهى مفتوحة لكل الأعضاء المحترمين فى المجتمع . فالترويح الذى يقدم للمجتمع وبالمجتمع هو شىء هام وعظيم ، وهو خطوة عظيمة نحو تحقيق الهدف من الترويح . ذلك أنه إذا انبعث مجتمع لتقديم ترويح منظم لنفسه وبسعر مناسب — إذ أن المثل الأعلى لكل مجتمع هو أن يقدم لنفسه ترويحا

بأقل الأسعار — فهو يهدف إلى إتاحة الفرصة للجميع لشغل وقت الفراغ ، فهو قوة اجتماعية إيجابية لحياة كل فرد فى هـــذه الحياة الحضرية المصنعة المزدحمة بالسكان . كما يتميز هذا الترويح الجمعى بأنه منظم ويستمد تمويله من الضرائب وتشرف على تنظيمه الحكومة لا جمعيات أو أفراد كالترويح الخاص ، كما أنه يحقق ويتيح الفرصة لجميع أفراد المجتمع بغض النظر عن الطبقة أو النوع ، مثل ما يفعل الترويح الخاص الذى تحدده الطبقة والدخل ، وبالتالى تحرم منه معظم أسر الطبقات ذات الدخل المنخفض .

وهناك أنواع من الترويح الجمعى العام الداخلى والترويح الجمعى العام الخارجى . والنوع الداخلى هو ما نراه فى المدارس والأبنية العامة أما الخارجى فهو يتمثل فى ساحات اللعب مثل الساحات الشعبية . ويتميز الترويح الجمعى أيضاً بالتعاونية ، ذلك أنه فى هذا النمط يجتمع فيه جمع من الأفراد للترويح عن أنفسهم بأنواع النشاط الترويحى المختلفة، وهم فى ذلك يشبعون حاجاتهم إلى الترويح دون الحاجة إلى الاعتماد على أنواع التسلية التجارية ، كما أنه فى هذا النوع يقوم كل فرد من أفراد الجماعة تلقائياً بجزء من نشاطها فى تعاون مع زملائه .

وفى الحقيقة أهم أنواع النشاط الترويحى التى يتطلبها مجتمعنا هى تلك التى يأخذ فيها النشاط الترويحى التعاونى مكانه تلقائيا ويزيح أنواع النشاط التنافسى حيث تأتى الدوافع من المشاركة فى نشاط سار من أجل الترويح نفسه ، ومن أجل إدخال السرور على الآخرين على أسس ديموقراطية ، فكل فرد يشارك بحرية فى النشاط المتزن للجماعة . وقد قال ديفد كروسلى David Grosly فى مقال له عن الترويح التعاونى اسمه (القيم الاجتماعية فى الترويح التعـــاونى Social Values in Cooparative Recriation) إن وعى الجماعة وإدراكها واندماجها هو نتيجة التريح التعاونى ، وإن الجماعة التى تعمل ترويحا تساعد

على نمو ثقافة الناس، كما أن الترويح التعاوني يعطى نمواً عاطفياً طبيعياً للشخصية، ويعطى الترويح للشبان انطباعات حسنة عن بعض القيم مثل المساعدة المتبادلة، والعادلة الاجتماعية والتطور السلمى للمجتمع [1].

٥ - اثر الطبقة فى الترويح ووقت الفراغ

لقد اتضح فى الفصل الخاص بالطبقة أن التصنيع ميز الحياة الاجتماعية الحديثة عن سابقتها، وجعل مدار الانقسام الطبقى حوله. وقد أرجع بعض المفكرين أسباب الانقسام الطبقى إلى المهنة على أساس أنها تترك فى أصحابها عادات اجتماعية تميزهم عن غيرهم، وآخرون ذهبوا إلى الدخل أى ماتدره المهنة من دخل) وبعضهم أقام الانقسام الطبقى على أساس نوع الحياة (أى نوع الحياة التى يمكن لكل طبقة أن تشتريها) وبعضهم ذهب إلى الأخذ بالمهنة والدخل معاً. وفى الحقيقة : إن كل هذه العوامل متشابكة تعمل على تحديد الطبقة. والذى يهمنا فى هذا المجال هو ما تتيحه كل طبقة لأفرادها من فرص الحياة عن طريق دخلها ومهنتها وثقافتها، ويتبع ذلك أن الأسر ذات الصفات المتشابهة تميل إلى التجمع معاً فى أماكن معينة أى أنها تشغل موقعاً أيكولوجيا معيناً.

تبعاً لكل هذه الاختلافات الطبقية اختلفت كمية وقت الفراغ عند كل طبقة فالطبقة العليا لديها فراغ أكبر، فمنذ نشأت المصانع بمختلف درجاتها العمالية، فأولئك الذين فى القمة لديهم فراغ كبير، بل فراغ كما يريدون هم، وأولئك الذين فى القاع لم يكن لديهم من الفراغ إلا القليل، أما من هم بين هذه وتلك (وهم أسر الطبقة المتوسطة) فلديهم فراغ أقل من العليا وأكثر من المنخفضة.

---

(١) Bogrdus : Sociology P. 245

وإذا كانت كمية وقت الفراغ قد اختلفت من طبقة إلى أخرى، فإن دخل كل طبقة وقدرتها الشرائية قد أدت إلى اختلاف أسلوب كل طبقة فى شغل وقت فراغها . فالطبقة العليا بما لديها من دخل كبير أتاح لها القدرة على شغل وقت فراغها بمختلف أنواع النشاط الترويحى، وخاصة الباهظة التكاليف التى لا تقدر عليها غيرها من الطبقات. وأسر هذه الطبقة أيضاً لها نواديها الخاصة التى تتطلب عضويتها مركزاً معيناً، إذ يصبح النادى رمزاً لطبقة اجتماعية، ويصبح هذا النادى هدفاً لكل من المتسلقين اجتماعياً، الذين يتعالون على من بخارج النادى بقدر مايتذللون لمن بداخله . ومعظم هذه النوادى يحدد عضويته ويرفع من قيمة اشتراكه لكى يجعلها مغلقة على طبقة واحدة وليمنع دخول أعضاء غيرها (أى لتكوين جدار طبقى). ومثل هذه النوادى يتطور الترويح فيها إلى أن يصبح عاملا ثانويا. كما أن هذه الطبقة مسئولة عن وجود أنواع الترويح غير الملائم مثل صالات الرقص والحالات الليلية ونوادى الميسر ، إذ أن هذه الأنواع لن تكون مربحة إلا إذا كانت مطلوبة ، وهى ذات تكاليف باهظة لا يقدر عليها إلا أبناء هذه الطبقة . فهم المسئولون عن وجودها تماماً كمسئولية أصحاب هذه الأنواع من الترويح الذى يهدد القيم الأخلاقية ، ويحول المواطنين إلى أشخاص تصبح التسلية هدفهم الوحيد فى الحياة ، وأفكارهم تتركز حول المجون واللهو فتصاب الأسر بالإنهيار الخلقى .

وإذا كانت القوة الشرائية لأسر الطبقة العليا قد أتاحت لها القدرة على التمتع بأنواع الترويح المختلفة والغالية التكاليف خارج المنزل، فإن هذه القوة الشرائية أيضاً أتاحت لأسر هذه الطبقة مسكناً فسيحاً يتيح لأطفالهم مباشرة أنواع مختلفة من الترويح داخل المنزل . وإذا كانت تلك القوة الشرائية أتاحت لهذه الطبقة مكاناً فسيحاً للترويح فقد أتاحت أيضاً لها تملك وسائل عديدة لشغل وقت الفراغ

فلديها الراديو والركودر والتلفزيون ، وكثير من هذه الأسر أدخلت السينما فى منازلهم علاوة على الآلات الموسيقية إلى جانب الكتب والمجلات بمختلف مستوياتها وأنواعها . كما أتاح لها أيضاً أن تقوم بأنواع من النشاط الترويحى الاجتماعى فى المنزل الذى يشارك فيه معظم أفراد الأسرة مما أتاح لها نوعاً من التماسك والترابط الأسرى .

أما الطبقة المتوسطة فأسر هذه الطبقة تتميز بالتماسك الأسرى والاهتمام بالتعليم والطموح ، ولديها وقت فراغ أقل من الطبقة العليا وأكثر من الطبقة الدنيا ، ولكن ارتفاع مستوى المعيشة من ناحية وعدم تناسب دخل معظم هذه الأسر مع طموحها ، فهى تشغل جزءاً من وقت فراغها فى العمل لزيادة الدخل ، أو فى التعليم ، إذ أنها تعلم أن كل ارتفاع فى التعليم هو ارتفاع فى المهنة ، وبالتالى فى الدخل ، كما أن هذه الطبقة هى الطبقة المتفاعلة مع المجتمع ، فهى تشغل جزءاً آخر من وقت فراغها فى الشئون السياسية أو الدينية أو أنواع النشاط الوطنى المختلفة. والجزء الباقى من وقت فراغها يدفعها تماسكها الأسرى من ناحية ، ومن ناحية أخرى التكاليف الباهظة للترويح التجارى خارج المنزل إلى أن تمضى معظم وقت فراغها فى المنزل ، فهى الطبقة التى تمضى وقت فراغها فى المنزل أكثر من أى طبقة أخرى . فهم لا يستطيعون الحصول على تكاليف لهو الأغنياء وفى نفس الوقت يكرهون أنواع الترويح المجانى أو الرخيص الذى يمارسه أبناء الطبقة الدنيا . وهذا يعنى عند هذه الأسر ارتفاع أهمية الراديو والتلفزيون والكتب والمجلات والألعاب المنزلية القليلة التكاليف والزيارات الأسرية كوسائل للترويح .

كما أن هذه الطبقة ، نظراً لأنها تتكون من المتعلمين ، تهتم أيضاً ببعض

أنواع النشاط الترويحى ذات المستوى الثقافى ، مثل الفنون والعلوم ، ليس فقط كوسائل للترويح بل بعضهم يجعل من ترويحه وسيله لزيادة دخله ويجمع بين الترويح وزيادة الدخل . وهم فى محاولتهم الجادة نحو رفع مستوى المعيشة يحاولون أن يحصلوا على مسكن فسيح يتيح لهم فرصة الترويح المنزلى الذى يحقق لهم أهم القيم الأسرية عندهم ، وهو التماسك الأسرى . كما أن سيدات هذه الأسر تتميز بشغل وقت فراغها فى ماهو مفيد ، فوقت الفراغ عندهن وقت ثمين ككل وقت هذه الطبقة ، وهن يعملن فى حياكة ملابسهن وملابس الأسرة والتريكو وأشغال الإبرة وبعضهن فى رسم اللوحات الفنية .

أما أسر الطبقة المنخفضة فهى إلى جانب أنها ذات دخل منخفض فإنها تعول أسراً كبيرة العدد أيضاً . ودخلها المنخفض يحرمها من مسكن يتيح لها فرصة الترويح داخل المنزل ، فإنه من المعروف أن هناك تناسب طردى بين قلة الدخل وضيق السكن، أى أن سعة مكان الترويح عند الأسر تتناسب طردياً مع الدخل ، فأعضاء أسر هذه الطبقة يهربون من منازلهم غير المريحة إلى المقاهى والمواخير الوضيعة ، وإذا لم يكن لديهم نقود فهم يتسكعون فى الطرقات . فأسر هذه الطبقة تتميز بالحرمان من أنواع كثيرة من الترويح ، فهم محرومون من بعضها لارتفاع تكاليفها، ومحرومون من البعض الآخر بسبب انخفاض مستوى تعليمهم، إذ أن هذه الأنواع تتطلب مستوى مرتفعاً من المعرفة . كما أن بعضها يتطلب بذل جهد عضلى يكون قد استنفد فى العمل وهم عادة يسكنون الأحياء المتخلفة التى ليس بها أماكن كافية للترويح ، فليس بها ساحات للعب الأطفال، وعلى هذا فالأطفال إما يحرمون من الترويح أو يلعبون فى الشوارع المكتظة بوسائل النقل . وقد يدفع انخفاض الدخل كثيراً من هذه الأسر إلى الدفع بأطفالهم للعمل وهم فى سن مبكرة ولساعات طويلة يعودون بعدها مكدودين لاهم لهم إلا الأكل والنوم

فيحرمون من الترويح . والناس كبار السن وخاصة السيدات الوحيدات يجدن من الصعب الحصول على أى نوع من أنواع الترويح ، ولا يوجـــد أمامهن إلا التجمع أمام المنازل التى لاتستوعبهن فى داخلها والتحدث فى سير الناس .

٦ — القوانين الاشتراكية وأثرها فى وقت الفراغ والترويح

لقد صدرت القوانين الإشتراكية لسنة ١٩٦١ وكانت ذات أثر هام على الحياة الاجتماعية عامة وعلى وقت الفراغ خاصة . فقد كانت ذات ثلاثة اتجاهات تعتبر من أهم العوامل أثراً على الحياة الاجتماعية . ذلك أنها أولا أممت القطاع الصناعى : وهذا يعنى إشرافاً على الصناعة ، أى مزيداً من الضبط للآلة ، (وفى الحقيقة أنه إذا تم ضبط الآلة والإنتاج تماماً فإن كل فرد سيحصل على وقت فراغ مناسب بل وزائد)[١] ، والأمر الثانى أنها أنقصت ساعات العمل من ثمان إلى سبع ساعات ومعنى هذا زيادة فى وقت الفراغ لدى الطبقة العاملة خاصة ، التى كانت تعمل لثمان ساعات ، كما كان القانون السابق يحددها قبل التأميم ، ولكن كانوا يعملون لساعات طويلة ، تدفعهم إلى ذلك الحاجة والضغط الرأسمالى لأصحاب رؤوس الأموال الذين كان يدفعهم جشعهم إلى استنفاذ قوى العامل . والأمر الثالث أنها زادت أجور الطبقة العاملة ، فجعلت الحد الأدنى خمسة وعشرين قرشاً للعامل ، أى زادت الأجور إلى الضعف عند معظم العمال ، ثم قضت التشريعات أخيراً بجعل الحد الأدنى ثلاثين قرشاً يومياً . كما أنها أضافت إلى هذه الزيادة فى دخل العمال عن طريق تخصيص حصة لهم من الـ ٢٥٪ من الأرباح . وهذا يعنى قدرة أكبر على أن يكون لدى العمال المال الذى يبذلونه فى سبيل شغل وقت فراغهم ، أى أصبحت لديهم الفرصة فى أن يجعلوا لحياتهم معنى وطعما عن طريق شغل وقت فراغهم بطريقة معقولة .

---

(١) Bogardus : Sociology P. 236.

وهكذا أصبح شغل وقت الفراغ مشكلة عند أسر هذه الطبقة بالذات. فماذا يمكن عمله بثلث الحياة على الأقل . فساعات الفراغ هذه أصبحت لها نفس الأهمية التى لساعات العمل . بل إن ساعات الفراغ لها أهمية كبرى ، ذلك أن ساعات العمل قد نظم للفرد كيفية قضائها ، ولكن ساعات الفراغ هناك نقص فى تنظيمها ، وتصبح المشكلة خطيرة إذا ما أصبح ذلك الوقت فريسة للترويح التجارى الذى يعمل على إثارة الناس وسلب كل ما يمكنهم ادخاره .

(ولقد تأكد دائماً أن المدنية تتوقف إلى حد كبير على الطريقة التى يستخدمها الناس فى شغل وقت فراغهم)(١) . إذ يعنى وقت الفراغ إما استرجاع القوى من العمل ، أى تنشيط وإنعاش الجسم والعقل ، أو اكتساب العادات الرذيلة وتدمير الحياة نفسها . فساعات وقت الفراغ للأسر أى للملايين من السكان أصبحت لها أهمية للدولة تماماً كالساعات التى تمضى فى العمل .

وكان شغل وقت الفراغ فى الحياة الريفية مثل باقى أنواع النشاط يتركز فى المنزل ، فقد كان يمارس تحت سقف واحد وتحت رقابة المنزل ، وقد كان بسيطاً وغير تجارى

ولكن التصنيع والتحضر الذى صاحبه غير هذا الموقف الاجتماعى . فقد كان الأطفال يلعبون فى فناء المنزل الواسع تحت رقابة الوالدين ، ولكن اليوم أدى ضيق السكن وبناء كل قطعة أرض إلى لفظ الأبناء فى الشوارع الضيقة ، ويكاد يكون الآباء مسلوبى الإرادة لأنهم لا يجدون مكاناً للعب أولادهم . فالحدائق والمتنزهات توجد فى الأحياء الراقية البعيدة عن مساكن الطبقة العاملة ، وهم لا يذهبون إليها إلا فى الأعياد ، ذلك إذا وجدوا المال لذلك . ولكن بعد زيادة ساعات الفراغ والدخل معاً ، هل سيترك وقت للفراغ والفائض من الدخل

---

(١) Bogardus :Sociology P. 237.

عند العمال للترويح التجارى يحتكرها ذلك النظام الذى نشأ فى ظل النظام الرأسمالى الذى لاهم له إلا الربح ولو على أشلاء الأسر . أى ماذا سيكون وقت الفراغ ؟ أتجاريا أم اجتماعيا ؟

هل سيضيع وقت الفراغ للعمال جميعاً فى سبيل الربح المادى لفئة قليلة ، أو أن يحول لأنواع من النشاط البناء لكل من الشخصية والرفاهية الاجتماعية . وفى الحقيقة إن وقت الفراغ هو من أهم الوسائل التى يمكن للعامل عن طريقه أن يكيف نفسه مع المجتمع الذى يعيش فيه ، إذ فى وقت العمل لايكون لدى العامل متسع من الوقت للتعرف على العلاقات التى بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، ولكن وقت فراغه يمكنه أن يملأه بالمشاركات الاجتماعية . إذا كانت فائدة وقت الفراغ هى بناء الأخلاق ، وإذا كان وقت الفراغ أصبح أكثر اتساعاً عن ذى قبل ، والدخل أصبح أكثر ارتفاعاً ، فإن الترويح الاجتماعى أصبح عليه مسئولية كبرى . وخاصة أنه لايوجد إنسان يرأنى أثناء ترويحه فمن ثم يصبح من الأهمية بمكان أن يقوم بعض القادة المدربين بالعمل مع الناس ، وهم على سجيتهم تماماً . وبدلا من أن يكون هناك طبقية فى شغل وقت الفراغ ، يدعو علماء الاجتماع أن يكون هناك شغل وقت فراغ لجميع الطبقات . فعلى الترويح الاجتماعى إذن أن يحتل مكانه وأن يأخذ بزمام الموقف ، قبل أن تأخذه المؤسسات التجارية التى تتميز بالإثارات الجنسية ، والتى فى سبيل الربح ستقوم بكل أنواع الغش والخداع ، ليس لسلب ساعات الفراغ فقط ، بل أيضاً سلب كل قرش يمكن أن يدخره العامل .

كذلك هناك خطورة ترك هذا الوقت يضيع سدا كأن يمضى فى التسكع فى الطرقات أو فى الحديث فى سير الناس ، ومن هنا يتأكد أهمية الترويح الاجتماعى كوسيلة بناءة للأسرة فهذا النوع من الترويح يعنى توسعاً فى برامج النشاط الأسرى ،

وللأفراد الذين هم من من واحدة وجنس واحد وذوق واحد ، وللمجتمعات فهو عملية تركيز لانتباه المشتركين فيها على أهداف الجماعة والأهداف الترفيهية لها .

وهذا ماحدى بدولة الإيمـــان والعـلم فى مصر إلى أن تبادر وتأخذ بزمام الموقف ، فأنشأت لذلك وزارة الثقافة التى من أهم عملياتهما تنمية وسائل شغل وقت الفراغ وتوجيهها .

وإن كان أدى التأميم إلى أن أصبح المهيمنون على الصناعة وتنظيمها هم من أبناء الشعب ويعملون لمصلحة الشعب . فليعلموا ما للأهمية شغل وقت الفراغ بأنواع النشاط الترفيهى الجمعى مثل النوادى وفرق الرياضة البدنية والرحلات ، فعلى قدر ما لهذه الأنواع من النشاط من أهمية فإن ماهو أهم هو تلك الأنواع من النشاط الترويحى التى تأخذ العامل خارج مصنعه وتشركه فى المجتمع .

(فأنواع النشاط الترويحى بعد العمل تؤثر على إنجاز العمل وتدعو إلى القبول الاجتماعى للعمل)(١) . فالمشاركة فى الرياضة البدنية لا تعمل فقط على حفظ الجسم ، ولـكنها فى نفس الوقت تساعد على قضاء العمل ، واللعب أيضاً يمنح روحاً للجسم والتى بسهولة تنتقل إلى ولاء فى العمل . وخلق عنصر الاطمئنان عند العاملين بالصناعة يمكن تغذيته عن طريق عمل فريق للـكشافة ، ويكون له أثر أعظم من آلاف الإعلانات . فمن أهم آثار الترويح للعمال أنه يمتد بطريقة غير منظورة على فترة كبيرة من العمل .

ولقد أدى التنظيم النقابى الحديث إلى توحيد النقابات الصغيرة لـكل مصنع فى نقابة واحدة ، كبيرة وهذا يعنى تجميع لمصادر المال مما جعل للنقابات قوة شرائية

---

(١) Miller & Form . Industrial Sociology P. 811

كبيرة . وهذا بالتالى يمكنها من أن تقدم برامج ترفيهية لأعضائها ذات تكاليف باهظة لا تستطيعها النقابات الصغيرة وبالتالى الأفراد وتتميز النقابات عن مديرى المصانع ، إذ أن قادة النقابات يعرفون تماماً القيم الاجتماعية والثقافية لأعضائها خيراً من مديرى المصانع، فالبرامج التى تقدمها النقابات تتفق وميول ومطالب العمال .

وفى الحقيقة : إن الاجتماعات الرسمية للنقابات لا تجذب إلا قدراً ضئيلا من العمال، ولهذا عليها أن تزيد من قدرتها على شغل وقت الفراغ لأعضائها وأسرهم أيضاً ، لأن الترويح وسيلة مضمونة لجذب العمال إلى دور النقابات . وهناك وعن طريق وسائل الترويح الاجتماعي المنظم يمكن للنقابات أن تغرس فى العمال القيم الاجتماعية التى تشاؤها وتوجيه العمال عن طريق الترويح ، مثل مسرحية أو أغنية أو موال يتحدث عن أهمية الإنتاج أو دور العامل فى المعركة ، كل هذه الأمور يمكن أن تتسرب بسهولة إلى عقل ووجدان العمال أثناء عملية الترويح . كما أن الترويح الجمعى فى النقابات يؤدى إلى التماسك الإجتماعى لطبقة العمال والتوحد فى نقاباتهم عن طريق المشاركات الوجدانية التى تتم أثناء عمليات الترويح .

المراجع العربية

١ — القرآن الكريم .

٢ — الحديث الشريف .

٣ — د . أحمد الخشاب : « مدخل فى علم الاجتماع التربوى » .

٤ — د . حسن سعفان : « علم الجريمة » مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٠ .

٥ — د . حسن الساعاتى : « التصنيع والعمران » دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ .

٦ — د . عاطف غيث : « مقدمة فى علم الاجتماع » دار المعارف — الاسكندرية ١٩٦٣ .

٧ — د . عبد العزيز عزت : « فى الاجتماع التربوى » القاهرة ١٩٥٧ .

٨ — د . على عبد الواحد وافى : «اللعب والعمل» لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٤٨ .

٩ — د . محمد ثابت الفندى . « الطبقات الاجتماعية » دار الفكر العربى — الاسكندرية ١٩٤٩ .

١٠ — د . محمد الهادى عفيفى « التربية والتغير الثقافى » مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ .

١١ — أميل دوركيم : « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ترجمة د. محمود قاسم — مكتبة النهضة — القاهرة ١٩٥٠ .

نشرات ومجلات عربية

١ — حلقة الدراسات الإجتماعية للدول العربية — الدورة الرابعة — ١٩٥٤ .

٢ — النشرات الإحصائية للهيئة العامة للتعبئة والإحصاء .

٣ — النشرات الإحصائية لادارة الإحصاءات بوزارة التربية والتعليم .

المراجع الاجنبية

1. Bergel, Ernest : «Urban Sociology» Mc grow-Hill Book Comp. Inc. New York 1955.

2. Bogardus, Emery S. : «Sociology» The Macmillan Comp. New York 1949.

3. Burgess, Ernest W. Lock, Harvy J. : «The Family» American Book Comp. New York 1953.

4. Burt, Cyril : «The Young Delinquancy», The Drydon Prass New York 1953.

5. Davis, A. : «The Motivations of the under privileged worker» In W.E. Whyte (edt) «Industry and Society» Mcgraw, New York, 1964.

6. Davin, K. : «The Population of India and Pakistan». Premceton, Univer. Press, 1955.

7. Davis, K. : «Human Society» The Macmillan Comp., New York 1955.

8. Gillin, John : The Ways of men «Appleton Gentury Book 1948.

9. Gist and Halbert : «Urban Society» Thomas J. Crowell Comp. New York 1956.

10. Goode, William J., «The family as an Element in the World Revolution». In Rose, Peter (edt), «The Study of Society» Random House Inc, New York, 1967.

11. Gross, Edward : «Industrial Relations» In Hand Book of Modorn Soclology. Edt. Fis, R . Random Mc Nally & Comp Chicago. 1966.

12. Houser. P. (ed) : «Urbanization in La'in America» Paris, UNSCO, 1961.

13. Herbert, A. Block : «Disorganization, Personal and Social» Alfred, A. Knopf New York 1957.

14. Johanson. E.H. : «The stem family and its extentions in modern Japan . Paper intrnduced To Amer. Anthro Ass Minneapolis, 1960.

15. Leonard Reisman : «Class in American Society" The Free Press of Gloncoe Illinion, 1961 U.S.A.

16. Lewis, O. : "The children of Sanchy" Random House, Inc- New York 1961.

17. Lundberg, George A. "Foundation of Sociology" The Mac-millan Comp. N.Y. 1956.

18. Mannheim, Karl & Stwart. W.A. : "An Introduction to the Sociology of Education" Routledge Paul, London 1962.

19. Marshall, E Jones : "Basic Sociological Principles" Genno-rnd Comp Boston 1949.

20. Merrill, Francis E. : ' Society & Culture" Englewood cliffs, New York Prantic- Hall, May 1960.

21. Miller, Delbert C. & Form, W.H. : "Industrial Sociology" Harper & Brothers. New York 1951.

22. Murdok, G. Peter : "World Ethnographic Sampl" American Amthropologist, No. 4 August 1961.

23. Murdok, George : «Dictionary of Sociology and Related Sciences» Ames, Lowa, Litelfield Adams & Co. 1965.

24. Neumeyer, Martin H. : «Juuenile Deliquancy in Modern Society» D. Van Nostrand Comp., Inc. New York 1949.

25. Nimkoff, M.F. : "The Family" Houghton Mifflin Comp. Boston, 1934.

26. Ogburn, W. : "Why the Family is changing" In Ross (ed) "Prespective on the Social order" Mc grw Hill Book Comp. Inc. New York, 1963.

27. Ogburn, W. : "The chanhing Family with regard to the child" The Annals of American Academy of Political & Social Science, Sept. 1930.

28. Ogburn, W. ; "Chang—Social" Encyclopedia of the Social Seeinces.

29. Ogburn, W. & Nimkoff, N. : "Technology and the changing familly" Houghton Mifflin Comp. Boston 1955.

30. Parsons, Talcott & Rober F. Bales : "Family" Routledge and Kagan Paul, LTD. Londond 1956.

31. Parsons, Talcott and Collahorations : "Family Socialization and Interaction Process" Clensoe, Illinois : Free 1955.

32. Pascual Gisbert : "Fundamentals of Industrial Sociology" Tata Mc graw Hill Publishing Comp LTD Bombay, New Delhi, 1972.

33. Paul Meadows : "The Indusirial way of life" Technology Review, New York 1964.

34. Rose, Peter I. : "The Study of Society" Random House Inc. New York, 1967.

35. Ross, H. Laurence (edt) : "Prespective on the Social Order" Mc graw Hill Book Comp. Inc. New York. 1963.

36. Schneider, Eugene V. : "Industrial Soeiology" Mc graw Hill Book Cop. New York 1957.

37. Sjoberg, G. : "The Rural-Urban dimension in Prendustrial Transational and Industrial Societies" In Faris (ed) Reading in Modrn Sociology. op cit.

38. Sutherland, Edwin H. : "Principalcs of Crimnology" Philadelphia, J. B, Lippineot Comp. 1947.

39. Shaw, C. R. & Mc Kay, H.D. : "Juvenile Delimquancy in Urban area". University of Chicage Press 1942.

40. Sprott, W. J. H. : "Human Groups" A Pillican Book Pinguin Book L.I.D. : Harmands worth Middelsex 1958.

41. Sprott, W.J.H. : "Sociology" Hutchensons University Library London 1959.

42. Tappan, Paul : "Juvenile Dclinquancy" Mc Graw-Hill Book Comp. New York 1949.

43. Willystine, Goodsell : "Proplems of the Family" D. Applton Century Comp. New York 1936.

النشرات والمؤتمرات الافرنجية

1. First United Nations Congress on the Prevention of Crime and the Treatment of offenders. "Rosolution & Recommendations Adopted by the Congress, geneva ugust — 22 Sapt. 1955.

2. International Review of Criminal Policy Nos. 7-8 January-July 1955 United Nations.

3. Ministry of Education-Department of Statistics-Comparative statistices of Education. So. p. Press. Cairo 1961.

4. Second United Nations Congress on the Prevention of Crime & the treatment of offenders. London. 8/8-8/20 1960.

5. L'Agence Centrale De La Mobilisalion Publique Ec. Des Statistiques. Annuaire Statistique. Republique Arabe D'Egypte, Legaire. Juin 1972.

محتويات الكتاب

الصفحة | مقدمة

الباب الأول

المفاهيم

الصفحة

الباب الثانى

الناحية المرفولوجية

الصفحة

الباب الثالث

من ناحية الفزيولوجيه

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٩٨ / ٧٦

مطبعة التقدم

٤٤ شارع المواردى بالمنيرة - القاهرة

تليفون ٨٤١٤٢١

مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموازى الجيزة ت ٨٤١٤٢١